حياة

الإمام الحسين بن علي

باقر شريف القرشي

حياة الإمام الحسين بن علي

دراسة وتحليل

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ
وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *
أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

القرآن الكريم

المُقدّمة

.١.

وأثّرت الأحداث الرهيبة التي عاصرها الإمام الحُسين (عليه السّلام) تأثيرا هائلا في تغيير مناهج الحياة الفكرية والاجتماعية في الإسلام ، كما لعبت دورها الخطير على مسرح الحياة السياسية على امتداد التاريخ ، وكان مِنْ أبرز نتائج تلك الأحداث التناحر على السّلطة ، والتنافس على الحكم ، والصراع على الظفر بخيرات البلاد.

وكان مِن الطبيعي أنْ يحدث ذلك الصراع السياسي بأقسى صوره وأبشع ألوانه ، وأنْ يحتدم الجدال كأشد وأعنف ما يكون الجدال ؛ فقد سحرت عيون الكثيرين مِن الصحابة والتابعين ما رأوه مِنْ ألوان الترف وخفض العيش ورقّته ، وما شاهدوه مِنْ جلال المُلْك الذي أزالوه مِنْ فارس ، وما احتلّوه مِنْ بلاد الروم ، وهالتهم الفتوحات التي تقوم بها الجيوش الإسلامية وما يفتح الله على أيديهم ، وما يجلبونه مِن البلاد المحتلة مِن الرقيق وسائر الأموال التي لم يكونوا يحلمون بالنظر إليها ، كلّ ذلك دفعهم إلى التّهالك على السّلطة ، وفتنهم عن دينهم.

واستشف الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) مِنْ وراء الغيب ما تبلغه أُمّته مِن المجد والسّيادة على جميع شعوب الأرض ، وسقوط الدول الكبرى تحت

وطأة الزحف الإسلامي المقدّس ، فأذاع ذلك بين المسلمين وآمنوا به كجزء من عقيدتهم ، كما استشف النّبي (صلّى الله عليه وآله) مِنْ وراء الغيب ما تُمْنى به أُمّته مِن الفتنة والفرقة ، فاحتاط لها كأشدّ ما يكون الاحتياط ، فوضع لها رصيداً يحسم كلّ داء ، ويقضي على كلّ خلاف ، فدلّل على إمامة العترة الطاهرة مِنْ أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، ولمْ يكن بذلك مدفوعا بدافع العاطفة أو الحب ؛ فإن شأن النّبوة أسمى مِن أن يخضع لأي عامل مِن عوامل الحبّ ، أو غيره مِن الاعتبارات الماديّة.

وبلغت أحاديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) في فضل عترته حدّ التواتر ، ولمْ يتطرّق إليها الريب والشك عند أحد مِن المسلمين ؛ فقد قرنهم بمحكم التنزيل . الذي لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِن خلفه . وجعلهم سفن النّجاة وأمْن العباد. وأمّا سيّد العترة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) فإنّه . حسب النّصوص النّبوية . أخو النّبي ونفسه ، وباب مدينة علمه ، وأقضى أُمّته ، وأنّه منه بمنزلة هارون مِنْ موسى ، و «مَن كنت مولاه فهذا علي مولاه ...». ولكن القوم كرهوا اجتماع النّبوة والخلافة في بيت واحد ؛ فتأوّلوا النّصوص ، وزووا الخلافة عن أهل بيت النّبوة ومعدن الحكمة ومهبط الوحي ، وحرموا الأُمّة مِنْ التمتّع بظلال حكمهم الهادف إلى نشر عدالة السّماء في الأرض.

وأدّ عملية الفصل إلى التطاحن الفظيع على كرسي الحكم بين الأُسَر البارزة في الإسلام ؛ فمُنِيَت الأُمّة مِن جراء ذلك بالكوارث والخطوب التي أحالت الحياة في تلك العصور إلى جحيم لا يُطاق ، فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد بين النّاس.

. ٢ .

وظهر الصراع السّياسي بأبشع ألوانه حينما استولى الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) على زمام السّلطة في البلاد ، فقد تحرّكت القوى الطامعة في الحكم وهي تُعلن العصيان المسلّح ؛ محاولة بذلك إسقاط حكومته التي احتضنت مصالح الشعوب الإسلامية ، وتبنّت حقوق الإنسان ، وراحت تؤسس معالم العدل والحقّ ، وتدكّ حصون الظلم ، وتنسف قلاع الباطل ، وترفع منار الكرامة الإنسانية ، وتقضي على جميع أسباب التخلّف والفساد التي تركها الحكم المباد.

لقد أوجد الإمام (عليه السّلام) انقلاباً جذرياً ، وتحوّلاً اجتماعيّاً في الميادين السّياسية والفكرية والاقتصادية التي كان منها العدالة في التوزيع ، وإلغاء الامتيازات التي منحتها حكومة عثمان لبني أُميّة وآل أبي معيط ، ومصادرة الأموال التي اختلسوها بغير حقّ ، وعزل الولاة وسائر الموظّفين الذين اتّخذوا الحكم وسيلة للإثراء والاستعلاء على النّاس بغير حق. وقد أدّت التغييرات الاجتماعية التي أوجدتها حكومة الإمام (عليه السّلام) إلى زيادة الأزمات النّفسية في نفوس القرشيين وغيرهم مِن الحاقدين على الإصلاح الاجتماعي ؛ فأيقنوا أن حكومة الإمام ستدمّر مصالحهم الاقتصادية وغيرها ، فهبّوا متضامنين إلى إعلان المعارضة.

ومِن المؤسف حقّاً أنْ تضمّ المعارضة بعض أعلام الصحابة كطلحة والزبير ، وأنْ يكون العضو البارز فيها السيّدة عائشة زوج النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، ومِن المؤكد أنّه لم تكن للمعارضين أيّة أهداف اجتماعية أو إصلاحية ، وإنّما دفعتهم الأنانية والأطماع حسب التصريحات التي أدلوا بها في كثير مِن المناسبات ، وقد كان في طليعة القوى المتآمرة على الإمام الحزب الأُموي ؛ فقد سخّر جميع أرصدته المالية التي حصل

عليها أيّام حكومة عثمان ، فجعلها تحت تصرّف المعارضين ، فاشتروا جميع أدوات الحرب ، ووهبوا الكثير من الأموال للمرتزقة ، وقد اندلعت بذلك نار الحرب التي أسماها بعض المؤرّخين بحرب الجمل ، وقد أسرع الإمام (عليه السّلام) إليها فأخمد نارها ، وقضى على معالمها ، إلاّ أنّها أسفرت عن أفدح الخسائر التي مُنِيَ بها المسلمون ، فقد فتحت باب الحرب بين المسلمين ، ومهّدت الطريق إلى معاوية أن يعلن تمرّده على الإمام (عليه السّلام) ، ويناجزه أعنف الحروب وأشدّها ضراوة.

وأخذت الأحداث الجسام يتّصل بعضها ببعض ، ويتفرّع بعضها على بعض حتّى انتهت بمقتل الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، وخذلان ولَده الحسن (عليه السّلام) ، وانتصار القوى الحاقدة على الإسلام. ويتعرّض هذا الكتاب إلى تفصيل ذلك بصورة موضوعية بما لا تحيّز فيه.

. ٣ .

ونجحت الأُمويّة بأساليبها الماكرة ، وبما استخدمته مِنْ وسائل دبلوماسيتها الغادرة في الاستيلاء على السّلطة في البلاد ، وظهرت على الصعيد الإسلامي دولة الأُمويّين بقيادة زعيمهم معاوية بن أبي سفيان ؛ القائد الأوّل لجميع عمليات الحروب التي ناهضت الإسلام حينما فجّر المعلم والقائد الرسول (صلّى الله عليه وآله) دعوته الخلاّقة الهادفة لتطوير الوعي الاجتماعي ، وتأسيس مجتمع يقوم على العدل والمساواة.

ووقعت الأُمّة فريسة تحت أنياب الأمويّين ، واستسلمت لحكم إرهابي عنيف تتصاعد فيه الأحقاد والأضغان على قيَم الأُمّة ومكوّناتها الفكرية

والاجتماعية ، وإزالة ما حقّقه الإسلام مِن المكاسب على الصعيد الاقتصادي والسّياسي والتربوي.

واتّجهت السّياسية الأُمويّة تضع المخطّطات الرهيبة للقضاء على مقوّمات الأُمّة ، واستئصال أرصدتها الروحية والفكرية ، وكان مِنْ أفجع وأقسى ما اتّخذته مِن المقررات السّياسية ما يلي :

أ ـ الحط مِن قيمة أهل البيت (عليهم السّلام) الذين هم مركز الوعي الاجتماعي في الإسلام ، والعصب الحسّاس في جسم الأُمّة الذي يمدّها بالنهوض والارتقاء. وقد سخّرت السّلطة جميع أجهزتها السّياسية والاقتصادية ، وسائر إمكانياتها الأُخرى لتحويل قلوب المسلمين عن أهل البيت (عليهم السّلام) ، وفرض بغضهم على واقع الحياة الإسلامية ، وجعله جزءاً لا يتجزّأ من الإسلام. وقد استخدمت في هذا السبيل أجهزة التربية والتعليم ، وأجهزة الوعظ والإرشاد وغيرها ، واتّخذت سب العترة على المنابر فرضاً واجباً تحاسب عليه ، وتنزل أقصى العقوبات على مَنْ يتهاون في أدائه.

ب ـ إبادة العناصر الواعية في الإسلام ، والتي تربّت على هديه وواقعه ؛ فقد ساقت إلى ساحات المجازر أعلام الإسلام ، كحِجْر بن عدي ، وميثم التّمار ، ورشيد الهجري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وأمثالهم مِنْ الذين يملكون القدرة على التوجيه الاجتماعي ، والقابلية على صيانة الأمّة مِنْ الانحراف والسلوك في المنعطفات ، وتذّرعت السّلطة في سفك دمائهم مِنْ أنّهم خلعوا يد الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ولمْ يكن لذلك أي نصيب مِن الصحة ، وإنّما رأوا الاتجاه السّياسي يتصادم مع الدين ، ويتصادم مع مصالح الأُمّة فأمروا السّلطة بالاستقامة ، والخلود إلى التوازن ، ومجافاة الأضرار بمصالح المجتمع ، فاستباحت مِنْ أجل ذلك دمائهم.

ج ـ تغيير الواقع المشرق للإسلام ، وقلب جميع مفاهيمه ومقوّماته ،

وتدنيسه بالخرافات والأوهام حتّى تشلّ طاقاته ، ويصبح عاجزاً عن مسايرة الحياة والانطلاق مع الإنسان لتنمية ملكاته وقدراته وتطوير وسائل حياته ؛ ووضعت الحكومة لجان الوضع ، ورصدت لها الأموال الهائلة لتضع الأحاديث على لسان المنقذ العظيم الرسول (صلّى الله عليه وآله) لتكون مِنْ بنود التشريع ، وتلحق بقافلة السُنّة التي هي مِنْ مدارك الأحكام.

وقد راح الوضّاعون يلفّقون الأكاذيب وينسبونها للنّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وكثير ممّا وضعوه يتنافى مع منطق العقل ، ويتجافى مع سنن الحياة. ومِن المؤسف أنّها دوّنت في كتب السُنّة ، ودُرجت في كتب الأخبار ، ممّا اضطر بعض الغيارى من علماء المسلمين أنْ يؤلّفوا بعض الكتب التي تدلل على بعض تلك الموضوعات ، وفيما أحسب أنّ هذا المخطط الرهيب من أفجع ما رزء به المسلمون ؛ فإنّه لم يكن الابتلاء به آنياً مِن الزمن ، وإنّما ظلّ مستمراً مع امتداد التاريخ ، فقد تفاعلت تلك الموضوعات مع حياة الكثير من المسلمين ، وظلّوا متمسكين بها على أنّها جزء مِنْ دينهم ، وقد وضعت الحواجز في نمو المواهب وانطلاق الفكر ، كما بقيت حجر عثرةٍ في طريق التطوّر والإبداع الذي يريده الإسلام لأبنائه.

. ٤ .

وعانى الإنسان المسلم في عهد معاوية ضروباً شاقةً وعسيرةً من المِحن والبلوى ، فقد جهدت حكومة معاوية على نشر الظلم والجور في جميع أرجاء البلاد ، وعهدت بأمور المسلمين إلى الجلاّدين والجزّارين ، أمثال زياد بن أبيه ، وبسر بن أبي أرطاة ، وسمرة بن جندب ، والمغيرة بن شعبة ، وأمثال هؤلاء مِنْ أرجاس البشرية ، وقد صبّوا على الناس وابلاً مِن العذاب الأليم لمْ

تشهد له الإنسانية مثيلا في كثير مِن مراحل تاريخه.

لقد كانت المظالم الاجتماعية في عهد معاوية بمرأى مِن الإمام الحُسين (عليه السّلام) ومسمع ، فروّعته وأفزعته إلى حدّ بعيد ، فقد كان بحكم قيادته الروحية لأُمّة جدّه يحسّ بأحاسيسها ، ويتألم لآلامها ، ويحيا بحياتها ، وكان مِنْ أعظم ما عاناه مِن المِحن والخطوب تتبّع الجزارين والجلاّدين مِنْ ولاة معاوية لشيعة أهل البيت ؛ إمعاناً في قتلهم ، وحرقاً لبيوتهم ، ومصادرة لأموالهم ، لا يبالون جهداً في ظلمهم بكلّ طريق.

وقد قام الإمام (عليه السّلام) بدوره في شجب تلك السّياسة الظالمة ، فبعث المذكّرات الصارخة لطاغية دمشق يشجب فيها الإجراءات الظالمة التي اتّخذها عمّاله وولاته لإبادة محبي أهل البيت (عليهم السّلام) والعارفين بفضلهم ، وقد جاء في بعض بنودها أنّه نفى أنْ يكون معاوية مِنْ هذه الأُمّة ، وإنّما هو عنصر غريب ومعادٍ لها.

والحق إنّه كذلك ؛ فقد أثبتت تصرفاته السّياسية أنّه مِنْ ألدّ أعدائها ، وأنّه كان يبغي لها الغوائل ، ويكيد لها في غلَس الليل وفي وضح النّهار ، قد جهد في إذلالها وإرغامها على الجور. وكان مِن أفجع ما رزأ به معاوية الأُمّة أنّه فرض خليعه المهتوك يزيد القرود والفهود ـ كما يسمّيه المؤرخون ـ خليفة عليها ؛ يعيث في دينها ودنياها ، ويجرّ لها الويلات والخطوب.

. ٥ .

وفقدت الأُمّة في عهد معاوية وخليعه يزيد جميع عناصرها ومقوماتها ، ولمْ تَعُدْ خير أُمّةٍ أُخرجت للناس ـ حسب ما يريده الله لها ـ فقد عاث فيها معاوية فربّاها على الوصولية والانتهازية ، وربّاها على الذلّ والعبودية ،

وسلب عنها صفاتها ، وجرّد عنها أخلاقها القويمة ، فلمْ تعدْ تهتم بتحقيق أهدافها وآمالها ، ولا بما يضمن لها الحياة الكريمة ؛ فقد استسلمت للحكم الأُموي ، وقبعت ذليلةً مهانةً تحت وطأة سياطه ، وهو يسفك دماءها ، ويستنزف ثرواتها ، ويشيع فيها الجور والفساد ، فقد تخدّرت بشكل فظيع ، وأصبحت جثةً هامدةً لا وعي فيها ولا حراك ، فلمْ تهبّ للدفاع عن كرامتها وعزّتها ، ولمْ تنطلق في ميادين الشرف والتضحية لتحمي نفسها مِن الظلم والاعتداء.

رأى الإمام الحُسين (عليه السّلام) ـ وهو سبط الرسول (صلّى الله عليه وآله) وأمله الباسم الذي تجسّدت فيه جميع طاقاته ـ حالة المسلمين ، وما هم فيه مِن الذلّ والهوان ، وإنّهم لمْ يُعوّدوا تلك الأُمّة العظيمة التي تبنّت رسالة الإسلام ، وحملت مشعل الهداية والنور إلى جميع شعوب الأرض. واستوعب الألم القاسي مشاعر الإمام (عليه السّلام) وعواطفه ، وراح يُطيل التفكير ، وينفق الليل ساهرا في إنقاذ دين جدّه العظيم وحمايته مِن الردّة الجاهلية ؛ فعقد المؤتمرات تارة في مكة وأُخرى في يثرب ، وعرض على الصحابة وأبنائهم الحالة الراهنة التي مُنِيَ بها المسلمون ، وأخذ يُدلي بمنكرات معاوية وموبقاته.

وقد استبان له أنّ هذه الطريقة لا تُجدي بأيّ حالٍ في ميادين الإصلاح الاجتماعي ، ولا يمكن أنْ تردّ شوارد الأهواء ، وترجع للأُمّة ما فقدته مِنْ معنويات ، فرأى أنّه بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما :

١ ـ أنْ يسالم الأُمويّين ويبايع ليزيد ، ويغضّ الطرف عمّا تقترفه السّلطة مِن الظلم والجور ، وما تعانيه الأُمّة مِن الأزمات في مجالاتها العقائدية والاجتماعية ، ويكون بذلك ـ على سبيل الاحتمال لا القطع ـ قد ضمن سلامته وحياته ، ولكنْ هذا ممّا يأباه الله له ، ويأباه ضميره الحي المترع بتقوى الله ؛ فهو بحسب مكانته مِن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مسؤول أمام الله عن صيانة الأُمّة

وحماية أهدافها ومبادئها ، ومسؤول أمام جدّه الرسول (صلّى الله عليه وآله) عن رعاية الإصلاح الاجتماعي ، وصيانة الإسلام مِنْ عبث العابثين وكيد الفاجرين.

وقد أعلن (سلام الله عليه) هذه المسؤولية الخطيرة ، وما يفرضه الواجب عليه في خطابه الذي ألقاه على الحُرّ وأصحابه مِنْ شرطة ابن زياد ، قائلاً : «أيّها الناس ، إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : مَنْ رأى سلطاناً جائراً ، مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً عهده ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلمْ يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أنْ يدخله مدخله ...».

لقد كان الواجب الشرعي حسبما أدلى به ممّا يحتّم عليه القيام في مقارعة الظلم ومناهضة الجور ، والضرب على أيدي المعتدين والظالمين.

٢ ـ أن يعلن الثورة ويضحّي بنفسه وأهل بيته وشيعته ، وهو على يقين بعدم نجاح الثورة ، فقد درس أوضاع المجتمع وعرف أنّ الدين لعق على ألسنة الناس ، إلاّ أنّه أيقن أنّ تضحيته ستعود على المسلمين بالخير العميم ؛ فستتحرر إرادتهم ، ويهبّون إلى ميادين الجهاد ، ويرفعون أعلام الحرية ، وينزلون الجبابرة الطغاة مِن بني أُميّة مِن عروشهم إلى قبورهم. واختار هذا الطريق المشرق على ما فيه مِن مآسي وخطوب لا يطيقها أي كائن حي.

.٦٠.

ودرس الإمام (عليه السّلام) أبعاد التضحية بعمق وشمول ، فرأى أنْ يزّج بجميع ثقله في المعركة ، ويقدّم أروع التضحيات التي تهزّ الضمير الإنساني على امتداد التاريخ ، ويُعيد للأُمّة أصالتها ووعيها عبر أجيالها الصاعدة ....

لقد خطّط الإمام (عليه السّلام) فصول مأساته ، وفصول تضحيته على أُسسٍ عميقة

مِن الوعي والإدراك بحيث تؤدي إلى النتائج المشرقة التي منها انتصار القضية الإسلامية ، وإعادة الحياة الدينية إلى شرايين الأُمّة ، وإزالة التخدير الذي بسطه الأُمويّون على جميع أجزائه. وقد أعلن (سلام الله عليه) ما صمّم عليه ، وأذاع فصول مأساته الخالدة في كثير مِن المناسبات ، وهذه بعضها :

١ ـ أدلى بمصرعه ـ وهو بمكّة ـ في خطابه الذي أعلن فيه الثورة على بني أميّة ، فقد جاء فيه : «وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه ، كأنّي بأوصالي تُقطّعها عسلان الفلوات بين النّواويس وكربلاء ...». أليس في هذا الكلام دلالة على روعة العزم والتصميم على التضحية؟ أليس فيه إخبار جازم عن مصرعه الكريم ، وأنّه في كربلاء؟ فهي التي تحظى بمواراة جثمانه الطاهر ، كما أذاع ذلك جدّه وأبوه مِن قبل.

٢ ـ وأعلن الإمام العظيم المآسي الأليمة ، والخطوب المفجعة التي تحلّ بأهل بيته مِن القتل والسبي والأسر ، وذلك حينما أشار عليه ابن عباس بأنْ لا يحمل معه مخدّرات النّبوّة وعقائل الوحي إلى العراق ، ويتركهن في يثرب حتّى تستقيم له الأُمور ، فأجابه الإمام (عليه السّلام) قائلا : «قد شاء الله أن يراهن سبايا».

لقد صحب معه عياله وهو يعلم ما سيجري عليها مِن الأسر والسّبي ؛ لأنّ بها سوف تستكمل رسالته ، وتؤدّي فعاليتها في القضاء على العرش الأموي ، وإعادة الحياة الإسلامية إلى واقعها المضيء.

٣ ـ كان الإمام (عليه السّلام) يتحدّث وهو في طريقه إلى العراق مِن أن رأسه الشريف سوف يُرفع على الحراب ، فيُطاف به في الأقطار والأمصار ، ويُهدى إلى بغي مِنْ بغايا بني أُميّة كما صُنِعَ برأس أخيه يحيى بن زكريا ، حيث أُهديَ إلى بغي مِنْ بغايا بني إسرائيل.

لقد استهان بجميع ما يعانيه في سبيل إحقاق الحق وإعلاء كلّمة الله في الأرض.

.٧.

وفجّر الإمام (عليه السّلام) ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرةً لأُولي الألباب ، وهي بجميع مخطّطاتها جزءٌ مِنْ رسالة الإسلام ، وامتداد مشرق لثورة الرسول الأعظم ، وتجسيد حي لأهدافه وآماله ، ولولاها لذهبت جهود النّبي (صلّى الله عليه وآله) وضاعت آماله ، ولم يبق للإسلام أثر ولا عين.

لقد انتصر الإمام الحُسين (عليه السّلام) وفتح الله له الفتح المبين ؛ فقد أشرقت سماء الإسلام بثورته الخالدة ، وتفاعلت تضحيته مع مشاعر الناس وعواطفهم وامتزجت بقلوبهم ، وأصبحت أعظم مدرسة للإيمان بالله ؛ تبث روح العقيدة والفداء في سبيل الحقّ والعدل ، وتغذّي الناس بالقيم الكريمة والمثل العُليا ، وتعمل على توجيههم نحو الخير ، وتهديهم إلى سواء السّبيل.

لقد أقبل الناس بلهفة على مأساة أبي الأحرار ، وهم يمعنون النظر في فصولها ، ويقتبسون منها أروع الدروس عن الكرامة والتضحية ، والبطولات الخارقة والعزّة التي لا يلويها الظلم والجور. إن الإنسانية لتنحني إجلالاً وإكباراً للإمام العظيم الذي رفع راية الحقّ عالية خفاقة ، وتبنّى حقوق المظلومين ، ودافع عن مصالح المضطهدين ...

وإنّها لتمجّد ذكره أكثر ممّا تمجّد أي مصلح اجتماعي في الأرض ، وقد أحرز الإمام العظيم بذلك مِن النصر ما لم يحرزه غيره مِن المصلحين في العالم.

لقد كان مِن أوليات النّصر الذي حقّقه الإمام (عليه السّلام) تحطيم الكيان الأُموي ؛ فقد وضعت ثورته الخالدة العبوات الناسفة في قصور الأُمويِّين ، وألغمت طريقهم ، فلمْ يمض قليل مِن الزمن حتّى تفجّرت فأطاحت برؤوس الأُمويِّين ، واكتسحت نشوة نصرهم ، وجعلتهم أثراً بعد عين.

ويعرض هذا الكتاب بصورة موضوعية إلى بعض ما قدّمته الثورة مِن المعطيات المشرقة على الصعيد الفكري والاجتماعي للعالم الإسلامي.

.٨.

ولنْ يستطيعَ التاريخ الإسلامي أنْ يأخذَ حظّه مِن الحياة إذا كان مثقلاً بالقيود والأغلال ، ولمْ يخضعَ للدراسة والنقد ، فلا بد أنْ تتسلطَ مجاهر البحث العلمي النزيهة على أحداثه ، وتدرس بدقّة وتحرٍّ شأن غيره مِن تاريخ الأُمم الحيّة التي تتناول أحداثه أقلام المفكرين والباحثين بكثير مِن العمق والتحليل ؛ فإنّ دراسة التاريخ عندهم تحتلّ الصدارة في دراساتهم الثقافية والعلمية.

إنّا إذا أردنا للتاريخ الإسلامي أنْ يزدهر ، ويساير النهضة الفكرية ، والتطور العلمي في هذه العصور ، فلا بدّ مِنْ دراسته دراسةً واعيةً تعتمد على المناهج العلمية ، وعلى التجرّد مِن النزعات المذهبية والتقليدية ، فننظر بدقّة إلى الأحداث الجسام التي دهمت المسلمين في عصورهم الأولى ؛ فإنّها ـ فيما نعتقد ـ مصدر الفتنة الكبرى التي أخلدت لهم المصاعب ، وجرت لهم الفتن والخطوب على امتداد التاريخ.

إن البحث عن التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة الخاصة مِن الزمن إذا لم يعرض لتلك الأحداث بالبسط والتحليل ، ولمْ يلقِ الأضواء على

دوافعها ومجرياتها ، فإنّه يكون بحثاً تقليدياً لا روح فيه ، ولا ثمرة تعود فيه على القرّاء.

وقد ألمحنا في الحلقة الأولى مِنْ هذا الكتاب إلى الكثير مِن الأحداث ، وعرضنا الأنظمة السياسية والاقتصادية التي وضع برامجها الخلفاء في العصر الأول ، وقد تأمّلنا في كثير منها بتحفّظ وتجرّد ، شأن الباحث الذي يهمّه الوصول إلى الواقع مهما استطاع إليه سبيلا. وإني فيما اعتقد أن مِن الإثم وتعمّد الجهل أن نتكلّف إخفاء أي ناحية مِن النواحي السياسية أو الاجتماعية في ذلك العصر ؛ فإن إخفاء ذلك مِن ألوان التضليل والدجل على القرّاء. وليس في دراسة التاريخ منهجية تغيير له ، أو قلب لمفاهيمه ، أو خروج عن موازين البحث العلمي المجرّد ، وإنّما هي مِنْ صميمه كما هي مِن متطلّبات الحياة الثقافية في هذا العصر.

وعلى أي حال فإن هذه الدراسة ترتبط ارتباطا ذاتيا وموضوعيا بحياة الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، فقد عاش تلك الحقبة الخاصة مِن الزمن ، المليئة بالأحداث ، وقد نظر إليها بعمق وشمول ، ووقف على أهدافها وهي ـ مِنْ دون شك ـ قد ساهمت مساهمةً ايجابيةً في كثير مِن الأحداث التي فزع منها المسلمون ، والتي كان منها كارثة كربلاء ؛ فإنّها كانت إحدى النتائج المباشرة لذلك التخدير الذي مُنِيَت به الأُمّة مِن جرّاء الحكم الأُموي الذي جهد على شل الحياة الفكرية والاجتماعية ، وإشاعة الانتهازية بين المسلمين.

وأنا آمل أنْ أكون في هذه الدراسة قد واكبت الواقع ، وابتعدت عن العواطف التقليدية ، وآثرت الحقّ في جميع ما كتبته ، لا أبتغي بذلك إلاّ إبراز التاريخ الإسلامي على واقعه مِنْ دون تحيّز. وقبل أن أقفل هذا التقديم أرى مِن الواجب عليَّ أن أذكر بالوفاء والعرفان ما قام به سيادة المحسن

الكبير الحاج مُحمّد رشاد عجينة مِن التشجيع البالغ على الخوض والاستمرار في خدمة أئمّة أهل البيت (عليهم السّلام) ، ونشر مآثرهم التي هي مِنْ أفضل الخدمات التي تقدّم لهذه الأُمّة ، وقد قام سيادته بالإنفاق على نشر هذا الكتاب ، وقد رغب أنْ تكون مِنْ الميراث التي أوصى بها المغفور له والده الحاج مُحمّد جواد عجينة المتوفى سنة (١٣٩١ هـ) ، أجزل الله له الثواب ، ووفّقه لكل مسعى نبيل.

النجف الأشرف　　　　　　باقر شريف القرشي

مع القاسطين والناكثين

وفزعت القبائل القرشية كأشد ما يكون الفزع هولا مِن حكومة الإمام (عليه السّلام) ، وأيقنت أن جميع مخططاته السياسية والاقتصادية إنّما هي امتداد ذاتي للاتّجاهات الفكرية والاجتماعية عند الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) الذي أطاح بغلوائهم وكبريائهم ، وحطّم حياتهم الاقتصادية القائمة على الربا والاحتكار والاستغلال. وممّا زاد في فزعهم القرارات الحاسمة التي أعلنها الإمام (عليه السّلام) فور انتخابه للحكم ، والتي كان منها إقصاء ولاة عثمان عن جميع مراكز الدولة ، ومصادرة جميع ما نهبوه مِن الخزينة المركزية ، كما اضطربوا مِنْ إعلان الإمام (عليه السّلام) للمساواة العادلة بين جميع الشعوب الإسلامية ، مساواة في الحقوق والواجبات ، ومساواة في كلّ شيء ، وقد هالهم ذلك فكانوا يرون أنّ لهم التفوّق على بقية الشعوب ، ولهم امتيازات خاصة على بقية الناس.

لقد ورمت آناف القرشيين وسائر القوى المنحرفة عن الحق مِن حكومة الإمام (عليه السّلام) ، فأجمع رأيهم على إعلان العصيان المسلّح ، وإشعال نار الحرب في البلاد للإطاحة بحكومته التي اتّخذت الحكم وسيلة للإصلاح الاجتماعي وتطوير حياة الإنسان. وأو ّ الحروب التي أثيرت على الإمام (عليه السّلام) هي حرب الجمل ، وأعقبها حرب صفّين ، ثم حرب النهروان ، وقد وضعت تلك الحروب الحواجز والسدود أمام حكمه الهادف إلى رفع مستوى القيم الإنسانية ، والقضاء على جميع ألوان التأخّر في البلاد.

ويقول الرواة : إن الرسول (صلّى الله عليه وآله) قد أحاط الإمام (عليه السّلام) لم ا ً ا ُنْبِي به في عهد خلافته مِنْ تمرّد بعض الفئات عليه ، وقد عهد إليه بقتالهم ، وقد أسماهم الناكثين والقاسطين والمارقين [1]. ولا بد لنا أن نعرض ـ بإيجاز ـ

(١) مستدرك الحاكم ٣ / ١٣٩ ، تاريخ بغداد ٨ / ٣٤٠ ، أُسد الغابة ٤ / ٣٣ ، كنز العمال ٦ / ٨٢ ، مجمع الزوائد ٩ / ٢٣٥.

لهذه الحروب التي تصوّر لنا الحياة السياسية والفكرية في ذلك العصر الذي أترعت فيه عواطف الكثيرين بحبّ المُلْك والسّلطان ، كما تصوّر لنا الأحقاد التي تكنّها القبائل القرشية على الإمام (عليه السّلام). ومِن المقطوع به أن هذه الأحداث قد ساهمت مساهمة ايجابية في خلق كارثة كربلاء ؛ فقد نشرت الأوبئة الاجتماعية ، وخلقت جيلاً انتهازياً لا ينشد إلاّ مطامعه الخاصة. وفيما يلي ذلك :

الناكثون :

وهم الذين نكثوا بيعتهم ، وخاسوا ما عاهدوا عليه الله في التضحية والطاعة للإمام ، فانسابوا في ميادين الباطل وساحات الضلال ، وتمرّسوا في الإثم. وقد أجمع فقهاء المسلمين على تأثيمهم ؛ إذ لمْ يكن لهم أيّ مُبرّر في الخروج على السّلطة الشرعية التي تبنّت المصالح العامّة ، وأخذت على عاتقها أن تسير بين المسلمين بالحق المحض والعدل الخالص ، وتقضي على جميع أسباب التخلّف في البلاد.

أمّا أعلام الناكثين فهم : طلحة والزبير ، والسيّدة عائشة بنت أبي بكر ، ومروان بن الحكم ، وسائر بني أُميّة ، وغيرهم مِن الذين ضاقوا ذرعاً مِنْ عدل الإمام (عليه السّلام) ومساواته.

دوافع التمرّد :

والشيء المحقّق أنّه لمْ تكن للناكثين أيّة أهداف اجتماعية ، وإنّما دفعتهم مصالحهم الخاصة لنكث بيعة الإمام (عليه السّلام) ؛ فطلحة والزبير قد خفّا إليه بعد أن تقلّد الخلافة يطلبان منحهما ولاية البصرة والكوفة ، فلمّا خبا أملهما

أظهرا السخط ، وخفّا إلى مكة لإعلان الثورة عليه وتمزيق شمل المسلمين ، وقد أدلى الزبير بتصريح أعرب فيه عن أهدافه ، فقد أقبل إليه وإلى طلحة رجل فقال لهما : إن لكما صحبة وفضلا فأخبراني عن مسيركما وقتالكما أشيء أمركما به رسول الله (صلّى الله عليه وآله)؟ وسكت طلحة ، وأمّا الزبير فقال : حدثنا أن ها هنا بيضاء وصفراء . يعني دراهم ودنانير . فجئنا لنأخذ منها [1].

فمِن أجل الظفر بالمنافع المادّية أعلن الشيخان تمرّدها على حكومة الإمام (عليه السّلام).

وأمّا السيّدة عائشة فإنّها كانت تروم إرجاع الخلافة إلى أسرتها ، فهي أوّل مَنْ قدح زناد الثورة على عثمان ، وأخذت تُلْهِبُ المشاعر والعواطف ضده ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلا فقد كفر. وقد جهدت على ترشيح طلحة للخلافة ، وكانت تشيد به في كلّ مناسبة ، إلاّ أنّها أخيراً استجابت لعواطفها الخاصة المترعة بالودّ والحنان لابن أُختها عبد الله بن الزبير ، فرشّحته لإمارة الصلاة ، وقدّمته على طلحة. وأمّا بنو أُميّة فقد طلبوا مِن الإمام (عليه السّلام) أن يضع عنهم ما أصابوا مِن المال في أيّام عثمان ، فرفض الإمام (عليه السّلام) أن يضع عنهم ما اختلسوه مِن أموال الأُمّة ، فاظهروا له العداء ، وعملوا على إثارة الفتنة والخلاف.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّه لمْ تكن للناكثين نزعة إصلاحية أو دعوة إلى الحقّ ، وإنّما كانت بواعثهم الأنانية والأطماع ، والأحقاد على الإمام (عليه السّلام) الذي هو نفس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه.

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

خديعة معاوية للزبير :

وأيقن معاوية بأهداف الزبير وطلحة ، فقام بدوره في خديعتهما وإغرائهما ؛ ليتخذهما سلّماً يعبر عليهما لتحقيق أهدافه ومآربه ، فقد كتب إلى الزبير رسالة جاء فيها : لعبد الله الزبير أمير المؤمنين مِن معاوية بن أبي سفيان سلام عليك. أمّا بعد ، فإنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب ، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب ؛ فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين. وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله مِنْ بعدك ، فأظهروا الطلب بدم عثمان وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدّ والتشمير ، أظفركما الله وخذل مناوئكم.

ولما وصلت هذه الرسالة إلى الزبير لَمْ يملك أهابه مِن الفرح والسرور ، وخفّ إلى طلحة فأخبره بذلك ، فلَمْ يشكّا في صدق نيته وإخلاصه لهما ، وتحفّزا إلى إعلان الثورة على الإمام (عليه السّلام) ، واتّخذا دم عثمان شعاراً لهما [1].

مؤتمر مكة :

وخف المتآمرون إلى مكّة فاتخذوها وكرا لدسائسهم التخريبية الهادفة لتقويض حكم الإمام (عليه السّلام) ، وقد وجدوا في هذا البلد الحرام تجاوباً فكرياً مع الكثيرين مِنْ أبناء القبائل القرشية التي كانت تَكْمُن في أعماق نفسها الكراهية والحقد على الإمام (عليه السّلام) ؛ لأنّه قد وَتَر الكثيرين منهم في سبيل الإسلام.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد تداول زعماء الفتنة الآراء في الشعار الذي يتبنونه ، والبلد التي يغزونها ، وسائر الشؤون الأُخرى التي تضمن لثورتهم النّجاح.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١ / ٢٣١.

قرارات المؤتمر :

واتّخذ أعضاء المؤتمر بالإجماع القرارات التالية ، وهي :

١ ـ أنْ يكون شعار المعركة دم عثمان والمطالبة بثأره ؛ لأنّه قُتِلَ مظلوماً ، واستباح الثوار دمه بعد توبته بغير حق. لقد رفعوا قميص عثمان شعاراً لهم ، فكان شعاراً للتمرّد ، وشعارا للرأسمالية القرشية التي طغت في البلاد.

٢ ـ تحميل الإمام علي (عليه السّلام) لمسؤولية رقة م ثمان نهّ وى تلته لمَ يقتص منهم.

٣ ـ الزحف إلى البصرة واحتلالها ، واتّخاذها المركز الرئيس للثورة ؛ لأنّ لهم بها حزباً وأنصاراً ، وقد أعرضوا عن الزحف إلى يثرب ؛ لأنّ فيها الخليفة الشرعي ، وهو يتمتع بالقوى العسكرية التي لا قابلية لهم عليها ، كما أعرضوا عن النزوح إلى الشام ؛ لأنّ الأُمويّين لَمْ يستجيبوا لهم ؛ لأنّها كانت تحت قبضتهم فخافوا عليها من التصدّع والاحتلال.

تجهيز الجيش بالأموال المنهوبة :

وجهّز يعلى بن أُميّة جيش عائشة بالأموال التي نهبها مِنْ بيت المال حينما كان والياً على اليمن أيّام عثمان. ويقول المؤرخون : إنّه أمدّ الجيش بستمئة بعير ، وستمئة ألف درهم [١] ، وأمدّهم عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة بمال كثير [٢] كان قد اختلسه مِن بيت المال ، لمَ يتحرّج أعضاء القيادة العسكرية العامّة في جيش عائشة مِن هذه الأموال المحرّمة.

---

(١) و (٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٠٦.

الخطاب السّياسي لعائشة :

وخطبت عائشة في مكّة خطابا سياسيا حمّلت فيه المسؤولية في إراقة دم عثمان على الغوغاء ، فهم الذين سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام ، وقد قتلوا عثمان بعد ما أقلع عن ذنوبه ، وأخلص في توبته ، ولا حُجّة لهم فيما اقترفوه مِنْ سفك دمه [١].

وقد كان خطابها فيما يقول المحقّقون حافلاً بالمغالطات السّياسية ؛ فإنّ الغوغاء لَمْ يسفكوا دمه ، وإنّما سفك دمه الذين رفعوا علم الثورة عليه ، وفي طليعتهم كبار الصحابة ، كعمار بن ياسر ، وأبي ذر ، وعبد الله بن مسعود ، وطلحة ، والزبير ، وكانت هي بالذات مِنْ أشدّ الناقمين عليه ؛ فقد اشتدّت في معارضته ، وأفتت في قتله وكفره ، فقالت : اقتلوا نعثلا فقد كفر. فأي علاقة للغوغاء بإراقة دمه؟! وأمّا توبته فإنّ عثمان أعلن غير مرّة عن تراجعه عن أحداثه ، إلاّ أنّ بني أُميّة كانوا يزجّونه في مخططاتهم السّياسية فيعود إلى سياسته الأولى ، ولَمْ يقلع عنها حتّى قُتِلَ.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد كان خطابها أوّل بادرةٍ لإعلان العصيان المسلّح على حكومة الإمام (عليه السّلام) ، وكان الأولى بعائشة ـ بحسب مكانتها الاجتماعية ـ أنْ تدعو إلى وحدة الصفّ وجمع كلّمة المسلمين ، وأنْ تقوم بالدعم الكامل لحكومة الإمام (عليه السّلام) التي تمثّل أهداف النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وما تصبوا إليه الأُمّة مِن العزّ والكرامة.

---

(١) نص خطابها في تاريخ الطبري ٣ / ٤٦٨.

عائشة مع أمُ سلمة :

ومِن الغريب حقا أن تخف عائشة إلى أمِّ سلمة تطلب منها القيام بمناجزة الإمام (عليه السّلام) ، مع علمها بما تكنّه مِن الولاء والتقدير له ، الأمر الذي دلّ على عدم خبرتها بالاتجاهات الفكرية لضرّاتها مِنْ أزواج النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، ولما قابلتها خاطبتها بناعم القول قائلة : يا بنت أبي أُميّة ، أنتِ أوّل مهاجرة مِنْ أزواج رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأنتِ كبيرة أُمّهات المؤمنين ، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقسّم مِنْ بيتك ، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك.

ورمقتها أُمّ سلمة بطرفها ، وقالت لها بريبة : لأمر ما قلت هذه المقالة! فأجابتها عائشة مخادعة : إنّ القوم استتابوا عثمان ، فلمّا تاب قتلوه صائماً في الشهر الحرام. وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ، ومعي الزبير وطلحة ، فاخرجي معنا لعلّ الله يصلح هذا الأمر على أيدينا.

وأسدت لها أُمّ سلمة النصيحة ، وذكّرتها بمواقفها مع عثمان ونقمتها عليه ، وحذّرتها مِن الخروج على ابن عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قائلة : يا بنت أبي بكر ، بدم عثمان تطلبين؟! والله ، لقد كنت مِنْ أشدّ الناس عليه ، وما كنت تسميه إلاّ نعثلاً ، فما لك ودم عثمان وعثمان رجل مِنْ بني عبد مناف ، وأنت امرأة مِنْ بني تيم بن مرة؟ ويحك يا عائشة! أعلى علي وابن عمِّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تخرجين ، وقد بايعه المهاجرون والأنصار؟!

وجعلت أُمّ سلمة تذكّر عائشة فضائل علي ومآثره ، وقرب منزلته من

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان عبد الله بن الزبير يسمع حديثها فغاظه ذلك ، وخاف أنْ تصرف عائشة عن عزمها فصاح بها : يا بنت أبي أُميّة ، إنّنا قد عرفنا عداوتكِ لآل الزبير.

فنهرته أمُ سلمة وصاحت به : والله لتوردنّها ، ثمّ لا تصدنّها أنت ولا أبوك. أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة ، وعلي بن أبي طالب حيّ وهو وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة؟! فقال لها ابن الزبير : ما سمعنا هذا مِن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ساعة قط. فقالت أمُ سلمة : إنْ لمْ تكن أنت سمعته فقد سمعته خالتك عائشة ، وها هي فاسألها قد سمعته (صلّى الله عليه وآله) يقول : «علي خليفتي عليكم في حياتي ومماتي ، مَنْ عصاه فقد عصاني». أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا؟ فلم يسع عائشة الإنكار وراحت تقول : اللّهم نعم.

ومضت أم سلمة في نصيحتها لعائشة قائلة : اتّقي الله يا عائشة في نفسك ، واحذري ما حذّرك الله ورسوله ، ولا تكوني صاحبة كلاب الحوأب ، ولا يغرّنكِ الزبير وطلحة ؛ فإنّهما لا يغنيان عنك مِن الله شيئا [١].

ولمْ تعِ عائشة نصيحة أُمّ سلمة ، واستجابت لعواطفها ، وأصرّت على مناجزة الإمام (عليه السّلام).

---

(١) الفتوح ٢ / ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وكتبت أمُّ سلمة بجميع الأحداث التي جرت في مكّة إلى الإمام (عليه السّلام) ، وأحاطته علماً بأعضاء الفتنة [1].

الزحف إلى البصرة :

وتحرّكت كتائب عائشة صوب البصرة ، ودقّ طبل الحرب ، ونادى المتمرّدون بالجهاد ، وقد تهافت ذوو الأطماع والحاقدون على الإمام (عليه السّلام) إلى الالتحاق بجيش عائشة ، قد رفعوا أصواتهم بالطلب بدم عثمان الذي سفكه طلحة والزبير وعائشة ، واتّجهت تلك الجيوش لتشقّ كلمة المسلمين ، وتغرق البلاد بالثكل والحزن والحداد.

عسكر :

وسار موكب عائشة في البيداء يجذ السير ، فصادفهم العرني صاحب عسكر فعرض له راكب فقال له :

ـ يا صاحب الجمل أتبيع جملك؟

ـ نعم.

ـ بكم؟

ـ بألف درهم.

ـ ويحك! أمجنون أنت ، جمل يباع بألف درهم؟!

ـ نعم جملي هذا ، فما طلبت عليه أحداً قط إلاّ أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلا فتّه.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٧٩.

ـ لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعتنا.

ـ لمن تريده؟

ـ لأُمّك.

ـ لقد تركت أُمّي في بيتها قاعدة ما تريد براحا.

ـ إنّما اُريده لأُمّ المؤمنين عائشة.

ـ هو لك خذه بغير ثمّن.

ـ ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم.

فقفل معهم فأعطوه الناقة وأربعمئة درهم ، أو ستمئة درهم ، وقُدّم العسكر إلى عائشة فاعتلت عليه [1] ، وقد أصبح كعجل بني إسرائيل ؛ فقُطّعت الأيدي ، وأُزهقت الأنفس ، وأُريقت الدماء مِن حوله.

الحوأب :

وسارت قافلة عائشة فاجتازت على مكان يُقال له (الحوأب) ، فتلقّت الركب كلاب الحيّ بهرير وعواء ، فذعرت عائشة ، فالتفتت إلى مُحمّد بن طلحة فقالت له : أي ماء هذا يا مُحمّد؟

ـ ماء الحوأب يا أُمّ المؤمنين.

فهتفت وهي تلهث : ما أراني إلا راجعة.

ـ يا أُمّ المؤمنين؟!

ـ سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول لنسائه : «كأني بإحداكن قد نبحتها

---

(١) ابن الأثير ٣ / ١٠٧ ، تاريخ الطبري ٣ / ٤٧٥ ، تذكرة الخواصّ.

كلاب الحوأب ، وإيّاكِ أنْ تكوني أنتِ يا حميراء»[1].

ـ تقدّمي رحمك الله ودع هذا القول.

فلمْ تبرح مِنْ مكانها ، وطاقت بها الهموم والآلام ، وأيقنت بضلالة قصدها ، وذعرت القيادة العسكرية مِنْ توقّف عائشة التي اتّخذوها قبلة لهم يغرون بها السذّج والبسطاء ، فخفّوا إليها في دهشة قائلين : يا أُمّه! فقطعت عليهم الكلاب وراحت تقول بنبرات ملؤها الأسى والحزن : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب ... ردّوني ردّوني.

وأسرع إليها ابن أُختها عبد الله بن الزبير كأنّه ذئب فانهارت أمامه ، واستجابت لعواطفها ، ولولاه لارتدّت على عقبيها إلى مكة ، فجاء لها بشهود اشترى ضمائرهم فشهدوا عندها أنّه ليس بماء الحوأب ، وهي أوّل شهادة زور تُقام في الإسلام[2]. فأقلعت عن فكرتها ، وأخذت تقود الجيوش لحرب وصي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وباب مدينة علمه.

في ربوع البصرة :

ودهمت جيوش عائشة أهل البصرة فملئت قلوبهم ذعراً وفزعاً

---

(١) روى ابن عباس عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال يوما لنسائه وهن جميعا عنده : «أيتكن صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحوأب ، يُقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلّهم في النار ، وتنجو بعدما كادت؟» ، شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٩٧ ، ابن كثير ٦ / ٢٩٧ ، ٢١٢ ، الخصائص . السيوطي ٢ / ١٣٧ ، الاستيعاب وجاء فيه : وهذا الحديث من أعلام نبوته (صلّى الله عليه وآله).

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٧ ، تاريخ اليعقوبي.

وخوفا ؛ فقد أحاطت ببلدهم القوات العسكرية التي تنذر باحتلال بلدهم ، وجعلها منطقة حرب وعصيان على الخليفة الشرعي ، وانبرى حاكم البصرة عثمان بن حنيف وهو مِنْ ذوي الإدارة والحزم والحريجة في الدين ، فبعث أبا الأسود الدؤلي إلى عائشة يسألها عن سبب قدومها إلى مصرهم ، ولما مثل عندها قال لها : ما أقدمك يا أمُ المؤمنين؟

ـ أطلب بدم عثمان.

ـ ليس في البصرة مِن قتلة عثمان أحد.

ـ صدقت ، ولكنّهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم مِنْ سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان مِنْ سيوفكم؟!

ورد عليها أبو الأسود قائلا : ما أنت مِن السوط والسيف! إنّما أنت حبيسة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، أمرك أنْ تقرّي في بيتك وتتلي كتاب ربّك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهن الطلب بالدماء ، وأنّ علياً لأولى منكِ وأمسّ رحماً ؛ فإنّهما ابنا عبد مناف!

ولمْ تذعن لقوله ، وراحت مصرّة على رأيها قائلة : لست بمنصرفة حتّى أمضي لما قدمت إليه ، أفتظن أبا الأسود أنّ أحداً يقدم على قتالي؟ وحسبت أنّها تتمتّع بحصانة لعلاقتها الزوجية مِنْ النّبي (صلّى الله عليه وآله) فلا يقدم أحد على قتالها ، ولمْ تعلم أنّها أهدرت هذه الحرمة ، ولمْ ترعَ لها جانباً ، فأجابها أبو الأسود بالواقع قائلاً : أما والله ، لتقاتلنّ قتالاً أهونه الشديد.

ثم انعطف أبو الأسود صوب الزبير فذكّره بماض ولائه للإمام (عليه السّلام) وقربه منه قائلا : يا أبا عبد الله ، عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذاً بقائم سيفك تقول : لا أحد أولى بهذا الأمر مِن ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام مِنْ ذاك؟! فأجابه الزبير بما لم يؤمن به قائلا : نطلب بدم عثمّان. [فقال له :] أنت وصاحبك ولّيتماه فيما بعد.

ولان الزبير ، واستجاب لنصيحة أبي الأسود ، إلاّ أنّه طلب منه مواجهة طلحة وعرض الأمر عليه ، فأسرع أبو الأسود تجاه طلحة وعرض عليه النصيحة فأبى من الاستجابة ، وأصرّ على الغيّ والعدوان [1] ، ورجع أبو الأسود مِنْ وفادته التي أخفق فيها ، فأحاط ابن حنيف علماً بالأمر ، فجمع أصحابه وخطب فيهم وقال : أيّها الناس ، إنّما بايعتم الله ؛ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَث فَإِنَّمَا يَنْكُث عَلَى نَفْسِه وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَد عَلَيْه اللَّه فَسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظِيمًا.

والله ، لو علم عليٌّ أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع ، وما به إلى أحد مِن صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حاجة ، وما بأحد عنه غنى. ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه ، ولقد بايع هذان الرجلان وما يريدان الله ؛ فاستحلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله مِن العباد ، وقد زعما أنّهما بايعا مستكرهين ؛ فإنْ كانا استُكرها قبل بيعتهما ، وكانا رجلين مِنْ عرض قريش ، لهما أن يقولا ولا يأمرا ؛ ألا وأن الهدى ما كانت عليه

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٨١.

العامّة ، والعامّة على بيعة علي ، فما ترون أيها الناس؟ فقام إليه الفذ النّبيل حكيم بن جبلة فخاطبه بمنطق الإيمان والحق والإصرار على الحرب (١).

وجرت مناظرات بين الفريقين إلاّ أنّها لمْ تنته إلى خير ، وخطب طلحة والزبير وكان خطابهما الطلب بدم عثمان ، فردّ عليهما أهل البصرة ممّن كانت تأتيهم رسل طلحة بالتحريض على قتل عثمان ، وحمّلوه المسؤولية في إراقة دمه.

وخطبت عائشة خطابها الذي كانت تكرره في كلّ وقت ، وهو التحريض على المطالبة بدم عثمان ؛ لأنّه قد خلص مِن ذنوبه وأعلن توبته ، ولكنّها لمْ تنهِ خطابها حتّى ارتفعت الأصوات ؛ فقوم يصدّقونها ، وقوم يكذّبونها ، وتسابّوا فيما بينهم وتضاربوا بالنعال ، واقتتل الفريقان أشدّ القتال وأعنفه ، وأسفرت الحرب عن عقد هدنة بينهما حتّى يقدم الإمام علي (عليه السّلام). وكتبوا بينهم كتابا وقّعه عثمان بن حنيف وطلحة والزبير ، وقد جاء فيه بإقرار عثمان بن حنيف على الإمرة ، وترك المسلحة وبيت المال له ، وأنْ يباح للزبير وطلحة وعائشة ومَنْ انضمّ إليهم أنْ ينزلوا حيث شاؤوا مِن البصرة.

ومضى ابن حنيف يقيم بالناس الصلاة ، ويقسّم المال بينهم ، ويعمل على نشر الأمن وإعادة الاستقرار في المصر ، إلاّ أنّ القوم قد خاسوا بعهدهم ومواثيقهم ، فأجمعوا على الفتك بابن حنيف.

ويقول المؤرّخون : إنّ حزب عائشة انتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح ، فعدوا على ابن حنيف وهو يصلّي بالناس صلاة العشاء ، فأخذوه ثمّ عدوا إلى بيت المال فقتلوا مِنْ حرسه أربعين رجلا واستولوا عليه ، وزجّوا بابن حنيف في السجن ، وأسرفوا في تعذيبه بعد أنْ نتفوا لحيته وشاربيه (٢).

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢ / ٥٠.

وغضب قوم مِنْ أهل البصرة ، ونقموا على ما اقترفه القوم مِنْ نقض الهدنة والنكاية بحاكمهم واحتلال بيت المال ، فخرجوا يريدون الحرب ، وكانت هذه الفئة مِنْ ربيعة يرأسها البطل العظيم حكيم بن جبلة ، فقد خرج في ثلاثمئة رجل مِنْ بني عبد القيس [1] ، وخرج أصحاب عائشة وحملوها معهم على جمل ، وسُمّي ذلك اليوم الجمل الأصغر [2] ، والتحم الفريقان في معركة رهيبة ، وقد أبلى ابن جبلة بلاء حسنا.

ويقول المؤرّخون : إنّ رجلاً مِنْ أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله ، فجثا حكيم وأخذ رجله المقطوعة فضرب بها الذي قطعها فقتله ، ولمْ يزل يقاتل حتى قُتِل [3].

لقد أضاف القوم إلى نقض بيعتهم للإمام (عليه السّلام) نكثهم للهدنة التي وقّعوا عليها مع ابن حنيف ، وإراقتهم للدماء بغير حقّ ، ونهبهم ما في بيت المال ، وتنكيلهم بابن حنيف.

ويقول المؤرّخون : إنّهم قد همّوا بقتله لولا أنّه هدّدهم بأخيه سهل بن حنيف الذي يحكم المدينة مِن قبل علي (عليه السّلام) ، وأنّه سيضع السيف في بني أبيهم إنْ أصابوه بمكروه ، فخافوا مِنْ ذلك وأطلقوا سراحه ، فانطلق حتّى التحق بالإمام (عليه السّلام) في بعض طريقه إلى البصرة ، فلمّا دخل عليه قال للإمام (عليه السّلام) مداعبا : أرسلتني إلى البصرة شيخا فجئتك أمردا.

وأوغرت هذه الأحداث الصدور ، وزادت الفرقة بين أهل البصرة ؛ فقد انقسموا على أنفسهم ؛ فطائفة منهم تسللوا حتى التحقوا بالإمام (عليه السّلام) ، وقوم انضمّوا إلى جيش عائشة ، وطائفة ثالثة اعتزلت الفتنة ولم يطب لها الانضمام إلى أحد الفريقين.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٥٠.

(٢) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ١ / ٤٣٠.

(٣) أسد الغابة ٢ / ٤٠.

النزاع على الصلاة :

وليس مِن الغريب في شيء أنْ يتنازع كلّ مِنْ طلحة والزبير على إمامة الصلاة ؛ فإنّهما إنّما نكثا بيعة الإمام (عليه السّلام) طمعاً بالحكم ، وسعياً وراء المصالح المادية.

ويقول المؤرّخون : إن كل واحد منهما كان يروم التقدّم على صاحبه لإمامة الناس والآخر يمنعه حتّى فات وقت الصلاة ، فخافت عائشة مِنْ تطوّر الأحداث ، فأمرت أنْ يصلّي بالناس يوماً مُحمّد بن طلحة ، ويوماً عبد الله بن زبير [1]. فذهب ابن الزبير ليصلّي فجذبه مُحمّد وتقدّم للصلاة فمنعه عبد الله ، ورأى الناس أنّ خير وسيلة لقطع حبل النزاع القرعة ، فاقترعا فخرج مُحمّد بن طلحة فتقدّم وصلّى بالناس ، وقرأ في صلاته : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ).

وأثارت هذه الصور الهزيلة السخرية عليهم بين الناس ، واندفعوا إلى نقدهم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تبارى الغلامان إذ صلّيا ... وشحّ على المُلْك شيخاهما
وما لي وطلحة وابن الزبير ... وهذا بذي الجذع مولاهما
فأُمّهما اليوم غرّتهما ... ويعلى بن مُنبه ولاّهما [2]

إنّ هذه البادرة تصوّر مدى تهالك القوم على الإمرة والسلطان وهم بعد في بداية الطريق ، فلو كتب لهم النجاح في القضاء على حكم الإمام (عليه السّلام) لفتح بعضهم على بعض باب الحرب للاستيلاء على زمام الحكم.

رُسل الإمام (عليه السّلام) إلى الكوفة :

وأوفد الإمام (عليه السّلام) رسله إلى أهل الكوفة يستنجد بهم ، ويدعوهم إلى

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٧.
(٢) الأغاني ١١ / ١٢٠.

نصرته ، والقيام معه لإخماد نار الفتنة التي أشعلها المتمرّدون. وأقبلت الرسل إلى الكوفة فوجدوا عاملها أبا موسى الأشعري يدعو إلى الفتنة ، ويخذّل الناس عن نصرة إمامهم ويدعوهم إلى التمرّد ، ويحبب لهم العافية. ولمْ تكن لأبي موسى حجّة في ذلك ، وإنّما كان يعبّر عن حقده وأضغانه على الإمام (عليه السّلام) ، وكان فيما أجمع عليه المؤرّخون عثمّاني الهوى.

وأقبلت رسل الإمام (عليه السّلام) على أبي موسى يعنّفونه ويلومونه ، إلاّ أنّه لمْ يعنَ بهم ، فبعثوا إلى الإمام (عليه السّلام) رسالة ذكروا فيها تمرّده وعدم استجابته لنداء الحقّ ، وأرسل إليه الإمام (عليه السّلام) هاشم المرقال ، وهو مِنْ خيرة أصحاب الإمام (عليه السّلام) ، وزوّده برسالة يطلب فيها مجيء أبي موسى إليه ، ولما انتهى إليه هاشم وعرض عليه رسالة الإمام (عليه السّلام) لمْ يستجب له وبقي مصمّماً على عناده وعصيانه ، فأرسل هاشم إلى الإمام (عليه السّلام) رسالة يخبره فيها بموقف أبي موسى وتمرّده ، فبعث الإمام (عليه السّلام) ولده الحسن (عليه السّلام) وعمّار بن ياسر ومعهما رسالة بعزله وتعيين قرظة بن كعب الأنصاري في مكانه.

ولمّا وصل الإمام الحسن (عليه السّلام) إلى الكوفة التام الناس حوله زمرا وهم يظهرون له الطاعة والولاء ، وأعلن لهم عزل الوالي المتمرّد وتعيين قرظة في منصبه ، إلاّ أنّ أبا موسى بقي مصمّما على غيّه ؛ يثبّط عزائم الناس ويدعوهم إلى التخاذل والخروج عن الطاعة ، ولم يستجب للإمام الحسن (عليه السّلام). ورأى الزعيم الكبير مالك الأشتر أن الأمر لا يتم إلا بإخراج أبي موسى مهان الجانب ، فجمع نفراً مِنْ قومه أُولي بأسٍ شديدٍ فأغار بهم على قصر الإمارة ، وأخذ الناس ينهبون أمتعته وأمواله ، فاضطر الجبان إلى الاعتزال عن عمله ، ومكث ليلته في الكوفة ثمّ خرج هاربا حتى أتى مكة فأقام مع المعتزلين.

ودعا الإمام الحسن (عليه السّلام) الناس إلى الخروج لنصرة أبيه (عليه السّلام) ، وقد نفر معه آلاف كثيرة ؛ فريق منها ركب السفن ، وفريق آخر ركب المطي ، وهم مسرورون كأشدّ ما يكون السرور بنصرتهم للإمام (عليه السّلام).

وطوت الجيوش البيداء تحت قيادة الإمام الحسن (عليه السّلام) ، فانتهوا إلى ذي قار حيث كان الإمام (عليه السّلام) مقيماً هناك ، وقد سرّ (عليه السّلام) بنجاح ولده ، وشكر له مساعيه وجهوده. وانضمّت جيوش الكوفة إلى الجيش الذي كان مع الإمام (عليه السّلام) والبالغ عدده أربعة آلاف ، وكان فيهم أربعمئة ممّن شهد بيعة الرضوان مع النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وقد أسند الإمام (عليه السّلام) قيادة ميمنة جيشه إلى الحسن (عليه السّلام) ، وقيادة ميسرته إلى الحُسين (عليه السّلام) [١] ، كما كانت جيوشه مزوّدة بأحسن السلاح ، ويقول المؤرّخون : إن الحُسين (عليه السّلام) كان قد ركب فرس جدّه (صلّى الله عليه وآله) المسمّى بالمرتجز [٢].

التقاء الجيشين :

وتحرّكت قوات الإمام (عليه السّلام) مِنْ ذي قار وهي على بيّنة مِنْ أمرها ، فلمْ تكن متردّدة ولا شاكّة في أنّها على الهُدى والحقّ ، وقد انتهت إلى مكان يسمّى بالزاوية يقع قريباً مِن البصرة ، فأقام فيه الإمام (عليه السّلام) وقد بادر إلى الصلاة ، وبعدما فرغ منها أخذ يبكي ودموعه تسيل على سحنات وجهه الشريف ، وهو يتضرّع إلى الله في أنْ يحقن دماء المسلمين ويجنّبه ويلات الحرب ، ويجمع كلمة المسلمين على الهُدى والحقّ.

رُسل السّلام :

وأوفد الإمام (عليه السّلام) رسل السّلام للقاء عائشة ، وهم زيد بن صوحان ،

---

(١) جواهر المطالب . شمس الدين أبي البركات / ٤٣ ، من مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام).

(٢) وقعة الجمل . مُحمّد بن زكريا بن دينار / ٣٥.

وعبيد الله بن العباس ، ولما مثلا عندها ذكّراها بما أمرها الله أنْ تقرّ في بيتها ، وأنْ لا تسفك دماء المسلمين ، وبالغا في نصيحتها ، ولو أنّها وعت نصيحتهما لعادت على الناس بالخير العميم ، وجنّبتهم كثيراً مِن المشاكل والفتن ، إلاّ أنّها جعلت كلامهما دبر أذنيها ، وراحت تقول لهم : إني لا أرد على ابن أبي طالب بالكلام ؛ لأني لا أبلغه في الحِجاج [١].

وبذل الإمام (عليه السّلام) قصارى جهوده في الدعوة إلى السّلم وعدم إراقة الدماء ، إلاّ أنّ هناك بعض العناصر لمْ ترق لها هذه الدعوى ، وراحت تسعى لإشعال نار الحرب وتقويض دعائم السّلم.

الدعوة إلى القرآن :

ولما باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلها الإمام (عليه السّلام) مِن أجل حقن الدماء ، ندب الإمام (عليه السّلام) أصحابه لرفع كتاب الله العظيم ودعوة القوم إلى العمل بما فيه ، وأخبرهم أنّ مَنْ يقوم بهذه المهمة فهو مقتول ، فلمْ يستجب له أحد سوى فتى نبيل مِن أهل الكوفة ، فانبرى إلى الإمام (عليه السّلام) وقال : أنا له يا أمير المؤمنين.

فأشاح الإمام (عليه السّلام) بوجهه عنه ، وطاف في أصحابه ينتدبهم لهذه المهمة فلمْ يستجب له أحد سوى ذلك الفتى ، فناوله الإمام (عليه السّلام) المصحف ، فانطلق الفتى مزهوّاً لمْ يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، وهو يلوح بالكتاب أمام عسكر عائشة قد رفع صوته بالدعوة إلى العمل بما فيه ، ولكنّ القوم قد دفعتهم الأنانية إلى الفتك به فقطعوا يمينه ، فأخذ المصحف بيساره وهو يناديهم بالدعوة إلى العمل بما فيه ، فاعتدوا عليه وقطعوا يساره ، فأخذ المصحف

---

(١) الفتوح ٢ / ٣٠٦.

بأسنانه وقد نزف دمه ، وراح يدعوهم إلى السّلم وحقن الدماء قائلاً : الله في دمائنا ودمائكم.

وانثالوا عليه يرشقونه بنبالهم فوقع على الأرض جثة هامدة ، فانطلقت إليه أُمّه تبكيه وترثيه بذوب روحها قائلة :

يـــا ربِّ إن مســـــلما أتـــــاهُم   يتلـــــو كتـــــاب الله لا يخشـــــاهُم
فخضّبـــــبوا مِـــــن دمـــــه لحـــــاهُم   وأُمّهـــــم قائمـــــة تـــــراهُم

ورأى الإمام (عليه السّلام) بعد هذا الإعذار أنْ لا وسيلة له سوى الحرب ، فقال لأصحابه : «الآن حلّ قتالهم ، وطاب لكم الضراب» (١). ودعا الإمام (عليه السّلام) حضين بن المنذر وكان شاباً ، فقال له : «يا حضين ، دونك هذه الراية ، فو الله ما خفقت قط فيما مضى ، ولا تخفق فيما بقي راية أهدى منها إلا راية خفقت على رسول الله (صلّى الله عليه وآله)».

وفي ذلك يقول الشاعر :

لِمَـــن رايـــة ســـوداء يخفُـــق ظلُّهـــا   إذا قيـــل قـــدِّمها حُضـــين تقـــدّما
يُقـــدّمها للمـــوت حـــتى يزيرهـــا   حِيـاض المنايـا تَقطـر المـوت والـدما (٢)

الحرب العامة :

ولمّا استيأس الإمام (عليه السّلام) مِن السّلم عبّأ جيشه تعبئة عامّة ، وكذلك فعل أصحاب عائشة وقد حملوها على جملها (عسكر) ، وأُدخلت هودجها المصفّح بالدروع ، والتحم الجيشان التحاما رهيبا. يقول بعض المؤرّخين : إن

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٤٦.

(٢) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٨٠.

الإمام الحُسين (عليه السّلام) قد تولّى قيادة فرقة مِنْ فرق الجيش ، وإنّه كان على الميسرة ، وخاض المعركة ببسالة وصمود [1]. وكان جمل عائشة فيما يقول بعض مَن شهد المعركة هو راية أهل البصرة ، يلوذون به كما يلوذ المقاتلون براياتهم ، وقد حمل الإمام (عليه السّلام) عليهم وقد رفع العلم بيسراه ، وشهر في يمينه ذا الفقار الذي طالما ذبّ به عن دين الله ، وحارب به المشركين على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله). واقتتل الفريقان كأشدّ ما يكون القتال ضراوة ، يريد أصحاب عائشة أن يحرزوا النصر ويحموا أُمّهم ، ويريد أصحاب علي (عليه السّلام) أن يحموا إمامهم ويموتوا دونه.

مصرع الزبير :

وكان الزبير رقيق القلب ، شديد الحرص على مكانته مِن النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، إلاّ أنّ حب المِلْك هو الذي أغراه ودفعه إلى الخروج على الإمام (عليه السّلام) ؛ يضاف إلى ذلك ولده عبد الله فهو الذي زجّ به في هذه المهالك ، وباعد ما بينه وبين دينه ، وقد عرف الإمام (عليه السّلام) رقّة طبع الزبير ، فخرج إلى ميدان القتال ورفع صوته :

«أين الزبير؟».

فخرج الزبير وهو شاك في سلاحه ، فلمّا رآه الإمام (عليه السّلام) بادر إليه واعتنقه ، وقال له بناعم القول : «يا أبا عبد الله ، ما جاء بك ها هنا؟».

ـ جئت أطلب دم عثمّان.

فرمقه الإمام (عليه السّلام) بطرفه وقال له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٩٣.

«تطلب دم عثمّان!».

. نعم.

. «قتل الله مَن قتل عثمّان».

وأقبل عليه يحدّثه برفق ، قائلاً : «أنشدك الله يا زبير ، هل تعلم أنّك مررت بي وأنت مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو متكئ على يدك ، فسلّم عليّ رسول الله وضحك إليّ ، ثمّ التفت إليك فقال لك : يا زبير ، إنّك تقاتل عليّاً وأنت له ظالم».

وتذكّر الزبير ذلك ، وقد ذهبت نفسه أسىً وحسرات ، وندم أشدّ ما يكون النّدم على موقفه هذا ، والتفت إلى الإمام (عليه السّلام) وهو يصدّق مقالته : اللّهم نعم.

. «فعلام تقاتلني؟».

. نسيتها والله ، ولو ذكرتها ما خرجت إليك ولا قاتلتك [1].

. «ارجع».

. كيف ارجع وقد التقت حلقتا البطان؟! هذا والله العار الذي لا يُغسل.

. «ارجع قبل أن تجمع العار والنار».

وألوى عنان فرسه ، وقد ملكت الحيرة والقلق أهابه ، وراح يقول :

فاخترت عارا على نار مؤجّجة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى عليّ بأمر لست أجهلُه ... عار لَعمرُك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبُك مِن عذل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني[2]

وقفل الإمام (عليه السّلام) راجعاً إلى أصحابه ، فقالوا له : تبرز إلى زبير حاسرا

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٧٣.

(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٤٧. على أن الأبيات وردت على غير هذا النسق ، وما أثبتناه فهو من بعض المصادر الأخرى. (موقع معهد الإمامين الحسَنَين)

وهو شاك السّلاح ، وأنت تعرف شجاعته! فقال (عليه السّلام) :

«إنّه ليس بقاتلي ، إنّما يقتلني رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلة في غير ماقط [1] حرب ولا معركة رجال. ويل أُمِّه أشقى البشر! ليود أن أُمّه هبلت به. أما أنّه وأحمر ثمّود لمقرونان في قرن ...» [2].

واستجاب الزبير لنداء الإمام (عليه السّلام) فاتّجه صوب عائشة ، فقال لها : يا أُمّ المؤمنين ، إني والله ما وقفت موقفا قط إلا عرفت أين أضع قدمي فيه إلا هذا الموقف ؛ فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر؟!

وعرفت عائشة تغيير فكرته وعزمه على الانسحاب مِنْ حومة الحرب ، فقالت له باستهزاء وسخرية مثيرة عواطفه : يا أبا عبد الله ، خفت سيوف بني عبد المطلب؟! وعاثت هذه السخرية في نفسه ، فالتفت إليه ولده عبد الله فعيّره بالجبن قائلاً : إنّك خرجت على بصيرة ، ولكنّك رأيت رايات ابن أبي طالب وعرفت أن تحتها الموت فجبنت.

إنّه لمْ يخرج على بصيرة ولا بيّنة مِنْ أمره ، وإنّما خرج مِنْ أجل المٌلْك والسلطان.

والتاع الزبير مِنْ حديث ولده ، فقال له : ويحك! إني قد حلفت له أن لا أُقاتله. [فقال له ابنه :] كفّر عن يمينك بعتق غلامك سرجس. فأعتق غلامه وراح يجول في ميدان الحرب ليٌرِ ُ ولده شجاعته ، ويوضّح له أنّه إنّما فرّ بدينه لا جبناً ولا خوراً ، ومضى منصرفاً على وجهه حتّى أتى وادي السّباع. وكان الأحنف بن قيس مع قومه مقيمين هناك ،

---

(١) الماقط : ساحة القتال.

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ١٣٥.

فتبعه ابن جرموز فأجهز عليه وقتله غيلة ، وحمل مقتله إلى الإمام (عليه السّلام) فحزن عليه كأشد ما يكون الحزن ، ويقول الرواة : إنّه أخذ سيفه وهو يقول : «سيف طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله (صلّى الله عليه وآله)». وعلى أي حالٍ ، لقد كانت النهاية الأخيرة للزبير تدعو إلى الأسف والأسى ؛ فقد تمرّد على الحقّ ، وأعلن الحرب على وصي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه.

مصرع طلحة :

وخاض طلحة المعركة وهو يحرّض جيشه على الحرب ، فبصر به مروان بن الحكم فرماه بسهم ؛ طلباً بثار عثمّان ، فوقع على الأرض يتخبّط بدمه. وكان مروان يقول لبعض ولد عثمّان : لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة. وأمر طلحة مولاه أنْ يأوي به إلى مكان ينزل فيه ، فأوى به بعد مشقّة إلى دار خربة مِن دور البصرة فهلك فيها بعد ساعة.

قيادة عائشة للجيش :

وتولّت عائشة قيادة الجيش بعد هلاك الزبير وطلحة ، وقد تفانت بنو ضبّة والأزد وبنو ناجية في حمايتها. ويقول المؤرّخون : إنّهم هاموا بحبّها ، فكانوا يأخذون بعر جملها ويشمّونه ، ويقولون : بعر جمل أُمّنا ريحه ريح المسك. وكانوا محدقين به لا يريدون فوزا ولا انتصارا سوى حمايتها ، وإنّ راجزهم يرتجز :

يــــا معشـــــر الأزد علـــــيكُم أُمّكـــــم فإنّهــــــا صـــــــلاتُكم وصـــــــومكُمْ

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٩٧.

والحرمـــة العظمـــى الـــتي تعمّكُـــم ... فأحضـــروها جـــدكُم وحـــزمكُم
لا يغلـــبن ســـم العـــدو سمّكُـــم ... إن العـــدوَّ إن علاكُـــم زمّكُـــم
وخصّـــكُم بجـــوره وعمّكُـــم ... لا تفضـــحوا اليـــوم فـــداكُم قـــومكُم [1]

وكانت تحرّض على الحرب كلّ مَنْ كان على يمينها ، ومَنْ كان على شمالها ، ومَنْ كان أمامها قائلة : إنّما يصبر الأحرار. وكان أصحاب الإمام (عليه السّلام) يلحّون على أصحاب عائشة بالتخلّي عنها ، وراجزهم يرتجز :

يـــا أُمَّنـــا أعـــق أمٍّ نعلـــم ... والأمُّ تغـــذو وُلـــدها وتـــرحم
أمـــا تـــرين كـــم شُـــجاع يُكلـــم ... وتختلـــي منـــه يـــد ومِعصـــم

وكان أصحاب عائشة يرو ّن عليهم ويقولون :

نحـــن بـــني ضـــبّة أصـــحاب الجمـــل ... ننـــازل القـــرن إذا القـــرن نـــزل
والقتـــل أشـــهى عنـــدنا مِـــن العســـل ... نبغـــي ابـــن عفّـــان بـــأطراف الأســـل
رو ّا علينا شيخَنا ثم بجل

واشتدّ القتال كأشد وأعنف ما يكون القتال ، وكثرت الجرحى ، وملئت أشلاء القتلى وجه الأرض.

عقر الجمل :

ورأى الإمام (عليه السّلام) أن الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً ، فصاح (عليه السّلام) بأصحابه : «اعقروا الجمل ؛ فإن في بقائه فناء العرب». وانعطف عليه الحسن (عليه السّلام) فقطع يده اليمنى ، وشدّ عليه الحُسين (عليه السّلام) فقطع يده اليسرى [2] ، فهوى إلى جنبه وله عجيج منكر لمْ يسمع مثله ، وفرّ حماة الجمل في البيداء ؛ فقد تحطّم صنمهم

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٨١.
(٢) وقعة الجمل . مُحمّد بن زكريا / ٤٤.

الذي قدّموا له هذه القرابين ، وأمر الإمام (عليه السّلام) بحرقه وتذرية رماده في الهواء ؛ لئلا تبقى منه بقية يُفتتن بها السذّج والبسطاء.

وبعد الفراغ مِنْ ذلك ، قال : «لعنه الله مِن دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل!». ومد بصره نحو الرماد الذي تناهبه الهواء ، فتلا قوله تعالى : (وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) . وبذلك فقد وضعت الحرب أوزارها ، وكتب النصر للإمام (عليه السّلام) وأصحابه ، وباءت القوى الغادرة بالخزي والخسران.

وأوفد الإمام (عليه السّلام) للقيا عائشة الحسن والحُسين (عليهما السّلام) ومُحمّد بن أبي بكر [1] ، فانطلقوا إليها ، فمدّ مُحمّد يده في هودجها فجفلت منه ، وصاحت به : مَن أنت؟

ـ أبغض أهلك إليك.

ـ ابن الخثعميّة؟

ـ نعم أخوك البر.

ـ عقوق.

ـ هل أصابك مكروه؟

ـ سهم لم يضرّني.

فانتزعه منها ، وأخذ بخطام هودجها وأدخلها في الهزيع الأخير مِن الليل إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث ، فأقامت فيه أياما.

العفو العام :

وسار علي (عليه السّلام) في أهل البصرة سيرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أهل مكة

---

(١) وقعة الجمل / ٤٥.

كما قال (عليه السّلام) ، فأمِنَ الأسود والأحمر . على حدّ تعبير اليعقوبي [١] . ولم ينكّل بأي أحد مِنْ خصومه ، وجلس للناس فبايعه الصحيح منهم والجريح ، ثمّ عمد إلى بيت المال فقسّم ما وجد فيه على الناس بالسواء.

وسار (عليه السّلام) إلى عائشة فبلغ دار عبد الله بن خلف الخزاعي الذي أقامت فيه عائشة ، فاستقبلته صفية بنت الحارث شرّ لقاء ، فقالت له : يا علي ، يا قاتل الأحبّة ، أيتم الله بنيك كما أيتمت بني عبد الله! وكانوا قد قتلوا في المعركة مع عائشة ، فلمْ يجبها الإمام (عليه السّلام) ومضى حتّى دخل على عائشة ، فأمرها أنْ تغادر البصرة وتمضي إلى يثرب لتقرّ في بيتها كما أمرها الله.

ولمّا انصرف أعادت عليه صفية القول الذي استقبلته به ، فقال لها : «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت مَن في هذا البيت». وهو يشير إلى أبواب الحجرات المقفلة ، وكان فيها كثير مِن الجرحى وغيرهم مِن أعضاء المؤامرة [الذين] آوتهم عائشة ، فسكتت صفية ، وأراد مَنْ كان مع الإمام (عليه السّلام) أنْ يبطشوا بهم ، فزجرهم زجرا عنيفا ؛ وبذلك فقد منح العفو لأعدائه وخصومه.

وسرّح الإمام (عليه السّلام) عائشة تسريحاً جميلاً ، وأرسل معها جماعة مِنْ النساء بزي الرجال لتقرّ في بيتها حسب ما أمرها الله ، وقد رحلت عائشة مِن البصرة ، وأشاعت في بيوتها الثكل والحزن والحداد.

يقول عمير بن الأهلب الضبي ، وهو مِن أنصارها :

لقد أورثتنا حومة الموت أُمُّنا ... فلم تنصرف إلا ونحن رواء

أطعنا بني تيم لشقوة جدّنا ... وما تيم إلا أعبد وإماء [٢]

لقد أوردت أُمّ المؤمنين أبناءها حومة الموت ، فقد كان عدد الضحايا مِن المسلمين فيما يقول بعض المؤرخين عشرة آلاف ، نصفهم مِن أصحابها ،

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٩.

(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٥٦.

والنصف الآخر مِن أصحاب الإمام (عليه السّلام) [1]. وكان مِن أعظم الناس حسرة الإمام (عليه السّلام) ؛ لعلمه بما تجر هذه الحرب مِن المصاعب والمشاكل.

متارك الحرب :

وأعقبت حرب الجمل أفدح الخسائر وأعظم الكوارث التي أُبتلي بها المسلمون ، ومِن بينها ما يلي :

١ . إنّها مهّدت السبيل لمعاوية لمناجزة الإمام (عليه السّلام) ، والتصميم على قتاله ، فقد تبنى شعار معركة الجمل وهو المطالبة بدم عثمان ، ولولا حرب الجمل لما استطاع معاوية أنْ يعلن العصيان والتمرّد على حكم الإمام (عليه السّلام).

٢ . إنّها أشاعت الفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد كانت روح المودّة والأُلفة سائدة فيهم قبل حرب الجمل ، وبعدها انتشرت البغضاء بين أفراد الأُسر العربية ؛ فقبائل ربيعة واليمن في البصرة أصبحت تكن أعمق البغض والكراهية لإخوانهم من ربيعة وقبائل اليمن في الكوفة ، وتطالبها بما أُريق من دماء أبنائها ، بل أصبحت الفرقة ظاهرة شائعة حتّى في البيت الواحد ؛ فبعض أبنائه كانوا شيعة لعلي والبعض الآخر كانوا شيعة لعائشة.

ويقول المؤرخون : إنّ البصرة بقيت محتفظة بولائها لعثمان حفنة من السنين ، وإنّ الإمام الحسين (عليه السّلام) إنّما لم ينزح إليها لما عُرِفت به من الولاء لعثمان.

٣ . إنّها أسقطت هيبة الحكم وجرّأت على الخروج عليه ؛ فقد تشكّلت الأحزاب النفعية التي لا هم لها إلا الاستيلاء على السلطة والظفر بخيرات البلاد ، حتّى كان التطاحن على الحكم من أبرز سمات ذلك العصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٢٤ ، وفي رواية أبي العلاء في أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٨٠ أن عدد الضحايا عشرون ألفا.

٤ ـ إنّها فتحت باب الحرب بين المسلمين ، وقبلها كان المسلمون يتحرجون أشد ما يكون التحرّج في سفك دماء بعضهم بعضا.

٥ ـ إنّها عملت على تأخير الإسلام وشلّ حركته وإيقاف نموّه ، فقد انصرف الإمام (عليه السّلام) بعد حرب الجمل إلى مقاومة التمرّد والعصيان الذي أعلنه معاوية وغيره من الطامعين في الحكم ، ممّا أدّى إلى أفدح الخسائر التي مُنِيَ بها الإسلام.

يقول الفيلسوف (ولز) : إن الإسلام كاد أن يفتح العالم أجمع لو بقي سائرا سيرته الاُولى لو لم تنشب في وسطه مِن أوّل الأمر الحرب الداخلية ؛ فقد كان هم عائشة أن تقهر عليا قبل كل شيء [1].

٦ ـ واستباحت هذه الحرب حرمة العترة الطاهرة التي قرنها النّبي (صلّى الله عليه وآله) بمحكم التنزيل ، وجعلها سفن النجاة وأمن العباد ، فمنذ ذلك اليوم شُهِرَت السيوف في وجه عترة النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، واستحلّ الأوغاد إراقة دمائهم وسبي ذراريهم ، فلمْ يرعَ بنو اُميّة في وقعة كربلاء أي حرمة للنّبي (صلّى الله عليه وآله) في أبنائه ، وانتهكوا معهم جميع الحرمات.

هذه بعض متارك حرب الجمل التي جرّت للمسلمين أفدح الخسائر في جميع فترات التاريخ.

القاسطون :

ولم يكد يفرغ الإمام (عليه السّلام) من حرب الناكثين ـ كما اسماهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ حتى جعل يتأهّب لحرب القاسطين الذين أسماهم النّبي (صلّى الله عليه وآله) بذلك ، ورأى الإمام (عليه السّلام) أن يغادر البصرة إلى الكوفة ؛ ليستعد لحرب عدو عنيف هو معاوية بن أبي سفيان الذي حارب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأبلى في حربه أشد

---

(١) شيخ المضيرة / ١٧٣.

البلاء وأقواه ، ولمْ يكن معاوية بأقلّ تنكّراً للإسلام وبغضاً لأهله مِنْ أبيه ، وكان المسلمون الأوّلون ينظرون إليهما نظرة ريبة وشك في إسلامهما ، وقد استطاع بمكره ودهائه أنْ يغزو قلب الخليفة الثاني ، ويحتل المكانة المرموقة في نفسه فجعله والياً على الشام ، وظلّ يبالغ في تسديده وتأييده ، وبعد وفاته أقرّه عثمان وزاد في رقعة سلطانه.

وظلّ معاوية في الشام يعمل عمل مَنْ يريد المُلْك والسلطان ، فأحاط نفسه بالقوّة واشترى الضمائر ، وسخّر اقتصاد بلاده في تدعيم سلطانه ، وبعد الأحداث التي ارتكبها عثمان علم معاوية أنّه مقتول لا محالة ، فاستغاث به عثمان حينما حوصر فأبطأ في نصره ، وظلّ متربصاً حتّى قُتِلَ ليتّخذ مِنْ قميصه ودمه وسيلة للتشبث بالمُلْك ، وقد دفعه إلى ذلك حرب الجمل التي كان شعارها المطالبة بدم عثمان ، فاتّخذه خير وسيلة للتذرّع لنيل المُلْك.

ويقول المؤرّخون : إنّه استعظم قتل عثمان وهول أمره ، وراح يبني مُلْكه على المطالبة بدمه.

وكان الإمام (عليه السّلام) محتاطاً في دينه كأشدّ ما يكون الاحتياط فلمْ يصانع ولمْ يحاب ، وإنّما سار على الطريق الواضح ، فامتنع أنْ يستعمل معاوية على الشام لحظة واحدة ؛ لأن في إقراره على منصبه تدعيما للظلم وتركيزا للجور.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ الإمام (عليه السّلام) بعد حرب الجمل قد غادر البصرة مع قواته المسلحة ، واتّجه إلى الكوفة ليتّخذها عاصمة ومقرّاً له. واتّجه فور قدومه إليها يعمل على تهيئة وسائل الحرب لمناهضة عدوّه العنيف الذي يتمتّع بقوى عسكرية هائلة أجمعت على حبّه ونصرته ، وكان الشني يحرّض الإمام (عليه السّلام) ويحفزّه على حرب أهل الشام بعد ما أحرزه مِن النصر في وقعة الجمل ، وقد قال له :

قـل لهـذا الإمـام قـد خبـت الحـرب وتمّـت بـذلك النعمـاء
وفرغنـا مـن حـرب مَـن نكـث العهـد وبالشـام حيّـة صـمّاء

تنفـــث الســـمّ مـــا لمِـــنْ نهشـــته فارمِهـــا قبـــل أن تعـــض شـــفاء [1]

إيفاد جرير :

وقبل أن يعلن الإمام (عليه السّلام) الحرب على غول الشام أوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون من مبايعته ، وقد زوّده برسالة [2] دعاه فيها إلى الحقّ مِنْ أقصر سبيله ، وبأوضح أساليبه ، وفيها الحكمة الهادية لمِنْ أراد الهداية ، وشرح الله صدره ، وفجّر في فؤاده ينبوع النور. وانتهى جرير إلى معاوية فسلّمه رسالة الإمام (عليه السّلام) ، وألحّ عليه في الوعظ والنصيحة ، وكان معاوية يسمع منه ولا يقول له شيئاً ، وإنّما أخذ يطاوله ويسرف في مطاولته ، لا يجد لنفسه مهرباً سوى الإمهال والتسويف.

معاوية مع ابن العاص :

ورأى معاوية أنّه لن يستطيع التغلّب على الأحداث إلا إذا انضم إليه داهية العرب عمرو بن العاص فيستعين به على تدبير الحيل ، ووضع المخططات التي تؤدي إلى نجاحه في سياسته ، فراسله طالبا منه الحضور إلى دمشق. وكان ابن العاص فيما يقول المؤرّخون : قد وجد على عثمان حينما عزله عن مصر ، فكان يؤلّب الناس عليه ويحرّضهم على الوقيعة به ، وهو ممّن مهّد للفتنة والثورة عليه ، ولما أيقن بحدوث الانقلاب عليه خرج إلى أرض

---

(١) الأخبار الطوال / ١٤٥.

(٢) الرسالة في وقعة صفّين / ٣٤.

كان يملكها بفلسطين فأقام فيها ، وجعل يتطلّع الأخبار عن قتله.

ولما انتهت رسالة معاوية إلى ابن العاص تحيّر في أمره ، فاستشار ولديه عبد الله ومُحمّداً ؛ أمّا عبد الله فكان رجل صدق وصلاح فأشار عليه أنْ يعتزل الناس ، ولا يجيب معاوية إلى شيء حتّى تجتمع الكلمة ويدخل فيما دخل فيه المسلمون ؛ وأمّا ابنه مُحمّد فقد طمع فيما يطمع فيه فتيان قريش مِن السعة والتقدّم وذيوع الاسم ، فقد أشار عليه بأنْ يلحق بمعاوية لينال من دنياه.

فقال عمرو لولده عبد الله : أمّا أنت فأمرتني بما هو خير لي في ديني. وقال لولده مُحمّد : أمّا أنت فأمرتني بما هو خير لي في دنياي. وأنفق ليله ساهرا يفكّر في الأمر هل يلتحق بعلي فيكون رجلاً كسائر المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم مِنْ دون أنْ ينال شيئاً مِنْ دنياه ، ولكنّه يضمن أمر آخرته ، أو يكون مع معاوية فيظفر بتحقيق ما يصبو إليه في الدنيا مِن الثراء العريض ، وهو لمْ ينسَ ولاية مصر فكان يحنّ إليها حنيناً متّصلاً ، وقد أُثر عنه تلك الليلة مِن الشعر ما يدلّ على الصراع النفسي الذي خامره تلك الليلة.

ولمْ يسفر الصبح حتّى آثر الدنيا على الآخرة ، فاستقرّ رأيه على الالتحاق بمعاوية ، فارتحل إلى دمشق ومعه ابناه ، فلمّا بلغها جعل يبكي أمام أهل الشام كما تبكي المرأة ، وهو يقول : وا عثماناه! أنعى الحياء والدين [1].

قاتلك الله يابن العاص! أنت تبكي على عثمان وأنت الذي أوغرت عليه الصدور ، وأثرت عليه الأحقاد ، وكنت تلفي الراعي فتحرّضه عليه حتّى سُفك دمه! لقد بلغ التهالك على السلطة في ذلك العصر مبلغاً أنسى الناس دينهم ، فاقترفوا في سبيل ذلك كلّ ما حرّمه الله.

ولما التقى ابن العاص بمعاوية فتح معه الحديث في حربه مع الإمام (عليه السّلام) ، فقال ابن العاص :

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٢٩.

ـ أمّا علي فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء مِن الأشياء ، وإنّ له في الحرب لحظاً ما هو لأحد مِن قريش إلا أن تظلمه.

واندفع معاوية يبين دوافعه في حربه للإمام قائلا : صدقت ، ولكنّا نقاتله على ما في أيدينا ، ونلزمه قتلة عثمان.

واندفع ابن العاص ساخرا منه قائلا : وا سوأتاه! إن أحق الناس أن لا يذكر عثمان أنت!

لِمَ ويحك؟!

ـ أمّا أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتّى استغاث بيزيد بن أسد البجلي فسار إليه ، وأمّا أنا فتركته عيانا وهربت إلى فلسطين (١).

واستيقن معاوية أنّ ابن العاص لا يخلص له ، ورأى أنّ مِن الحكمة أنْ يستخلصه ويعطيه جزاءه مِن الدنيا ، فصارحه قائلاً : أتحبّني يا عمرو؟

ـ لماذا؟ للآخرة فوالله ما معك آخرة ، أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتّى أكون شريكك فيها.

ـ أنت شريكي فيها؟

ـ اكتب لي مصر وكورها.

ـ لك ما تريد.

فسجّل له ولاية مصر ، وجعلها ثمناً لانضمامه إليه (٢) في مناهضته لوصي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقد ظفر بداهية مِنْ دواهي العرب ، وبشيخ مِنْ شيوخ قريش قد درس أحوال الناس ، وعرف كيف يتغلّب على الأحداث.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٦٢.

(٢) العقد الفريد ٣ / ١١٣.

ردُّ جرير :

ولمّا اجتمع لمعاوية أمره وأحكم وضعه ردّ جرير ، وأرسل معه إلى الإمام (عليه السّلام) رسالة حمّله فيها المسؤولية في إراقة دم عثمان ، وعرّفه بإجماع أهل الشام على حربه إنْ لمْ يدفع له قتلة عثمان ، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين.

وارتحل جرير إلى الكوفة فأنبأ عليا (عليه السّلام) بامتناع معاوية عليه ، وعظم له أمر أهل الشام ، ورأى الإمام أنْ يقيم عليه الحجّة مرّة أخرى ، فبعث له سفراء آخرين يدعونه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، إلاّ أنّ ذلك لمْ يجدِ شيئاً ، فقد أصرّ معاوية على غيّه وعناده حينما أيقن أن له القدرة على مناجزة الإمام (عليه السّلام) ومناهضته.

قميص عثمان :

وألهب معاوية بمكره وخداعه قلوب السذّج والبسطاء مِنْ أهل الشام حزناً وأسىً على عثمان ، فكان ينشر قيمصه الملطخ بدمائه على المنبر فيضجون بالبكاء والعويل ، واستخدم الوعّاظ فجعلوا يهوّلون أمره ، ويدعون الناس إلى الأخذ بثأره ، وكان كلّما فتر حزنهم عليه يقول له ابن العاص بسخرية واستهزاء : حرِّ ّ لها حوارها تحن.

فيخرج إليهم قميص عثمان فيعود لهم حزنهم ، وقد أقسموا أنْ لا يمسّهم الماء إلاّ مِن الاحتلام ، ولا يأتون النساء ، ولا ينامون على الفراش

حتى يقتلوا قتلة عثمان [1] ، وكانت قلوبهم تتحرّق شوقاً إلى الحرب للأخذ بثأره. وقد شحن معاوية أذهانهم بأنّ علياً هو المسؤول عن إراقة دمه ، وأنّه قد آوى قتلته ، وكانوا يستنهضون معاوية للحرب ويستعجلونه أكثر منه.

زحف معاوية لصفّين :

وعلم معاوية أنّه لا بد من الحرب ؛ لأن الإمام (عليه السّلام) لا يحاب ولا يداهن في دينه ، فلا يقرّه على ولاية الشام ، ولا يسند له أي منصب من مناصب الدولة ، وإنّما يقصيه عن جميع أجهزة الحكم ؛ لما يعرفه عنه من الالتواء في دينه.

وسار معاوية في جموع أهل الشام ، وقدّم بين يديه الطلائع ، وقد أنزل أصحابه أحسن منزل وأقربه إلى شريعة الفرات ، وقد احتل الفرات ، وعُدّ هذا أوّل الفتح ؛ لأنّه حبس الماء على عدوّه ، وبقيت جيوشه رابضة هناك تصلح أمرها وتنضّم قواها استعدادا للحرب.

زحف الإمام (عليه السّلام) للحرب :

وتهيّأ الإمام (عليه السّلام) للحرب ، وقام الخطباء في الكوفة يحفّزون الناس للجهاد ، ويحثونهم على مناجزة معاوية بعدما أحرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل ، وقد خطب فيهم الإمام الحسين (عليه السّلام) خطاباً رائعاً ومثيراً ، قال فيه بعد حمد الله والثناء عليه : «يا أهل الكوفة ، أنتم الأحبّة الكرماء ، والشعار دون الدثار ، جدّوا في

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٤١.

إطفاء ما دثر بينكم ، وتسهيل ما توعّر عليكم ؛ ألا إنّ الحرب شرّها ذريع ، وطعمها فظيع ، فمَنْ أخذ لها أهبتها ، واستعدّ لها عدّتها ، ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ، ومَنْ عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن ألاّ ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه. نسأل الله بقوته أن يدعمكم بالفيئة» [1].

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى استعجال الحرب ، واستعداد الشام لها ، والإمعان في وسائلها ؛ فإنّ ذلك من موجبات النصر ، ومن وسائل التغلب على الأعداء ، وإنّ إهمال ذلك ، وعدم الاعتناء به ممّا يوجب الهزيمة والاندحار. ودل هذا الخطاب على خبرة الإمام (عليه السّلام) الواسعة في الشؤون العسكرية والحربية.

وتهيّأ الناس بعد خطاب سبط النّبي (صلّى الله عليه وآله) إلى الحرب ، وأخذوا يجدّون في تنظيم قواهم ، ولما تمّت عدّتهم زحف بهم الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) لحرب ابن أبي سفيان ، وقدم طلائعه ، وأمرهم أنْ لا يبدؤوا أهل الشام بقتال حتّى يدركهم.

وزحفت كتائب الجيش العراقي كأنّها السيل ، وهي على يقين أنّها إنّما تحارب القوى الباغية على الإسلام ، والمعادية لأهدافه. وقد جرت في أثناء مسيرة الإمام (عليه السّلام) أحداث كثيرة لا حاجة إلى إطالة الكلام بذكرها ، فإنّا لا نقصد بهذه البحوث أن نلمّ بها ، وإنّما نشير إليها بإيجاز.

احتلال الفرات :

ولم يجد أصحاب الإمام (عليه السّلام) شريعة على الفرات يستقون منها الماء إلا وهي

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ / ١٨٦.

محاطة بالقوى المكثفة من جيش معاوية ؛ يمنعونهم أشدّ المنع من الاستسقاء من الماء ، ولما رأى الإمام (عليه السّلام) ذلك أوفد رسله إلى معاوية يطلبون منه أن يخلّي بينهم وبين الماء ليشربوا منه ، فلمْ تسفر مباحثهم معه أي شيء ، وإنّما وجدوا منه إصراراً على المنع يريد أنْ يحرمهم منه ، كما حرموا عثمان مِن الماء.

وأضر الظمأ بأصحاب الإمام (عليه السّلام) ، وانبرى الأشعث بن قيس يطلب الإذن من الإمام (عليه السّلام) أنْ يفتح باب الحرب ليقهر القوى المعادية على التخلّي عن الفرات ، فلمْ يجد الإمام (عليه السّلام) بداً من ذلك فأذن له ، فاقتتل الفريقان كأشدّ ما يكون القتال ، وكُتِبَ النصر لقوات الإمام (عليه السّلام) فاحتلّت الفرات ، وأراد أصحاب الإمام (عليه السّلام) أن يقابلوهم بالمثل فيحرمونهم منه ، كما صنعوا ذلك معهم ، ولكنّ الإمام (عليه السّلام) لم يسمح لهم بذلك ، وعمل معهم عمل المحسن الكريم فخلّى بينهم وبين الماء.

لقد كان اللؤم والخبث من عناصر الأُمويِّين وذاتياتهم ، فقد أعادوا على صعيد كربلاء ما اقترفوه من الجريمة في صفّين ، فحالوا بين الإمام الحسين (عليه السّلام) وبين الماء ، وتركوا عقائل الوحي ومخدرات الرسالة ، وصبية أهل البيت (عليهم السلام) قد صرعهم العطش ، ومزّق الظمأ قلوبهم ، فلمْ يستجيبوا لأيّة نزعة إنسانية ، ولمْ ترقّ قلوبهم فيعطفوا عليهم بقليل من الماء.

رسل السلام :

وكان الإمام (عليه السّلام) متحرّجاً كأشدّ ما يكون التحرّج في سفك دماء المسلمين ، فقد جهد على نشر السلام والوئام ، فأوفد إلى معاوية عدي بن حاتم ، وشبث بن ربعي ، ويزيد بن قيس ، وزياد بن حفصة يدعونه إلى حقن دماء المسلمين ، ويذكّرونه الدار الآخرة ، ويحذّرونه أنْ ينزل به ما نزل بأصحاب الجمل ، ولكنّ ابن هند لمْ يستجب لذلك ، وأصرّ على الغي والتمرد ، وقد

حمّل الإمام (عليه السلام) المسؤولية في قتل عثمان بن عفان ، وقد دفعه إلى العصيان ما يتمتّع به من القوى العسكرية واتفاق كلمتها ، وإصرارها على الطلب بدم عثمان.

ورجعت رسل السّلام وقد أخفقت في سفارتها ، واستبان لها أنّ معاوية مصمّم على الحرب ، ولا رغبة له في الصلح ، وأحاطوا الإمام (عليه السّلام) علماً بذلك ، فجعل يتهيّأ للحرب ، ويدعو الناس إلى القتال.

الحرب :

وعبّأ الإمام (عليه السّلام) أصحابه على راياتهم واستعد للقتال ، وقد أمر أصحابه أنْ لا يبدؤوهم بقتال ، كما عهد لهم في حرب الجمل ، وأنْ لا يقتلوا مدبراً ، ولا يجهزوا على جريح ، ولا يمثّلوا بقتيل ، ولا يهيجوا امرأة إلى غير ذلك من الوصايا التي تمثّل شرف القيادة العسكرية في الإسلام.

وجعلت فرق من جيش الإمام (عليه السّلام) تخرج إلى فرق من جيش معاوية فيقتتل الفريقان نهاراً كاملاً أو طرفاً منه ، ثمّ يتحاجزان من دون أنْ تقع حرب عامة بينهما ، وقد رجا الإمام (عليه السّلام) بذلك أن يثوب معاوية إلى الصلح وحقن الدماء. ودام الأمر على هذا حفنة من الأيام من شهر ذي الحجّة ، فلمّا أطلّ شهر الحرام ، وهو من الأشهر التي يحرم فيها القتال في الجاهلية والإسلام توادعوا شهرهم كلّه ، وأُتيح للفريقين أنْ يقتلوا آمنين ، وقد آمن بعضهم بعضاً ولمْ تقع بينهم أي حرب ، وقد سعت بينهم سفراء السلم إلاّ أنّها أخفقت في سعيها.

وقد احتدم الجدال بين الفريقين ؛ فأهل العراق يدعون أهل الشام إلى جمع الكلمة وحقن الدماء ، ومبايعة وصي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وأهل الشام يدعون العراقيّين إلى الطلب بدم عثمان ورفض بيعة الإمام (عليه السّلام) ، وإعادة الأمر شورى بين المسلمين.

ولما انقضى شهر محرّم مضى القوم على الحرب ، ولكنّها لم تكن عامة ، وإنّما كانت منقطعة تخرج الكتيبة للكتيبة ، والفرقة للفرقة.

وسئم الفريقان هذه الحرب المتقطّعة ، وتعجّلوا الحرب العامة ؛ فعبّأ الإمام (عليه السّلام) جيوشه تعبئة عامة ، وكذلك فعل معاوية ، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً واقتتلوا أبرح قتال وأعنفه ، وانكشفت ميمنة جيش الإمام (عليه السّلام) انكشافاً بلغ الهزيمة ، فقاتل الإمام ومعه الحسن والحسين (عليهم السّلام) [1] ، وانحاز الإمام (عليه السّلام) إلى ميسرة جيشه من ربيعة فاستماتت ربيعة دونه (عليه السّلام) ، وكان قائلهم يقول : لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أُصيب أمير المؤمنين (عليه السّلام) وهو فيكم.

وتحالفت ربيعة على الموت وصمدت في الحرب ، ورجعت ميمنة الإمام (عليه السّلام) إلى حالها بفضل الزعيم مالك الأشتر ، واستمرت الحرب بأعنف ما يتصوّر ، وقد ظهر الضعف وبان الانكسار في جيش معاوية ، وهمّ معاوية بالفرار لولا أنّه تذكّر قول ابن الأطنابة :

أبـــت لي همّـــتي وأبى بلائـــي ... وإقـــدمي علـــى البطـــل المشـــيح
وإعطـــائي علـــى المكـــروه مـــالي ... وأخـــذي الحمـــد بـــالثّمن الـــربيح
وقـــولي كلّمـــا جشـــأت وجاشـــت ... مكانـــك تحمـــدي أو تســـتريحي

وقد ردّه هذا الشعر إلى الصبر والثبات ، كما كان يتحدّث بذلك أيّام الملْك والسلطان.

منع الحسنين (عليهما السلام) من الحرب :

ومنع الإمام (عليه السّلام) أمير المؤمنين سبطي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من الاشتراك في عمليات الحروب ، فقال (عليه السّلام) : «املكوا عني هذين الغلامين ـ يعني

---

(١) أنساب الأشراف ١ ق ١.

الحسن والحسين (عليهما السّلام) . لئلاّ ينقطع بهما نسل رسول الله (صلّى الله عليه وآله)» [1].

لقد حرص الإمام (عليه السّلام) على ريحانتي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؛ لأنّ بهما امتداداً لنسله ، وإبقاءً لذرّيّته.

مصرع عمّار :

وعمّار بن ياسر من ألمع أصحاب النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وأكثرهم جهاداً وبلاءً في الإسلام ، وقد شايع عليّاً ولازمه بعد وفاة النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقد أيقن أنّه مع الحقّ والحق معه كما قال فيه النّبي (صلّى الله عليه وآله). وكان في أيّام صفّين شيخا قد نيف على التسعين عاماً ، ولكنّ قلبه وبصيرته كانت بمأمن من الشيخوخة ؛ فقد كان في تلك المعركة كأنّه في ريعان الشباب ، وكان يحارب راية ابن العاص ، وهو يشير إليها قائلاً : والله ، إنّ هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن. وكان يقول لأصحابه لمّا رأى انكشافهم في المعركة : والله ، لو ضربونا حتّى يبلغونا سعفان هجر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنّهم على الباطل.

ويقول الرواة : إنّه جلس مبكراً في يوم مِنْ أيّام صفّين ، وقد ازداد قلبه شوقاً إلى ملاقاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وملاقاة أبويه ، فخفّ إلى الإمام مسرعاً يطلب منه الإذن في أنْ يلجَ الحرب لعلّه يُرزق الشهادة ، فلمْ يسمح له الإمام (عليه السّلام) بذلك ، وظلّ يعاود الإمام مستأذناً فلمْ تطب نفس الإمام بذلك ، وراح يلح عليه فأذن له ، وأجهش الإمام (عليه السّلام) بالبكاء حزنا وموجدة عليه.

وانطلق عمّار إلى ساحات الحرب وهو موفور القوى ، قد استردّ نشاطه ، وهو جذلان فرح بما يصير إليه من الشهادة ، وقد رفع صوته عالياً :

---

(١) نهج البلاغة

«اليوم ألقى الأحبّه محمّدا وحزبَه ..».

وكان صاحب الراية في الكتيبة التي يقاتل فيها عمّار هو هاشم بن عتبة المرقال ، وكان من فرسان المسلمين وخيارهم ، وأحبّهم للإمام (عليه السّلام) وأخلصهم له ، وكان أعور ، فاتّجه نحوه عمّار فجعل تارة يدفعه بعنف إلى الحرب ، ويقول له : تقدّم يا أعور. وأُخرى يرفق به أشد الرفق ويقول له : احمل فداك أبي وأُمّي! وهاشم يقول له : رحمك الله يا أبا اليقظان ، إنّك رجل تستخفّ الحرب ، وإني إنّما أزحف لعلّي أبلغ ما اُريد.

وضجر هاشم فحمل وهو يرتجز :

قد أكثروا لومي وما أقلا   إني شريت النّفس لن اعتلا

أعور يبغي نفسه مجَلا   لا بد أن يفُل أو يُفلا

قد عالج الحياة حتى ملا   أشلّهم بذي الكعوب شلا

وقد دل هذا الرجل على تصميمه على الموت وسئمه مِن الحياة ، وجال في ميدان القتال ، وعمّار معه يقاتل ويرتجز :

نحن ضربناكُم على تنزيلِه   واليوم نضربكُم على تأويلِه

ضربا يُزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليلِه

أو يرجع الحق إلى سبيلِه

لقد قاتل عمّار بإيمان وإخلاص المشركين مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وناضل كأشدّ ما يكون النضال دفاعاً عن كلمة التوحيد ، وقاتل أعنف القتال مع أخي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) دفاعاً عن تأويل القرآن ، ودفاعاً عن إمام المسلمين ، فما أعظم عائدة عمّار وألطافه على الإسلام!

والتحم عمّار مع القوى الغادرة التحاماً رهيباً ، وحمل عليه رجس من أرجاس البشرية يسمّى أبو الغادية ، فطعنه برمحه طعنة قاتلة ، فهوى إلى الأرض ذلك الصرح الشامخ من العقيدة والإيمان يتخبّط بدمائه الزكية ،

وقد أضرّ به العطش ، فبادرت إليه امرأة بلبن ، فلما رآه تبسّم وأيقن بدنو أجله ، وراح يقول بنبرات هادئة مطمئنة : قال لي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «آخر شرابك مِن الدنيا ضياح مِنْ لبن ، وتقتلك الفئة الباغية». ولمْ يلبث قليلاً حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وانطوت بموته أروع صفحة مشرقة مِن الإيمان والجهاد ، وارتفع ذلك العملاق الذي أضاء الحياة الفكرية بإخلاصه واندفاعه نحو الحق.

وكان الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) برحا لم يقر له قرار حينما برز عمّار إلى ساحة الجهاد ، فكان يقول : «فتّشوا لي عن ابن سمية». وانطلقت فصيلة من الجند تبحث عنه ، فوجدوه قتيلاً مضمّخا بدم الشهادة ، فانبروا مسرعين إلى الإمام (عليه السّلام) فاخبروه بشهادته ، فانهدّ ركنه وانهارت قواه ، وسرت موجات من الألم القاسي في مُحيّاه ؛ فقد غاب عنه الناصر والأخ.

ومشى الإمام (عليه السّلام) لمصرعه كئيباً حزيناً وعيناه تفيضان دموعاً ، وسار معه قادة الجيش وقد أخذتهم المائقة ؛ حزناً على البطل العظيم ، ولما انتهى إليه ألقى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلاً ، وقد انفجر بالبكاء ، وجعل يؤبّنه بحرارة قائلاً : «إن امرأ مِن المسلمين لم يعظم عليه قتلُ ابن ياسر ، وتدخل عليه المصيبة الموجعة لَغير رشيد. رحم الله عمّارا يوم أسلم. رحم الله عمّارا يوم قُتل. رحم الله عمّارا يوم يُبعث حيّا. لقد رأيت عمّارا وما يُذكر مِن أصحاب رسول الله أربعة إلاّ كان رابعاً ، ولا خمسة إلاّ كان خامساً ، وما كان أحد مِن قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عمّارا قد وجبت له الجنّة في غير موطن ولا اثنين ،

فهنيئا لعمار بالجنّة».

وأخذ الإمام (عليه السّلام) رأسه فجعله في حجره ودموعه تتبلور على خديه ، وانبرى الإمام الحسن (عليه السّلام) وغيره فأبّنوا الشهيد العظيم بقلوب مذابة مِن الحزن ، ثمّ قام الإمام (عليه السّلام) فواراه في مقرّه الأخير.

ويقول المؤرّخون : إنّ الفتنة وقعت في جيش معاوية حينما أُذيع مقتل عمّار ، فقد سمعوا أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال في فضل عمّار إنّ الفئة الباغية تقتله ، وقد اتضح لهم أنّهم الفئة الباغية التي عناها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولكن ابن العاص استطاع أن يزيل الخلاف ، فقال لهم : إنّ الذي أخرج عمّاراً هو الذي قتله ، وأذعن بسطاء أهل الشام لما قاله ابن العاص.

واشتد القتال بأعنفه بعد مقتل عمّار ، وقد تفلّلت جميع قوى معاوية ، وبان الضعف في جيشه.

مكيدة ابن العاص :

لعل أبشع مهازل التاريخ البشري في جميع فترات التاريخ هي مكيدة ابن العاص في رفع المصاحف ، وقد وصفها (راو حوست ميلر) بأنّها من أشنع المهازل وأسوئها في التاريخ البشري [1]. وأكاد أعتقد أنّ هذه المكيدة لم تكن وليدة المصادفة أو المفاجئة ، فقد حيكت أُصولها ووضعت مخططاتها قبل هذا الوقت ، فقد كان ابن العاص على اتصال دائم أحيط بكثير مِن الكتمان مع جماعة مِن قادة الجيش العراقي في طليعتهم الأشعث بن قيس ، فهما اللذان دبّرا هذا الأمر ، وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور طه حسين ، قال : فما أستبعد أن يكون الأشعث بن قيس وهو ماكر أهل

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام / ١٩٠.

العراق وداهيتهم ، قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبّرا هذا الأمر بينهم تدبيراً ، ودبّروا أنْ يقتتل القوم ؛ فإنْ ظهر أهل الشام فذاك ، وإنْ خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي ، وجعلوا بأسهم بينهم شديدا (١).

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ الهزيمة لما بدت بأهل الشام وتفلّلت جميع قواعدهم ، فزع معاوية إلى ابن العاص يطلب منه الرأي ، فأشار عليه برفع المصاحف ، فأمر بالوقت برفعها ، فرُفعت زهاء خمسمئة مصحف على أطراف الرماح ، فعلت الأصوات من أهل الشام بلهجة واحدة : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته. مَن لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومَن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ ومَن لجهاد الروم؟ ومَن للترك؟ ومَن للكفار؟

وكانت هذه الدعوى كالصاعقة على رؤوس الجيش العراقي ، فقد انقلب رأساً على عقب ، فتدافعوا كالموج نحو الإمام (عليه السّلام) وهم ينادون : لقد أعطاك معاوية الحق ؛ دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه. ودلّهم الإمام (عليه السّلام) على زيف هذه الحيلة ، وأنّها جاءت نتيجة فشلهم في العمليات العسكرية ، وأنّها لمْ يقصد بها إلاّ خداعهم ، وأنّهم رفعوا المصاحف لا إيمانا بها وإنّما هو من الخداع والمكر.

وممّا يؤسف له أنّهم لمْ يقرروا حقّ مصيرهم ومصير الأُمّة في تلك الفترات الحاسمة من تاريخهم التي أشرفوا فيها على الفتح والنصر ، ولمْ يبقَ من دكّ حصون الظلم ونسف قواعد الجور إلاّ لحظات.

يا للمصيبة والأسف! لقد أصرّوا على التمرّد والعناد ، فانحاز منهم اثنا عشر ألفاً وهم أهل الجباه السود ، فخاطبوا الإمام (عليه السّلام) باسمه الصريح قائلين :

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٨٩.

«يا علي ، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت له ، وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم ...».

فكلّمهم الإمام (عليه السّلام) برقّة ولطف ليقلع روح التمرّد منهم ، إلاّ أنّ كلام الإمام ذهب هباءً ، وراح القوم في غيّهم يعمهون وهم يصرّون على إرغام الإمام على إيقاف القتال ، وكان الأشعث بن قيس هو الذي يدفعهم إلى ذلك وينادي بأعلى صوته بالرضاء والقبول لدعوة أهل الشام.

ولم ير الإمام (عليه السّلام) بدّاً من إجابتهم ، فأصدر أوامره بإيقاف عمليات الحروب ، وقلبه الشريف يتقطّع ألماً وحزناً ، فقد أيقن أنّ الباطل قد انتصر على الحقّ ، وأنّ جميع متاعبه ودماء جيشه قد ذهبت سدى. وأصرّ المتمرّدون على الإمام بسحب مالك الأشتر من ساحة الحرب ، وكان قد أشرف على الانتصار ، ولم يبقَ بينه وبين الفتح إلاّ حلبة شاة ، فأرسل إليه الإمام (عليه السّلام) بالقدوم إليه ، فلم يعن بما أمر به ، وقال لرسول الإمام : قل لسيدي : ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أنْ تزيلني فيها عن موقفي ، إنّي قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني.

ورجع الرسول فأخبر الإمام بمقالة القائد العظيم ، فارتفعت أصوات أُولئك الوحوش بالإنكار على الإمام (عليه السّلام) قائلين : والله ، ما نراك إلاّ أمرته أن يقاتل. وامتحن الإمام (عليه السلام) في أمرهم كأشدّ ما تكون المحنة ، فقال لهم : «أرأيتموني ساررت رسولي (إليه)؟ أليس إنّما كلّمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟».

وأصرّا على الغي قائلين : فابعث إليه فليأتيك ، وإلاّ فوالله اعتزلناك. وأجمعوا على الشرّ ، وأوشكوا أن يفتكوا بالإمام (عليه السّلام) ، فأصدر أوامره المشدّدة

بانسحاب مالك من ساحة الحرب ، واستجاب الأشتر لأمر الإمام (عليه السّلام) ، فقفل راجعاً وقد تحطّمت قواه ، وقال ليزيد الذي كان رسول الإمام : ألرفع هذه المصاحف؟ ـ يعني حدثت هذه الفتنة ـ [فقال :] نعم.

وعرف الأشتر مكيدة ابن العاص فقال : أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة ، إنّها مشورة ابن العاهرة. ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟!

وأحاطه يزيد علماً بحراجة الموقف ، والأخطار الهائلة التي تحفّ بالإمام قائلا : أتحب أنّك إن ظفرت هاهنا ، وأنّ أمير المؤمنين (عليه السّلام) بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلّم إلى عدوه؟! فقال الأشتر مقالة المؤمن : سبحان الله! لا والله ما أُحب ذلك. [قال :] فإنّهم قالوا : لترسلن إلى الأشتر فليأتينّك ، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا ابن عفان ، أو لنسلمنّك إلى عدوّك.

وقفل الأشتر راجعاً وقد استولى الحزن على إهابه ، فقد ذهبت آماله أدراج الرياح ، فتوجّه نحوهم يلومهم ويعنّفهم ، ويطلب منهم أن يخلّوا بينه وبين عدوهم ، فقد أشرف على النصر والفتح. ولم يذعن اُولئك الممسوخون لمقالة الأشتر ، فقد أصروا على الذلّ والوهن قائلين له : «لا لا».

ـ أمهلوني عدوة فرس فإني قد طمعت في النصر.

ـ إذن ندخل معك في خطيئتك.

وانبرى الأشتر يحاججهم وينقد ما ذهبوا إليه قائلا : حدّثوني عنكم ـ وقد قُتل أماثلكم وبقي أرذالكم ـ متى كنتم محقّين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام ، فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون؟! أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم ، وكانوا خيرا منكم في النار.

ولم يجد معهم هذا الكلام المشرق فقالوا له : دعنا منك يا أشتر ، قاتلناهم في الله ، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا. وردّ عليهم الأشتر بعنف حينما يئس من إصلاحهم ، وأخذ يحذرهم من مغبّة هذه الفتنة ، وأنّهم لا يرون بعدها عزاً أبداً. وحقّاَ إنّهم لمْ يروا عزّاً ، فقد أفلت من أُفقهم دولة الحقّ ، وآل أمرهم إلى معاوية فأخذ يسومهم سوء العذاب.

وطلب مالك من الإمام (عليه السّلام) أن يناجزهم الحرب فأبى ؛ لأن العارضين كانوا يمثّلون الأكثرية الساحقة في جيشه ، وفتْح باب الحرب يؤدي إلى أفظع النتائج ؛ فإنّ الأمّة تقع فريسة سائغة بأيدي الأمويّين. وأطرق الإمام (عليه السّلام) برأسه وقد طافت به موجات من الآلام ، وأخذ يطيل التفكير في العاقبة المرّ التي جرّها هؤلاء العصاة للأُمّة.

ويقول المؤرّخون : إنّهم قد اتخذوا سكوته رضىً منه بالتحكيم فهتفوا : إن عليا أمير المؤمنين قد رضي الحكومة ، ورضي بحكم القرآن. والإمام غارق في الهموم ، فقد أفلت منه الأمر ، وتمرّد عليه جيشه ، وليس باستطاعته أنْ يعمل شيئاً ، وقد أدلى (عليه السّلام) بما مُنِيَ به ، بقوله :

«لقد كنتُ أمس أميراً فأصبحتُ اليوم مأموراً ، وكنتُ أمس ناهياً فأصبحتُ اليوم منهيّاً».

التحكيم :

ولمْ تقف محنة الإمام وبلاؤه في جيشه المتمرّد إلى هذا الحد من العصيان والخذلان ، وإنّما تجاوز الأمر إلى أكثر مِنْ هذا ، فقد أصرّ المتمردون بقيادة الأشعث بن قيس على انتخاب أبي موسى الأشعري الذي هو مِنْ ألدّ أعداء الإمام ، وأكثرهم حقداً عليه ، وألحّوا على انتخابه لعلمهم بأنّه سيعزل الإمام عن الحكم ، وينتخب غيره ممّن يحقق أطماعهم ، وقد احتف هؤلاء العصاة بالإمام (عليه السّلام) ، وهم يهتفون : إنّا رضينا بأبي موسى الأشعري.

وزجرهم الإمام (عليه السّلام) ، ونهاهم عن انتخابه قائلاً : «إنّكم قد عصيتموني في أو ّ الأمر فلا تعصوني الآن ، إنّي لا أرى أنْ أُولّي أبا موسى». وأصر ّ على غيهم وعنادهم قائلين : لا نرضى إلاّ به ، فما كان يحذرنا وقعنا فيه.

وأخذ الإمام (عليه السّلام) يدلي عليهم واقع أبي موسى وانحرافه عنه ، قائلاً : «إنّه ليس لي بثقة ؛ قد فارقني وخذّل الناس عنّي ، ثمّ هرب عنّي حتّى آمنته بعد أشهر ، ولكنْ هذا ابن عباس نولّيه».

وامتنعوا من ترشيح ابن عباس ، فأرشدهم ثانياً إلى انتخاب مالك الأشتر فرفضوه ، وأصرّوا على انتخاب الأشعري ، ولم يجد الإمام (عليه السّلام) بعد هذا بد ّ من الرضا والإذعان.

وثيقة التحكيم :

واتفق الفريقان على أنْ يحكموا ابن العاص من قبل أهل الشام ، وأبا موسى الأشعري من قبل العراقيين ، وقد كتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفقوا عليه من الأخذ بما يتفق عليه الحكمان ، وهذا نصها ، كما رواها الطبري :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي علي على أهل الكوفة ومَنْ معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضي معاوية على أهل الشام ومَنْ كان معهم مِن المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وأنّ كتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي عملنا به ، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسُنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة.

وأخذ الحكمان مِنْ علي ومعاوية ومِن الجُندين مِن العهود والميثاق ، والثقة من الناس أنّهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأُمّة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه العمل على ما في هذه الصحيفة ، وأنْ قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ؛ فإنّ الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا ، على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم ، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أنْ يحكما بين هذه الأُمّة ، ولا يردّاها في حرب ولا فرقة حتّى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإنْ أحبّا أنْ يؤخّرا ذلك أخّراه على

تراض منهما. وإنْ توفي أحد الحكمين فإنّ أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا مِن أهل المعدلة والقسط ، وإنّ مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإنْ رضيا وأحبّا فلا يحضرهما فيه إلاّ مَنْ أرادا ، ويأخذ الحكمان مَنْ أرادا مِن الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصار على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحادا وظلما. اللّهم إنّا نستنصرك على مَن ترك ما في هذه الصحيفة [1].

ووقّع عليها طائفة مِن الفريقين ، وأصبحت نافذة المفعول ، وقد حقّقت آمال معاوية ، وأنقذته مِن الأخطار التي كادت أن تطوي حياته وتقضي على أتباعه.

والشيء المهم في هذه الوثيقة إنّها أهملت المطالبة بدم عثمان فلمْ تعرض لا بقليل ولا بكثير ، وإنّما كانت تنشد إيقاف الحرب ، ونشر السلم والعافية بين الفريقين ، وفيما أعتقد إنّها كُتِبَت ولم يكن للإمام (عليه السّلام) فيها أي رأي ، فقد خلّى بين جيشه وبين ما يريدون.

رجوع الإمام (عليه السّلام) للكوفة :

وغادر الإمام صفّين متّجهاً إلى الكوفة ، ولا أعتقد أنْ يلمّ كاتب بتصوير المحنة الكبرى التي ألمت بالإمام ، فقد رجع مثقلاً بالهموم ، يرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قد تمّ ، وينظر إلى جيشه أصبح متمرّداً يدعوه فلا يستجيب ، ويأمره فلا يطيع ، قد مزّقت الفتنة جميع كتائبه ، فقد كانوا فيما يقول المؤرّخون : يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، ويبغي بعضهم على بعض. وأخطر ما حدث فيه انبثاق الفكرة الحروريّة التي سنتحدث

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٠.

عنها ، فإنّها كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي ، وأهم من أي خطر داهم عليه ، فقد أخذت تعمل على تفلل وحدة جيش الإمام (عليه السّلام) ، وتذيع الفتنة والخوف بين صفوفه.

ودخل الإمام (عليه السّلام) الكوفة فرأى لوعة وبكاءً قد سادت في جميع أرجائها ، وحزناً على مَن قُتل منها في صفّين ؛ فإن قتلى صفّين بالقياس إلى قتلى الجمل كانوا أضعافا أضعافا.

مع المارقين :

ويقول الرواة : إن النّبي (صلّى الله عليه وآله) سمّى أهل النهروان بالمارقين ، وأنّه قد عهد إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) بقتالهم كما عهد إليه بقتال الناكثين والقاسطين من بعده.

والظاهرة البارزة في اتجاهات الخوارج هي الالتواء في السلوك ، والإصرار على الجهل والعناد ، فقد بنوا واقعهم على التعصّب ، وعدم التدبر والإمعان في حقائق الأمور ، وقد كان شعارهم الذي تفانوا في سبيله وقدّموا له المزيد من الضحايا (لا حكم إلا لله) ، ولكنّهم لمْ يلبثوا أن جعلوا الحكم للسيف ، فنشروا الإرهاب والخوف والفساد في الأرض ، كما سنذكر ذلك.

وعلى أي حال ، فإنّ الإمام (عليه السّلام) لما نزح من صفّين إلى الكوفة لمْ يدخلوا إليه ، وإنّما انحازوا إلى (حروراء) فنسبوا إليها ، وكان عددهم فيما يقول المؤرّخون : اثني عشر ألفاً ، وقد جعلوا أميرهم على القتال شبث بن ربعي ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليشكري ، وخلعوا الإمام (عليه السّلام) عن الخلافة ، وجعلوا الأمر شورى بين المسلمين.

والتاع الإمام (عليه السّلام) من تمرّدهم فأوفد للقياهم عبد الله بن عباس ، وأمره

أن لا يخوض معهم في ميدان الخصومة والنزاع حتّى يأتيه ، إلاّ أنّه لمْ يجد بداً من الحوار معهم ، وبينما هو يحاورهم إذ أطل عليهم الإمام (عليه السّلام) فنهى ابن عباس عن مناظرتهم ، وأقبل عليهم فقال لهم : «اللهمّ ، إنّ هذا مقام مَنْ أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومَن نطق وأوعث فيه فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا». ثم قال لهم : «مَن زعيمكم؟».

ـ ابن الكواء.

ـ «ما أخرجكم علينا؟».

ـ حكومتكم يوم صفّين.

ـ «أنشدكم بالله ، أتعلمون أنّهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلتُ لكم : إنّي أعلم بالقوم منكم ؛ إنّهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنّي صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. امضوا على حقّكم وصدقكم ، فإنّما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهناً ومكيدة ، فرددتم عليّ رأيي وقلتم : لا ، بل نقبل منهم. فقلت لكم : اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إيّاي ، فلمّا أبيتم إلاّ الكتاب اشترطت على الحكمين أنْ يحييا ما أحيا القرآن ، وأنْ يميتا ما أمات القرآن ، فإنْ حكما بحكم القرآن فليس لنا أنْ نخالف حكماً يحكم بما في القرآن ، وإنْ أبيا فنحن من حكمها براء».

وأبطلت هذه الحجّة النيرة جميع أوهامهم ، فهم المسؤولون عن التحكيم ، كما هم مسؤولون عن كلّ ما حدث من الفتنة والفساد ، وليس للإمام (عليه السّلام) ظلع في ذلك ، وأيقنوا أنّ الذنب ذنبهم ، وليس على الإمام (عليه السّلام) أي تبعة في ذلك ، فقالوا له : أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء؟

ـ «لسنا حكّمنا الرجال إنما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنّما هو خط مسطور بين دفّتين لا ينطق ، وإنّما يتكلّم به الرجال».

ـبرزاّ ن لأجل ◌ِ جعلته فيما بينك وبينهم؟

ـ «ليعلم الجاهل ، ويثبت العالم ، ولعلّ الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأُمّة».

وسد عليهم الإمام (عليه السّلام) كلّ نافذة ينفذون منها ، ووجد منهم تقارباً وإذعاناً لمقالته ، فخاطبهم بناعم القول : «ادخلوا مصركم رحمكم الله». فأجابوه إلى ذلك ودخلوا عن آخرهم معه إلى الكوفة ، إلاّ أنّهم بقوا مصرّين على فكرتهم يذيعونها بين البسطاء ، حتّى شاع أمرهم وقويت شوكتهم ، وأخذوا ينشرون الخوف والإرهاب ، ويدعون إلى البغي ، وعزل الإمام (عليه السّلام) ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين [1].

اجتماع الحكمين :

وانتهت المدّة التي عيّنها الفريقان للتحكيم ، وقد استردّ معاوية قواه التي فقدها أيّام صفّين ، واستحكم أمره ، وقد أرسل إلى الإمام (عليه السّلام) يطلب منه الوفاء بالتحكيم ، وإنّما سارع إلى لك علمه ا نيُ◌ِ به جيش الإمام (عليه السّلام) من الفرقة والخلاف ، ثمّ هو على علم بأنّ النتيجة ستكون من صالحه ؛ لأنّ المنتخب للتحكيم هو أبو موسى الأشعري ، وهو على علم بانحرافه عن الإمام (عليه السّلام).

وأشخص الإمام (عليه السّلام) أبا موسى الأشعري إلى التحكيم ، وأرسل أربعمئة من أصحابه جعل عليهم شريح بن هاني ، وعبد الله بن عباس يصلّي بهم ، والتقى

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ١ / ٤٦٩ ـ ٤٧٢.

الحكمان الضالان على حد تعبير النّبي (صلّى الله عليه وآله) [1] في دومة الجندل أو في أذرح.
ويقول المؤرّخون : إنّ ابن العاص لمْ يفتح الحديث مع الأشعري ثلاثة أيّام ، فقد أفرد له مكاناً خاصاً ، وجعل يقدّم له أطائب الطعام والشراب حتّى استبطنه وأرشاه ، ولما أيقن أنّه صار ألعوبة بيده أخذ يضفي عليه النعوت الحسنة والألقاب الكريمة حتّى ملك مشاعره وعواطفه ، فقد قال له : يا أبا موسى ، إنّك شيخ أصحاب محمّد (صلّى الله عليه وآله) وذو فضله ، وذو سابقته ، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأُمّة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها ، فهل لك أنْ تكون ميمون هذه الأُمّة فيحقن الله بك دماءها ، فإنّه يقول في نفس واحدة : (وَمَن أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا). فكيف بمَن أحيا هذا الخلق كلّه؟!

ومتى كان الأشعري شيخ صحابة النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، ومِن ذوي الفضائل والسوابق في الإسلام؟! وانخدع الأشعري بهذه الكلمات المعسولة ، فطفق يسأل ابن العاص عن سبل الإصلاح وحقن الدماء ، فأجابه ابن العاص : تخلع أنت علي بن أبي طالب ، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان ، ونختار لهذه الأُمّة رجلاً لمْ يحضر في شيء مِن الفتنة ، ولمْ يغمس يده فيها.

فبادر أبو موسى يسأل عن الرجل الذي لم ينغمس في الفتنة قائلا :

---

(١) روى سويد بن غفلة قال : كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطئ الفرات في خلافة عثمان ، فروى لي خبراً عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : سمعته يقول : «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالّين ضلاّ وأضلاّ مَنْ اتّبعهما ، ولا تنفك أمر أُمّتي حتّى يبعثوا حكمين يضلاّن ويضلاّن مَنْ اتّبعهما». فقلت له : احذر يا أبا موسي أن تكون أحدهما. قال : فخلع قميصه وقال : أبرأ إلى الله مِن ذلك كما برأ قميصي من هذا. جاء ذلك في شرح نهج البلاغة ١٣ / ٣١٥.

مَن يكون ذلك؟

وكان ابن العاص قد عرف ميول الأشعري واتجاهاته نحو عبد الله بن عمر فقال : إنّه عبد الله بن عمر. وسر الأشعري بذلك واندفع يطلب منه العهود على الالتزام بما قاله : كيف لي بالوثيقة منك؟

ـ يا أبا موسى ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب. خذ مني العهود والمواثيق حتى ترضى.

ولم يبقَ يميناً إلاّ أقسم على الالتزام بما قاله ، وأيقن الأشعري بمقالة ابن العاص ، فأجابه بالرضا والقبول ، وعيّنا وقتاً خاصاً يذيعان فيه ما اتفقا عليه.

وأقبلت الساعة الرهيبة التي كانت تنتظرها الجماهير بفارغ الصبر ، وأقبل الماكر ابن العاص مع زميله الأشعري إلى منصة الخطابة ليعلنا للناس ما اتّفقا عليه ، واتّجه ابن العاص نحو الأشعري فقال له : قم فاخطب الناس يا أبا موسى.

ـ قم أنت فاخطبهم.

وراح ابن العاص يخادع الأشعري قائلا له : سبحان الله! أنا أتقدمك وأنت شيخ أصحاب رسول الله! والله ، لا فعلت ذلك أبداً.

داخل الأشعري العجب بنفسه مِن هذه الألقاب الفخمة التي أضفاها عليه ابن النابغة ، وطلب الخامل المخدوع مِن ابن العاص الأيمان أنْ يفي له بما قال ، فأقسم له على الوفاء بما اتّفقا عليه (1) ، ولمْ تخفَ هذه

---

(1) العقد الفريد ٣ / ٣١٥.

الخديعة على حبر الأُمّة عبد الله بن عباس ، فالتفت إلى الأشعري يحذّره مِنْ مكيدة ابن العاص قائلا له : ويحك! والله إني لأظنّه قد خدعك. إن اتفقتما على أمر فقدّمه فليتكلّم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلّم أنت بعده ؛ فإن عمرا رجل غادر لا آمن مِن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك.

ولمْ يعنَ الغبي بابن عباس ، وإنّما راح يشتدّ نحو منصّة الخطابة ، فلمّا استوى عليها حمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، ثم قال : أيّها الناس ، إنّا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا مِن الأمن والصلاح ، ولَمِّ الشعث ، وحقن الدماء ، وجمع الأُلفة خلعنا عليّاً ومعاوية ، وقد خلعت عليّاً كما خلعت عمامتي هذه . وأهوى إلى عمامته فخلعها . واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنفسه ، وصحب أبوه النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فبرز في سابقته وهو عبد الله بن عمر [1].

فأ ٍّ للزمان! وتعسا للدهر أن يتحكّم في المسلمين أمثال هؤلاء الصعاليك الذين ران الجهل على قلوبهم!

لقد عزل الأشعري الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) حكيم هذه الأمّة ، ورائد العدالة الكبرى في الأرض ، الذي طوّق الدين بعبقرياته ومواهبه. لقد جعل الأشعري قيادة الأُمّة بيد عبد الله بن عمر وهو لا يحسن طلاق زوجته على حد تعبير أبيه. إنّها مِن مهازل الزمن التي تمثّلت على مسرح الحياة العامّة في ذلك العصر الذي أُخمدت فيه أضواء العقل ، وراح الإنسان يسير خلف رغباته وميوله.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد انبرى الخاتل الماكر ابن العاص إلى منصّة الخطابة

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٩.

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيّها الناس ، إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس خلع عليّاً ، وأخرجه مِن هذا الأمر الذي يطلب وهو أعلم به ، ألا وإنّي خلعت عليّاً معه وأثبتّ معاوية عليّ وعليكم. وإن أبا موسى قد كتب في الصحيفة (١) أنّ عثمان قد قُتِلَ مظلوماً شهيداً ، وأنّ لوليه أنْ يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنفسه ، وصحب أبوه النّبي (صلّى الله عليه وآله). ثم أخذ يثني على معاوية ويصفه بما هو ليس أهلاً له ، ثم قال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان (٢).

واشتدّ الأشعري نحو ابن العاص بعد ما غرّر به ونكث عهده ، فصاح به : ما لك عليك لعنة الله! ما أنت إلاّ كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث ، وإنْ تتركه يلهث. فزجره ابن العاص : لكنّك مثل الحمار يحمل أسفارا.

وصدق كلّ منهما في وصف صاحبه ، لقد جرّ هذا التحكيم إلى الأُمّة كثيراً مِن المصاعب والفتن ، وأخلد لها الخطوب والويلات.

وماج العراقيون في الفتنة ، وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه ، وانهزم الأشعري نحو مكّة يصحب معه العار والخزي له ولذرّيّته (٣) ، فقد غدر في

---

(١) وهي غير الصحيفة التي تم عليها إيقاف القتال.

(٢) أنساب الأشراف ١ / ق ١ ، الإمامة والسياسة ١ / ١٤٣.

(٣) لقد كان الناس يحقّرون ذرّية أبي موسى ويسخرون منهم ، فقد سمع الفرزدق أبا بردة بن أبي موسى يقول : كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكمين! فرد عليه الفرزدق قائلا : أمّا أحدهما فمائق ؛ وأمّا الآخر

المسلمين غدرة منكرة ، وأكثر شعراء ذلك العصر في هجاء الكوفيين وهجاء الأشعري.

يقول أيمن بن خريم الأسدي :

لـو كـان للقـومِ رأي يُعصمون بـه ... مِـن الضـلال رمـوكُم بـابن عبّـاس

لله در أبيــه أيُّمــا رجــل ... مـا مثلُـه لفصـال الخطـب في النـاس

لكـن رمـوكُم بشـيخ مِـن ذوي يمـن ... لم يـدر مـا ضـرب أخمـاس لأسـداس

إن يخـل عمـرو بـه يقذفْـه في لجُـج ... يهـوي بـه الـنّجم تيسـا بـين أتيـاس

أبلـغ لـديك عليـا غـير عاتبـه ... قـول امـرئ لا يـرى بـالحقِّ مـن بـاس

مـا الأشـعري بمـأمون أبـا حسـن ... فـاعلم هُـديت ولـيس العَجـز كـالراس

فاصـدم بصـاحبك الأدنى زعـيمَهُم ... إن ابـن عمّـك عبـاس هـو الآسـي [1]

وظفر معاوية بالنصر ، فقد عاد إليه أهل الشام يسلّمون عليه بإمرة المؤمنين ، وأمّا الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) فقد أغرق جيشه في الفتنة والفرقة والخلاف ، فجعل بعضهم يتبرأ مِنْ بعض ، وقد شاع فيهم الخلاف ، وعرفوا وبال ما جنت أيديهم ، فخطب الإمام الحسن (عليه السّلام) خطاباً مسهباً دعاهم فيه إلى الأُلفة والمودّة ، وكذلك خطب فيهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وقد شجبا في خطابهما التحكيم ، ودعا الناس إلى الطاعة ونبذ الخلاف [2] ، وقد استجاب لهم بعض الناس ، وأصرّ آخرون على التمرّد والعصيان.

ولما انتهى خبر التحكيم إلى الإمام (عليه السّلام) بلغ به الحزن أقصاه ، فجمع الناس وخطبهم خطاباً مؤثّراً ، صعّد فيه آلامه وأحزانه على مخالفة أوامره في إيقاف

ففاسق فكن ابن أيّهما شئت. جاء ذلك في شرح نهج البلاغة ١٩ / ٣٥٣. ونظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يختال في مشيته ، فقال : ألا ترون مشيته؟! كأن أباه خدع عمرو بن العاص!

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ١ / ٥٢٩.

(٢) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

القتال ، والاستجابة لنداء عدوه الذي قضى فيه على ما أحرزوه مِن الفتح والنصر.

يقول (عليه السّلام) : «الحمد لله ، وإنْ أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل ، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، الْعَالِمِ الْمُجَرِّب تُورِث الْحَسْرَةَ وَتُعْقِب النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ ، وَالْمُنَابِذِين الْعُصَاة حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحِ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُم أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَم تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الْغَدِ

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهورهما ، وارتأيا الرأي مِن قِبَلِ أنفسهما ، فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحييا ما أمات القرآن.

ثمّ اختانا في حكمهما ، فكلاهما لا يرشد ولا يسدّد ، فبرئ الله منها ورسوله وصالح المؤمنين ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا في معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله» [١].

وتهيّأت قواته المسلّحة إلى السفر في الموعد الذي ضربه لها ، وكتب إلى أهل البصرة يدعوهم إلى نصرته ، فالتحقت به كتائب مِن الجيش.

تمرّد المارقين :

وسافر الإمام (عليه السّلام) بأصحابه يريد الشام ، ولكنّه لمْ يلبث حتّى وافته الأنباء بتمرّد الخوارج وفسادهم ، وأنّهم عادوا إلى فكرتهم.

ويقول المؤرّخون : إنّ جماعة منهم خرجوا مِن الكوفة ، والتحق بهم إخوانهم مِن أهل البصرة ، وساروا جميعاً إلى النهروان فأقاموا فيها ، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً ،

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

فاستحلّوا دماء المسلمين وقالوا بكفرهم. واجتاز عليهم الصحابي عبد الله بن خباب بن الأرت ، فتصدّوا له فسألوه عن اسمه فأخبرهم به ، ثم سألوه عن انطباعاته الخاصة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) فأثنى عليه ، فاستشاطوا غضباً ، فانبروا إليه فأوثقوه كتافاً ، وأقبلوا به وبامرأته . وكانت حبلى قد أشرفت على الولادة . فجاؤوا بهما تحت نخلة ، فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم إليها فوضعها في فيه ، فأنكروا عليه فالقاها من فمه.

واخترط بعضهم سيفاً فضرب به خنزيراً لأهل الذمّة فقتله ، فصاح به بعضهم : إن هذا من الفساد في الأرض! فبادر الرجل إلى الذمّي فأرضاه ، فلمّا نظر عبد الله إلى احتياطهم في الأموال قال لهم : لئن كنتم صادقين فيما أرى ما علي منكم بأس. والله ، ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإنّي لمؤمن ، وقد آمنتموني وقلتم لا روع عليك.

فلمْ يعنوا به ، وعمدوا إليه فأقبلوا به إلى الخنزير الذي قتلوه فوضعوه عليه وذبحوه ، وأقبلوا على امرأته . وهي ترتعد من الخوف . فقالت لهم مسترحمة : إنّما إنا امرأة ، أما تتّقون الله؟! ولم تلن قلوبهم التي طبع عليها الزيغ ، فذبحوها وبقروا بطنها ، وعمدوا إلى ثلاثة نسوة فقتلوهن [1] ، وفيهن أمُ سنان الصيداويّة ، وكانت قد صحبت النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وجعلوا يذيعون الذعر وينشرون الفساد في الأرض.

وأوفد لهم الإمام (عليه السّلام) الحرث بن مرّة العبدي يسألهم عن هذا الفساد الذي أحدثوه ، ويطلب منهم أن يسلّموا إليه الذين استحلوا قتل الأنفس التي حرّم الله إزهاقها بغير حقّ ، ولمْ يكد الرسول يدنو منهم حتّى قتلوه ، ولمْ يدعوه يدلي بما جاء به.

---

(١) أنساب الأشراف.

قتال المارقين :

وكره أصحاب الإمام (عليه السّلام) أنْ يسيروا إلى الشام ، ويتركوا مِن ورائهم الخوارج يستبيحون أموالهم وأعراضهم مِن بعدهم ، فطلبوا مِن الإمام (عليه السّلام) أنْ ينهض بهم لمناجزتهم ، فإذا فرغوا منهم تحولوا إلى حرب معاوية ، فأجابهم الإمام (عليه السّلام) إلى ذلك وسار بهم حتّى أتى النهروان ، فلما صار بإزاء الخوارج ، أرسل إليهم يطلب منهم قَتَلة عبد الله بن خباب ومَن كان معه مِن النسوة ، كما طلب منهم قتلة رسوله الحرث بن مرّة ، ليكفّ عنهم ويمضي إلى حرب معاوية ، ثمّ ينظر في أمورهم ، فأجابوه : ليس بيننا وبينك إلاّ السيف ، إلاّ أنْ تقر بالكفر وتتوب كما تبنا.

فالتاع الإمام (عليه السّلام) منهم ، وانطلق يقول : «أبعد جهادي مع رسول الله وإيماني أشهد على نفسي بالكفر؟! قَدِ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» [(١)]. وجعل الإمام (عليه السّلام) يعظهم تارة ويراسلهم أُخرى ، فجعل كثير منهم يتسللون ويعودون إلى الكوفة ، وقسم منهم التحق بالإمام (عليه السّلام) ، وفريق ثالث اعتزل الحرب ، ولم يبق إلا ذو الثفنات عبد الله بن وهب الراسبي زعيم الخوارج ، ومعه ثلاث آلاف.

ولمّا يئس الإمام (عليه السّلام) مِن إرشادهم عبّأ جيشه ، وأمر بأنْ لا يبدؤوهم بقتال حتّى يُقاتلوهم. ولما نظر الخوارج إلى تهيئة الإمام (عليه السّلام) تهيّؤوا للحرب ، وكانت قلوبهم تتحرّ شوقاً إلى القتال تحرّق الظمآن إلى الماء ، وهتف بعضهم : هل مِن رائح إلى الجنّة! فتصايحوا جميعا : الرواح إلى الجنّة.

ثم حملوا حملة منكرة على جيش الإمام (عليه السّلام) وهم يهتفون بشعارهم : (لا حكم إلا لله). فانفرجت

---

(١) أنساب الأشراف.

لهم خيل الإمام (عليه السّلام) فرقين ؛ فرق يمضي إلى الميمنة ، وفرق يمضي إلى الميسرة ، والخوارج يندفعون بين الفرقين ، ولمْ تمضِ إلاّ ساعة حتّى قتلوا عن آخرهم ، ولمْ يفلت منهم إلاّ تسعة [1].

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب الإمام (عليه السّلام) مِن أصحابه أن يلتمسوا له ذا الثدية في القتلى ، ففتّشوا عنه فلمْ يظفروا به ، فعادوا إليه يخبرونه بعدم ظفرهم به ، فأمرهم ثانياً أنْ يبحثوا عنه ، قائلاً : «والله ما كذبتُ ولا كُذّبت ، ويحكم! التمسوا الرجل فإنّه في القتلى». فانطلقوا يبحثون عنه ، فظفر به رجل من أصحابه . وكان قد سقط قتيلا في ساقية . فمضى يهرول فأخبر الإمام (عليه السّلام) به ، فلما سمع النبأ خرّ ساجداً هو ومَنْ معه مِن أصحابه ، ثمّ رفع رأسه وهو يقول : «ما كذبتُ ولا كُذّبت ، ولقد قتلتم شرّ الناس». وأخذ الإمام (عليه السّلام) يحدّث أصحابه بما سمعه مِن النّبي (صلّى الله عليه وآله) فيه ، أنّه قال : «سيخرج قوم يتكلّمون بكلام الحقّ لا يجاوز حلوقهم ، يخرجون مِن الحقّ خروج السّهم . أو مروق السّهم . إنّ فيهم رجلاً مُخدج اليد ، في يده شعرات سود ، فإنْ كان فيهم فقد قتلتم شرّ الناس».

وأمر الإمام (عليه السّلام) بإحضار جثّته فأُحضرت له ، فكشف عن يده فإذا على منكبه ثدي كثدي المرأة ، وعليها شعرات سود تمتد حتّى تحاذي بطن يده الأُخرى ، فإذا تركت عادت إلى منكبه ، فلمّا رأى ذلك خرّ لله ساجداً. ثم عمد الإمام (عليه السّلام) إلى القتلى من الفريقين فدفنهم ، وقسّم بين أصحابه سلاح الخوارج ودوابهم ، وردّ الأمتعة والعبيد إلى أهليهم كما فعل ذلك بأصحاب الجمل.

وانتهت بذلك حرب النهروان التي تفرّعت مِن واقعة صفّين ، وقد

---

(١) الملل والنحل ١ / ١٥٩.

أسفرت عن تشكيل حزب ثوري عنيف ظهر في الإسلام ، وهو حزب الحرورية الذي أخذ على نفسه التمرّد على الحكومات القائمة في البلاد الإسلامية ، ومحاربتها بشكل سافر ، ممّا أدى إلى إراقة الدماء وإشاعة الفتنة والخلاف في كثير مِن تلك العصور.

لقد كان البارز في الأنظمة الدينية للخوارج هو الحكم بكفر كلّ مَنْ لا يدين بفكرتهم مِن المسلمين ، واستباحة دمائهم وأموالهم. وفيما أحسب أن أكثر الجرائم المريعة التي صدرت في معركة كربلاء تستند إلى هؤلاء الممسوخين الذين سُلِبَت عنهم كل نزعة إنسانية ؛ فقد تأثّر الكثير مِن ذلك الجيش بأخلاقهم ، فاندفعوا إلى الجريمة بأبشع صورها وألوانها.

مخلّفات الحرب :

وأعقبت تلك الحروب أعظم المحن وأشدّها هولاً ، ولمْ يُمتحن الإمام (عليه السّلام) بها وحده وإنّما امتحن بها العالم الإسلامي ؛ فقد أخلدت له الفتن ، وجرّت له الكثير مِن الويلات والخطوب ، ولعلّ أعظم ما عاناه منها ما يلي :

١ ـ انتصار معاوية :

وأتاحت الفرص لمعاوية بعد تلك الأحداث أنْ يعلن نفسه لأوّل مرّة بأنّه المرشّح للخلافة ، بعد أنْ كان حاكماً على إقليم الشام ، وراح يعلن انتصاره على الإمام (عليه السّلام) وتغلبه عليه ، بقوله : لقد حاربت عليّاً بعد صفّين بغير جيش ولا عناء ، أو لا عتاداً [١].

وأمّا الإمام (عليه السّلام) فقد أصبح بمعزل عن السلطات السياسية

---

(١) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ٢٠٠.

والعسكرية ، فكان يدعو فلا يُسمع لدعوته ، ويقول فلا يُلتفت إلى قوله.

لقد أدّت تلك الحروب إلى تحوّل الخلافة الإسلامية إلى حكم قيصري لا ظل فيه لحكم الإسلام ومنطق القرآن ؛ فقد آل الأمر إلى معاوية ، فاتّخذ مال الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، وأرغم المسلمين على ما يكرهون.

٢ ـ تفلّل جيش الإمام (عليه السّلام) :

وتفلّلت جميع القوات العسكرية في جيش الإمام (عليه السّلام) ، وشاعت الفرقة والاختلاف فيما بينها خصوصاً بعد واقعة النهروان ، فقد انحطّت معنويات الجيش.

يقول البلاذري : إن معاوية أرسل عمارة بن عقبة إلى الكوفة ليتجسس له عن حالة جيش الإمام (عليه السّلام) ، فكتب له : خرج على علي أصحابُه ونسّاكهم ، فسار إليهم فقتلهم ، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرّقوا أشدّ الفرقة.

فقال معاوية للوليد بن عقبة : أترضى أخوك بأن يكون لنا عيناً ـ وهو يضحك ـ فضحك الوليد وقال : إن لك في ذلك حظّا ونفعا. وقال الوليد لأخيه عمارة :

فَإِنْ يَكُ ظَنِّي يا ابن أمِّي صادِقِي عُمارةَ لا يُدرِكْ بِذَحلٍ وَلا وِتْرِ
تُضاحِكُ أَقتالَ ابن عَفّانَ لاهِياً أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِمَوتِ أَبِي عَمرِو
يَظَلُّ وَأَوْتارُ ابن عَفّانَ عِندَهُ مُخَيِّمَةً بَينَ الخَوَرْنَقِ وَالجِسْرِ [1]

قد نُخِر جيش الإمام (عليه السّلام) بالفتنة والخلاف ، ولمْ يكن باستطاعة الإمام (عليه السّلام) ـ بما يملك مِن طاقات خطابية هائلة ـ أنْ يرجع إليهم حوازب أحلامهم ، ويقضي على عناصر الشغب والتمرّد التي أصبحت مِن أبرز ذاتيّاتهم.

وممّا زاد في تمرّد الجيش أن معاوية راسل جماعة مِن زعماء العراق

---

(١) أنساب الأشراف.

البارزين كالأشعث بن قيس ، فمنّاهم بالأموال ، ووعدهم بالهبات والمناصب إذا قاموا بعمليات التخريب في جيش الإمام (عليه السّلام) وشعبه ، فاستجابوا إليه ، فقاموا بدورهم في إشاعة الأراجيف وتضليل الرأي العام ، وبثّ روح التفرقة والخلاف بين الناس [1] ، وقد أثّرت دعايتهم تأثيراً هائلاً في أوساط ذلك الجيش ، فقد خلعوا طاعة الإمام (عليه السّلام) وعمدوا إلى عصيانه.

لقد كانت الأكثرية الساحقة في معسكر الإمام (عليه السّلام) لهم رغباتهم الخاصة التي تتنافى مع مصلحة الدولة وغايات رئيسها ، في حين أنّ شعب الشام كان على العكس مِن ذلك.

يقول الحجّاج بن خزيمة لمعاوية : إنّك تقوى بدون ما يقوى به علي ؛ لأن معك قوما لا يقولون إذا سكتّ ، ويسكتون إذا نطقت ، ولا يسألون إذا أمرت ، ومع علي قوم يقولون إذا قال ، ويسألون إذا سكت [2].

٣ . احتلال مصر :

ولم تقف محنة الإمام (عليه السّلام) وبلاؤه عند حدّ ، وإنّما أخذت تتابع عليه المحن ، وهي كأشدّ ما تكون هولاً ، فإنّه لمْ يكد ينتهي مِن مُناجزة المارقين حتّى ابتلى في أمر دولته ؛ فقد أخذ معاوية يحتلّ أطرافها ، ويغير على بعضها ، ويشيع فيها الخوف والإرهاب ، فقد أيقن بتخاذل جيش الإمام (عليه السّلام) وما مُنِيَ به من الفرقة والاختلاف ، وقد أجمع رأيه على احتلال مصر التي هي قلب البلاد العربية ، وقد جعلها طعمة إلى وزيره وباني دولته عمرو بن العاص ؛ ليتمتع وحده بخيراتها.

وكان الإمام (عليه السّلام) قد ولّى على مصر الزعيم الكبير قيس بن سعد الأنصاري ،

---

(١) أنساب الأشراف.

(٢) الأخبار الطوال / ١٥٦.

الذي كان من ألمع الشخصيات الإسلامية في حسن سياسته وعمق تفكيره وبُعْدِ نظره ، وقد ساس المصريين أيّام المحنة سياسةَ عدلٍ وحقٍّ ، وقضى على الاضطرابات الداخلية ، ونشر المحبّة والألفة فيها. وقد عزله الإمام (عليه السّلام) عنها وولّى مكانه الطيب محمّد بن أبي بكر ، فاضطرب أمر مصر ، وظهرت الدعوة العثمانية فيها ، فعزل الإمام (عليه السّلام) محمّدا عنها وولى مكانه مالك الأشتر النخعي الذي هو من أنصح الناس للإمام (عليه السّلام) وأكثرهم إخلاصاً له ، إلاّ أنّه لمْ يكد ينتهي إلى (القلزم) حتى مات.

وأجمع المؤرّخون على أن معاوية قد أغوى صاحب الخراج في (القلزم) فدس إليه سمّا في شربة مِن عسل فمات بها ، وكان معاوية وصاحبه ابن العاص يتحدّثان بعد ذلك ويقولان : إن لله جنودا مِن عسل.

وجهّز معاوية جيشا لاحتلال مصر وأمر عليه ابن العاص ، ولما علم الإمام (عليه السّلام) ذلك أقرّ محمّداً على مصر ، ووعده بأنْ يمدّه بالجيش والمال ، وأخذ يدعو أهل الكوفة لنجدة إخوانهم في مصر فلمْ يستجيبوا له ، وجعل الإمام (عليه السّلام) يلح عليهم ويطلب منهم النجدة ، فاستجاب له جند ضئيل كأنّما يساقون إلى الموت ، فأرسلهم إلى مصر ، ولكنّه لمْ يلبث أن وافته الأنباء بأنّ ابن العاص قد احتل مصر ، وأنّ عامله محمّداً قد قُتِلَ وأُحرِقَت جثته في النار ، فردّ جنده وخطب أهل الكوفة خطاباً مثيراً ندّد بهم ، ونعى عليهم تخاذلهم وخور عزائمهم.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ احتلال مصر قد قوى شوكة معاوية ، ودفعه إلى أنْ يغزو أهل العراق في عقر دارهم.

الغارات :

ولمْ يقنع معاوية بما أحرزه مِن النصر في احتلاله لمصر ، وإنّما راح يشيع الذعر والهلع في البلاد الخاضعة لحكم الإمام (عليه السّلام) ؛ ليشعر أهلها بأن عليّا قد ضَعُف سلطانه ، وأنّه لا يتمكّن مِن حمايتهم وردّ الاعتداء عنهم ، وقد شكّل قِطَعاً مِن جيوشه وعهد إليها أنْ تتوغّل في البلاد ، وتشيع فيها الفساد والقتل ، وقد ولّى عليها جماعة مِن السفّاكين الذين تمرّسوا في الجرائم ، وتجرّدوا مِنْ كلّ نزعة إنسانية ، وعهد لكلّ واحد منهم أن يقتل كل مَن كان شيعة للإمام (عليه السّلام) ، ويغير على جهة خاصة بسرعة خاطفة.

ونعرض بإيجاز إلى بعض تلك الغارات :

الغارة على العراق :

وشكّل معاوية أربع قِطَع للغارة على أطراف العراق وداخله ؛ ليملأ قلوب العراقيين فزعا وخوفا حتى لا يستجيبوا للجهاد إذا دعاهم الإمام (عليه السّلام) إليه ، وهذه بعض المناطق العراقية التي غار عليها.

١ ـ عين التّمر :

وأرسل معاوية النعمان بن بشير الأنصاري في ألف رجل إلى عين التّمر ، وكان فيها مالك بن كعب ، ومعه كتيبة مِن الجيش تبلغ ألف رجل ، إلاّ أنّه لمْ يعلم بغزو أهل الشام له ، فأذن لجنده بإتيان أهلهم في الكوفة ، وبقي في مئة رجل ، ولما دهمه جيش معاوية قاومه مقاومة باسلة ، وتوجّهت

له نجدة تبلغ خمسين رجلاً ، فلمّا رآهم النعمان فزع وولّى هارباً ، فقد ظنّ أنّ لهم مدداً ، ولما بلغت الإمام (عليه السّلام) أنباء هذه الغارة قام خطيباً في جيشه يدعوهم إلى نجدة عامله ، فقال (عليه السّلام) : «يا أهل الكوفة ، كلّما أطلّت عليكم سرية ، وأتاكم مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا ، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا. الذَّلِيل وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ ، فقبحاً لكم وترحاً! وقد ناديتكم وناجيتكم ، فلا أحرار عند اللقاء ، ولا إخوان [١] عند النجا ، قد مُنيتُ منكم بصُمٍّ لا يسمعون ، وبُكمٍ لا يعقلون ، وكمّه لا يبصرون» [٢].

٢ ـ هيت :

ووجّه معاوية للغارة على هيت سفيان بن عوف وضم إليه ستة آلاف ، وأمره أن يأتي بعد الغارة عليها إلى الأنبار والمدائن فيوقِع بأهلها ، وسار بجيشه إلى هيت فلمْ يجد بها أحداً ، فانعطف نحو الأنبار ، فوجد بها مسلحة للإمام (عليه السّلام) تتكون مِن مئتي رجل فقاتلهم ، وقُتِلَ أشرس بن حسّان البكري مع ثلاثين رجلاً مِن أصحابه ، ثمّ نهبوا ما في الأنبار مِن أموال ، وتوجّهوا إلى معاوية وهم مسرورون بما أحرزوه مِن النصر ، وبما نهبوه مِن الأموال [٣].

وبلغت أنباء الأنبار عليّاً فأثارته إلى حدّ بعيد ، وبلغ به الغيظ أقصاه ، وكان عليلا لا يمكنه الخطاب ، فكتب كتاباً قُرأ على الناس ، وقد أُدْنِيَ مِن السّدرة ليسمع القراءة [٤] ، وهذا نصه :

---

(١) في الطبري : ولا إخوان ثقة.

(٢) أنساب الأشراف.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٨٩.

(٤) أنساب الأشراف.

«أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الجِْهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجْنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الحَْصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ ، وَشَمِلَه الْبَلاء ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ ، وَأُدِيلَ الحَْقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الجِْهَاد وَسِيم الخَْسْف وَمُنِع النَّصَف. أَلا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَسِرّاً وَإِعْلاناً ، وَقُلْت لَكُم : اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ ؛ فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاّ ذَلُّوا ، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ. وَهَذَا أَخُو غَامِد قَد وَرَدَت خَيْلُه الأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُل مِنْهُم كَان يَدْخُل عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَة وَالأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا ، وَقَلائِدَهَا وَرُعُثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاّ بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرا. فَيَا عَجَبا! عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُم عَن حَقِّكُم! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى ، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ ، وَتُغْزَوْنَ وَلا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ! فَإِذَا أَمَرْتُكُم بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الحَْرِّ قُلْتُم : هَذِه حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الحَْرُّ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيهِم فِي الشِّتَاء قُلْتُم : هَذِه صَبَارَّة الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخ عَنَّا الْبَرْد. كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الحَْرِّ وَالْقُرِّ ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَْرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ ، فَأَنْتُمْ وَاللَّه مِن السَّيْف أَفَرُّ.

يَا أَشْبَاه الرِّجَال وَلا رِجَال! حُلُومُ الأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الحِْجَالِ ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُم مَعْرِفَة وَاللَّه جَرَّت نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً ؛ قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالخِْذلان حَتَّى لَقَد قَالَت قُرَيْش : إِنَّ ابْن أَبِي طَالِب رَجُل شُجَاع وَلَكِن لا عِلْم لَه بِالحَْرْب. لِلَّه أَبُوهُم! وَهَل أَحَد مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً ، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَد نَهَضْت فِيهَا وَمَا بَلَغْت الْعِشْرِين[١] وَهَا أَنَا ذَا قَد ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ ، وَلَكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ» [٢].

(١) في رواية «وما بلغت العشرين».

(٢) انسب الاشراف.

وقد صوّر هذا الخطاب ما في نفس الإمام (عليه السّلام) مِن غيظ ممضٍ ، ويأسٍ شديدٍ مِن أصحابه الذين امتلأت قلوبهم خوفاً وذلاً مِن أهل الشام ، فتخاذلوا وقبعوا في بيوتهم يطاردهم الفزع ، حتّى فسد على الإمام (عليه السّلام) أمره.

٣ . واقصة :

ووجّه معاوية الضحّاك بن قيس الفهري إلى واقصة ليغير على كل مَن كان فيها مِن شيعة الإمام (عليه السّلام) ، وضمّ إليه ثلاثة آلاف رجل ، فسار الضحّاك فنهب أموال الناس ، وقتل كل مَن ظن أنّه على طاعة الإمام (عليه السّلام) ، وسار حتّى انتهى إلى القطقطانة وهو يشيع القتل والإرهاب ، ثمّ سار إلى السماوة ، وبعدها ولّى إلى الشام.

ولمّا وافت الأنباء الإمام (عليه السّلام) قام خطيباً في جيشه ، وقد دعاهم إلى صد هذا الاعتداء فلمْ يستجب له أحد ، فقال (عليه السّلام) : «وددت والله أن لي بكل عشرة منكم رجلاً مِن أهل الشام ، وإنّي صرفتكم كما يصرف الذهب ، ولوددت أنّي لقيتهم على بصيرتي فأراحني الله مِن مقاساتكم ومداراتكم». وسار الإمام (عليه السّلام) وحده نحو الغريّين لصد هذا الاعتداء ، فلحقه عبد الله بن جعفر بدابة فركبها ، ولما رأى الناس ذلك خفّ إليه بعضهم ، فسرح (عليه السّلام) لطلب الضحاك حِجْر بن عدي في أربعة آلاف ، وسار في طلبه فلمْ يدركه فرجع [1].

لقد أخذت غارات معاوية تتوالى على العراق مِن دون أن تتعرّض لأيّ مقاومة تذكر ، وقد يقن علوية لمضر لظفر ما ني به أصحاب الإمام (عليه السّلام) مِن التخاذل.

---

(١) أنساب الأشراف.

الغارة على الحجاز واليمن :

وبعث معاوية بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف للغارة على الحجاز واليمن ، فاتّجه نحو يثرب فلم يجد مِنْ أهلها أيّة مقاومة ، فصعد المنبر ورفع عقيرته يندب عثمان ، وينشر الرعب والإرهاب بين الناس.

وأخذ البيعة مِنْ أهلها لمعاوية ، ثمّ سار إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملاً للإمام (عليه السّلام) ، فهرب منه حتّى أتى الكوفة ، فاستخلف الإمام (عليه السّلام) عليها عبد الله الحارثي فقتله بسر وقتل ابنه ، وعمد إلى طفلين لعبيد الله فقتلهما ، ولما انتهى خبرهما إلى أُمّهما فقدت وعيها ، وراحت ترثيهما بذوب روحها ، بأبياتها المشهورة [1].

لقد قام سلطان معاوية على قتل الأبرياء ، وذبح الأطفال ، وأشاع الرعب والفزع في البلاد.

ولمّا انتهت الأنباء الأليمة إلى الإمام (عليه السّلام) خارت قواه ، ومزّق الأسى قلبه ، وراح يخطب في جيشه ، يذكر ما عاناه مِن الخطوب والكوارث منهم ، قائلاً : «أُنبئت بسرا قد أطلع اليمن [2] ، وإنّي والله لأظنّ أنّ هؤلاء القوم سيدالون [3] منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم ، وبمعصيتكم إمامكم في الحقّ وطاعتهم إمامهم في الباطل ، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٣.

(٢) أطلع اليمن : بلغها واحتلتها قواته.

(٣) سيدالون : أي ستكون لهم الدولة بسبب اجتماع كلمتهم ، واختلاف رأي العراقيّين.

قُعب [١] لخشيت أن يذهب بعلاقته [٢]. اللهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني ، وسئمتهم وسئموني ، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شرّاً منّي. اللهمّ مِث في قلوبهم كما يُماث الملح في الماء ، أما والله لوددت أن لي ألف فارس مِن بني فرس ابن غنم [٣] :

هنالك لو دعوت أتاك منهُم فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل عن المنبر [٤] وهو غارق بالهموم والأحزان ، قد استولى اليأس على نفسه مِن أصحابه الذين أصبحوا أعصابا رخوة خالية مِن الشعور والإحساس.

هذه بعض الغارات التي شنّها معاوية على العراق وخارجه من الأقاليم الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام (عليه السّلام) ، وكان المقصود منها زعزعة هذه المناطق مِن إيمانها بمقدرة الإمام (عليه السّلام) على حمايتها مِن الاعتداء ، وإذاعة مقدرة معاوية وقوته العسكرية ، وتقوية الروح المعنوية في جيشه ، وحزبه المنتشر في تلك البلاد.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد صوّرت هذه الغارات جانباً كبيراً مِن الضعف والتمرّد في جيش الإمام (عليه السّلام) ، حتّى طمع معاوية في شنّ هجومٍ عامٍ على العراق لاحتلاله ، والقضاء على حكومة الإمام (عليه السّلام) ، ومِن المؤكد ، أنّه لو فعل ذلك لوجد الطريق سهلاً ، ولمْ يجد أيّة صعوبة أو مقاومة تذكر ، فقد خلُد القوم إلى الراحة ، وسئموا مِن الجهاد.

---

(١) القُعب بالضم : القدح الكبير.

(٢) عِلاقته بكسر العين : ما يعلق به القعب من ليف ونحوه.

(٣) بنو فرس : قبيلة عربية مشهورة بالشجاعة والإقدام.

(٤) نهج البلاغة محمّد عبده ١ / ٦٠.

عبث الخوارج :

وتواكبت المحن الشاقّة على الإمام (عليه السّلام) يقفو بعضاً ، فغارات معاوية متصلة على العراق وخارجه ، وهي تنشر الرعب والهلع في قلوب المواطنين ، والإمام (عليه السّلام) لا يتمكن على حماية الأمن وصيانة الناس مِن الاعتداء ؛ فقد خلع جيشه يد الطاعة وأعلن العصيان والتمرّد ، ولمْ يعُدْ له أي نفوذ أو سلطان عليه ، ومِن تلك المحن الشاقّة التي ابتلي بها الإمام (عليه السّلام) هي فتنة الخوارج ؛ فإنّه لمْ يقضِ عليهم في النهروان ، وإنّما قضى على جماعة منهم ، وبقي أكثرهم يعيشون معه ، وهم يكيدون له ويتربّصون به الدوائر ، ويحوّلون قلوب الناس عنه. قد أمِنوا مِن بطشه ، واستيقنوا أنّه لن يبسط عليهم يداً ، ولا ينزل بهم عقوبة ، وقد أطمعهم عدله وأغراهم لينه ، فراحوا يجاهرون بالردّ والإنكار عليه ، فقد قطع بعضهم عليه خطبته تالياً قوله تعالى : (لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . فأجابه الإمام (عليه السّلام) بآية أُخرى : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ) .

وجاءه الخريت بن راشد السامي في ثلاثين من أصحابه فقال له : يا علي ، والله لا أطيع أمرك ، ولا أُصلّي خلفك ، وإنّي غداً مفارق لك. فلطف به الإمام (عليه السّلام) وحاججه ، وخلّى بينه وبين حرّيته فلمْ يسجنه ، وإنّما ترك له الطريق مفتوحا. وولى الرجل إلى قومه مِن بني ناجية فأخبرهم بما كان بينه وبين الإمام (عليه السّلام) ، ثمّ خرج في الليل يريد الحرب ، وجرت أحداث كثيرة في خروج الخريت وتمرّده ذكرها المؤرّخون بالتفصيل.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ المسؤولية الكبرى في كثير مِن الأحداث المفزعة التي مُنِيَ بها العالم الإسلامي تقع على الخوارج ، فهم الذين قضوا على مصير

الأُمّة في أهم الفترات الحاسمة مِن تاريخها حينما كُتِب النصر للإمام (عليه السّلام) ، وباء معاوية بالهزيمة والفشل ، بحيث لمْ يبقَ مِن حياته إلاّ فترةٍ يسيرةٍ مِن الزمن ، قدّرها قائد القوات العسكرية في جيش الإمام (عليه السّلام) مالك الأشتر بحلبة شاة أو بعدوة فرس ، فأضاعوا ذلك النصر الكبير ، وأرغموا الإمام (عليه السّلام) على قبول التحكيم.

دعاء الإمام (عليه السّلام) على نفسه :

وطاقت بالإمام (عليه السّلام) موجات رهيبة ومذهلة مِن الأحداث والأزمات ، فهو يرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قد تمّ ، ويرى نفسه في أرباض الكوفة ، قد احتوشته ذئاب العرب الذين كرهوا عدله ، ونقموا عليه مساواته ، وعملوا جاهدين على الحيلولة بينه وبين تحقيق آماله من القضاء على الإثرة والاستعلاء والطغيان.

والشيء الوحيد الذي أقض مضجع الإمام (عليه السّلام) هو تمزّق جيشه ، وتفلّل جميع وحداته ، فقد أصبح بمعزل عن جميع السلطات ، وقد نظر (عليه السّلام) إلى المصير المؤلم الذي سيلاقونه مِن بعده ، فقال : «أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وإثرة يتّخذها الظالمون فيكم سُنّة ؛ فيفرّق جماعتكم ، ويبكي عيونكم ، ويدخل الفقر بيوتكم ، وتتمنون عن قليل أنّكم رأيتموني فنصرتموني ، فستعلمون حقّ ما أقول لكم ، ولا يبعُد الله إلاّ مَنْ ظلم وأثم» [١].

ولم يجد نصح الإمام (عليه السّلام) معهم شيئاً ، فقد تمادوا في الغي ، وعادت لهم جاهليتهم الرعناء. وقد سئم الإمام (عليه السّلام) منهم وراح يتمنّي مفارقة حياته ، فكان كثيراً ما يقول

---

(١) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ٢٠٠.

في خطبة : «متى يُبْعَث أشقاها؟». وأخذ يلحّ بالدعاء ، ويتوسّل إلى الله بقلب منيب أنْ يريحه منهم.

فقد روى البلاذري ، عن أبي صالح ، قال : شهدت عليّاً وقد وضع المصحف على رأسه ، حتى سمعت تقعقع الورق وهو يقول : «اللّهم ، إنّي سألتهم ما فيه فمنعوني ذلك. اللهم إني قد مللتهم وملّوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، وحملوني على غير خُلُقي ، وعلى أخلاقٍ لمْ تكن تُعرف لي ، فأبدلني خيراً لي منهم ، وأبدلهم بي شرّاً ، ومِث قلوبهم ميث الملح» [١].

واستجاب الله دعاء وليّه العظيم ، فنقله بعد قليل إلى حضيرة القدس مع النبيّين والصدّيقين ، وأراحه مِن ذلك المجتمع الذي كره الحقّ ونقم على العدل ، وقد سلّط الله عليهم أرجاس البشرية ، فأخذوا يمعنون في ظلمهم وإذلالهم ، فيأخذون البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتلون على الظنّة والتهمة ، فاستيقظوا عند ذلك ، وأخذوا يندمون أشدّ الندم على ما اقترفوه مِن الإثم تجاه الإمام (عليه السّلام) ، وما فرّطوا به مِن عصيانه وخذلانه.

هذه بعض مخلّفات تلك الحروب التي امتُحن بها الإمام (عليه السّلام) كأشد ما يكون الامتحان قسوة وإرهاقاً ، ولمْ يُمتحن بها وحده ، وإنّما امتُحن بها العالم الإسلامي بأسره ؛ فقد أخلدت للمسلمين المشاكل والخطوب ، وألقتهم في شرٍّ عظيم.

لقد واكب الإمام الحسين (عليه السّلام) هذه الأحداث المفزعة التي جرت على أبيه ، ووقف على واقعها ، وقد استبان له كراهية القوم لأبيه ؛ لأنّه لمْ يداهن في دينه ، وأراد أنْ يحمل الناس على الحقّ المحض ، والعدل الخالص ، ولا يدع محروماً ولا مظلوماً في البلاد.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ هذه الحروب قد ساهمت مساهمة إيجابية في خلق كارثة كربلاء التي لم تأت إلاّ بعد انهيار الأخلاق ، وإماتة الوعي الديني والاجتماعي ، وإشاعة الانتهازية والتحلل بين أفراد المجتمع ، فقد سيطرت

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

الرأسمالية القرشية على الشؤون الاجتماعية ، فأخذت تعيث فساداً في الأرض ، وتنقض جميع ما أقامه الإسلام مِن صروح للفضيلة والأخلاق. وكان مِن أسوء ما قامت به أنّها عملت جاهدة على إشاعة العداء والكراهية لأهل البيت (عليهم السّلام) ، الذين هم مصدر الوعي والإحساس في هذه الأُمّة.

فقد عمدت بشكل سافر إلى تقطيع أوصالهم على صعيد كربلاء ، وإبادتهم إبادةً جماعيةً بصورة رهيبة لم يحدث لها نظير في تاريخ الإنسانية.

أُفول دولة الحق

وليس في تاريخ هذا الشرق ولا في غيره حاكم كالإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) في عدله ونزاهته ، وإيثاره للحقّ على كلّ شيء ، فقد كان . فيما أجمع عليه المؤرّخون . لم يخضع لأيّة نزعة عاطفية ، ولمْ يستجب لأي هوى مطاع ، وإنّما سار على الطريق الواضح والمنهج السليم الذي سلكه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فلمْ يحاب ولمْ يداهن في دينه ، وتبنّى النصح الخالص لجميع المسلمين ، وقد حاول جاهداً أيّام حكومته أن يرفع راية الإسلام ويحقّق مبادئه التي كان منها رفع الحيف والظلم ، ومنع الاستغلال ، وإزالة الفوارق بين أبناء المسلمين.

وكان مِن أعظم ما عنى به وضع أموال الدولة في مواضعها ، فلمْ ينفقَ أيّ شيء منها إلاّ على مرافقها التي عيّنها الإسلام ، وما تاجر بها ، ولو اشترى بها العواطف والضمائر . كما كان يفعل معاوية . لما تنكّر عليه النفعيون في جيشه ، كالأشعث بن قيس وغيره مِن أقطاب الخيانة والعمالة. لقد احتاط في أموال الدولة كأشدّ ما يكون الاحتياط ، وأجهد نفسه وحمّلها مِنْ أمره رهقاً مِنْ أجل أن يبسط العدل الاقتصادي بين الناس.

يقول عبد الله بن رزين : دخلت على علي (عليه السّلام) يوم الأضحى ، فقرّب إلينا حريرة ، فقلت له : أصلحك الله! لو قرّبت إلينا مِن هذا البط فإن الله قد أكثر الخير. فقال : «يا بن رزين ، سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : لا يحل لخليفة مِن مال الله إلا قصعتان ؛ قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يضعها بين يدي الناس» [1].

وقد نقم على سياسته كلّ مَنْ استسلم لدوافع المادة وشهواتها ، فراحوا يعملون جاهدين للإطاحة بحكومته ، وتشكيل حكومة تضمن مصالحهم الاقتصادية والسياسية. ومِن المؤكد أن الإمام (عليه السلام) كان يعلم كيف يجلب له الطاعة ، وكيف يبسط

---

(١) جواهر المطالب . شمس الدين أبو البركات / ٤٣ ، مِن مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام).

سلطانه ونفوذه على أُولئك الذين نقموا عليه ، ولكن ذلك لا يتم إلاّ بأنْ يداهن في دينه ، فيوارب ويخادع ، ويعطي المال في غير حقّه ، فيكون كبقية عشّاق المُلْك والسلطان. ومِن الطبيعي إن الانحراف عن الحق والمتاجرة بمصالح الأُمّة ممّا يأباه علي (عليه السّلام) ، وتأباه مُثُلُه العليا ، فلا السلطة تغريه ، ولا اجتماع الناس حوله تزيده عزّة ، ولا تفرّقهم عنه تزيده وحشة كما كان يقول.

لقد كان الإمام (عليه السّلام) يؤمن إيماناً خالصاً بالدين ، ويرى مِن الضرورة أنْ يكون هو المسيطر على قلوب الناس وتفكيرهم ، وأنْ لا يكون هناك أيّ ظلّ للمنافع والأهواء. وممّا لا شك فيه أن هذا النوع الخالص مِن الإيمان لم يتحقق إلاّ للقلة القليلة مِن أصحابه ، كحِجْر بن عدي ، ومالك الأشتر ، وعدي بن حاتم ، وميثم التمّار ونظرائهم ممّن تغذّوا بهديه ، وهم الذين قرؤوا القرآن فأحكموه ، وتدبّروا الفرض فأقاموه ، وأحيوا السُنّة وأماتوا البدعة على حدّ تعبيره. أمّا الأكثرية الساحقة مِن جيشه وشعبه ، فإنّهم لمْ يعوا أهدافه ومبادئه ، وجهلوا القيم العليا في سياسته المشرقة التي كانت تهدف إلى ضمان حقوق المظلومين والمضطهدين.

لقد تحرّى الإمام (عليه السّلام) في سلوكه السياسي ، فأخضع سياسته العامّة للقيم الدينية والخلقية ؛ فبسط الحق بجميع رحابه ومفاهيمه ، ولمْ يعد أي نفوذ للأقوياء ، ولا سلطان للرأسمالية القرشية التي كانت تعتبر السواد بستانا لقريش. وقد هبّت القوى المنحرفة عن الحق في وجه الإمام (عليه السّلام) فأشعلت نار الحرب ، وأوقفت مسيرة الإمام (عليه السّلام) في تطبيق العدل الاجتماعي ، ووضعت السدود والحواجز في طريقه.

وقد وقف الإمام العظيم ملتاعاً حزيناً ، قد احتوشته ذئاب الإثرة والاستغلال ، وتناهبت مشاعره الأحداث المفزعة التي تواكبت عليه ، وكان مِن أفجعها الفتن الداخلية التي كانت تثيرها الخوارج ، الذين كانوا يعيشون معه ، وهم يجاهرونه بالعداء ، وينشرون الفتن والاختلاف ، ويتربصون

الفرص للخروج عليه.

مؤتمر مكة :

ونزح فريق مِن الخوارج إلى مكة فعقدوا فيها مؤتمراً ، عرضوا فيه مصارع إخوانهم الذين قتلوا في النهروان ، كما عرضوا فيه الأحداث الجسام التي يواجهها العالم الإسلامي والتي أدّت إلى اختلافه وتفكّكه ، وعزوها إلى ثلاث . حسب ما يزعمون . : الإمام علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص.

وقد عقدوا النيّة بعد تبادل الرأي على القيام باغتيالهم ، وانبرى لتنفيذ هذا المخطط كلّ مِنْ.

١ . عبد الرحمن بن ملجم : تعهد بقتل الإمام علي (عليه السّلام).

٢ . الحجّاج بن عبد الله الصريمي : تعهد بقتل معاوية.

٣ . عمرو بن بكر التميمي : التزم بقتل ابن العاص.

وقد اتفقوا على القيام بعملية الاغتيال في ليلة الثامن عشر مِن رمضان ، ساعة خروج هؤلاء الثلاثة إلى صلاة الصبح ، وقد أقاموا بمكة أشهراً ، واعتمروا في رجب ، ثمّ تفرّقوا وقصد كلّ واحد لتنفيذ ما عهد إليه.

رأي رخيص :

مِن الآراء الزائفة التي تحملها بعض الكتب ما ذهب إليه الدكتور (بديع شريف) مِن اتّهام الفرس بقتل علي [1] ، وهل وقف الدكتور على نسب ابن ملجم وأنّه كان فارسياً؟! أليس هو مِن مراد إحدى القبائل

(١) الصراع بين الموالي والعرب / ٣٢ . ٣٣.

العربية التي كانت تقطن في الكوفة؟! وعلّق الدكتور نوري جعفر على هذا الرأي بقوله : ومَن يدري! فلعلّ حبّ الفرس لعلي هو الذي جعل هؤلاء الكتّاب يبغضونهم ، ويكيلون لهم التهم بغير حساب [١].

اشتراك الأُمويِّين في المؤامرة :

وذكر المؤرخون هذا الحادث الخطير بشيء كثير مِن التحفّظ ، فلمْ يكشفوا النقاب عن أبعاده ، والذي نراه في كثير مِن الترجيح أنّ المؤامرة لمْ تكن مقتصرة على الخوارج ، وإنّما كان للحزب الأُموي ضلع كبير فيها ، والذي يدعم ذلك ما يلي :

١ ـ أن أبا الأسود الدؤلي ألقى تبعة مقتل الإمام (عليه السّلام) على بني أُميّة ، وذلك في مقطوعته التي رثا بها الإمام (عليه السّلام) ، فقد جاء فيها :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرّاً أجمعينا
قتلتُم خير مَن ركب المطايا ... ورحّلها ومَن ركب السفينا [٢]

ومعنى هذه الأبيات أن معاوية هو الذي فجع المسلمين بقتل الإمام (عليه السّلام) ، الذي هو خير الناس ، فهو مسؤول عن إراقة دمه. ومِن الطبيعي أن أبا الأسود لم ينسب هذه الجريمة لمعاوية إلاّ بعد التأكد منها ، فقد كان الرجل متحرّجا أشد التحرّج فيما يقول.

٢ ـ أنّ القاضي نعمان المصري ، وهو مِن المؤرّخين القُدامى ، قد ذكر قولاً في أنّ معاوية هو الذي دس ابن ملجم لاغتيال الإمام (عليه السّلام) ، قال ما نصه :

---

(١) الصراع بين الموالي ومبادئ الإسلام / ١٠٣.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٨.

وقيل : إن معاوية عامَلَه ـ أي عامل ابن ملجم ـ على ذلك ـ أي على اغتيال الإمام (عليه السّلام) ـ ودسّ إليه فيه ، وجعل له مالاً عليه [1].

٣ ـ وممّا يؤكد اشتراك الحزب الأُموي في المؤامرة هو أنّ الأشعث بن قيس قد ساند ابن ملجم ، ورافقه أثناء عملية الاغتيال ، فقد قال له : النجا فقد فضحك الصبح. ولمّا سمعه حِجْر بن عدي صاح به : قتلته يا أعور! وكان الأشعث مِن أقوى العناصر المؤيدة للحزب الأُموي ، فهو الذي أرغم الإمام (عليه السّلام) على قبول التحكيم ، وهدّد الإمام (عليه السّلام) بالقتل قبل قتله بزمان قليل ، كما كان عيناً لمعاوية بالكوفة.

إنّ المؤامرة ـ كما يقول الرواة ـ قد أُحيطت بكثير مِن السرّ والكتمان ، فما الذي أوجب فهم الأشعث ودعمه لها لولا الإيعاز إليه مِن الخارج؟!

٤ ـ إنّ مؤتمر الخوارج قد انعقد في مكة أيّام موسم الحجّ ، وهي حافلة ـ مِن دون شك ـ بالكثيرين مِن أعضاء الحزب الأُموي الذين نزحوا إلى مكة لإشاعة الكراهية والنقمة على حكومة الإمام (عليه السّلام) ، وأغلب الظنّ أنّهم تعرّفوا على الخوارج الذين كانوا مِن أعدى الناس للإمام (عليه السّلام) ، فقاموا بالدعم الكامل لهم على اغتيال الإمام (عليه السّلام).

وممّا يساعد على ذلك أنّ الخوارج بعد انقضاء الموسم أقاموا بمكة إلى رجب ، فاعتمروا في البيت ، ثمّ نزحوا إلى تنفيذ مخططهم ، فمِن المحتمل أنْ يكونوا في طيلة هذه المدّة على اتصال دائم مع الحزب الأُموي ، وسائر الأحزاب الأُخرى المناهضة لحكم الإمام (عليه السّلام).

٥ ـ والذي يدعو إلى الاطمئنان في أنّ الحزب الأُموي كان له الضلع الكبير في هذه المؤامرة ، هو أن ابن ملجم كان معلّما للقرآن [2] ،

---

(١) المناقب والمثالب ـ القاضي نعمان المصري / ٩٨ ، مِن مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم.

(٢) لسان ميزان ٣ / ٤٤٠.

وكان يأخذ رزقه مِن بيت المال ، ولمْ تكن عنده أيّة سعة مالية ، فمِنْ أين له الأموال التي اشترى بها سيفه - الذي اغتال به الإمام (عليه السّلام) - بألف وسمّه بألف؟! ومِن أين له الأموال التي أعطاها مهراً لقطام ، وهو ثلاثة آلاف وعبد وقَينة؟! كل ذلك يدعو إلى الظن أنّه تلقّى دعما ماليا مِن الأُمويّين إزاء قيامه باغتيال الإمام (عليه السّلام).

٦ - وممّا يؤكد أن ابن ملجم كان عميلا للحزب الأُموي هو أنّه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص ، وزميلاً له منذ عهدٍ بعيدٍ ؛ فإنّه لما فتح ابن العاص مصر كان ابن ملجم معه ، وكان أثيراً عنده ، فقد أمره بالنزول بالقرب منه [(١)].

وأكبر الظن أنّه أحاط ابن العاص علما بما اتفق عليه مع زميليه مِن عملية الاغتيال له وللإمام (عليه السّلام) ومعاوية ؛ ولذا لمْ يخرج ابن العاص إلى الصلاة ، وإنّما استناب غيره ، فلم تكن نجاته وليدة مصادفة ، وإنّما جاءت وليدة مؤامرة حيكت أُصولها مع ابن العاص.

هذه بعض الأُمور التي توجب الظن باشتراك الحزب الأُموي في تدبير المؤامرة ودعمها.

اغتيال الإمام (عليه السّلام) :

وأطلّ على المسلمين شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ، وقد كان الإمام (عليه السّلام) على يقين بانتقاله إلى حظيرة القدس في بحر هذا الشهر العظيم ، فكان يجهد نفسه ويرهقها على أنْ يفطر على خبز الشعير وجريش الملح ، وأنْ لا يزيد على ثلاث لقم - حسب ما يقوله المؤرّخون - ، وكان يُحيي ليالي هذا الشهر بالعبادة.

ولما أقبلت ليلة الثامن عشر أحس الإمام (عليه السّلام) بنزول الرزء القاصم ،

---

(١) لسان ميزان ٣ / ٤٤٠.

فكان برماً تساوره الهموم والأحزان ، وجعل يتأمل في الكواكب ، وهي مرتعشة الضوء كأنّها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض ، وطفق يقول :

«ما كذبتُ ولا كُذّبت ، إنّها الليلة التي وُعِدْتُ فيها».

وأنفق الإمام (عليه السّلام) ليله ساهراً ، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الإسلام ، وزاد وجيبه وشوقه لملاقاة ابن عمّه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؛ ليشكو إليه ما عاناه مِن أُمّته مِن الأود. وتوجّه الإمام (عليه السّلام) بمشاعره وعواطفه إلى الله يطلب منه الفوز والرضوان ، وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر ـ الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين ـ انطلق الإمام (عليه السّلام) فأسبغ الوضوء ، وتهيّأ إلى الخروج مِن البيت ، فصاحت في وجهه وزّ ، كأنّها صاحب ملتاعة حزينة ، تُنذر بالخطر العظيم الذي سيدهم أرض العرب والمسلمين.

وتنبّأ الإمام مِن لوعتهن بنزول القضاء ، فقال : «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، صوائح تتبعها نوائح» [1]. وخرج الإمام (عليه السّلام) إلى بيت الله ، فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله ، ثمّ شرع في صلاته ، وبينما هو ماثل بين يدي الله وذكره على شفتيه إذ هوى عليه المجرم الخبيث عبد الرحمن بن ملجم ، وهو يهتف بشعار الخوارج : (الحكم لله لا لك) ، فعلا رأس الإمام (عليه السّلام) بالسيف فقدّ جبهته الشريفة التي طالما عفّرها بالسجود لله ، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدّس الذي ما فكّر فيه إلا في سعادة الناس ، وجمعهم على صعيد الحقّ. ولمّا أحس الإمام (عليه السّلام) بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة ، وانطلق صوته يدوّي في رحاب الجامع قائلا : «فزت وربِّ الكعبة».

لقد كنتَ يا أمير المؤمنين أوّل الفائزين ، وأعظم الرابحين

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٩١.

بمرضاة الله ، فقد سايرتَ الحقّ منذ نعومة أظفارك ، فلمْ تداهن في دينك ، ولمْ تؤثر رضا أحدٍ على طاعة الله ، قد جاهدتَ وناضلتَ مِن أجل أنْ تعلو كلمة الله في الأرض ، ووقيتَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بنفسك ومُهجتك. لقد فزتَ ، وانتصرتْ مبادئك ، وبقيتَ أنت وحدك حديث الدهر بما تركته مِن سيرةٍ مشرقةٍ أضاءت سماء الدنيا ، وغذّت الأجيال بجوهر الحقّ والعدل.

وخف الناس مسرعين إلى الجامع حينما نُعي مقتل الإمام (عليه السّلام) ، فوجدوه طريحاً في محرابه وهو يلهج بذكر الله ، قد نزف دمه. ثم حُمِل إلى داره والناس تعجّ بالبكاء ، وهم يهتفون . بذوب الروح . : قُتل إمام الحق والعدل! قُتِل أبو الضعفاء وأخو الغرباء! واستقبلته عائلته بالصراخ ، فأمرهنّ (عليه السّلام) بالخلود إلى الصبر. وغرق الإمام الحسن (عليه السّلام) بالبكاء ، فالتفت إليه الإمام (عليه السّلام) قائلا : «يا بُني ، لا تبكِ فأنت تُقْتَلُ بالسمّ ، ويُقْتَلُ أخوك الحُسين بالسيف». وتحقّق تنبّؤ الإمام (عليه السّلام) ، فلمْ تمضِ حفنةٌ مِن السنين وإذا بالحسن (عليه السّلام) اغتاله معاوية بالسمّ فذابت أحشاؤه ، وأمّا الحُسين (عليه السّلام) فتناهبت جسمه السيوف والرماح ، وتقطّعت أوصاله على صعيد كربلاء.

ويقول المؤرّخون : إن الإمام الحُسين (عليه السّلام) لمْ يكن حاضراً بالكوفة حينما اغتيل أبوه ، وإنّما كان في معسكر النخيلة قائدا لفرقة مِن الجيش الذي أعدّه الإمام (عليه السّلام) لمناجزة معاوية ، وقد أرسل إليه الإمام الحسن (عليه السّلام) رسولاً يعرّفه بما جرى على أبيه ، فقفل راجعاً إلى الكوفة وهو غارق بالأسى والشجون ، فوجد أباه على حافّة الموت ، فألقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلاً ، ودموعه تتبلور على خديه.

وأخذ الإمام العظيم يوصي أولاده بالمثل الكريمة والقيم الإنسانية ، وعهد إليهم أنْ لا يقتلوا غير قاتله ، وأنْ لا يتّخذوا مِنْ قتله سبباً لإثارة الفتنة وإراقة الدماء بين المسلمين ، كما فعل بنو أُميّة حينما قُتِل عميدهم عثمان.

الى رفيق الاعلى :

وأخذ الإمام (عليه السّلام) يعاني آلام الاحتضار وهو يتلو آيات الذكر الحكيم ، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى : «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ». ثم فاضت روحه الزكية تحفّها ملائكة الرحمن ، فمادت أركان العدل في الأرض ، وانطمست معالم الدين. لقد مات ملاذ المنكوبين والمحرومين ، الذي جهد نفسه أنْ يقيم في ربوع هذا الكون دولة تكتسح الإثرة والاستغلال ، وتقيم العدل والحق بين الناس.

وقام سبطا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بتجهيز أبيهما ، فغسّلا جسده الطاهر وأدرجاه في أكفانه ، وفي الهزيع الأخير مِن الليل حملوه إلى مقرّه الأخير فدفنوه في النجف الأشرف ، وقد واروا معه العدالة الاجتماعية والقيم الإنسانية.

ويقول المؤرّخون : إن معاوية لمّا وافاه النبأ بمقتل الإمام (عليه السّلام) فرح ، واتّخذ يوم قتله عيداً رسمياً في دمشق ، فقد تمّت بوارق آماله ، وتمّ له اتّخاذ المُلْك وسيلة لاستعباد المسلمين ، وإرغامهم على ما يكرهون.

متارك حكومة الإمام (عليه السّلام) :

وتركت حكومة الإمام (عليه السّلام) آثاراً بالغة الأهميّة والخطورة في المجتمع الإسلامي ، ولعلّ مِن أهمها ما يلي :

١ ـ أنّها أبرزت الواقع الإسلامي بجميع طاقاته في عالم السياسة والحكم ، فقد كان الإمام (عليه السّلام) يهدف في حكمه إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس ، وتحقيق الفرض المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم وأديانهم ، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم مِن دون أن تتمتّع أي طائفة بامتياز خاص. وقد أوجدت هذه السياسة للإمام (عليه السّلام) رصيدا شعبيا هائلا ، فقد ظلّ علي (عليه السّلام) قائما في قلوب الجماهير الشعبية بما تركه مِن صنوف العدل والمساواة ، وقد هام بحبّه الأحرار ، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعي في الأرض ، وقدّموه على جميع أعلام تلك العصور.

يقول أيمن بن خريم الأسدي مخاطباً بني هاشم ، وعلى رأسهم الإمام (عليه السّلام) :

أأجعلُكم وأقواماً سواء   وبينكُم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلِكُم وأنتم   لأرؤوسِهم وأعينِهم سماء [1]

٢ ـ أن مبادئ الإمام (عليه السّلام) وآراءه النيّرّ ظلّت تطارد الأُمويّين وتلاحقهم في قصورهم ، فكانوا ينظرون إليها شبحاً مُخيفاً يُهدّد سلطانهم ، ممّا جعلهم يفرضون سبّه على المنابر ؛ للحطّ مِن شأنه ، وصرْف الناس عن قِيَمه ومبادِئه.

٣ ـ أن حكومة الإمام (عليه السّلام) التي رفعت شعار العدالة الاجتماعية الكبرى قد جرّ لأبنائه كثيراً مِن المشاكل والمصاعب ، وألحقت بهم التنكيل والقتل مِن حكّام عصرهم ، وقد تنبّأ النّبي الأعظم (صلّى الله عليه وآله) بذلك ، فقد روى أبو جعفر الإسكافي أنّ النّبي (صلّى الله عليه وآله) دخل على فاطمة (عليها السّلام) فوجد عليّا (عليه السّلام) نائماً ، فذهبت لتوقظه ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : «دعيه ، فرُبّ سهرٍ له بعدي طويل ، ورُبّ جفوةٍ لأهل بيتي مِنْ أجله». فبكت فاطمة (عليها السّلام) ، فقال لها : «لا تبكي فإنّه معي ، وفي موقف الكرامة عندي» [2].

---

(١) الأغاني ١ / ٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤ / ١٠٧.

لقد أمعن الحكم الأُموي والعباسي في ظلم أبناء الإمام (عليه السّلام) ؛ لأنّهم تبنّوا حقوق المظلومين والمضطهدين ، وتبنّوا المبادئ العليا التي رفع شعارها الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، فناضلوا كأشد ما يكون النضال في سبيل تحقيقها على مسرح الحياة.

وكان مِن أشد أبناء الإمام (عليه السّلام) حماسا واندفاعا في حماية مبادئ أبيه الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، فقد انطلق إلى ساحات الجهاد عازماً على الموت ، آيساً مِن الحياة ؛ ليحمي مبادئ جدّه وأبيه ، ويرفع راية الإسلام عاليةً خفّاقة ، وينكّس أعلام الشرك والإلحاد ، ويحطّم قيود العبودية والذل.

٤ ـ أوجد الإمام (عليه السّلام) في أثناء حكمه القصير وعيا أصيلا في مقارعة الظلم ومناهضة الجور ، فقد هبّ في وجه الحكم الأُموي أعلام أصحابه كحِجْر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وعبد الله بن عفيف الأزدي وأمثالهم مِن الذين تربّوا بهدي الإمام (عليه السّلام) ، فدوّخوا أُولئك الظالمين بثورات متلاحقة أطاحت بزهوهم وجبروتهم. لقد كان حكم الإمام (عليه السّلام) ـ حقّاً ـ مدرسة للنضال والثورة ، ومدرسة لبث الوعي الديني والإدراك الاجتماعي ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مخلّفات حكومة الإمام (عليه السّلام).

خلافة الحسن (عليه السّلام) :

وتقلّد الإمام الحسن (عليه السّلام) أزمة الخلافة الإسلامية بعد أبيه ، فتسلّم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن ، ومزّقت جيشها الحروب والأحزاب ، ولمْ تَعُدْ هناك أيّة قاعدة شعبية تستند إليها الدولة ، فقد كان الاتّجاه العام الذي يمثّله الوجوه والأشراف مع معاوية ، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتل الإمام (عليه السّلام) وبعده ، كما كان لهم الدور الكبير في إفساد جيش الإمام (عليه السّلام) بينما ينيُ جيش معاوية بالهزيمة والفِرار. وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ الإمام الحسن (عليه السّلام)

بعد أن تقلّد الخلافة أخذ يتهيّأ للحرب ، وقد أمر بعقد اجتماع عام في جامع الكوفة ، وقد حضرته القوات المسلّحة وغيرها ، وألقى الإمام (عليه السّلام) خطابا رائعا ومؤثرا دعا فيه إلى تلاحم القوى ووحدة الصف ، وحذّر فيه مِن الدعايات التي تبثّها أجهزة الحكم الأُموي ، ثمّ ندب الناس لحرب معاوية ، فلمّا سمعوا ذلك وجلت قلوبهم وكُمّتْ أفواههم ، ولمْ يستجب منهم أحد سوى البطل الملهم عَدِي بن حاتم ، فانبرى يُعلن دعمه الكامل للإمام (عليه السّلام) ، ووجّه أعنف اللوم والتقريع لأهل الكوفة على موقفهم الانهزامي ، واستبان للإمام وغيره أنّ جيشه لا يريد الحرب ، فقد خلع يد الطاعة ، وانساب في ميادين العصيان والتمرّد.

وبعد جهود مكثّفة قام بها بعض المخلصين للإمام (عليه السّلام) نفر للحرب أخلاط مِن الناس ـ على حدّ تعبير الشيخ المفيد ـ كان أكثرهم مِن الخوارج والشكّاكين وذوي الأطماع ، وهذه العناصر لم تؤمن بقضية الإمام (عليه السّلام) ، وقد تطعّمت بالخيانة والغدر.

ويقول الرواة : إن الإمام (عليه السّلام) أسند مقدمة قيادة جيشه لعبيد الله بن العباس ـ الذي وتره معاوية بابنيه ـ ليكون ذلك داعية إخلاص له ، وحينما التقى جيشه بجيش معاوية مدّ إليه معاوية أسلاك مكره ، فمنّاه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت ، والنصف الآخر إذا التحقّ به [1]. وسال لعاب عبيد الله فاستجاب لدنيا معاوية ، ومال عن الحقّ ، فالتحق بمعسكر الظلم والجور ومعه ثمانية آلاف مِن الجيش [2] ، غير حافل بالخيانة والعار ، ولا بالأضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمّه ؛ فقد تفلّلت جميع وحداته وقواعده.

ولمْ تقتصر الخيانة على عبيد الله ، وإنّما خان غيره مِن كبار قادة ذلك

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١.

الجيش فالتحقوا بمعاوية ، وتركوا الإمام (عليه السّلام) في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعد آهاته وآلامه. ولم تقتصر محنة الإمام (عليه السّلام) وبلاؤه في جيشه على خيانة قادة فرقه ، وإنّما تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم مِن ذلك ، فقد قامت فصائل مِن ذلك الجيش بأعمال رهيبة بالغة الخطورة ، وهي :

١ ـ الاعتداء على الإمام (عليه السّلام).

وقام الرجس الخبيث الجرّح بن سنان بالاعتداء على الإمام (عليه السّلام) ، فطعنه في فخذه بمغول [١] ، فهوى الإمام (عليه السّلام) جريحاً ، وحُمِلَ إلى المواني لمعالجة جرحه [٢] ، وطعنه شخص آخر بخنجر في أثناء الصلاة [٣] ، كما رماه شخص بسهم في أثناء الصلاة إلا أنّه لم يؤثّر فيه شيئا [٤] ، وأيقن الإمام (عليه السّلام) أن أهل الكوفة جادون في قتله واغتياله.

٢ ـ الحكم عليه بالكفر.

وأُصيب ذلك الجيش بدينه وعقيدته ، فقد رموا حفيد نبيّهم وريحانته بالكفر والمروق مِن الدين ، فقد جابهه الجرّاح بن سنان رافعاً عقيرته ، قائلاً : أشركت يا حسن كما أشرك أبوك [٥]. وكان هذا رأي جميع الخوارج الذين كانوا يمثّلون الأكثرية الساحقة في ذلك الجيش.

٣ ـ الخيانة العظمى.

والخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش أنّهم راسلوا

---

(١) المغول : آلة تشبه السيف.

(٢) الإرشاد / ١٧٠.

(٣) و (٤) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٠٢ ـ ١٠٥.

(٥) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٠٣.

معاوية ، وضمنوا له تسليم الإمام (عليه السّلام) أسيراً ، أو اغتياله متى رغب وشاء [1] ، وأقضّ ذلك مضجع الإمام (عليه السّلام) ، فخاف أنْ يؤسر ويُسلّم إلى معاوية فيمنّ عليه ، ويسجّل بذلك يداً لبني أُميّة على الأُسرة النّبوية ، كما كان (عليه السّلام) يتحدّث بذلك بعد إبرام الصلح.

٤ . نهب أمتعة الإمام (عليه السّلام).

وعمد أجلاف أهل الكوفة إلى نهب أمتعة الإمام (عليه السّلام) وأجهزته ، فنزعوا بساطاً كان جالساً عليه ، كما سلبوا منه رداءه [2].

هذه بعض الأحداث الرهيبة التي قام بها ذلك الجيش الذي تمرّس في الخيانة والغدر.

الصلح :

ووقف الإمام الحسن (عليه السّلام) مِن هذه الفتن السود موقف الحازم اليقظ ، الذي تمثّلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها ، فرأى أنّه أمام أمرين :

١ . أنْ يفتح باب الحرب مع معاوية ، وهو على يقين لا يخامره أدنى شك أنّ الغلبة ستكون لمعاوية ؛ فإمّا أنْ يُقتل هو وأصحابه وأهل بيته الذين يمثّلون القيم الإسلامية ، ويخسر الإسلام بتضحيتهم قادته ودعاته مِن دون أن تستفيد القضية الإسلامية أي شيء ؛ فإن معاوية بحسب قابلياته الدبلوماسية يحمّل المسؤولية على الإمام (عليه السّلام) ، ويُلقي على تضحيته ألف حجاب ، أو أنّه يؤسر فيمنّ عليه معاوية فتكون سيئة على بني هاشم ، وفخراً لبني أُميّة.

٢ . أن يصالح معاوية فيحفظ للإسلام رجاله ودعاته ، ويبرز في

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٠٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي.

صلحه واقع معاوية ، ويكشف عنه ذلك الستار الصفيق الذي تستّر به ، وقد اختار (عليه السّلام) هذا الأمر على ما فيه مِن قذى في العين ، وشجى في الحلق.

ويقول المؤرّخون : إنّه جمع جيشه فعرض عليهم الحرب أو السلم ، فتعالت الأصوات مِن كلّ جانب وهم ينادون : البقيّة البقيّة [1].

لقد استجابوا للذلّ ورضوا بالهوان ومالوا عن الحقّ ، وقد أيقن الإمام (عليه السّلام) أنّهم قد فقدوا الشعور والإحساس ، وأنّه ليس بالمستطاع أنْ يحملهم على الطاعة ويكرههم على الحرب ، فاستجاب ـ على كره ومرارة ـ إلى الصلح.

لقد كان الصلح أمراً ضرورياً يحتّمه الشرع ، ويلزم به العقل ، وتقضي به الظروف الاجتماعية الملبدة بالمشاكل السياسية ؛ فإن مِن المؤكد أنّه لو فتح باب الحرب لمنِيَ جيشه بالهزيمة ، ومُنِيَت الأُمّة مِن جرّاء ذلك بكارثة لا حد لأبعادها.

أمّا كيفية الصلح وشروطه وأسبابه ، وزيف الناقدين له فقد تحدّثنا عنها بالتفضيل في كتابنا حياة الإمام الحسن (عليه السّلام).

موقف الإمام الحسين (عليه السّلام) :

والشيء المحقّق أن الإمام الحسين (عليه السّلام) قد تجاوب فكرياً مع أخيه في أمر الصلح ، وأنّه تمّ باتفاقٍ بينهما ، فقد كانت الأوضاع الراهنة تقضي بضرورته ، وأنّه لا بدّ منه.

وهناك بعض الروايات الموضوعة تعاكس ما ذكرناه ، وأنّ الإمام الحسين (عليه السّلام) كان كارهاً للصلح ، وقد هم أن يعارضه فأنذره أخوه

---

(١) حماة الإسلام ١ / ١٢٣ ، المجتنى لابن دريد / ٣٦.

بأنْ يقذفه في بيت فيطيّنه عليه حتّى يتمّ أمر الصلح ، فرأى أنّ مِن الوفاء لأخيه أنْ يطيعه ولا يخالف له أمراً ، فأجابه إلى ذلك. وقد دلّلنا على افتعال ذلك وعدم صحته إطلاقا في كتابنا حياة الإمام الحسن (عليه السّلام).

عدي بن حاتم مع الحسين (عليه السّلام) :

ولمّا أُبرم أمر الصلح خف عدي بن حاتم ومعه عبيدة بن عمر إلى الإمام الحسين (عليه السّلام) وقلبه يلتهب ناراً ، فدعا الإمامَ إلى إثارة الحرب قائلاً : يا أبا عبد الله ، شريتم الذلّ بالعزّ ، وقبلتم القليل وتركتم الكثير! أطعنا اليوم واعصنا الدهر ؛ دع الحسن وما رأى مِن هذا الصلح ، واجمع إليك شيعتك مِن أهل الكوفة وغيرها ، وولّني وصاحبي هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نقارعه بالسيوف.

فقال الحسين (عليه السّلام) : «إنّا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل لنقض بيعتنا» [1]. ولو كان الحسين (عليه السّلام) يرى مجالاً للتغلّب على الأحداث لخاض الحرب وناجز معاوية ، ولكنْ قد سُدّتْ عليه وعلى أخيه جميع النوافذ والسبل ، فرؤوا أنّه لا طريق لهم إلاّ الصلح.

تحوّل الخلافة :

وتحوّلت الخلافة الإسلاميّة مِن طاقتها الأصيلة ومفاهيمها البنّاءة إلى مُلْكٍ عضوض مستبد ، لا ظل فيه للعدل ، ولا شبح فيه للحقّ ؛ قد تسلّطت الطغمة

---

(١) الأخبار الطوال / ٢٠٣.

الحاكمة مِن بني أُميّة على الأُمّة ، وهي تمعن في إذلالها ونهب ثرواتها وإرغامها على العبودية. يقول بعض الكتّاب : ونجمَ عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة إلى بني أُميّة نتائج كبيرة ، فقد انتصرت أُسرة بني أُميّة على الأُسرة الهاشميّة ، وهذا كان معناه انتصار الأرستقراطية القرشية وأصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على أصحاب المبادئ والمثل.

لقد كان نصر معاوية هزيمة لكلّ الجهود التي بُذلت للحدّ مِن طغيان الرأسمالية القرشية ، هزيمة لحلف الفضول ، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الإسلام وحربه على الاستغلال والظلم ، هزيمة للمُثل والمبادئ ، ونجاح للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمال ، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الإسلام وأجيال المسلمين.

ويقول نيكلسون : واعتبر المسلمون انتصار بني أُميّة وعلى رأسها معاوية ، انتصاراً للأرستقراطية والوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتي جاهدها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى قضى عليها ، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتّى نصرهم الله ، وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام ، ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السّراء والضرّاء ، وأزال سيادة رهطٍ كانوا يحتقرون الفقراء ، ويستذلون الضعفاء ، ويبتزّون الأموال.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد فُجع العالم الإسلامي بعد الصلح بكارثة كبرى ، فخرج مِن عالم الدعة والأمن والاستقرار إلى عالم مليء بالظلم والجور ؛ فقد أسرع الأُمويّون بعد أن استتب لهم الأمر إلى الاستبداد بشؤون المسلمين ، وإرغامهم على ما يكرهون.

وعانى الكوفيّون مِن الظلم ما لم يعانه غيرهم ؛ فقد أخذت

السلطة تحاسبهم حسابا عسيرا على وقوفهم مع الإمام (عليه السّلام) في أيّام صفين ، وعهدت في شؤونهم إلى الجلادين أمثال المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فصبّوا عليهم وابلاً مِن العذاب الأليم ، وأخذ الكوفيّون يندبون حظهم التعيس على ما اقترفوه من عظيم الإثم في خذلانهم للإمام أمير المؤمنين وولده الحسن (عليهما السّلام) ، وجعلوا يلحّون على الإمام الحسين (عليه السّلام) بوفودهم ورسائلهم لينقذهم مِن ظلم الأُمويِّين وجورهم. إلا أن مِن المدهش حقّا أنّه لمّا استجاب لهم شهروا في وجهه السّيوف ، وقطّعوا أوصاله وأوصال أبنائه على صعيد كربلاء ... وبهذا ينتهي بنا المطاف عن أُفول دولة الحق.

حكومة معاوية

واستقبل المسلمون حكومة معاوية بعد الصلح بكثير مِن الذعر والفزع والخوف ، فقد عرفوا واقع معاوية ووقفوا على اتّجاهاته الفكرية والعقائدية ، فخافوه على دينهم وعلى نفوسهم وأموالهم ، وقد وقع ما خافوه ؛ فإنّه لمْ يكد يستولي على رقاع الدولة الإسلاميّة حتّى أشاع الظلم والجور والفساد في الأرض.

ويقول المؤرّخون : إنّه ساس المسلمين سياسة لمْ يألفوها مِن قبل ، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار ، كما كانت تحمل معول الهدم على جميع القيم الأخلاقية والإنسانية ، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس.

يقول السيّد مير علي الهندي : ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية السابقة ، فاحتلّ موقع ديمقراطية الإسلام ، وانتعشت الوثنية بكلّ ما يرافقها مِن خلاعات وكأنّها بُعثت مِن جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذّل الخلقي لنفسها مُتّسعاً في كلّ مكان ارتادته رايات حكّام الأُمويّين مِن قادة جند الشام [1].

والشيء المؤكّد أنّ حكومة معاوية لمْ تستند إلى رضى الأُمّة أو مشورتها ، وإنّما فُرضت عليها بقوة السّلاح ، وقد اعترف معاوية بذلك اعترافاً رسمياً بتصريح أدلى به أمام جمهور غفير مِن الناس ، فقال : والله ، ما ولّيتها ـ أي الخلافة ـ بمحبّة علمتها منكم ، ولا مسرّة بولايتي ، ولكنْ جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ، فإنْ لمْ تجدوني أقوم مجتمعكم كلّه فاقبلوا منّي بعضه.

ولما وقعت الأُمّة فريسة تحت أنيابه بعد الصلح خطب في (النخيلة) خطاباً قاسياً ، أعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأُمّة ، واستهانته بحقوقها ، فقد جاء فيه : والله ، إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ؛ إنّكم لتفعلون ذلك ، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ،

---

(١) روح الإسلام / ٢٩٦.

وقد أعطاني الله ذلك وانتم له كارهون [1].

ومثّل هذا الخطاب الاتجاهات الشريرة التي يحملها معاوية ، فمِن أجل الإمرة والسيطرة على العباد أراق دماء المسلمين ، وأشاع في بيوتهم الثكل والحزن والحداد.

ولا بد لنا مِن دراسة موجزة للمخططات السياسية التي تبنتها حكومة معاوية وما رافقها مِن الأحداث الجسام ؛ فإنّها ـ فيما نعتقد ـ مِن ألمع الأسباب في ثورة الإمام الحسين (عليه السّلام) ، قد ىأ ا نيِ ُ◌ به المسلمون في هذا العهد مِن الحرمان والاضطهاد ، وما أُصيبوا به مِن الانحراف والتذبذب مِن جراء النقائص الاجتماعية التي أوجدها الحكم الأُموي ، فهبّ سلام الله عليه ـ بعد هلاك معاوية ـ إلى تفجير ثورته الكبرى التي أدت إلى إيقاظ الوعي الاجتماعي الذي اكتسح الحكم الأُموي ، وأزال جميع معالمه وآثاره ... وهذه بعض معالم سياسة معاوية.

سياسته الاقتصادية :

ولمْ تكن لمعاوية أيّة سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه الكلمة ، وإنّما كان تصرّفه في جباية الأموال وإنفاقها خاضعا لرغباته وأهوائه ؛ فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له ، ويحرم العطاء للمعارضين له ، ويأخذ الأموال ويفرض الضرائب ، كلّ ذلك بغير حقّ.

إن مِن المقطوع به أنّه لم يعد في حكومة معاوية أي ظل للاقتصاد الإسلامي الذي عالج القضايا الاقتصادية بأروع الوسائل وأعمقها ، فقد عنى بزيادة الدخل الفردي ، ومكافحة البطالة ، وإذابة الفقر ، واعتبر مال

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ٢٥٤.

الدولة ملكا للشعب يُصرف على تطوير وسائل حياته وازدهار رخائه ، ولكنّ معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة مِن الشعب ، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكّم في مصير الناس وشؤونهم.

وهذه بعض الخطوط الرئيسة في سياسته الاقتصادية :

الحرمان الاقتصادي :

وأشاع معاوية الحرمان الاقتصادي في بعض الأقطار التي كانت تضمّ الجبهة المعارضة له ، فنشر فيها البؤس والحاجة حتّى لا تتمكن مِن القيام بأيّة معارضة له ، وهذه بعض المناطق التي قابلها بالاضطهاد والحرمان :

١ ـ يثرب :

وسعى معاوية لإضعاف يثرب فلمْ ينفق على المدنيين أي شيء مِن المال ، وجهد على فقرهم وحرمانهم ؛ لأنّهم مِن معاقل المعارضة لحكمه ، وفيهم كثير مِن الشخصيات الحاقدة على الأُسرة الأُمويّة الطامعة في الحكم.

ويقول المؤرّخون : إنّه أجبرهم على بيع أملاكهم فاشتراها بأبخس الأثمان ، وقد أرسل القيّم على أملاكه لتحصيل وارداتها فمنعوه عنها ، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمّد وقالوا له : إن هذه الأموال لنا كلّها ، وإنّ معاوية آثر علينا في عطائنا ولمْ يعطنا درهماً فما فوقه حتّى مضّنا الزمان ، ونالتنا المجاعة ، فاشتراها بجزء مِن مئة مِن ثمنها. فرد عليهم حاكم المدينة بأقسى القول وأمرّه.

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له ؛ تحقيرا وتوهينا به ، فانصرف عنه ، فوجّه له معاوية بستمئة درهم فردّها جابر ، وكتب إليه :

وإني لأختـــار القنـــوع علـــى الغِـــنى   إذا اجتمعـــا والمـــاء بالبـــارد المحـــض

وأقضي على نفسي إذا الأمر نابني   وفي الناس مَن يُقضى عليه ولا يقضي
وألبس أثواب الحياء وقد أرى   مكان الغنى ألا أهين له عرضي

وقال لرسول معاوية : قل له : والله يا بن آكلة الأكباد ، لا تجد في صحيفتك حسنة أنا سببها أبدا.

وانتشر الفقر في بيوت الأنصار وخيّم عليهم البؤس ، حتّى لمْ يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه ، ولما حجّ معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس ومنهم الأنصار ، وكان أكثرهم مشاة ، فقال لهم : ما منعكم مِن تلقيّ كما يتلقّاني الناس؟ فقال له سعيد بن عبادة : منعنا مِن ذلك قلّة الظهر ، وخفّة ذات اليد ، وإلحاح الزمان علينا ، وإيثارك بمعروفك غيرنا.

فقال له معاوية باستهزاء وسخرية : أين أنتم عن نواضح المدينة؟ فسدّد له سعيد سهما مِن منطقه الفياض قائلا : نحرناها يوم بدر ، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان [1].

لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة في يثرب ، وحرمان أهلها مِن الصّلة والعطاء. يقول عبد الله بن الزبير في رسالته إلى يزيد : فلعمري ، ما تؤتينا ممّا في يدك مِن حقّنا إلاّ القليل ، وإنّك لتحبس عنّا منه العريض.

وقد أوعز معاوية إلى الحكومة المركزية في يثرب برفع أسعار المواد الغذائية فيها حتى تعم فيها المجاعة ، وقد ألمع إلى ذلك يزيد في رسالته التي بعثها للمدينين ، ووعدهم فيها بالإحسان إنْ خضعوا لسلطانه ، وقد جاء فيها :

ولهم عليّ عهد أنْ أجعل الحنطة كسعر الحنطة عندنا ، والعطاء

---

(١) أنساب الأشراف ١ ق ٢ / ٧٣.

الذي يذكرون أنّه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي لهم وفرا كاملا [1].

وقد جعل معاوية الولاة على الحجاز تارة مروان بن الحكم ، وأُخرى سعيد بن العاص ، وكان يعزل الأول ويولّي الثاني ، وقد جهدا في إذلال أهل المدينة وفقرهم.

٢ . العراق :

أمّا العراق فقد قابله معاوية بالمزيد مِن العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيس للمعارضة ، والقطر الوحيد الساخط على حكومته ، وكان واليه المغيرة بن شعبة يحبس العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة. وقد سار حكّام الأُمويّين مِن بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان أهله ، فإنّ عمر بن عبد العزيز أعدلهم لمْ يساوِ بين العراقيين والشاميين في العطاء ، فقد زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير ولم يزد في عطاء أهل العراق [2].

لقد عانى العراق في عهد الحكم الأُموي أشد ألوان الضيق ؛ ممّا جعل العراقيين يقومون بثورات متّصلة ضد حكمهم.

٣ . مصر :

ونالت مصر المزيد مِن الاضطهاد الاقتصادي ، فقد كتب معاوية إلى عامله : أن زد على كل امرئ مِن القبط قيراطا. فأنكر عليه عامله وكتب إليه : كيف أزد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم! [3] وشمل الضيق الاقتصادي سائر الأقطار الإسلاميّة ؛ ليشغلها عن معارضة حكمه.

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٥١.

(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٥٩.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) ١ / ٣٠٢.

الرفاه على الشام :

وبينما كانت البلاد الإسلاميّة تعاني الجهد والحرمان نجد الشام في رخاء شامل ، وأسعار موادها الغذائية منخفضة جداً ؛ لأنّها أخلصت للبيت الأُموي ، وعملت على تدعيم حكمه ، فكان الرفاه يعدّ فيها شائعاً ، أمّا ما يؤيد ذلك فهي رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل.

وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما ألمع إلى ذلك مالك بن هُبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير ، يقول له : هلمّ فلنبايع لهذا الغلام ـ أي خالد بن يزيد ـ الذي نحن ولدنا أباه ، وهو ابن اختنا ، فقد عرفت منزلتنا مِن أبيه ، فإنّه كان يحملنا على رقاب العرب [1].

استخدام المال في تدعيم ملكه :

واستخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه ، واتّخذ المال سلاحا يمكّنه مِن قيادة الأُمّة ورئاسة الدولة. يقول السيد مير علي الهندي : وكانت الثروات التي جمعها معاوية مِن عمالته على الشام يبذّرها هو وبطانته على جنوده المرتزقة ، الذين ساعدوه بدورهم على إخفات كلّ همسة ضدهم [2].

وكانت هذه السياسة غريبة على المسلمين ، لمْ يفكّر فيها أحد مِن الخلفاء السابقين ، وقد سار عليها مَن جاء بعده مِن خلفاء الأُمويّين ؛ فاتّخذوا المال

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٣٨.

(٢) روح الإسلام / ٢٩٦.

وسيلة لدعم سلطانهم. يقول الدكتور محمّد مصطفى : وكان مِن عناصر سياسة الامويِّين استخدام المال سلاحاً للإرهاب ، وأداة للتقرّيب ، فحرموا منه فئةً مِن الناس ، وأغدقوه أضعافاً مضاعفة لطائفة أُخرى ؛ ثمناً لضمائرهم ، وضماناً لصمتهم [1].

وجعل شكري فيصل المال أحد العاملين الأساسيين اللذين خضع لهما المجتمع الإسلامي خضوعاً عجيباً ، وكان مِن جملة الأسباب في فتن السياسة ، وسيطرة الطبقة الحاكمة مِن قريش ، كما إنّه أحد الأسباب في وقوع الخلاف ما بين العرب والعجم ، بل وما بين العرب أنفسهم [2].

المنح الهائلة لأسرته :

ومنح معاوية الأموال الهائلة لأُسرته ، فوهبهم الثراء العريض [3] ؛ وذلك لتقوية مركزهم ، وبسط نفوذهم على العالم الإسلامي ، في حين أشاع البؤس والحرمان عند أغلب فئات الشعب.

منح خراج مصر لعمرو :

ووهب معاوية خراج مصر لابن العاص وجعله طعمة له ما دام حيا ؛ وذلك لتعاونه معه على مناجزة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، رائد الحقّ والعدالة في الأرض ، وقد ألمعنا إلى تفصيل ذلك في البحوث السّابقة.

---

(١) اتجاهات الشعر العربي / ٢٧.

(٢) المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأول . شكري فيصل / ٥٠.

(٣) الفخري / ١٤٥.

هبات الأموال للمؤيّدين :

وأغدق معاوية الأموال الهائلة على المؤيدين له والمنحرفين عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، وقد أسرف في ذلك إلى حدّ بعيد ، ويقول الرواة : إن يزيد بن منبه قدم عليه من البصرة يشكو له ديناً قد لزمه ، فقال معاوية لخازن بيت المال : أعطه ثلاثين ألفا. ولمّا ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفا أُخرى (١).

لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاءً لمواقفه ، ومواقف أخيه الذي أمدّ المتمردين في حرب الجمل بالأموال التي نهبها مِن بيت مال المسلمين ، وقد حفل التاريخ ببوادر كثيرة مِن هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الإمام (عليه السّلام) ، والمؤيدة له.

شراء الأديان :

وفتح معاوية بابا جديدا في سياسته الاقتصادية وهي شراء الأديان وخيانة الذمم ؛ فقد وفد عليه جماعة مِن أشراف العرب فأعطى كلّ واحد منهم مئة ألف ، وأعطى الحتات عمّ الفرزدق سبعين ألفاً ، فلمّا علم الحتات بذلك رجع مغضباً إلى معاوية فقال له : فضحتني في بني تميم ؛ أمّا حسبي فصحيح ، أوَلست ذا سنّ؟ ألست مطاعاً في عشيرتي؟

ـ بلى.

ـ فما بالك خست بي دون القوم ، وأعطيت مَنْ كان عليك أكثر ممّن

---

(١) العقد الفريد ١ / ١٩٤.

كان لك؟!

فقال معاوية بلا حياء ولا خجل : إني اشتريت مِن القوم دينهم ووكلتك إلى دينك.

ـ أنا اشتري مني ديني. فأمر له بإتمام الجائزة [١].

لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر ، وتحوّلها إلى سلعة تباع وتشرى.

عجز الخزينة المركزيّة :

ومُنيت الخزينة المركزية بعجزٍ مالي خطير نتيجة الإسراف في الهبات لشراء الذمم والأديان ، ولمْ تتمكن الدولة مِن تسديد رواتب الموظفين ؛ ممّا اضطر معاوية إلى أن يكتب لابن العاص راجيا منه أنْ يسعفه بشيء مِن خراج مصر الذي جعله طعمة له ، فقد جاء في رسالته : أمّا بعد ، فإن سؤال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق قد كثروا عليّ ، وليس عندي فضل مِن إعطيات الجنود ، فأعني بخراج مصر هذه السنة.

ولم يستجب له ابن العاص وراح ينكر عليه ، ويذكّره بأياديه التي أسداها عليه ، وقد أجابه بهذه الآبيات :

معاوي إن تدركْك نفس شحيحة فما ورثتني مصر أُمّي ولا أبي
وما نلتُها عفوا ولكن شرطتُها وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي الأشعري وصحبه لألفيتها ترغو كراغية السغب

ولما قرأ معاوية الأبيات تأثر منه ، ولمْ يعاوده بشيء مِن أمر مصر [٢].

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٥٣.

(٢) الأخبار الطوال / ٢٠٤.

مصادرة أموال المواطنين :

واضطر معاوية بعد إسرافه وتبذيره إلى مصادرة أموال المواطنين ؛ ليسد العجز المالي الذي مُنيت به خزينة الدولة ، وقد صادر مواريث الحتات عمّ الفرزدق ، فأنكر عليه الفرزدق وقال يهجوه :

أبـــوك وعمّـــي يـــا معـــاوي أورثـــا ... تراثـــا فيختـــار الـــتراث أقاربُـــه
فمـــا بـــال مـــيراث الحُتـــات أخذتـــه ... ومـــيراث صـــخر جامـــد لـــك ذائبُـــه
فلـــو كـــان هـــذا الأمـــر في جاهليـــة ... علمـــت مَـــن المـــرء القليـــل حلائبُـــه
ولـــو كـــان في ديـــن ســـوى ذا شـــنئتم ... لنـــا حقّنـــا أو غـــص بالمـــاء شـــاربُه
ألســـت أعـــز النـــاس قومـــا وأُســـرة ... وأمـــنعهم جـــارا إذا ضـــيم جانبُـــه
ومـــا ولـــدت بعـــد النّبـــيّ وآلـــه ... كَمثلـــي حَصَـــان في الرجـــال يقاربُـــه
وبيـــتي إلى جنـــب الثريـــا فِنـــاؤه ... ومِـــن دونـــه البـــدر المضـــيء كواكبُـــه
أنـــا ابـــن الجبـــال الشـــمّ في عـــدد الحصـــى ... وعـــرق الثـــرى عرقـــي فمَـــن ذا يحاســـبُه
وكـــم مِـــن أب لي يـــا معـــاوي لم يـــزل ... أغـــرَّ يبـــاري الـــريح مـــا ازور جانبُـــه
نمتـــه فـــروع المـــالكين ولم يكـــن ... أبـــوك الـــذي مِـــن عبـــد شمـــس يقاربُـــه [١]

ومعنى هذه الأبيات أن الأموال التي خلّفها صخر جد معاوية قد انتقلت إلى ورّاثه ، في حين إنّ ميراث عمّ الفرزدق قد صادره معاوية ، ولو كان ذلك في الجاهلية لكان معاوية أقصر باعاً مِن أن تمتد يده إليه ؛ فإن الفرزدق ينتمي إلى أُسرة هي مِن أعز الأُسر العربية وأمنعها.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٣٢ ، ديوان الفرزدق / ٢٤٦.

ضريبة النيروز :

وفرض معاوية على المسلمين ضريبة النيروز ليسدّ بها نفقاته ، وقد بالغ في إرهاق الناس واضطهادهم على أدائها ، وقد بلغت فيما يقول المؤرّخون عشرة ملايين درهم [١] ، وهي مِن الضرائب التي لمْ يألفها المسلمون ، وقد اتّخذها الخلفاء مِن بعده سُنّة فأرغموا المسلمين على أدائها.

نهب الولاة والعمال :

وأصبحت الولاية في عهد معاوية مصدراً مِن مصادر النّهب والسرقة ، ومصدراً للثراء وجمع الأموال. يقول أنس بن أبي إياس لحارثة الغذاني صاحب زياد بن أبيه حينما ولي على (سرق) ، وهي إحدى كور الأهواز :

أحار بن بدر قد وليت إمارة ... فكن جُرذا فيها تخون وتسرق

وباه تميما بالغنى إن للغنى ... لسانا به المرء الهيوبة ينطق

ولا تحقرن يا حار شيئا أصبته ... فحظّك مِن مُلْك العراقين سُرّق [٢]

ويصف عقبة بن هبيرة الأسدي ظلم الولاة واستقصائهم أموال الرعية بقوله :

معاوي إنّنا بشر فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد [٣]

أكلتم أرضنا فجردتموها ... فهل مِن قائم أو مِن حصيد

(١) الحركات الفكرية في الإسلام / ٤٢ ، تاريخ التمدن الإسلامي ٢ / ٢٢.

(٢) الشعر والشعراء / ٤٦٢.

(٣) السجح : السهولة والين.

فهبنـــــا أُمّــــة ذهبـــــت ضـــــياعا　　يزيـــــد أميرُهـــــا وأبـــــو يزيـــــد
أتطمـــــع في الخلافـــــة إذ هلكنـــــا　　ولـــيس لنـــا ولا لـــك مِـــن خلـــود
ذروا خـــــول الخلافـــــة واســـــتقيموا　　وتـــــــأمير الأراذل والعبيـــــــد
وأعطونـــــا الســـــويّة لا تـــــزرْكُم　　جنـــــود مردفـــــات بـــــالجنود [1]

وقد عانى المسلمون ضروباً شاقةً وعسيرةً مِن جور الولاة وظلم الجباة ، فقد تمرّسوا بالسّلب والنّهب ، ولمْ يتركوا عند أحدٍ مِن الناس فضلاً مِن المال إلاّ صادروه.

جباية الخراج :

أمّا جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجُباة وأهوائهم ، وقد سأل صاحب أخنا عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه مِن الجزية ، فنهره ابن العاص وقال له : لو أعطيتني مِن الأرض إلى السّقف ما أخبرتك ، ما عليك! إنّما أنتم خزانة لنا ، إنْ كثر علينا كثرنا عليكم ، وإنْ خُفّف عنّا خفّفنا عنكم [2].

وهدمت هذه الإجراءات الظالمة جميع قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام.

اصطفاء الذهب والفضة :

وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه أنْ يصطفي له الذهب والفضة ، فقام

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ٢٢٥.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٢ / ٧٩ ـ ٨٠.

زياد مع عمّاله بإجبار المواطنين على مصادرة ما عندهم مِن ذلك وإرساله إلى دمشق [1] ، وقد ضيّق بذلك على الناس وترك الفقر آخذا بخناقهم.

شل الحركة الاقتصادية :

وشلّت الحركة الاقتصادية في جميع أنحاء البلاد ، فخربت الزراعة والتجارة ، وأُصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تبذير معاوية وإسرافه ، وقد أعلن ذلك عبد الله بن همّام السّلولي ، فقد كتب شعراً في رقاع وألقاها في المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل ، والمظالم الفظيعة التي صبّها معاوية وعمّاله على الناس ، وهذه هي الأبيات :

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... فقد خرب السواد فلا سوادا

أرى العمّال أقساء علينا ... بعاجل نفعِهم ظلموا العبادا

فهل لك أن تدارك بالدنيّا ... وتدفع عن رعيّتك الفسادا

وتعزل تابعا أبدا هواه ... يخرّب مِن بلادته البلادا

إذا ما قلت أقصر عن هواه ... تمادى في ضلالته وزادا [2]

وقد صوّر السلولي بهذه الأبيات سوء الحالة الاقتصادية ، وتسلّط الولاة على ظلم الرعية ، ودعا السلطة إلى عزلهم وإقصائهم عن وظائفهم ؛ فقد جهدوا في خراب السواد ، وامتصّوا الدماء ، واتّبعوا الهوى ، وظلّوا عن الطريق القويم.

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) ١ / ٣٠١.

(٢) الإسلام والحضارة العربية ٢ / ١٤٩ ـ ١٥٠.

حجّة معاوية :

ويرى معاوية أنّ أموال الأُمّة وخزينتها المركزية مُلْكٌ له يتصرف فيها حيث ما شاء ، يقول : الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما أُخذ مِن مال الله فهو لي ، وما تركته كان جائزا إلي [1].

وهذا المنطق بعيد عن روح الإسلام ، وبعيد عن اتجاهاته ، فقد قنّن أُسسه الاقتصادية على أساس أنّ المال مال الشعب ، وأنّ الدولة ملزمة بتنميته وتطويره ، وليس لرئيس الدولة وغيره أنْ يتلاعب باقتصاد الأُمّة وينفقه على رغباته وأهوائه ؛ فإن ذلك يؤدي إلى إذاعة الحاجة ونشر البطالة ، ويعرّض البلاد للأزمات الاقتصادية.

لقد اعتبر الإسلام الفقر كارثةً اجتماعية ، ووباءً شاملاً يجب مكافحته بكلّ الطرق والوسائل ، وليس لرئيس الدولة أنْ يصطفي مِن مال الأُمّة أي شيء ، هذا هو رأي الإسلام ، ولكنّ معاوية . بصورة لا تقبل الجدل . لمْ يعِ ذلك ، فتصرّف بأموال المسلمين حسب رغباته وأهوائه.

هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن ، وأشاعت البؤس والحرمان في البلاد.

سياسة التفريق :

وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين وتشتيت شملهم ، وبثّ روح التفرقة والبغضاء بينهم ؛ إيمانا منه بأن الحكم لا يمكن أن يستقر له إلا في

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) ١ / ٣٠١.

تفلّل وحدة الأُمّة ، وإشاعة العداء بين أبنائها. يقول العقاد : وكانت له ـ أي لمعاوية ـ حيلته التي كرِّها وأتقنها وبرع فيها ، واستخدمها مع خصومه في الدولة مِن المسلمين وغير المسلمين ، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة ، والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم ، وإثارة الإحن فيهم ، ومنهم مَنْ كانوا مِن أهل بيته وذوي قرباه. كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق ، وكان التنافس الفطري بين ذوي الأخطار ممّا يعينه على الإيقاع بهم [١].

لقد شتّت كلمة المسلمين ، وفصم عُرى الأُخوّة الإسلاميّة التي عقد أواصرها الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) وبنى عليها مجتمعه.

اضطهاد الموالي :

وبالغ معاوية في اضطهاد الموالي وإذلالهم ، وقد رام أن يبيدهم إبادة شاملة. يقول المؤرّخون : إنّه دعا الأحنف بن قيس ، وسمرة بن جندب ، وقال لهما : إنّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وأراها قد قطعت على السلف ، وكأنّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أنْ أقتل شطراً منهم ، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق.

ولمْ يرتضِ الأحنف وسمرة هذا الإجراء الخطير ، فأخذا يلطفان به حتّى عدل عن رأيه [٢].

لقد سنّ معاوية اضطهاد الموالي ، وأخذت الحكومات التي تلت مِن بعده تشيع فيهم الجور والحرمان بالرغم مِن اشتراكهم في الميادين العسكرية

---

(١) معاوية في الميزان / ٦٤.

(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٦٠.

وغيرها مِن أعمال الدولة. يقول شاعر الموالي شاكياً ممّا ألمّ بهم مِن الظلم :

أبلـــغ أُميّـــة عـــني إن عرضـــت لهـــا   وابـــن الـــزبير وأبلـــغ ذلـــك العَرَبـــا

إن المـــوالي أضـــحت وهـــي عاتبـــة   علـــى الخليفـــة تشـــكوا الجـــوع والحَرَبـــا

وانبرى أحد الخراسانيين إلى عمر بن عبد العزيز يطالبه بالعدل فيهم قائلا له : يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفاً مِن الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا مِن أهل الذمّة يؤدّون الخراج! [١]

وكان الشعبي قاضي عمر بن عبد العزيز قد بغض المسجد حتى صار أبغض إليه مِن كناسة داره ـ حسب ما يقول ـ ؛ لأن الموالي كانت تصلّي فيه [٢] ، وقد اضطر الموالي إلى تأسيس مسجدٍ خاص لهم أسموه (مسجد الموالي) ، كانوا يقيمون الصلاة فيه [٣].

ويميل (خودا بخش) إلى الظنّ أنّهم إنّما اضطروا إلى تأدية صلاتهم فيه بعدما رؤوا تعصّب العرب ضدهم ، وأنّهم لمْ يكونوا يسمحون لهم بالعبادة معهم في مسجد واحد [٤].

وكان الموالي يلطفون بالردّ على العرب ويدعونهم إلى الهدى قائلين : إنّنا لا ننكر تباين الناس ، ولا تفاضلهم ، ولا السيّد منهم والمسود ، والشريف والمشروف ، ولكنّنا نزعم أنّ تفاضل الناس فيما بينهم هو ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ، ولكنّه بأفعالهم وأخلاقهم ، وشرف أنفسهم ، وبُعد همّهم ، فمَنْ كان دنيء الهمّة ، ساقط المروءة لمْ يشرف وإنْ كان مِن بني هاشم في ذؤابتها ؛ إنّما الكريم مَنْ كرمت أفعاله ، والشريف مَنْ

---

(١) تاريخ الطبري ٨ / ١٣٤ ، الكامل في التاريخ ٥ / ١٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ١٧٥.

(٣) الطبري في أحداث سنة ٢٤٥.

(٤) الحضارة الإسلاميّة ١ / ٤٣.

شرفت همّته [1].

ولمْ يعِ الأُمويّون ومَنْ سار في ركابهم هذا المنطق المشتق مِن واقع الإسلام وهديه ، الذي أمر ببسط المساواة والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قوميّاتهم.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد أدّت هذه السياسة العنصرية إلى إشاعة الأحقاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم ، كما أدّت إلى تجنيد الموالي لكلّ حركة ثورية تقوم ضد الحكم الأموي ، وكانوا بالأخير هم القوة الفعّالة التي أطاحت بالأُمويِّين ، وطوت معالمهم وآثارهم.

العصبيّة القبلية :

وتبعاً لسياسة التحزّب والتفريق التي سار عليها الأُمويّون فقد أحيوا العصبيات القبلية ، وقد ظهرت في الشعر العربي صورا مريعة ومؤلمة مِن ألوان ذلك الصراع الذي كانت تخلقه السلطة الأُمويّة ؛ لإشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية ، وإبعادهم عمّا يقننه معاوية مِن الظلم والجور.

ويقول المؤرّخون : إنّه عمد إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج ، محاولاً بذلك التقليل مِن أهميتهم وإسقاط مكانتهم أمام العالم العربي والإسلامي ، كما تعصّب لليمنيين على المصريين ، وأشعل نار الفتنة فيما بينهم حتّى لا تتحد لهم كلمة تضر بمصالح دولته.

وسار عمّال معاوية على وفق منهج سياسته التخريبية ، فكان زياد بن أبيه يضرب القبائل بعضها ببعض ، ويؤجج نار الفتنة فيما بينها حتّى تكون تحت مناطق نفوذه يقول ولهاوزن : وعرف زياد كيف يُخضع القبائل

---

(١) العقد الفريد ٢ / ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

بأنْ يضرب إحداها بالأُخرى ، وكيف يجعلها تعمل مِن أجله ، وأفلح في ذلك [1].

وحفلت مصادر التاريخ ببوادر كثيرة مِن ألوان التناحر القبلي الذي أثاره معاوية وعمّاله ؛ ممّا أدى إلى انتشار الضغائن بين المسلمين ، وقد عانى الإسلام مِن جراء ذلك أشدّ ألوان المحن ؛ فقد أوقف كلّ نشاط مثمر له ، وخولف ما كان يدعو له النّبي (صلّى الله عليه وآله) مِن التآخي والتعاطف بين المسلمين.

سياسة البطش والجبروت :

وساس معاوية الأُمّة سياسةَ بطشٍ وجبروت ، فاستهان بمقدّراتها وكرامتها ، وقد أعلن - بعد الصلح - أنّه إنّما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتأمّر عليهم ، وأنّ جميع ما أعطاه للإمام الحسن (عليه السّلام) مِن شروط فهي تحت قدميه لا يفي بشيء منها ، وقد أدلى بتصريح عبّر فيه عن كبريائه وجبروته فقال : نحن الزمان ، مَنْ رفعناه ارتفع ، ومَنْ وضعناه اتّضع [2].

وسار عمّاله وولاته على هذه الخطة الغادرة ، فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال : يا حاملي آلام أُنوفٍ رُكّبت بين أعين ، إنّي قلّمت أظفاري عنكم ليلين مسيئكم ، وسألتكم إصلاحكم إذا كان فسادكم باقياً عليكم ، فأمّا إذا أبيتم إلا الطعن على السلطان والنقض للسلف ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإنْ حسمتُ أدواءكم وإلاّ فإنّ السيف مِن ورائكم. فكم حكمة منّا لمْ تعِها قلوبكم ، ومِن موعظة منّا صمّت عنها آذانكم ، ولست أبخل

---

(١) الدولة العربية / ٢٠٧.

(٢) نهاية الإرب ٦ / ٧.

بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية [١].

وخاطب المصريين في خطاب آخر له فقال : يا أهل مصر ، إيّاكم أنْ تكونوا للسيف حصيداً ؛ فإن لله ذبيحا لعثمان. لا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أُنس الحق بإحياء الفتنة وإماتة السنن ؛ فأطأكم والله وطأة لا رمق معها حتى تنكروا ما كنتم تعرفون [٢].

ومثّلت هذه القطع مِن خطابه مدى أحقاده على الأُمّة وتنكّره لجميع قيمها وأهدافها. ومِن أُولئك الولاة الذين كفروا بالحقّ والعدل خالد القسري ؛ فقد خطب في مكة وهو يهدّد المجتمع بالدمار والفناء ، فقد جاء في خطابه : أيّها الناس ، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإيّاكم والشبهات ؛ فإني والله ما إُتي لي بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم [٣].

وكانت هذه الظاهرة ماثلة عند جميع حكام الأمويّين وولاتهم ، يقول الوليد بن يزيد :

فدع عنك إدكارك آل سعدى ... فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسرا ... نسومُهُم المذلّة والنّكالا
ونوردهُم حياض الخسف ذلا ... وما نألوهم إلا خبالا [٤]

وصوّرت هذه الأبيات مدى استهانته بالأُمّة ، فإنّه مع بقية الحكّام مِن أُسرته قد ملكوا الناس بالغلبة والقوّة ، وإنّهم يسومونهم الذلّ ويوردونهم حياض الخسف. ومِن إُلئك الملوك عبد الملك بن مروان ،

---

(١) تهذيب الكامل للمبرد ١ / ١٧.

(٢) العقد الفريد ٢ / ١٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ٨ / ٨٠.

(٤) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) ١ / ٣٨٧.

فقد خطب في يثرب أمام أبناء المهاجرين والأنصار فقال :

ألا وإني لا لِدُاوي أمر هذه الأُمّة إلاّ بالسيف حتّى تستقيم قناتكم ، وإنّكم تحفظون أعمال المهاجرين الأوّلين ، ولا تعملون مثل عملهم ، وإنّكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون أنفسكم. والله ، لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه (١).

وحفل هذا الخطاب بالطغيان الفاجر على الأُمّة ، فهو لا يرى حلاً لأزماتها إلاّ بسفك الدماء وإشاعة الجور والإرهاب ، أمّا بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية بين الناس فلمْ يفكّر به ، ولا دار بخلده ، ولا في خلد واحد مِن حكّام الأمويّين.

احتقار الفقراء :

وتبنى الحكم الأموي في جميع أدواره اضطهاد الفقراء واحتقار الضعفاء. يقول المؤرّخون : إن بني أُميّة كانوا لا يسمحون للفقراء بالدخول إلى دوائرهم الرسمية إلا في آخر الناس.

يقول زياد بن أبيه لعجلان حاجبه : كيف تأذن للناس؟

ـ على البيوتات ، ثمّ على الأسنان ، ثمّ على الأدب.

ـ مَن تؤخر؟

ـ الذين لا يعبأ الله بهم.

ـ مَن هم؟

ـ الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء (٢).

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٤ / ٣٣.

(٢) نهاية الإرب ٦ / ٨٦.

وهدمت هذه السياسة قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام ؛ فإنّه لمْ يفرّق بين المسلمين ، وجعلهم سواسية كأسنان المشط.

سياسة الخداع :

وأقام معاوية دولته على المخاتلة والخداع ، فلا ظل للواقع في أي تحرّك مِن تحركاته السياسية ، فما كان مثل ذلك الضمير المتحجّر أنْ يعي الواقع أو يفقه الحقّ ، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة مِن خداعه ، وهذه بعضها :

١ ـ لمّا دس معاوية السم إلى الزعيم الكبير مالك الأشتر أقبل على أهل الشام فقال لهم : إن عليا وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه. فكان أهل الشام يدعون عليه في كل صلاة ، ولما أُخبر بموته أنبأ أهل الشام بأنّ موته نتج عن دعائهم ؛ لأنّهم حزب الله ، ثمّ همس في أُذن ابن العاص قائلا له : إن لله جنودا مِن عسل [1].

٢ ـ ومِن خداع معاوية وأضاليله أن جرير البجلي لمّا أوفده الإمام (عليه السّلام) إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، طلب معاوية حضور شرحبيل الكندي ، وهو مِن أبرز الشخصيات في الشام ، وقد عهد إلى جماعة مِن أصحابه أنْ ينفرد كلّ واحد منهم به ، ويلقي في روعه أنّ علياً هو الذي قتل عثمان بن عفان.

ولما قدم عليه شرحبيل أخبره معاوية بوفادة جرير وأنّه يدعوه إلى بيعة الإمام ، وقد حبس نفسه في البيعة حتى يأخذ رأيه ؛ لأن الإمام قد قتل عثمان. وطلب منه شرحبيل أن يمهله لينظر في الأمر ، فلمّا خرج التقى به القوم كلّ على انفراده ، وأخبروه أنّ الإمام هو المسؤول

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٣.

عن إراقة دم عثمان ، فلم يشك الرجل في صدقهم ، فانبرى إلى معاوية وهو يقول له :

يـا معاويـة ، أيـن النـاس؟ ألا إنّ عليـا قتـل عثمـان. والله إن بايعـت لنخرجنّـك مـِن شـامنا ولنقتلنّك. فقال معاوية مخادعا له :

ما كنت لأُخالف عليكم ، ما أنا إلاّ رجل من أهل الشام [1].

بمثل هذا الخداع والبهتان أقام دعائم سلطانه ، وبنى عليه عرش دولته.

٣ ـ ومن ألوان خداعه لأهل الشام أنّه لمّا راسل الزعيم قيس بن سعد يستميله ويمنيه بسلطان العراقيين وبسلطان الحجاز لِمَنْ أحبّ مِن أهل بيته إنْ صار معه ، فردّ عليه قيس بأعنف القول ، فأظهر معاوية لأهل الشام أنّه قد بايع ، وأمرهم بالدعاء له ، واختلق كتاباً نسبه إليه وقد قرأه عليهم ، وهذا نصّه : أمّا بعد ، إنّ قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً ، وقد نظرت لنفسي وديني فلمْ أرَ بوسعي مظاهرة قومٍ قتلوا إمامهم ، مسلماً محرماً ، براً تقيّاً ، فنستغفر الله لذنوبنا. ألا وإنّي قد ألقيت لكم بالسّلام ، وأحببت قتال قتلة إمام الهدى المظلوم ، فاطلب منّي ما أحببت مِن الأموال والرجال أعجّله إليك [2].

وبهذه الأساليب المنكرة خدع أهل الشام ، وزج بهم لحرب وصيِّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه.

٤ ـ لقد كان الخداع من ذاتيّات معاوية ، ومن العناصر المقوّمة لسياسته ، وقد بهر ولده يزيد حينما بويع ، وكان الناس يمدحونه ، فقال لأبيه :

---

(١) شرح نهج البلاغة ١ / ١٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٣.

يا أمير المؤمنين ، ما ندري ، أنخدع الناس أم يخدعوننا؟! فأجابه معاوية : كل مَن أردت خديعته فتخادع له حتّى تبلغ منه حاجتك ، فقد خدعته [1].

لقد جر معاوية ذيله على الخداع ، وغذّى به أهل مملكته حتّى نشأ جيل كانت هذه الظاهرة مِن أبرز ما عرف منه.

إشاعة الانتهازيّة :

وعملت حكومة معاوية على إشاعة الانتهازية والوصولية بين الناس ، ولم يعد ماثلاً عند الكثيرين منهم ما جاء به الإسلام مِن إيثار الحق ونكران الذات. ومِن مظاهر ذلك التذبذب ما رواه المؤرّخون : أنّ يزيد بن شجرة الرهاوي قد وفد على معاوية ، وبينما هو مقبلٌ على سماع حديثه إذ أصابه حجَرٌ عاثر فأدماه ، فأظهر تصنعاً عدم الاعتناء به ، فقال له معاوية : لله أنت! ما نزل بك؟

ـ ما ذاك يا أمير المؤمنين؟

ـ هذا دم وجهك يسيل.

ـ إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتّى غمز فكري ، فما شعرت بشيء حتّى نبّهني أمير المؤمنين.

فبُهر معاوية وراح يقول : لقد ظلمك مَنْ جعلك في ألف مِن العطاء ، وأخرجك مِن عطاء أبناء المهاجرين وكماة أهل صفين. وأمر له بخمسمئة ألف درهم ،

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ٣٠٥.

وزاد في عطائه ألف درهم [١].

وكانت هذه الظاهرة سائدة في جميع أدوار الحكم الأُموي ، فقد ذكر المؤرّخون : أن إسماعيل بن يسار كان زبيري الهوى ، فلمّا ظفر آلُ مروان بآل الزبير انقلب إسماعيل عن رأيه وأصبح مروانياً ، وقد استأذن على الوليد فأخّره ساعة ، فلمّا أذن له دخل وهو يبكي ، فسأله الوليد عن سبب بكائه ، فقال : أخّرتني وأنت تعلم مروانيتي ومروانية أبي! وأخذ الوليد يعتذر منه ، وهو لا يزداد إلاّ إغراقاً في البكاء ، فهّون عليه الوليد وأحسن صلته. فلمّا خرج تبعه شخص ممّن يعرفه ، فسأله عن مروانيته التي ادّعاها متى كانت ، فقال له : بغضنا لآل مروان ، وهي التي حملت أباه يسار في حال موته أنْ يتقرّب إلى الله بلعن مروان بن الحكم ، وهي التي دعت أُمّه أنْ تلعن آلَ مروان مكان ما تتقرّب به إلى الله مِن التسبيح [٢].

ونقل المؤرّخون بوادر كثيرة مِن ألوان هذا الخداع الذي ساد في تلك العصور ، وهو مِن دون شك مِن مُخلّفات سياسة معاوية الذي ربى جيله على التذبذب والانحراف عن الحق.

الخلاعة والمجون :

وعُرِفَ معاوية بالخلاعة والمجون. يقول ابن أبي الحديد : كان معاوية أيّام عثمان شديد التهتك ، موسوماً بكلّ قبيح ، وكان في أيّام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه ، إلاّ إنّه كان يلبس الحرير والديباج ، ويشرب في

(١) التاج في أخلاق الملوك / ٥٥.

(٢) الأغاني ٤ / ١٢٠.

آنية الذهب والفضة ، ويركب البغلات ذوات السروج المحلات بها ـ أي بالذهب ـ وعليها جلال الديباج والوشي ، وكان حينئذ شاباً وعند نزق الصبا ، وآثر الشبيبة وسكر السلطان والإمرة. ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيّام عثمان في الشام.

ولا خلاف في أنّه سمع الغناء وطرب عليه ، ووصل عليه أيضاً. وتأثر به ولده يزيد فكان مدمنا خليعاً مستهتراً ، وتأثر بهذا السلوك جميع خلفاء بني أُميّة. يقول الجاحظ : وكان يزيد ـ يعني ابن معاوية ـ لا يمسي إلاّ سكراناً ، ولا يصبح إلاّ مخموراً ، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كلّ شهر مرّة حتّى لا يعقل في السماء هو أو في الماء ، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوما ، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كلّ ثلاث ليال ليلة ، وكان هشام يشرب في كلّ جمعة ، وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب ؛ فأمّا يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار ، ولا يوجد أبداً إلاّ ومعه إحدى هاتين ، وكان مروان بن محمّد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت [1].

وولى هشام بن عبد الملك الوليد على الحج سنة (١١٩ هـ) ، فحمل معه كلاباً في صناديق فسقط منها صندوق وفيه كلب ، وحمل معه قبّة عملها على قدر الكعبة ليضعها عليها ، وحمل معه خمراً ، وأراد أن ينصب القبّة على الكعبة ويجلس فيها ، فخوّفه أصحابه وقالوا له : لا نأمن الناس عليك وعلينا ، فترك [2].

ووفد علي بن عباس على الوليد بن يزيد في خلافته ، وقد أُتي بابن شراعة مِن الكوفة ، فبادره قائلا :

والله ، ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنّة رسوله.

---

(١) التاج في أخلاق الملوك / ١٥١.

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٨.

فضحك ابن شراعة وقال : إنّك لو سألتني عنهما لوجدتني حمارا.

ـ أنا أرسلت إليك لأسالك عن القهوة ـ أي الخمر ـ ، أخبرني عن الشراب؟

ـ يسأل أمير المؤمنين عمّا بدا له.

ـ ما تقول في الماء؟

ـ لا بد منه والحمار شريكي فيه.

وأخذ يسأله عن المشروبات حتى انتهى إلى الخمر فقال له : ما تقول في الخمر؟

ـ أوآه تلك صديق روحي.

ـ أنت والله صديق روحي [1].

وأرسل الوليد إلى عامله على الكوفة يطلب منه أن يبعث إليه الخُلعاء والشعراء الماجنين ليستمع ما يلهو به مِن الفسق والمجون ، وقد سخّر جميع أجهزة دولته للذاته وشهواته ، وكتب إلى واليه على خراسان أنْ يبعث إليه ببرابط وطنابير ، وقال أحد شعراء عصره ساخراً منه :

أبشـــــر يـــــا أمـــــين الله ... أبشـــــر بتباشـــــير

بإبـــــل يُحمـــــل المـــــال ... عليهـــــا كالأنـــــابير [2]

بغـــــال تحمـــــل الخمـــــر ... حقائبْهـــــا طنـــــابير

فهـــــذا لـــــك في الـــــدنيا ... وفي الجنّـــــة تحبـــــير [3]

وسادت اللذة واللهو في المجتمع العربي ، وتهالك الناس على الفسق

---

(١) نهاية الإرب ٤ / ٩٣ ، العقد الفريد ٣ / ١٨٤.

(٢) الأنابير : أكداس من الطعام.

(٣) تاريخ الطبري ٨ / ٢٩٨.

والفجور. ومِن طريف ما ينقل في هذا الموضوع : أنّه اُتي بشيخ إلى هشام بن عبد الملك وكان معه قيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه. فبكى الشيخ ، فقال له أحد الجالسين : عليك بالصبر. فقال له الشيخ : أتراني أبكي للضرب؟ إنّما أبكي لاحتقاره البربط إذ سمّاه طنبورا! [(١)].

لقد كانت سيرة الأُمويّين في جميع أدوارهم امتدادا لسيرة معاوية الذي أشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد ؛ للقضاء على أصالة الأُمّة ، وسلب وعيها الديني والاجتماعي.

إشاعة المجون في الحرمين :

وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين ؛ للقضاء على قدسيتهما ، وإسقاط مكانتهما الاجتماعية في نفوس المسلمين. يقول العلائلي : وشجّع الأُمويّون حياة المجون في مكّة والمدينة إلى حد الإباحة ؛ فقد استأجر طوائف مِن الشعراء والمخنّثين مِن بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكّة والمدينة بمسحة لا تليق ، ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية.

وقد قال الأصمعي : دخلت المدينة فما وجدت إلاّ المخنثين ، ورجلاً يضع الأخبار والطرف [(٢)] ، وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء ، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها [(٣)] ، وانحسرت بذلك روح الأخلاق ، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الإسلام.

---

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٥.

(٢) سمو المعنى في سمو الذات / ٣٠.

(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٤١.

الاستخفاف بالقيم الدينيّة :

واستخفّ معاوية بكافة القيم الدينية ، ولمْ يعن بجميع ما جاء به الإسلام مِن الأحكام ، فاستعمل أواني الذهب والفضة ، وأباح الربا ، وتطيّب في الإحرام ، وعطّل الحدود [1] ، وقد أُلغيت معظم الأحكام الإسلاميّة في أغلب أدوار الحكم الأموي ، وفي ذلك يقول شاعر الإسلام الكميت :

وعُطِلَت الأحكام حتى كأنّنا ... على ملّة غير التي نتنحّل
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
كأن كتاب الله يعني بأمرِهِ ... وبالنهي فيه الكوذني المركّل [2]
فتلك ملوك السُوء قد طال ملكُهم ... فحتّام حتّام العناء المطوّل
وما ضَرب الأمثال في الجَور قبلَنا ... لأجور من حُكّامِنا المتَمَثِّل [3]

واستخف معاوية بالمقدّسات الإسلاميّة واحتقرها. يقول الرواة : إنّه لمّا تغلّب قيل له : لو سكنت المدينة ؛ فهي دار الهجرة ، وبها قبر النّبي (صلّى الله عليه وآله). فقال : (قَد ضَلَلْت إِذاً وَمَا أَنَا مِن الْمُهْتَدِين) [4].

واقتدى به في ذلك جميع بني أُميّة ، فقد انبرى يحيى بن الحكم إلى عبد الله بن جعفر فقال له : كيف تركت الخبيثة؟ ـ يعني مدينة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ فأنكر عليه ابن جعفر وصاح به :

---

(١) ذكرنا مصادر هذه الأحداث في الجزء الثاني مِن كتابنا (حياة الإمام الحسن (عليه السّلام»).

(٢) الكوذني : البليد.

(٣) الهاشميات / ١١١.

(٤) المناقب والمثالب ـ القاضي نعمان المصري / ٧٠.

سمّاها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) طيبة وتسمّيها خبيثة! قد اختلفتما في الدنيا ، وستختلفان في الآخرة.

قال يحيى : والله ، لأنْ أموت وأُدفن بأرض الشام المقدّسة أحبّ إليّ مِن أنْ أُدفن بها. فقال له : اخترت مجاورة اليهود والنصارى على مجاورة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والمهاجرين! [1].

استلحاق زياد :

ومِن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الإسلاميّة استلحاقه زياد بن عبيد الرومي وإلصاقه بنسبه مِن دون بيّنة شرعية ، وإنّما اعتمد على شهادة أبي مريم الخمّار ، وهو ممّا لا يثبت به نسب شرعي ، وقد خالف بذلك قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «الولد للفراش وللعاهر الحجر». لقد قام بذلك انطلاقاً وراء أهدافه السياسية ، وتدعيماً لحكمه وسلطانه.

ومِن طريف ما يُنقل في الموضوع : أن نصر بن حجّاج خاصم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند معاوية في عبد الله مولى خالد بن الوليد ، فأمر معاوية حاجبه أنْ يؤخّرهما حتّى يحتفل مجلسه ، فلمّا اكتمل مجلسه ، أمر بحَجَرٍ فأُدني منه وألقى عليه طرفاً مِن ثيابه ، ثمّ أذن لهما ، فترافعا عنده في شأن عبد الله ، فقال له نصر : إن أخي وابن أبي عهد إلي أنّه ـ يعني عبد الله ـ منه. وقال عبد الرحمن : مولاي وابن عبد أبي وأمته ولد على فراشه.

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

وأصدر معاوية الحكم في المسألة ، فقال : يا حرسي ، خُذ هذا الحَجرَ فادفعه إلى نصر بن حجّاج ، فقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «الولد للفراش وللعاهر الحَجَر».

وانبرى نصر فقال : أفلا أجريت هذا الحكم في زياد؟! فقال معاوية : ذلك حكم معاوية ، وهذا حكم رسول الله [1].

إنكار الإمام الحُسين (عليه السّلام) :

وأنكر الإمام الحُسين (عليه السّلام) على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فكتب إليه مذكّرة تضمّنت الأحداث الجسام التي اقترفها معاوية ، وقد جاء فيها : «أوَلست المدّعي زياد بن سُميّة المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت أنّه ابن أبيك وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : الولد للفراش وللعاهر الحجر. فتركت سُنّة رسول الله تعمّداً ، واتّبعت هواك بغير هدىً مِن الله؟!».

لقد أثار استلحاق معاوية لزياد موجة مِن الغضب والاستياء عند الأخيار والمتحرّجين في دينهم ، وقد بسطنا الكلام في ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسن (عليه السّلام».

الحقد على النّبي (صلّى الله عليه وآله) :

وحقد معاوية على النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقد مكث في أيّام خلافته أربعين

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ / ٤٨٠ ، العقد الفريد ٦ / ١٣٣.

جمعة لا يصلّي عليه ، وسأله بعض أصحابه عن ذلك ، فقال : لا يمنعني عن ذكره إلا أن تشمخ رجال بآنافها [١].

وسمع المؤذن يقول : أشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً رسول الله ، فلم يملك إهابه واندفع يقول : لله أبوك يا ابن عبد الله! لقد كنت عالي الهمّة ، ما رضيت لنفسك إلاّ أنْ يُقرنَ اسمك باسم ربِّ العالمين! [٢].

ومِن مظاهر حقده على الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) ما رواه مطرف بن المغيرة قال : وفدت مع أبي على معاوية ، فكان أبي يتحدّث عنده ثمّ ينصرف إليّ وهو يذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يرى منه. وأقبل ذات ليلة وهو غضبان ، فأمسك عن العشاء ، فانتظرته ساعة وقد ظننت أنّه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له : مالي أراك مغتما منذ الليلة؟

ـ يا بُني ، جئتك مِن أخبث الناس.

ـ ما ذاك؟!

ـ خلوت بمعاوية فقلت له : إنّك قد بلغت مُناك يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلا وبسطت خيراً ؛ فإنّك قد كبُرت ، ولو نظرت إلى إخوتك مِن بني هاشم فوصلت أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

فثار معاوية واندفع يقول : هيهات هيهات! مَلَكَ أخو تيم فعدل ، وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أنْ هلكَ فهلكَ ذكره ، إلاّ أنْ يقول قائل : أبو بكر. ثم مَلَك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين ، فوالله ما عدا أنْ هلكَ فهلكَ ذكره إلاّ أنْ يقولَ قائل : عمر. ثم مَلَك أخونا عثمان فمَلَك رجلٌ لمْ يكن أحدٌ في مثل نسبه ،

---

(١) النصائح الكافية / ٩٧.

(٢) نهج البلاغة ١٠ / ١٠١.

فعُمل به ما عُمل ، فوالله ما عدا أنْ هلكَ فهلكَ ذكره. وإن أخا هاشم يُصرخ به في كل يوم خمس مرات : أشهد أن محمّدا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأيّ عمل يبقى بعد هذا . لا أُمّ لك . إلا دفنا دفناً ! [(١)].

ودلّت هذه البادرة على مدى زعزعة العقيدة الدينية في نفس معاوية ، وإنّها لمْ تكن إلاّ رداءً رقيقاً يشف عمّا تحته مِن حبّ الجاهلية والتأثر بها إلى حدٍّ بعيد. وكانت النزعة الإلحادية ماثلة عند أغلب ملوك الأُمويّين.

يقول الوليد في بعض خمرياته منكرا للبعث والنشور :

أدِر الكأس يميناً	لا تُدِرها ليسار
اسق هذا ثم هذا	صاحب العود النضار
مِن كميت عتّقوها	منذ دهر في جرار
ختموها بالأماويه [(٢)]	وكافور وقار
فلقد أيقنت أني	غير مبعوث لنار
سأروض الناس حتى	يركبوا دين الحمار
وذروا مَن يطلب الجنّة	يسعى لتبار [(٣)]

وتأثّر الكثيرون مِن ولاتهم بهذه النزعة الإلحادية ، فكان الحجّاج يخاطب الله أمام الجماهير الحاشدة قائلا : أرسولك أفضل أم خليفتك؟ يعني أن عبد الملك أفضل مِن النّبي العظيم (صلّى الله عليه وآله)[(٤)]. وكان ينقم على الذين يزورون قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويقول : تبّاً لهم! إنّما يطوفون بأعواد

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٩٧.

(٢) الأماويه : مِن أنواع الطيب.

(٣) رسالة الغفران / ١٤٥.

(٤) النزاع والتخاصم للمقريزي / ٢٧ ، رسائل الجاحظ / ٢٩٧ ، العقد الفريد ٣ / ٣٥٥.

ورمّة بالية ، هلاّ طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير مِن رسوله؟! [(١)].

وهكذا كان جهاز الحكم الأموي في كثيرٍ مِن أدواره ، فقد تنكّر للرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) وازدرى برسالته.

تغيير الواقع الإسلامي :

وعمد معاوية إلى تغيير الواقع الإسلامي المشرق الذي تبنى الحركات النضالية والقضايا المصيرية لجميع الشعوب ، فأهاب بالمسلمين أنْ لا يقرّوا على كظّةِ ظالم ، ولا سغب مظلوم. وقد تبنى هذا الشعار المقدّس الصحابي العظيم أبو ذر الغفاري الذي فهم الإسلام عن واقعه ، فرفع راية الكفاح في وجه الحكم الأُموي ، وطالب عثمان ومعاوية بإنصاف المظلومين والمضطهدين ، وتوزيع ثروات الأُمّة على الفقراء والمحرومين.

لقد أراد معاوية إقبار هذا الوعي الديني ، وإماتة الشعور بالمسؤولية ، فأوعز إلى لجان الوضع التي ابتدعها أن تفتعل الأحاديث على لسان المحرر العظيم الرسول (صلّى الله عليه وآله) في إلزام الأُمّة بالخضوع للظلم ، والخنوع للجور ، والتسليم لما يقترفه سلطانها مِن الجور والاستبداد. وهذه بعض الأحاديث :

١ ـ روى البخاري بسنده عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال لأصحابه : (إنّكم سترون بعدي إثرة وأُموراً تنكرونها). قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال : (أدّوا إليهم حقّهم ، واسألوا الله حقّكم) [(٢)].

٢ ـ روى البخاري بسنده عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : (مَن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٨ / ٨٧.

رأى مِن أميره شيئا يكره فليصبر عليه ؛ فإنّه مَن فارق الجماعة فمات مات ميتة جاهليّة) [1].

٣ . روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي أنّه سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقال له : يا نبي الله ، أرأيت إنْ قامت علينا أُمراء يسألونا حقّهم ويمنعونا حقّنا ، فما ترى؟ فأعرض (صلّى الله عليه وآله) عنه ، فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرضٌ ، فجذبه الأشعث بن قيس ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : (اسمعوا وأطيعوا ، فإنّ عليهم ما حُمّلوا وعليكم ما حُمّلتم) [2].

٤ . روى البخاري بسنده عن عجرفة قال : سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : (إنّه ستكون هِنات وهِنات ، فمَنْ أراد أنْ يفرّق أمر هذه الأُمّة وهي جمع فاضربوه بالسّيف كائناً ما كان) [3]. إلى غير ذلك مِن الموضوعات التي خدّرت الأُمّة ، وشلّت حركتها الثورية ، وجعلتها قابعة ذليلة تحت وطأة الاستبداد الاموي وجوره.

وقد هب الإمام الحُسين (عليه السّلام) الثائر الأوّل في الإسلام إلى إعلان الجهاد المقدّس ؛ ليوقظ الأُمّة مِن سُباتها ، ويُعيد للإسلام نضارته وروحه النضالية التي انحسرت في عهد الحكم الأموي.

مع أهل البيت (عليهم السّلام) :

وسخّر معاوية جميع أجهزته للحط مِن قيمة أهل البيت (عليهم السّلام) ، الذين هم وديعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، والعصب الحسّاس في هذه الأُمّة ، وقد

---

(١) صحيح البخاري ٨ / ٨٧.

(٢) صحيح البخاري ٢ / ١١٩.

(٣) صحيح البخاري ٢ / ١٢١.

استخدم أخطر الوسائل في محاربتهم وإقصائهم عن واقع الحياة الإسلاميّة ، وكان مِن بين ما استخدمه في ذلك ما يلي :

١ ـ تسخير الوعّاظ :

وسخّر معاوية الوعّاظ في جميع أنحاء البلاد ليحوّلوا القلوب عن أهل البيت (عليهم السّلام) [١] ، ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم ؛ تدعيماً للحكم الأُموي.

٢ ـ استخدام معاهد التعليم :

واستخدم معاوية معاهد التعليم وأجهزة الكتاتيب لتغذية النشء ببغض أهل البيت (عليهم السّلام) ، وخَلْقِ جيلٍ مُعادٍ لهم [٢] ، وقد قامت تلك الأجهزة بدور خطير في بثّ روح الكراهية في نفوس النشء لعترة النّبي (صلّى الله عليه وآله).

٣ ـ افتعال الأخبار.

وأقام معاوية شبكةً لوضع الأخبار تعدّ مِن أخطر الشبكات التخريبية في الإسلام ، فعهد إليها بوضع الأحاديث على لسان النّبي (صلّى الله عليه وآله) ؛ للحط مِن قيمة أهل البيت (عليهم السّلام) ، أمّا الأعضاء البارزون في هذه اللجنة فهم :

١ ـ أبو هريرة الدوسي.

٢ ـ سمرة بن جندب.

٣ ـ عمرو بن العاص.

٤ ـ المغيرة بن شعبة.

وقد افتعلوا آلاف الأحاديث على لسان النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، وكانت عدّة طوائف مختلفة حسب التخطيط السياسي للدولة وهي :

الطائفة الأولى : وضع الأخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت (عليهم السّلام) ، وقد عد الإمام الباقر (عليه السّلام) أكثر مِن مئة حديث ، منها :

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٦١ الطبعة الثانية.

(٢) المصدر نفسه.

أ ـ أن عمر مُحدَّث ـ بصيغة المفعول ـ أي تحدّثه الملائكة.

ب ـ أن السكينة تنطق على لسان عمر.

ج ـ أن عمر يلقّنه الملَك.

د ـ أن الملائكة لتستحي مِن عثمان [١].

إلى كثير مِن أمثال هذه الأخبار التي وُضعت في فضل الصحابة.

يقول المحدِّث ابن عرفة المعروف بنفطويه : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعِلَتْ في أيّام بني أُميّة ؛ تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون بها أُنوف بني هاشم [٢]. كما وضعوا في فضل الصحابة الأحاديث المماثلة للأحاديث النّبويّة في فضل العترة الطاهرة ، كوضعهم : (إن سيّدَي كهول أهل الجنّة أبو بكر وعمر) ، وقد عارضوا بذلك الأحاديث المتواترة : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة» [٣].

الطائفة الثانية : وضع الأخبار في ذمّ العترة الطاهرة والحطّ مِن شأنها ، فقد أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعمئة ألف على أنْ يخطب في أهل الشام ، ويروي لهم أنّ الآية الكريمة نزلت في علي ، وهي قوله تعالى : (وَمِنَ النّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبّ الْفَسَادَ) [٤]. فروى لهم سمرة ذلك ، وأخذ العوض الضخم مِن بيت مال المسلمين [٥]. وممّا رووا أن النّبي (صلّى الله عليه وآله) قال في آل

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٦٢ الطبعة الثانية.

(٢) النصائح الكافية / ٧٤.

(٣) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ١٦٢.

(٤) سورة البقرة / ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٥) النصائح الكافية / ٢٥٣.

أبي طالب : إنّ آل أبي طالب ليسوا بأولياء لي ، إنّما وليّ الله وصالح المؤمنين [١]. وروى الأعمش : أنّه لما قدِم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة سنة (٤١ هـ) جاء إلى مسجد الكوفة ، فلمّا رأى كثرة مَنْ استقبله مِن الناس جثا على ركبتيه ، ثمّ ضرب صلعته مراراً وقال : يا أهل العراق ، أتزعمون أني أكذب [٢] على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأحرق نفسي بالنار؟! لقد سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : «إنّ لكلّ نبي حرماً ، وإنّ حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور ، فمَنْ أحدث فيهما حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» ، وأشهد بالله أنّ علياً أحدث فيها. فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه ، وولاّه إمارة المدينة [٣].

إلى كثير مِن أمثال هذه الموضوعات التي تقدح في العترة الطاهرة ، التي هي مصدر الوعي والإحساس في العالم الإسلامي.

الطائفة الثالثة : افتعال الأخبار في فضل معاوية لمحو العار الذي لحقه ولحق أباه وأُسرته في مناهضتهم للإسلام ، وإخفاء ما أُثر عن النّبي (صلّى الله عليه وآله) في ذمّهم.

وهذه بعض الأخبار المفتعلة :

١ ـ قال (صلّى الله عليه وآله) : معاوية بن أبي سفيان أحلم أُمّتي وأجودها [٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ / ١٥.

(٢) علّق على ذلك العلاّمة فقيد الإسلام الشيخ محمود أبو رية في كتابه (أبو هريرة / ٢٣٦) ، بقوله : يدل هذا القول على أن كذب أبي هريرة على النّبي (صلّى الله عليه وآله) كان قد اشتهر حتّى عمّ الآفاق ، وأصبح الناس يتحدّثون به في كل مكان.

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٥٩.

(٤) البداية والنهاية ٨ / ١٢١ ، تطهير الجنان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة / ٢٦.

٢ ـ قال (صلّى الله عليه وآله) : صاحب سِرّي معاوية بن أبي سفيان [١].

٣ ـ قال (صلّى الله عليه وآله) : اللهمّ علّمه ـ يعني معاوية ـ الكتاب ، وقِه العذاب ، وأدخله الجنة [٢].

٤ ـ قال (صلّى الله عليه وآله) : إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه [٣] ؛ فإنّه أمين هذه الأُمّة [٤].

إلى غير ذلك مِن الأحاديث الموضوعة التي تعكس الصراع الفكري ضد الإسلام عند معاوية ، وإنّه حاول جاهدا محو هذا الدين والقضاء عليه.

حديث مفتعل على الحُسين (عليه السّلام) :

مِن الأحاديث الموضوعة على الإمام الحُسين (عليه السّلام) ما روي : أنّه وفد على معاوية زائرا في يوم الجمعة ، وكان قائماً على المنبر خطيباً ، فقال له رجل مِن القوم : ائذن للحُسين يصعد المنبر. فقال له معاوية : ويلك! دعني افتخر. ثمّ حمد الله وأثنى عليه ، ووجّه خطابه للحُسين (عليه السّلام) قائلا له : سألتك يا أبا عبد الله ، أليس أنا ابن بطحاء مكة؟

ـ إي والذي بعث جدّي بشيرا.

ـ سألتك يا أبا عبد الله ، أليس أنا خال المؤمنين؟

ـ إي والذي بعث جدّي نبيّا.

---

(١) تطهير الجنان / ٢٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وضع هذه الأحاديث لمعارضة الحديث الصحيح المروي عن النبي (صلّى الله عليه وآله) : «إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه».

(٤) تاريخ بغداد.

ـ سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا كاتب الوحي؟

ـ أي والذي بعثث جدي نذيرا.

ثم نزل معاوية عن المنبر ، فصعد الحسين فحمد الله بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون بمثلها ثم قال : حدثني أبي عن جدي عن جبرائيل عن الله تعالى أن تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس من خضراء مكتوب عليها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يا شيعة آل محمد لا يأتي أحدكم يوم القيامة إلا أدخله الله الجنة.

فقال له معاوية : سألتك يا أبا عبد الله من شيعة آل محمد؟

فقال (عليه السلام) : الذين لا يشتمون الشيخين أبا بكر وعمر ، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية.

وعلّق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله : هذا حديث منكر ولا أرى سنده متصلا إلى الحسين [1].

وقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً بهذا الموضوعات التي دونت في كتب السنة ، وظن الكثيرون من المسلمين أنها حق ، فأضفوا على معاوية ثوب القداسة ، وألحقوه بالرعيل الأول من الصحابة المتحرجين في دينهم وهم من دون شك لو علموا واقعها لتبرؤا منها كما قال المدايني [2].

ولم تقتصر الموضوعات على تقديس معاوية والحط من شأن أهل البيت (عليهم السلام) وإنما تدخلت في شؤون الشريعة فألصقت بها المتناقضات والمستحيلات مما شوهت الواقع الإسلامي وأفسدت عقائد المسلمين.

---

(١) تأريخ ابن عساكر ٤ / ٣١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ٣ / ١٦.

سب الإمام أمير المؤمنين :

وتمادى معاوية في عدائه للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فأعلن سبّه ولعنه في نواديه العامّة والخاصّة وأوعز إلى جميع عمّاله وولاته أن يذيعوا سبّه بين الناس ، وسرى سبّ الإمام في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم : أيها الناس ، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لي : إنك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدّسة ـ يعني الشام ـ فإن فيها الأبدال ، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب.

وعج أهل الشام بسب الإمام [1] وخطب في أولئك الوحوش فقال لهم : ما ظنكم برجل ـ يعني علياً ـ لا يصلح لأخيه ـ يعني عقيلاً ـ يا أهل الشام ، إنّ أبا لهب المذموم في القرآن هو عم علي بن أبي طالب [2].

ويقول المؤرخون : إنّه كان إذا خطب ختم خطابه بقوله : اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعنا وبيلاً ، وعذّبه عذاباً إليماً.

وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر [3] ولما ولي معاوية المغيرة بن شعبة إمارة الكوفة كان أهم ما عهد إليه أن لا يتسامح في شتم الإمام (عليه السلام) والترحّم على عثمان ، والعيب لأصحاب علي وإقصاءهم ، وأقام المغيرة

---

(١) النصائح الكافية / ٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ٣ / ٣٦١.

(٣) النصائح الكافية.

واليا على الكوفة سبع سنين وهو لا يدع ذم علي والوقوع فيه [1]. وقد أراد معاوية بذلك أن يصرف القلوب عن الإمام (عليه السلام) وأن يحول بين الناس وبين مبادئه التي أصبحت تطارده في قصوره.

يقول الدكتور محمود صبحي : لقد أصبح علي جثة هامدة لا يزاحمهم في سلطانهم ، ويخيفهم بشخصه ، ولا يعني ذلك ـ أي سبّ الإمام ـ إلا أنّ مبادئه في الحكم وآراءه في السياسة كانت تنغّص عليهم في موته كما كانت في حياته [2].

لقد كان الإمام رائد العدالة الإنسانية والمثل الأعلى لهذا الدين ، يقول الجاحظ : لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكر النخوة والذب عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه في الدين ، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي تناصر الناس عليها كان مذكوراً في هذه الخلال كلها إلا في علي [3].

ويقول الحسن البصري : والله ، لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً صائباً من مرامي الله عز وجل ، رباني هذه الأمة بعد نبيها (صلى الله عليه وآله) وصاحب شرفها وفضلها وذا القرابة القريبة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) غير مسؤم لأمر الله ، ولا سروقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه فأورده رياضاً مونقة ، وحدائق مغدقة ذلك علي بن أبي طالب [4].

لقد عادت اللعنات التي كان يصبها معاوية وولاته على الإمام بإظهار فضائله ؛ فقد برز الإمام للناس أروع صفحة في تأريخ الإنسانية كلها ، وظهر للمجتمع أنّه المنادي الأول بحقوق الإنسان ، والمؤسس الأول للعدالة الاجتماعية

---

(١) تأريخ الطبري ٦ / ١٤١ طبع أوربا.

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية / ٢٨٢.

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٢ / ١٤٥.

(٤) مناقب ابن المغازلي / رقم الحديث ٦٩.

في الأرض. لقد انطوت السنون والأحقاب واندكت معالم تلك الدول التي ناوئت الإمام ، سواء أكانت من بني أمية أم من بني العباس ، ولم يبقَ لها أثر ، وبقي الإمام (عليه السلام) وحده قد احتل قمّة المجد فها هو رائد الإنسانية الأول وقائدها الأعلى وإذا بحكمه القصير الأمد يصبح طغراء في حكام هذا الشرق ، وإذا الوثائق الرسمية التي أثرت عنه تصبح مناراً لكل حكم صالح يستهدف تحقيق القضايا المصيرية للشعوب ، وإذا بحكم معاوية أصبح رمزاً للخيانة والعمالة ورمزاً لاضطهاد الشعوب واحتقارها.

ستر فضائل أهل البيت :

وحاول معاوية بجميع طاقاته حجب فضائل أهل البيت (عليهم السلام) وستر مآثرهم عن المسلمين ، وعدم إذاعة ما أثر عن النبي (صلى الله عليه وآله) في فضلهم.

يقول المؤرخون : إنّه بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة فقاموا إليه تكريما ولم يقم إليه ابن عباس ، فبادره معاوية قائلاً : يابن عباس ما منعك من القيام؟ كما قام أصحابك إلا لموجدة علي بقتالي إياكم يوم صفين! يابن عباس ، إنّ ابن عمي عثمان قتل مظلوماً!

فرد عليه ابن عباس ببليغ منطقه قائلا : فعمر بن الخطاب قد قُتل مظلوماً ، فسلم الأمر إلى ولده ، وهذا ابنه ـ وأشار إلى عبد الله بن عمر ـ.

أجابه معاوية بمنطقه الرخيص :

إن عمر قتله مشرك.

فانبرى ابن عباس قائلا :

فمَن قتل عثمان؟

ـ قتله المسلمون.

وأمسك ابن عباس بزمامه فقال له : فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق.

ولم يجد معاوية مجالاً للردّ عليه ، فسلك حديثاً آخر أهم عنده من دم عثمان فقال له : إنّا كتبنا إلى الآفاق ننهي عن ذكر مناقب علي وأهل بيته فكف لسانك يابن عباس.

فانبرى ابن عباس بفيض من منطقه وبليغ حجته يسدد سهاما لمعاوية قائلا : فتنهانا عن قراءة القرآن؟

ـ لا.

ـ فتنهانا عن تأويله؟

ـ نعم.

ـ فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟

ـ نعم.

ـ فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟

ـ العمل به.

ـ فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟

ـ سل عن ذلك ممن يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك.

ـ إنما نزل القرآن على أهل بيتي ، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط؟!

ـ فاقرؤوا القرآن ، ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، ومما قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيكم ، وارووا ما سوى ذلك.

وسخر منه ابن عباس ، وتلا قوله تعالى : (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وصاح به معاوية : اكفني نفسك وكفّ عنّي لسانك ، وإن كنت فاعلاً فليكن سرّاً ولا تسمعه أحدا علانية [1].

ودلّت هذه المحاورة على عمق الوسائل التي اتّخذها معاوية في مناهضته لأهل البيت وإخفاء مآثرهم.

وبلغ الحق بمعاوية على الإمام أنّه لما ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمد بن أبي بكر وقتله ، استولى على كتبه ومذكراته وكان من بينها عهد الإمام له ، وهو من أروع الوثائق السياسية فرفعه ابن العاص إلى معاوية فلما رآه قال لخاصته : إنّا لا نقول هذا من كتب علي بن أبي طالب ولكن نقول هذا من كتب أبي بكر التي كانت عنده [2].

التحرج من ذكر الإمام :

وأسرف الحكم الأموي إلى حد بعيد في محاربة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد عهد بقتل كل مولود يسمى علياً ، فبلغ ذلك علي بن رباح فخاف ، وقال : لا أجعل في حل من سماني عليا فإن اسمي علي ـ بضم العين ـ [3].

ويقول المؤرخون : إن العلماء والمحدثين تحرجوا من ذكر الإمام علي والرواية عنه خوفا من بني أمية فكانوا إذا أرادوا أن يرووا عنه يقولون :

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٤٣.

(٢) شرح النهج ٢ / ٢٨.

(٣) تهذيب التهذيب ٧ / ٣١٩.

روى أبو زينب [1] ، وروى معمر عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «إنّ الله عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء لسوء رأيهم في أنبيائهم ، واختلافهم في دينهم ، وإنّه أخذ على هذه الأمّة بالسنين ، ومنعهم قطر السماء ببغضهم علي بن أبي طالب».

قال معمر : حدثني الزهري في مرضة مرضها ، ولم اسمعه يحدث عن عكرمة قبلها ولا بعدها فلما أبل من مرضه ندم على حديثه لي وقال : يا يماني اكتم هذا الحديث ، واطوه دوني فإن هؤلاء ـ يعني بني أميّة ـ لا يعذرون أحدا في تقريض علي وذكره.

قال معمر : فما بالك عبت عليا مع القوم وقد سمعت الذي سمعت؟!

قال الزهري : حسبك يا هذا إنّهم أشركونا مهامهم فاتبعناهم في أهوائهم [2].

وقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً في مودتهم للإمام وتحرجوا أشدّ التحرّج في ذلك ، يقول الشعبي : ماذا لقينا من علي إن أحببناه ذهبت دنيانا وإن بغضناه ذهب ديننا.

ويقول الشاعر :

حب علي كله ضرب ... برجف من تذكاره القلب

هذه بعض المحن التي عاناها المسلمون في مودتهم لأهل البيت (عليهم السلام) التي هي جزء من دينهم.

---

(١) شرح النهج ١١ / ١٤.

(٢) مناقب ابن المغازلي / رقم الحديث ١٤٩.

مع الشيعة :

واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسمياً في جميع أنحاء البلاد ، وقوبلوا بمزيد من العنف والشدّة ، فقد انتقم منهم معاوية كأشدّ ما يكون الانتقام قسوة وعذاباً ، فقد قاد مركبة حكومته على جثث الضحايا منهم ، وقد حكى الإمام الباقر (عليه السلام) صورا مريعة من بطش الأمويين بشيعة آل البيت (عليهم السلام) يقول : «وقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره» [(١)].

وتحدّث بعض رجال الشيعة إلى محمد بن الحنفية عمّا عانوه من المحن والخطوب بقوله : فما زال بنا الشين في حبكم حتى ضُربت عليه الأعناق ، وأبطلت الشهادات ، وشردنا في البلاد ، وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب في الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه ، لولا أن يخفى عليّ أمر آل محمد (صلى الله عليه وآله) وحتى هممت أن أخرج مع أقوام [(٢)] شهادتنا وشهادتهم واحدة على أمرائنا فيخرجون فيقاتلون [(٣)].

لقد كان معاوية لا يتهيب من الإقدام على اقتراف أية جرية من أجل أن يضمن ملكه وسلطانه ، وقد كانت الشيعة تشكّل خطراً على حكومته فاستعمل معهم أعنف الوسائل وأشدها قسوة من أجل القضاء عليهم ، ومن بين الإجراءات القاسية التي استعملها ضدهم ما يلي :

---

(١) شرح نهج البلاغة . لابن أبي الحديد ٣ / ١٥.

(٢) الأقوام : هم الخوارج.

(٣) طبقات ابن سعد ٥ / ٩٥.

القتل الجماعي

وأسرف معاوية إلى حد كبير في سفك دماء الشيعة ، فقد عهد إلى الجلادين من قادة جيشه بتتبع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا ، وقد قتل بسر بن أبي أرطأة بعد التحكيم ثلاثين ألفاً عدا مَنْ أحرقهم بالنار [١] ، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة [٢] ، وأمّا زياد بن أبيه فقد ارتكب أفظع المجازر فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون ، وأنزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لمرارته وقسوته.

إبادة القوى الواعية :

وعمد معاوية إلى إبادة القوى المفكرة والواعية من الشيعة ، وقد ساق زمراً منهم إلى ساحات الإعدام ، وأسكن الثكل والحداد في بيوتهم ، وفيما يلي بعضهم :

١ . حجر بن عدي :

لقد رفع حجر بن عدي علم النضال ، وكافح عن حقوق المظلومين والمضطهدين ، وسحق إرادة الحاكمين من بني أميّة الذين تلاعبوا في مقدرات الأمّة وحولوها إلى مزرعة جماعية لهم ولعملائهم وأتباعهم.

لقد استهان حجر من الموت وسخر من الحياة ، واستلذّ الشهادة في سبيل عقيدته ، فكان أحد المؤسسين لمذهب أهل البيت (عليه السلام).

---

(١) شرح النهج ٢ / ٦.
(٢) الطبري ٦ / ٣٢.

وامتحن حجر كأشد ما تكون المحنة قسوة حينما رأى السلطة تعلن سب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وترغم الناس على البراءة منه فأنكر ذلك ، وجاهر بالردّ على ولاة الكوفة ، واستحلّ زياد بن أبيه دمه فألقى عليه القبض ، وبعثه مخفوراً مع كوكبة من إخوانه إلى معاوية ، وأوقفوا في (مرج عذراء) فصدرت الأوامر من دمشق بإعدامهم ، ونفذ الجلادون فيهم حكم الإعدام فخرت جثثهم على الأرض وهي ملفعة بدم الشهادة والكرامة وهي تضيء للناس معالم الطريق نحو حياة أفضل لا ظلم فيها ، ولا طغيان.

مذكرة الإمام الحسين

وفزع الإمام الحسين حينما وافته الأنباء بمقتل حجر فرفع مذكرة شديدة اللهجة إلى معاوية ذكر فيها أحداثه وبدعه ، والتي كان منها قتله لحجر والبررة من أصحابه ، وقد جاء فيها : «ألست القاتل حجراً أخا كندة والمصلّين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ، ولا يخافون في الله لومة لائم. قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كانت أعطيتهم الأيمان المغلّظة ، والمواثيق المؤكّدة أن لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم؟!» [1]

واحتوت هذه المذكّرة على ما يلي :

١ ـ الإنكار الشديد على معاوية لقتله حجرا وأصحابه من دون أن يقترفوا أو يحدثوا فسادا في الأرض.

٢ ـ إنها أشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشهداء من إنكار الظلم ،

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٦٥.

ومقاومة الجور ، واستعظام البدع والمنكرات التي أحدثتها حكومة معاوية ، وقد هبّوا إلى ميادين الجهاد ، لإقامة الحقّ ، ومناهضة المنكر.

٣ . إنّها أثبتت أنّ معاوية قد أعطى حِجْرَاً وأصحابه عهداً خاصاً في وثيقة وقّعها قبل إبرام الصلح أنْ لا يعرض لهم بأي إحنة كانت بينه وبينهم ، ولا يصيبهم بأي مكروه ، ولكنّه قد خاس بذلك فلمْ يفِ به ، كما لمْ يفِ للإمام الحسن بالشروط التي أعطاها له ، وإنّما جعلها تحت قدميه ، كما أعلن ذلك في خطابه الذي ألقاه في النُّخيلة.

لقد كان قتل حِجْر مِن الأحداث الجسام في الإسلام ، وقد توالت صيحات الإنكار على معاوية مِن جميع الأقاليم الإسلامية ، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن (عليه السّلام».

٢ . رشيد الهجري :

وفي فترات المحنة الكبرى التي مُنِيَتْ بها الشيعة في عهد ابن سُمّيّة تعرض رشيد الهجري لأنواع المِحن والبلوى ، فقد بعث زياد شرطته إليه ، فلمّا مَثُلَ عنده صاح به (ما قال لك خليلك ـ يعني عليا ـ أنّا فاعلون بك؟).

فأجابه بصدق وإيمان : (تقطعون يدي ورجلي ، وتصلبوني) ، وقال الخبيث مستهزءاً وساخراً : (أما والله لأكذبنَّ حديثه ، خلّوا سبيله). وخلّت الجلاوزة سراحه ، وندم الطاغية فأمر بإحضاره فصاح به :

(لا نجد شيئا أصلح ممّا قال صاحبك : إنّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إنْ بقيت ، اقطعوا يديه ورجليه).

وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه ، وهو غير حافل بما يعانيه مِن الآلام.

ويقول المؤرخون : إنّه أخذ يذكر مثالب بني أُميّة ، ويدعو إلى إيقاظ الوعي والثورة ، ممّا غاظ ذلك زيادا فأمر بقطع

لسانه [١] الذي كان يطالب بالحقّ والعدل ، وينافح عن حقوق الفقراء والمحرومين.

٣ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي :

ومِن شهداء العقيدة : الصحابي العظيم عمرو بن الحمق الخزاعي الذي دعا له النّبي (صلّى الله عليه وآله) أنْ يمتّعه الله بشبابه ، واستجاب الله دعاء نبيه ، فقد أخذ عمرو بن حمق الثمّانين عاماً ولم تر في كريمته شعرة بيضاء [٢] ، وتأثر عمرو بهدي أهل البيت ، وأخذ مِن علومهم ، فكان مِن أعلام شيعتهم.

وفي أعقاب الفتنة الكبرى التي مُنِيَتْ بها الكوفة في عهد الطاغية زياد بن سُميّة شعر عمرو بتتبع السلطة له ، ففرّ مع زميله رفاعة بن شدّاد إلى الموصل ، وقبل أنْ ينتهيا إليه كمنا في جبل ليستجما فيه ، وارتابت الشرطة فبادرت إلى إلقاء القبض على عمرو.

أمّا رفاعة ، ففرّ ولمْ تستطع أنْ تُلقي عليه القبض ، وجيئ بعمرو مخفوراً إلى حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي ، فرفع أمره إلى معاوية ، فأمره بطعنه تسع طعنات بمشاقص [٣] ، لأنّه طعن عثمّان بن عفان ، وبادرت الجلاوزة إلى طعنه فمات في الطعنة الأولى ، واحتُزّ رأسه الشريف ، وأُرسل إلى طاغية دمشق ، فأمر أن يُطاف به في الشام.

ويقول المؤرخون : إنّه أوّل رأس طيف به في الإسلام ، ثمّ أمر به معاوية أنْ يُحمل إلى زوجته السيّدة آمنة بنت شريد ، وكانت في سجنه ، فلمْ تشعر إلاّ ورأس زوجها قد وضع في حجرها ، فذعرت وكادت أنْ تموت ، وحُمِلَتْ مِن السجن إلى معاوية ، وجرت بينها وبينه محادثات دلّت على ضِعة معاوية ، واستهانته بالقيم العربية والإسلامية ، القاضية بمعاملة المرأة معاملةً كريمةً ، ولا تؤخذ بأي ذنب يقترفه زوجها أو غيره.

---

(١) سفينة البحار ١ / ٥٢٢.

(٢) الإصابة ٢ / ٥٢٦.

(٣) المشاقص : ـ جمع مفردة مشقص ـ النصل العريض أو سهم فيه نصل عريض.

مذكّرة الإمام الحُسين :

والتاع الإمام الحَسين (عليه السّلام) أشدّ ما تكون اللوعة حينما علم بقتل عمرو ، فرفع مذكرةً إلى معاوية عدّد فيها أحداثه ، وما تعانيه الأُمّة في عهده من الاضطهاد والجور ، وجاء فيما يخص عمرو :

«أوَ لستَ قاتل عمرو بن الحمق ، صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، العبد الصالح ، الذي أبلته العبادة ، فنحل جسمه ، واصفرّ لونه ، بعدما أمِنته ، وأعطيته مِن عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك مِن رأس الجبل ، ثمّ قتلته جراءة على ربّك ، واستخفافا بذلك العهد» [1].

لقد خاس معاوية بما أعطاه لهذا الصحابي الجليل . بعد الصلح . مِن العهد والمواثيق بأن لا يعرض له بسوء ولا مكروه.

٤ . أوفى بن حصن :

وكان أوفى بن حصن مِن خيار الشيعة . في الكوفة . وأحد أعلامهم النابهين ، وهو مِن أشدّ الناقمين على معاوية ، فكان يذيع مساوءه وأحداثه.

ولما علم به ابن سُميّة أوعز إلى الشرطة بإلقاء القبض عليه ، ولما علم أوفى بذلك اختفى ، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى ، فشك في أمره ، فسأل عنه فأُخبر باسمه ، فأمر بإحضاره ، فلمّا مَثُل عنده سأله عن سياسته فعابها وأنكرها ، فأمر زياد بقتله ، فهوى الجلادون عليه بسيوفهم وتركوه جثة هامدة [2].

---

(١) حياة الإمام الحسن.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٨٠ ، الطبري ٦ / ١٣٠ . ١٣٢.

٥ ـ الحضرمي مع جماعته :

وكان عبد الله الحضرمي مِن أولياء الإمام أمير المؤمنين ، ومِن خلّص شيعته ، كما كان مِن شرطة الخميس ، وقد قال له الإمام يوم الجمل :

«أبشر يا عبد الله ، فإنّك وأباك مِن شرطة الخميس ، لقد أخبرني رسول الله باسمك واسم أبيك في شرطة الخميس ، ولما قُتِلَ الإمام جزع عليه الحضرمي ، وبنى له صومعة يتعبّد فيها ، وانضمّ إليه جماعة مِن خيار الشيعة ، فأمر ابن سُميّة بإحضارهم ، ولما مَثُلوا عنده أمر بقتلهم ، فقتلوا صبرا [1].

لقد كانت فاجعة عبد الله كفاجعة حِجْر بن عدي ، فكلاهما قُتِلَ صبراً ، وكلاهما أُخِذَ بغير ذنب ، سوى الولاء لعترة رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

إنكار الإمام الحُسين :

وفزع الإمام الحسين كأشدّ ما يكون الفزع ألماً ومحنةً على مقتل الحضرمي وجماعته الأخيار ، فأنكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له ، وقد جاء فيها.

«أوَ لستَ قاتل الحضرمي ، الذي كتب فيه إليك زياد أنّه على دين علي (عليه السّلام) ، فكتبت إليه أن اقتل كل مَن كان على دين علي ، فقتلهم ومثّل فيهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمّه (صلّى الله عليه وآله) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف».

ودلّت هذه المذكّرة ـ بوضوح ـ على أن معاوية قد عهد إلى زياد بقتل كل مَن كان على دين علي (عليه السّلام) ، الذي هو دين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، كما دلّت على أنّ زياداً قد مثّل بهؤلاء البررة بعد قتلهم ، تشفياً منهم لولائهم لعترة

---

(١) بحار الانوار ١٠ / ١٠١.

رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

٦ . جويرية العبدي :

ومِنْ عيون شيعة الإمام جويرية بن مسهر العبدي ، وفي فترات المحنة الكبرى التي امتحنت بها الشيعة أيّام ابن سُميّة ، بعث خلفه فأمر بقطع يده ورجله ، وصلبه على جذع قصير [1].

٧ . صيفي بن فسيل :

ومِنْ أبطال العقيدة الإسلامية صيفي بن فسيل ، الذي ضرب أروع الأمثلة للإيمان ، فقد سُعيَ به إلى الطاغية زياد ، فلمّا جيء به إليه صاح به :

. يا عدو الله ما تقول في أبي تراب؟

. ما أعرف أبا تراب [2]

. ما أعرفك به؟

. أما تعرف علي بن أبي طالب؟

. بلى

. فذاك أبو تراب.

.كلا ذاك أبو الحسن والحسين.

وانبرى مدير شرطة زياد منكرا عليه :

. يقول لك الأمير : هو أبو تراب ، وتقول : أنت ل :! ، فصاح به البطل العظيم مستهزءاً منه ، ومِن أميره.

. وإنْ كذب الأمير أتريد أنْ أكذب؟ وأشهد على باطل ، كما شهد

---

(١) شرح ابن أبي الحديد.

(٢) كان الأمويون يرمزون بهذه الكتبية إلى جعل الإمام كقاطع طريق ، جاء ذلك في التاريخ السياسي للدولة العربية ٢ / ٧٥ ، وجاء في الأغاني ١٣ / ١٦٨ أن زيادا كان يحتقر الشيعة ويسميهم الترابية.

وتحطم كبرياء الطاغية ، فضاقت به الأرض ، وقال له :

ـ وهذا أيضاً مع ذنبك ، وصاح بشرطته عليّ بالعص ، فأتوه به ، فقال له :

ـ ما قولك؟ ، وانبرى البطل بكلّ بسالة وإقدام غير حافل به قائلاً :

ـ أحسن قول أنا قائله في عبد مِن عباد الله المؤمنين ...

وأوعز السفّاك إلى جلاديه بضرب عاتقه حتّى يلتصق بالأرض ، فسعوا إليه بهراواتهم فضربوه ضرباً مبرحاً حتّى وصل عاتقه إلى الأرض ، ثمّ أمرهم بالكفّ عنه ، وقال له :

ـ إيه ما قولك في علي؟

وحسب الطاغية أنّ وسائل تعذيبه سوف تقلبه عن عقيدته ، فقال له :

والله لو شرحتني بالمواسي والمدى ، ما قلت إلاّ ما سمعت منّي

وفقد السفّاك إهابه ، فصاح به ، لتلعنه أو لأضربن عنقك ...

وهتف صيفي يقول :

ـ إذاً تضربها والله قبل ذلك ، فإنْ أبيت إلاّ أنْ تضربها رضيت بالله وشقيت أنت ...

وأمر به أنْ يوقرَ في الحديد ، ويلقى في ظلمات السجون [١] ، ثمّ بعثه مع حِجْر بن عدي فاستشهد معه [٢].

٨ ـ عبد الرحمن :

وكان عبد الرحمن العنزي مِن خيار الشيعة ، وقد وقع في قبضة جلاوزة

---

(١) الطبري ٤ / ١٩٨.

(٢) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٦٢.

زياد ، فطلب منهم مواجهة معاوية ، لعلّه أنْ يعفو عنه ، فاستجابوا له وأرسلوه مخفوراً إلى دمشق ، فلمّا مَثُلَ عند الطاغية قال له :

(إيهٍ أخا ربيعة ، ما تقول في علي؟)

(دعني ولا تسألني فهو خير لك).

(والله لا أدعك).

فانبرى البطل الفذ يُدلي بفضائل الإمام ، ويشيد بمقامه قائلاً : (أشهد أنّه كان مِن الذاكرين الله كثيراً ، والآمرين بالحقّ ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس).

والتاع معاوية فعرّج نحو عثمّان ، لعلّه أنْ ينال منه فيستحلّ إراقة دمه ، فقال له : (ما قولك في عثمّان؟)

فأجابه عن انطباعاته عن عثمّان ، فغاظ ذلك معاوية وصاح به :

(قتلت نفسك) ، بل إيّاك قتلت ، ولا ربيعة بالوادي.

وظنّ عبد الرحمن أنّ أُسرته ستقوم بحمايته وإنقاذه ، فلمْ ينبرِ إليه أحدٌ ، ولما أمِنَ منهم معاوية بعثه إلى الطاغية زياد ، وأمره بقتله ، فبعثه زياد إلى (قس الناطف) (١) فدفنه وهو حي (٢).

لقد رفع هذا البطل العظيم راية الحقّ ، وحمل معول الهدم على قلاع الظلم والجور ، واستشهد منافحا عن أقدس قضية في الإسلام.

هؤلاء بعض الشهداء مِن أعلام الشيعة ، الذين حملوا مشعل الحرية ، وأضاءوا الطريق لغيرهم مِن الثوار الذين أسقطوا هيبة الحكم الأموي ، وعملوا على إنقاضه.

---

(١) قس الناطف : موضع قريب مِن الكوفة.

(٢) الطبري ٦ / ١٥٥.

المروّعون مِن أعلام الشيعة :

وروّع معاوية طائفة كبيرة مِن الشخصيات البارزة مِن رؤساء الشيعة ، وفيما يلي بعضهم :

١ ـ عبد الله بن هاشم المرقال.

٢ ـ عديّ بن حاتم الطائي.

٣ ـ صعصعة بن صوحان.

٤ ـ عبد الله بن خليفة الطائي.

وقد أرهق معاوية هؤلاء الأعلام إرهاقاً شديداً ، فطاردتهم شرطته ، وأفزعتهم إلى حدٍّ بعيدٍ ، وقد ذكرنا ماعانوه مِن الخطوب في كتابنا (حياة الإمام الحسن).

ترويع النّساء :

ولمْ يقتصر معاوية في تنكيله على السّادة مِنْ رجال الشيعة ، وإنّما تجاوز ظلمه إلى السّيدات مِنْ نسائهم ، فأشاع فيهم الذعر والإرهاب ، فكتب إلى بعض عمّاله بحمل بعضهنّ إليه ، فحُمِلَت له هذه السّيدات :

١ ـ الزرقاء بنت عديّ.

٢ ـ أمُّ الخير البارقية.

٣ ـ سودة بنت عمارة.

٤ ـ أمُّ البرّاء بنت صفوان.

٥ . بكارة الهلالية.

٦ . أروى بنت الحارث.

٧ . عكرش بنت الأطرش.

٨ . الدارمية الحجونية.

وقد قابلهن معاوية بمزيد مِن التوهين والاستخفاف ، وأظهر لهنّ الجبروت والقدرة على الانتقام ، غير حافلٍ بوهن المرأة وضعفها ، وقد ذكرنا ما جرى عليهن في مجلسه مِن التحقير في كتابنا (حياة الإمام الحسن)

هدم دور الشيعة :

وأوعز معاوية إلى جميع عمّاله بهدم دور الشيعة ، فقاموا بنقضها [1].

وتركوا شيعة آل البيت (عليه السّلام) بلا مأوى يأوون إليه ، ولمْ يكن هناك أي مُبرر لهذه الإجراءات القاسية ، سوى تحويل الناس عن عترة رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

حرمان الشيعة مِن العطاء :

ومِن المآسي الكئيبة التي عانتها الشيعة في أيّام معاوية أنّه كتب إلى جميع عمّاله نسخة واحدة جاء فيها : (انظروا إلى مَن قامت عليه البيّنة أنّه يُحب عليا وأهل بيته فامحوه مِن الديوان ، واسقطوا عطاءه ورزقه) [2] ، وبادر عمّاله في الفحص في سجلاتهم ، فمَنْ وجدوه محبّاً لآل البيت (عليه السّلام) محوا اسمه ، وأسقطوا عطاءه.

---

(١) شرح النهج ١١ / ٤٤.

(٢) شرح النهج ١١ / ٤٤.

عدم قبول شهادة الشيعة :

وعمد معاوية إلى إسقاط الشيعة اجتماعياً ، فعهد إلى جميع عمّاله بعدم قبول شهادتهم في القضاء وغيره [١] مبالغة في إذلالهم وتحقيرهم.

إبعاد الشيعة إلى الخراسان :

وأراد زياد بن أبيه تصفية الشيعة مِن الكوفة ، وكسر شوكتهم فأجلى خمسين ألفاً منهم إلى خراسان . المقاطعة الشرقية في فارس [٢] . ، وقد دقّ زياد بذلك أوّل مسمار في نعش الحكم الأموي ، فقد أخذت تلك الجماهير التي أُبعدت إلى فارس تعمل على نشر التشيع في تلك البلاد ، حتى تحوّلت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي ، وهي التي أطاحت به تحت قيادة أبي مسلم الخراساني.

هذا بعض ما عانته الشيعة في عهد معاوية مِنْ صنوف التعذيب والإرهاب ، وكان ما جرى عليهم مِن المآسي الأليمة مِن أهم الأسباب في ثورة الإمام الحسين ، فقد رفع علم الثورة لينقذهم مِن المحنة الكبرى التي امتحنوا بها ، ويُعيد لهم الأمن والاستقرار.

البيعة ليزيد :

وختم معاوية حياته بأكبر إثم في الإسلام ، وأفظع جريمة في التاريخ ،

---

(١) حياة الإمام الحسن.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٤٧.

فقد أقدم غير متحرّج على فرض خليعه يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودنياهم ، ويخلد لهم الويلات والخطوب ، وقد استخدم معاوية شتى الوسائل المنحطّة في جعل المِلْك وراثة في أبنائه. ويرى الجاحظ أنّه تشبّه بملوك الفرس البزنطيين فحوّ الخلافة إلى مُلْك كسروي وعصب قيصري. وقبل أنْ نعرض إلى تلك البيعة المشومة ، وما رافقها مِن الأحداث ، نذكر عرضاً موجزاً لسيرة يزيد ، وما يتّصف به مِن القابليات الشخصية التي عجّت بذمها كتب التاريخ مِن يومه حتى يوم الناس هذا ، وفيما يلي ذلك :

ولادة يزيد :

ولد يزيد سنة (٢٥) أو (٢٦ هـ) [١] ، وقد دهمت الأرض شعلة مِنْ نار جهنم وزفيرها ، تحوط به دائرةُ السَوءِ وغضبٌ مِن الله ، وهو أخبث إنسان وجِدَ في الأرض ، فقد خُلِقَ للجريمة والإساءة إلى الناس وأصبح علماً للانحطاط الخُلُقي والظلم الاجتماعي ، وعنواناً بغيضاً للاعتداء على الأُمّة وقهرَ إرادتها في جميع العصور.

يقول الشيخ محمّد جواد مغنية : أمّا كلمة يزيد فقد كانت مِنْ قبل اسماً لابن معاوية ، أمّا هي الآن عند الشيعة فإنّها رمز للفساد والاستبداد والتهتّك والخلاعة ، وعنوان للزندقة والإلحاد ، فحيث يكون الشرّ والفساد فثمَّ اسم يزيد ، وحيثما يكون الخير والحقّ والعدل فثمَّ اسم الحُسين [٢].

وقد أثر عن النّبي (صلّى الله عليه وآله) أنّه نظر إلى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر إلى عطفَيه ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : «أي يوم لأُمّتي منك ، وأي يوم سُوء

---

(١) تاريخ القضاعي من مصوّات مكتبة الإمام الحكيم العامّة.

(٢) الشيعة في الميزان / ٤٥٥.

لذريتي منّك ، مِن جرو يخرج مِن صُلبك ، يتّخذ آيات الله هُزُوا ويستحل مِن حرمتي ما حرم الله عز وجل» [١].

نشأته :

نشأ يزيد عند أخواله في البادية مِن بني كلاب الذين كانوا يعتنقون المسيحية قبل الإسلام ، وكان مُرسَل العِنان مع شبابهم الماجنين فتأثر بسلوكهم إلى حدٍّ بعيدٍ ، فكان يشرب معهم الخمر ويلعب معهم بالكلاب.

يقول العائلي : إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين أنّ تربية يزيد لمْ تكن إسلامية خالصة ، أو بعبارة أخرى : كانت مسيحية خالصة ، فلمْ يبقَ ما يستغرب معه أنْ يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفّاً بما عليه الجماعة الإسلامية ، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب ولا يقيم لها وزناً ، بل الذي نستغرب أن يكون على غير ذلك [٢].

والذي نراه أنّ نشأته كانت نشأة جاهلية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولا تحمل أي طابعٍ مِن الدين مهما كان ؛ فإن استهتاره في الفحشاء وإمعانه في المنكر والإثم ممّا يوحي إلى الاعتقاد بذلك.

صفاته :

أمّا صفاته الجسمية : فقد كان شديد الأدمة بوجهه آثار الجدري [٣]

(١) المناقب والمثالب . للقاضي نعمان المصري / ٧١.

(٢) سمو المعنى في سمو الذات / ٥٩.

(٣) تاريخ القضاعي.

كما كان ضخما ذا سمنة كثير الشعر [1]. وأمّا صفاته النفسية : فقد ورث صفات جدّه أبي سفيان وأبيه معاوية مِن الغدر والنفاق والطيش والاستهتار. يقول السيد مير علي الهندي :

وكان يزيد قاسياً غداراً كأبيه ، ولكنّه ليس داهية مثله ؛ كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار مِن اللباقة الدبلوماسية الناعمة ، وكانت طبيعته المنحلّة وخلقه المنحطّ لا تتسرب إليهما شفقة ولا عدل.

كان يقتل ويعذّب نشداناً للمتعة واللذة التي يشعر بها وهو ينظر إلى آلام الآخرين ، وكان بؤرة لأبشع الرذائل ، وها هم ندماؤه مِن الجنسين خير شاهد على ذلك ؛ لقد كانوا مِن حُثالة المجتمع [2].

لقد كان جافي الخُلُق مستهتراً ، بعيداً عن جميع القيم الإنسانية ، ومِن أبرز ذاتياته ميله إلى إراقة الدماء ، والإساءة إلى الناس.

ففي السّنة الأولى مِن حكمه القصير أباد عترة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وفي السّنة الثانية أباح المدينة ثلاثة أيّام ، وقتل سبعمئة رجل مِن المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف مِن الموالي والعرب والتابعين.

ولَعه بالصيد :

ومِن مظاهر صفات يزيد : ولعه بالصيد فكان يقضي أغلب أوقاته فيه.

ويقول المؤرخون : كان يزيد بن معاوية كلفاً بالصيد لاهياً به ، وكان يُلبس كلاب

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١ / ٢٦٧.

(٢) روح الإسلام / ٢٩٦.

الصيد الأساور مِن الذهب والجِلال المنسوجة منه ، ويُهب لكلّ كلب عبداً يخدمه [1].

شغفه بالقرود :

وكان يزيد ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ ولِعاً بالقرود ، فكان له قرد يجعله بين يديه ويكنيه بأبي قيس ويسقيه فضل كأسه ، ويقول : هذا شيخ مِن بني إسرائيل أصابته خطيئة فمُسخ ، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسله مع الخيل في حلَبَة السّباق ، فحمله يوماً فسبق الخيل فسرّ بذلك ، وجعل يقول :

تمسّك أبا قيس بفضل زمامها ... فليس عليها إن سقطت ضمان
فقد سبقت خيل الجماعة كلّها ... وخيل أمير المؤمنين أتان

وأرسله مرّة في حلَبَةِ السباق فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه ، كما أمر أهل الشام أنْ يعزّوه بمصابه الأليم ، وأنشأ راثياً له :

كم مِن كرام وقوم ذوو محافظه ... جاؤوا لنا ليعزّوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها ... على الرؤوس وفي الأعناق والريس
لا يبعد الله قبرا أنت ساكنه ... فيه جمال وفيه لحية التيس [2]

وذاع بين الناس هيامه وشغفه بالقرود حتى لقّبوه بها. ويقول رجل مِن تنوخ هاجيا له :

---

(١) الفخري / ٤٥.

(٢) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب / ١٤٣ ، مِن مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم.

يزيـــد صـــديق القـــرد مـــل جوارنـــا فحـــــن إلى أرض القـــــرود يزيـــــد
تبّــــاً لمن أمســـى علينـــا خليفـــة صـــحابته الأدنـــون منـــه قـــرود [1]

إدمانه على الخمر :

والظاهرة البارزة مِن صفات يزيد إدمانه على الخمر ، وقد أسرف في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ ، فلمْ يُر في وقت إلا وهو ثمِل لا يعي مِن السكر.

ومِن شعره في الخمر :

أقـــول لصـــحب ضـــمّت الكـــاس شملَهـــم وداعـــي صـــبابات الهـــوى يـــترنم
خـــذوا بنصـــيب مِـــن نعـــيم ولـــذة فكـــلٌّ وإن طـــال المـــدى يتصـــرّم [2]

وجلس يوما على الشراب وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الحُسين ، فقال :

اســـقني شـــربة تـــروّي مشاشـــي ثم مِـــل فاســـق مثلهـــا ابـــن زيـــاد
صـــاحب الســـر والأمانـــة عنـــدي ولتســـديد مغنمـــي وجهـــادي [3]

وفي عهده طرّأ تحوّل كبير على شكل المجتمع الإسلامي ؛ فقد ضعف ارتباط المجتمع بالدين ، وانغمس الكثيرون مِن المسلمين في الدعارة والمجون ، ولمْ يكن ذلك التغيير إقليميّاً ، وإنّما شمل جميع الأقاليم الإسلامية ، فقد سادت فيها الشهوات والمتعة والشراب ، وقد تغيّرت الاتجاهات الفكرية التي ينشدها الإسلام عند أغلب المسلمين.

وقد اندفع الأحرار مِن شعراء المسلمين في أغلب عصورهم إلى هجاء

---

(١) انساب الاشراف ٢ / ٢.

(٢) تاريخ المظفري.

(٣) مروج الذهب ٢ / ٧٤.

يزيد لإدمانه على الخمر. يقول الشاعر بن عرادة :

أبَني أُميّة إن آخر ملككم ... جسد بحوارين ثم مقيم
طرقَت منيته وعند وساده ... كوب وِقِزّ راعف مرثوم
ومرنة تبكي على نشوانه ... بالصنج تقعد تارة وتقوم (١)

ويقول فيه أنور الجندي :

خُلقت نفسه الأثيمة بالمكر ... وهامت عيناه بالفحشاء
فهو والكاس في عناق طويل ... وهو والعار والخنا في خباء

ويقول فيه بولس سلامة :

وترفّق بصاحب العرش مشغو ... لا عن الله بالقيان الملاح
ألف (الله أكبر) لا تساوي ... بين كفَي يزيد نهلةَ راحِ
تتلظّى في الدن بكرا فلم ... تدنّس بلثم ولا بماء قراح (٢)

لقد عاقر يزيد الخمر وأسرف في الإدمان حتى أن بعض المصادر تعزو سبب وفاته إلى أنّه شرب كمية كبيرة مِنه فأصابه انفجار فهلك منه (٣).

ندماؤه :

واصطفى يزيد جماعة مِن الخُلعاء والماجنين فكان يقضي معهم لياليه الحمراء بين الشراب والغناء ، وفي طليعة ندمائه الأخطل الشاعر المسيحي الخليع

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٤٣.

(٢) ملحمة الغدير / ٢٢٧.

(٣) تاريخ المظفري مِن مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم ، وجاء في أنساب الأشراف ٤ / ق ٢ / ٢ أن سبب وفاة يزيد أنّه حمل قرده على أتان ، وهو سكران فركض خلفها فاندقّت عنقه ، فانقطع شيء في جوفه فمات.

فكانا يشربان ويسمعان الغناء وإذا أراد السفر صحبه معه [١] ، ولما هلك يزيد وآلَ أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قرّبه فكان يدخل عليه بغير استئذان ، وعليه جبّة خزّ وفي عُنقه سلسلةٌ مِنْ ذهب والخمر يقطر مِن لحيته [٢].

نصيحة معاوية ليزيد :

ولما شاع استهتار يزيد واقترافه لجميع ألوان المنكر والفساد ، استدعاه معاوية فأوصاه بالتكتّم في نيل الشهوات ؛ لئلاّ تسقط مكانته الاجتماعية ، قائلاً : يا بُني ، ما أقدرك على أنْ تصير إلى حاجتك مِنْ غير تهتّك يذهب بمرؤتك وقدرك ، ثمّ أنشده :

انصب نهاراً في طلاب العلا ... واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجا ... واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي ... فإنّما الليل نهار الأريبِ
كم فاسق تحسبه ناسكا ... قد باشر الليل بأمر عجيب [٣]

دفاع محمّد عزّة دروزة :

مِن الكتّاب الذين يحملون النزعة الأمويّة في هذا العصر محمّد عزّة دروزة ؛ فقد جهد نفسه ـ مع الأسف ـ على الدفاع عن منكرات الأمويين

(١) الأغاني ٧ / ١٧٠.
(٢) الأغاني ٧ / ١٧٠.
(٣) البداية والنهاية ٨ / ٢٢٨.

وتبرير ما أُثر عنهم مِن الظلم والجور والفساد ، وقد دافع عن معاوية ونزّهه عمّا اقترفه مِن الموبقات التي هي لطخة عار في تاريخ الإنسانية. وقد علّق على هذه البادرة بقوله : نحن ننزّه معاوية صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكاتب وحيه ، والذي أثرت عنه مخافةَ الله وتقواه ، وحرصه عن أنْ يرضى مِن ابنه الشذوذ عن هذه الحدود ، بل التشجيع ، بل نستبعد هذا عن يزيد [1]. وهذا ممّا يدعو إلى السّخرية والتفكّه ؛ فقد تنكّر دروزة للواضحات التي لا يشك فيها أي إنسان يملك عقله واختياره ، وقديماً قد قيل :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

إنّ ما أُثر عن معاوية مِن الأحداث الجِسام كقتله حِجْر بن عَدِيّ ورشيد الهجري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ونظرائهم مِن المؤمنين ، وسبّه للعترة الطاهرة ونكايته بالأُمّة بفرض يزيد خليفة عليها ، وغير ذلك مِن الجرائم التي ألمعنا إلى بعضها في البحوث السّابقة ، وهي ممّا تدلّ على تشويه إسلامه وانحرافه عن الطريق القويم ، ولكنّ دروزة وأمثاله لا ينظرون إلى الواقع إلاّ بمنظار أسود ، فراحوا يقدّسون الأمويين الذين أثبتوا بتصرفاتهم السّياسية والإدارية أنّهم خصوم الإسلام وأعداؤه.

إقرار معاوية لاستهتار يزيد :

وهام معاوية بحب ولده يزيد فأقرّه على فسقه وفجوره ولم يردعه عنه. ويقول المؤرخون : إنّه نُقِل له أن ولده على الشراب فأتاه يتجسّس عليه فسمعه ينشد :

---

(١) تاريخ الجنس العربي ٨ / ٨٦.

أقول لصحب ضمّت الكاس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنم

خذوا بنصيب مِن نعيم ولذّة ... فكل وإن طال المدى يتصرّم

ولا تتركوا يوم السّرور إلى غد ... فإن غداً يأتي بما ليس يُعلم

ألا إن أهنأ العيش ما سمحَت به ... صروف الليالي والحوادث نُوّم

فعاد معاوية إلى مكانه ولمْ يعلمه بنفسه ، وراح يقول :

والله لا كنت عليه ، ولا نغّصت عليه عيشه [1].

حقد يزيد على النبي :

وأترعت نفس يزيد بالحقد على النّبي (صلّى الله عليه وآله) والبغض له ؛ لأنّه وتره بأُسرته يوم بدر ، ولما أباد العترة الطاهرة جلس على أريكة المُلْك جذلانَ مسروراً يهز أعطافه ، فقد استوفى ثأره مِن النّبي (صلّى الله عليه وآله) وتمنّى حضور أشياخه لِيَرَوا كيف أخذ بثأرهم ، وجعل يترنم بأبيات ابن الزبعرى :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج مِن وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تُشل

قد قتلنا القرم مِن أشياخهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالمُلْك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

لست مِن خندف إن لم أنتقم ... مِن بني أحمد ما كان فعل [2]

---

(١) تاريخ المظفري مِن مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم.

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٩٢.

بغضه للأنصار :

وكان يزيد يبغض الأنصار بغضاً عارماً ؛ لأنّهم ناصروا النّبي (صلّى الله عليه وآله) وقاتلوا قريش ، وحصدوا رؤوسَ أعلامهم ، كما كانوا يبغضون بني أُميّة ، فقد قُتِلَ عثمان بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه ، ثمّ بايعوا علياً وذهبوا معه إلى صفين لحرب معاوية ، ولما استشهد الإمام كانوا مِنْ أهم العناصر المعادية لمعاوية ، وكان يزيد يتميّز مِنْ الغيظ عليهم وطلب مِنْ كعب بن جعيل التغلبي أن يهجوهم فامتنع ، وقال له : أردتني إلى الإشراك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولكنْ أدلّك على غلامٍ منّا نصراني كان لسانه لسان ثور - يعني الأخطل -.

فدعا يزيد الأخطل وطلب منه هجاء الأنصار فأجابه إلى ذلك ، وهجاهم بهذه الأبيات المقذعة :

لعن الإله مِن اليهود عصابة ... ما بين صليصل وبين صرار [1]

قوم إذا هدر القصير رأيتَهم ... حمراً عيونهم مِن المسطارِ [2]

خلّوا المكارم لستم مِن أهلها ... وخذوا مساحيكم بني النجّار

إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولاد كل مقبّح أكّار [3]

ذهبت قريش بالمكارم كلّها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار [4]

---

(١) صليصل وصرار : مِن الأماكن القريبة للمدينة.

(٢) المسطار : الخمر الصارعة لشاربها.

(٣) أكّار : الحراث.

(٤) طبقات الشعراء / ٣٩٢.

لقد ابتدأ الأخطل هجاءه للأنصار بذمِ اليهود وقرن بينهم وبين الأنصار ، لأنّهم يساكنونهم في يثرب ، وقد عاب على الأنصار بأنّهم أهل زرع وفلاحة وأنّهم ليسوا أهل مجدٍ ولا مكارم ، واتهمهم بالجبن عند اللقاء ونسب الشرف والمجد إلى القرشيين واللؤم كلّه تحت عمائم الأنصار.

وقد أثار هذا الهجاء المرّ حفيظة النعمان بن بشير الذي هو أحد عملاء الأمويين ، فانبرى غضباناً إلى معاوية ، فلمّا مَثُلَ عنده حسر عمامته عن رأسه وقال : يا معاوية ، أترى لؤماً؟.

لا ، بل أرى خيراً وكرماً ، فما ذاك؟!

زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا!

واندفع النعمان يستجلب عطف معاوية قائلا :

معـاوي ألا تعطنـا الحـق تعـترف ... لحـق الأزد مسـدولا عليهـا العمـائم

أيشـتمُنا عبـد الأراقـم ضـلّة ... فمـاذا الـذي تجـدي عليـك الأراقـم

فمـا لي ثـأر دون قطـع لسـانه ... فـدونك مَـن ترضـيه عنـه الـدراهم [1]

قال معاوية : ما حاجتك؟

ـ لسانه.

ـ ذلك لك.

وبلغ الخبرُ الأخطلَ فأسرع إلى يزيد مستجيراً به ، وقال له : هذا الذي كنت أخافه! فطمأنه يزيد وذهب إلى أبيه فأخبره بأنّه قد أجاره ، فقال معاوية : لا سبيل إلى ذمّة أبي خالد ـ يعني يزيدا ـ فعفى عنه.

وجعل الأخطل يفخر برعاية يزيد له ، ويشمت بالنعمان بقوله :

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٣٢١ ـ ٣٢٢.

أبـــا خالـــد دافعـــت عــــني عظيمـــة　　وأدركـــــت لحمـــــي قبــــل أن يتبــــددا
وأطفـــأت عــــني نـــار نعمـــان بعــدما　　أغـــــذ لأمـــــر عـــــاجز وتجـــــردا
ولّمـــا رأى النعمـــان دوني ابـــن حـــرّ　　طـــوى الكشـــح إذ لم يسـتطعني وعـرّا [١]

هذه بعض نزعات يزيد واتجاهاته ، وقد كشفت عن مسخه وتمرّسه في الجريمة ، وتجرّده مِنْ كلّ خُلُق قويم. وإنّ مِنْ مهازل الزمن وعثرات الأيّام أنْ يكون هذا الخليعُ حاكماً على المسلمين ، وإماما لهم.

دعوة المغيرة لبيعة يزيد :

وأوّل مَنْ تصدى لهذه البيعة المشؤومة أعورُ ثقيف المغيرة بن شعبة ، صاحب الأحداث والموبقات في الإسلام [٢] ، وقد وصفه (بروكلمان) بأنّه رجلٌ انتهازي ، لا ذمة له ولا ذمام [٣] ، وهو أحد دهاة العرب الخمسة [٤] ، وقد قضى حياته في التآمر على الأُمّة ، والسعي وراء مصالحه الخاصة.

أمّا السبب في دعوته لبيعة يزيد . فيما يرويه المؤرّخون . فهو أن معاوية أراد عزله مِن الكوفة ليولي عليها سعيد بن العاص [٥] ، فلمّا بلغه ذلك سافر إلى دمشق ليقدّم استقالته مِن منصبه حتّى لا تكون حزازة عليه في عزله ، وأطال التفكير في أمره ، فرأى أنّ خير وسيلة لإقراره في منصبه

---

(١) ديوان الأخطل / ٨٩.

(٢) مِن موبقات المغيرة أنّه أوّل مَن رُشي في الإسلام كما يروي البيهقي ، كما أنّه كان الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٤٥.

(٤) تاريخ الطبري.

(٥) الإمامة والسياسة ٢ / ٢٦٢.

أن يجتمع بيزيد فيحبّذ له الخلافة حتى يتوسّط في شأنه إلى أبيه. والتقى الماكر بيزيد فأبدى له الإكبار ، وأظهر له الحبّ ، وقال له :

قد ذهب أعيان محمّد وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنّما بقى أبناؤهم وأنت مِنْ أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسُنّة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أنْ يعقد لك البيعة؟!

وغزت هذه الكلمات قلبَ يزيد ، فشكره وأثنى على عواطفه ، وقال له : أترى ذلك يتمّ

ـ نعم.

وانطلق يزيد مسرعاً إلى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة ، فسرّ معاوية بذلك وأرسل خلفه ، فلمّا مَثُلَ عنده أخذ يحفّزه على المبادرة في أخذ البيعة ليزيد قائلا : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان مِنْ سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خَلَف فاعقد له ؛ فإن حدث بك حدث كان كهفاً للناس ، وخَلَفاً منك ، ولا تُسفكُ دماءٌ ، ولا تكون فتنةٌ.

وأصابت هذه الكلمات الوتر الحساس في قلب معاوية ، فراح يخادعه مستشيراً في الأمر قائلاً : مَنْ لي بهذا؟

ـ أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يُخالف.

واستحسن معاوية رأيه فشكره عليه ، وأقرّه على منصبه ، وأمره بالمبادرة إلى الكوفة لتحقيق غايته. ولما خرج مِن عند معاوية قال لحاشيته : لقد وضعت رِجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أُمّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) ،

وفتقت عليه فتقا لا يُرتق. ثم تمثّل بقول الشاعر :

بمثلـــي شـــاهد النّجـــوى وغـــالى   بي الأعـــداء والخصـــم الغِضـــابا

ففي سبيل المغنم فتق المغيرة على أُمّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) فتقاً لا يُرتق ، وأخلد لها الكوارث والخطوب.

وسار المغيرة إلى الكوفة وهو يحمل الشر والدمار لأهلها ولعموم المسلمين ، وفور وصوله عقد اجتماعاً ضم عُملاء الأُمويّين ، فعرض عليهم بيعة يزيد فأجابوه إلى ذلك ، وأوفد جماعة منهم إلى دمشق وجعل عليهم ولده أبا موسى ، فلمّا انتهوا إلى معاوية حفّزوه على عقد البيعة ليزيد ، فشكرهم على ذلك وأوصاهم بالكتمان ، والتفت إلى ابن المغيرة ، فقال له : بكم اشترى أبوك مِن هؤلاء دينهم؟

ـ بثلاثين ألف درهم.

فضحك معاوية ، وقال ساخراً : لقد هان عليهم دينُهم. ثم أوصلهم بثلاثين ألف درهم [1].

لقد استجاب لهذه البيعة ورضي بها كلّ مَنْ يحمل ضميراً قلِقاً عرضه للبيع والشراء.

تبرير معاوية :

ودافع جماعة مِن المؤلّفين والكتاب عن معاوية ، وبرّروا بيعته ليزيد التي كانت مِنْ أفجع النكبات التي مُنِيَ بها العالم الإسلامي ، وفيما يلي بعضهم :

١ ـ أحمد دحلان :

ومِنْ أصلب المدافعين عن معاوية أحمد دحلان ، قال : فلمّا نظر

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٤٩.

معاوية إلى قوّة شوكتهم ـ يعني الأُمويّين ـ واستحكام عصبيتهم ، حتّى إنّهم لو خرجت الخلافة عنهم بعده يُحدِثون فتنةً ، ويقع افتراق للأُمّة ، فأراد اجتماع الكلمة بجعل الأمر فيهم. ثم إنّه نظر فيمَن كان منهم أقوى شوكة فرآه ابنه يزيد ؛ لأنّه كان كبيراً ، وباشر إمارة الجيوش في حياة أبيه ، وصارت له هيبةٌ عند الأُمراء ، وله تمكّن ونفاذ كلمةٍ ، فلو جعل الأمر لغيره منهم كان ذلك سبباً لمنازعته ، لا سيما وله تمكّن واقتدار على الاستيلاء على ما في بيت المال مِن الأموال ، فيقع الافتراق والاختلاف. فرأى أنّ جعل الأمر له بهذا الاجتهاد يكون سبباً للأُلفة وعدم الافتراق ، وهذا هو السبب في جعله وليّ عهده ، ولمْ يعلم ما يبديه الله بعد ذلك [1].

حفنة من التراب على أمثال هؤلاء الذين دفعتهم العصبية الآثمة إلى تبرير المنكر وتوجيه الباطل ، فهل إنّ أمر الخلافة التي هي ظل الله في الأرض يعود إلى الأُمويّين حتى يرعى معاوية عواطفهم ورغباتهم ؛ وهم الذين ناهضوا نبي الإسلام وناجزوه الحرب ، وعذّبوا كلّ مَنْ دخل في دين الإسلام ، فكيف يكون أمر الخلافة بأيديهم؟! ولو كان هناك منطق ووعي ديني لكانوا في ذيل القافلة ، ولا يُحسب لهم أي حساب.

٢ ـ الدكتور عبد المنعم :

ومن المبررين لمعاوية في بيعته ليزيد الدكتور عبد المنعم ماجد قال : ويبدو أن معاوية قصد مِن وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأُمّة الإسلامية ووقوع الفتنة ، مثلما حدث بعد عثمان.

ولعلّه أيضا أراد أن يوجد حلا للمسألة التي تركها النّبي (صلّى الله عليه وآله) دون حل ؛ وهي إيجاد سلطة دائمة للإسلام ، ومِن المحقّق أنّ معاوية لمْ يكن له مندوحة مِنْ أنْ يفعل

---

(١) تاريخ دول الإسلامية / ٢٨.

ذلك ؛ خوفا مِن غضب بني أُميّة الذين لم يكونوا يرضون بتسليم الأمر إلى سواهم [1]. وهذا الرأي لا يحمل أي طابعٍ مِن التوازن ؛ فإنّ معاوية في بيعته ليزيد لمْ يجمع كلمة المسلمين ، وإنّما فرّقها وأخلد لهم الشر والخطوب ؛ فقد عانت الأُمّة في عهد يزيد مِن ضروب البلاء والمحن ما لا يوصف ؛ لفضاعته ومرارته ، فقد جهد حفيد أبي سفيان على تدمير الإسلام وسحق جميع مقدّساته وقيمه ؛ فأباد العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم حسب النصوص النّبوية المتواترة ، وأنزل بأهل المدينة في واقعة الحرّة مِن الجرائم ما يندى له جبين الإنسانية ، فهل جمع بذلك معاوية كلمة المسلمين ووحّد صفوفهم؟! وممّا يدعو إلى السّخرية ما ذهب إليه مِن أن النّبي (صلّى الله عليه وآله) ترك مسألة الخلافة بغير حلّ ، فجاء معاوية فحلّ هذه العقدة ببيعته ليزيد!! إن النّبي (صلّى الله عليه وآله) لم يترك أي شأن مِن شؤون أُمّته بغير حلّ ، وإنّما وضع لها الحلول الحاسمة ، وكان أهم ما عنى به شأن الخلافة ، فقد عَهِدَ بها إلى أفضل أُمّته ، وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، وقد بايعه كبار الصحابة وعموم مَنْ كان معه في يوم الغدير ، ولكنّ القوم كرهوا اجتماع النّبوة والخلافة في بيت واحد ، فزووا الخلافة عن أهل بيت نبيهم (صلّى الله عليه وآله) ، فأدّى ذلك إلى أنْ يلي أمر المسلمين يزيد وأمثاله مِن المنحرفين الذين أثبتوا في تصرفاتهم أنّهم لا علاقة لهم بالإسلام ، ولا عَهْدَ لهم بالدين.

٣ . حسين محمّد يوسف :

ومن المدافعين بحرارة عن معاوية في ولايته ليزيد حسين محمّد يوسف ، وقد أطال الكلام بغير حجّة في ذلك ، قال في آخر حديثه : وخلاصة القول في موقف معاوية أنّه كان مجتهداً في رأيه ، وأنّه حين دعا

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية ٢ / ٦٢.

الأُمّة إلى بيعة يزيد كان حسن الظن به ؛ لأنّه لمْ يثبت عنده أي نقص فيه ، بل كان يزيد يدسّ على أبيه مَن يحسّن له حاله حتى اعتقد أنّه أولى مِن أبناء بقية الصحابة كلّهم ؛ فإن كان معاوية قد أصاب في اختياره فله أجران ، وإنْ كان قد أخطأ فله أجر واحد ، وليس لأحدٍ بعد ذلك أن يخوض فيما وراء ذلك ؛ فإنّما الأعمال بالنّيات ، ولكلّ امرئ ما نوى [1].

إن مِن المؤسف حقّاً أن ينبري هؤلاء لتبرير معاوية في اقترافه لهذه الجريمة النكراء التي أغرقت العالم الإسلامي بالفتن والخطوب! ومتى اجتهد معاوية في فرض ابنه خليفة على المسلمين؟! فقد سلك في سبيل ذلك جميع المنعطفات والطريق الملتوية ، فأرغم عليها المسلمين ، وفرضها عليهم تحت غطاء مكثّف من قوة الحديد. إن معاوية لم يجتهد في ذلك وإنّما استجاب لعواطفه المترعة بالحنان والولاء لولده ، مِن دون أنْ يرعى أي مصلحةٍ للأُمّة في ذلك.

هؤلاء بعض المؤيدين لمعاوية في عقده البيعة ليزيد ، وهم مدفوعون بدافعٍ غريبٍ على الإسلام ، وبعيد كلّ البعد عن منطق الحقّ.

كلمة الحسن البصري :

وشجب الحسن البصري بيعة يزيد وجعلها مِنْ جملة موبقات معاوية ، قال : أربع خصال كُنَّ في معاوية ، لو لمْ يكن فيه منهنَّ إلاّ واحدة لكانت موبقة : ابتزاؤه على هذه الأُمّة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه بعده سكّيراً خمّيراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادّعاؤه زياد وقد

---

(١) سيد شباب أهل الجنّة الحسين بن علي (عليه السّلام) / ٢٠٨.

قال رسول (صلّى الله عليه وآله) : «الولد للفراش وللعاهر الحَجَر». وقتله حِجْراً وأصحابه ، ويلٌ له مِن حِجْر وأصحابه [1]!

كلمة ابن رشد :

ويرى الفيلسوف الكبير ابن رشد أن بيعة معاوية ليزيد قد غيّر مجرى الحياة الإسلامية ، وهدمت الحكم الصالح في الإسلام ، قال : إن أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية مِن الصلاح ، فكأنّما وصف أفلاطون حكومتهم في (جمهوريته) الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أنْ تكون مِثالاً لجميع الحكومات ، ولكنّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، وأقام مكانه دولة بني أُميّة وسلطانها الشديد ؛ ففتح بذلك باباً للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة حتى في بلادنا هذه [2]. يعني الأندلس ..

لقد نَقِمَ على معاوية في بيعة يزيد جميعُ أعلام الفكر وقادة الرأي في الأُمّة الإسلامية ، منذ عهد معاوية حتى يوم الناس هذا ، ووصفوها بأنّها اعتداء صارخ على الأُمّة ، وخروج على إرادتها.

دوافع معاوية :

أمّا الدوافع التي دعت معاوية لفرض ابنه السكّير خليفة على المسلمين ، فكان مِنْ أبرزها الحبّ العارم لولده ؛ فقد هام بحبّه ، وقد أدلى بذلك

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٥٧ وغيره.

(٢) ابن رشد وفلسفته ـ فرج انطون / ٦٠.

في حديثه مع سعيد بن عثمان حينما طلب مِنه أنْ يرشّحه للخلافة ويدع ابنه يزيد ، فسخِرَ مِنه معاوية وقال له : والله ، لو ملأتَ لي الغوطة رجالاً مثلك لكان يزيد أحبّ إليّ مِنكم كلّكم [1].

لقد أعمّاه حبه لولده ، وأضله عن الحقّ ، وقد قال : لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي [2]. وكان يؤمن بأنّ استخلافه ليزيد مِن أعظم ما اقترفه مِن الذنوب ، وقد صارح ولده بذلك فقال له : ما ألقى الله بشيء أعظم في نفسي مِن استخلافي إيّاك [3].

لقد اقترف معاوية وزرا عظيما فيما جناه على الأُمّة بتحويل الخلافة إلى مُلْك عضوض لا يُعنى فيه بإرادة الأُمّة واختيارها.

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة :

أمّا الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها معاوية في فرض خليعه على المسلمين فهي :

١ ـ استخدام الشعراء :

أمّا الشعراء فكانوا في ذلك العصر مِنْ أقوى أجهزة الإعلام ،

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٠.

(٢) المناقب والمثالب . القاضي نعمان المصري / ٦٨.

(٣) تاريخ الخلفاء . لمؤلّف مجهول قامت بنشره أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي.

وقد أجزل لهم معاوية العطاء ، وأغدق عليهم الأموال ، فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على يزيد ، فأضافوا إليه الصفات الرفيعة ، وخلعوا عليه النعوت الحسنة ، وفيما يلي بعضهم :

أ ـ العجّاج :

ومدحه العجّاج مدحاً عاطراً ، فقال فيه :

إذ زُلــــزِلَ الأقــــوام لم تزلــــزل ... عــن ديــن موســى والرســول المرسـل

وكنــــت ســـيف الله لم يفلّــــل ... يفـــرع [1] أحيانـــا وحينـــا يختلـــي [2]

ومعنى هذا الشعر أن يزيد يقتفي أثر الرسول موسى والنّبي محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وأنّه سيف الله البتّار ، إلاّ أنّه كان مشهوراً على أولياء الله وأحبّائه.

الأحوص :

ومدحه الشاعر الأحوص بقصيدة جاء فيها :

ملــك تــدين لــه الملــوك مبــارك ... كــادت لهيبتــه الجبــال تــزول

يجُــبى لــه بلــخ ودجلــة كلّهــا ... ولــه الفــرات ومــا ســقى والنيــل

لقد جاءته تلك الهيبة التي تخضع لها الجباه ، وتزول منها الجبال مِن إدمانه على الخمر ، ومزاملته للقرود ، ولعبه بالكلاب ، واقترافه للجرائم والموبقات!

مسكين الدارمي :

ومِن الشعراء المرتزقة مسكين الدارمي ، وقد أوعز إليه معاوية أنْ يحثّه على بيعة يزيد أمام مَنْ كان عنده مِنْ بني أُميّة ، وأشراف أهل الشام ،

---

(١) يفرع : يعلو رؤوس الناس.

(٢) شعراء النصرانية بعد الإسلام / ٢٣٤.

فدخل مسكين على معاوية ، فلمّا رأى مجلسه حاشداً بالناس رفع عقيرته :

إن ادعُ مسكينا فإني ابن معشر ... مِن الناس أحمي عنهم وأذود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلا فإنّما ... يبوِّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاّه ربّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد ساعد ... لكل أُناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولم تزل ... وفود تساميها إليك وفود
ولا زال بيت المِلْك فوقك عاليا ... تُشيَّد أطناب له وعمود [1]

هؤلاء بعض الشعراء الذين مدحوا يزيد ، وافتعلوا له المآثر لتغطية ما ذيع عنه مِن الدعارة والمجون.

بذل الأموال للوجوه :

وأنفق معاوية الأموال الطائلة بسخاء للوجوه والأشراف ؛ ليقرّوه على فرض ولده السكّير خليفة على المسلمين. ويقول المؤرّخون : إنّه أعطى عبد الله بن عمر مئة ألف درهم فقبلها منه [2] ، وكان ابن عمر مِنْ أصلب المدافعين عن بيعة يزيد ، وقد نَقِمَ على الإمام الحسين (عليه السّلام) خروجه عليه ، وسنذكر ذلك بمزيد مِن التفصيل في البحوث الآتية.

---

(١) الأغاني ٨ / ٧١.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠.

مراسلة الولاة :

وراسل معاوية جميع عمّاله وولاته في الأقاليم الإسلاميّة بعزمه على عقد البيعة ليزيد ، وأمرهم بتنفيذ ما يلي :

١ . إذاعة ذلك بين الجماهير الشعبية ، وإعلامها بما صمّمت عليه حكومة دمشق مِنْ عقد الخلافة ليزيد.

٢ . الإيعاز للخطباء وسائر أجهزة الإعلام بالثناء على يزيد ، وافتعال المآثر له.

٣ . إرسال الوفود إليه مِن الشخصيات الإسلاميّة حتى يتعرّف على رأيها في البيعة ليزيد [١].

وقام الولاة بتنفيذ ما عهد إليهم ، فأذاعوا ما صمّم عليه معاوية مِن عقد البيعة ليزيد ، كما أوعزوا للخطباء وغيرهم بالثناء على يزيد.

وفود الأقطار الإسلاميّة :

واتّصلت الحكومات المحلّية في الأقطار الإسلاميّة بقادة الفكر ، فعرضت عليهم ما عزم عليه معاوية مِنْ تولية ولده للخلافة ، وطلبوا منهم السّفر فوراً إلى دمشق لعرض آرائهم على معاوية. وسافرت الوفود إلى دمشق وكان في طليعتهم :

١ . الوفد العراقي بقيادة زعيم العراق الأحنف بن قيس.

٢ . الوفد المدني بقيادة محمّد بن عمرو بن حزم [٢].

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

وانتهت الوفود إلى دمشق لعرض آرائها على عاهل الشام ، وقد قام معاوية بضيافتهم والإحسان إليهم.

مؤتمر الوفود الإسلاميّة :

وعقدت وفود الأقطار الإسلاميّة مؤتمرا في البلاط الأُموي في دمشق لعرض آرائها في البيعة ليزيد ، وقد افتتح المؤتمر معاوية بالثناء على الإسلام ، ولزوم طاعة ولاة الأُمور ، ثمّ ذكر يزيد وفضله وعمله بالسّياسة ، ودعاهم لبيعته.

المؤيّدون للبيعة :

وانبرت كوكبة مِنْ أقطاب الحزب الأُموي فأيّدوا معاوية ، وحثّوه على الإسراع للبيعة ، وهم :

١ ـ الضحّاك بن قيس

٢ ـ عبد الرحمن بن عثمان

٣ ـ ثور بن معن السلمي

٤ ـ عبد الله بن عصام

٥ ـ عبد الله بن مسعدة

وكان معاوية قد عهد إليهم بالقيام بتأييده ، والردّ على المعارضين له.

خطاب الأحنف بن قيس :

وانبرى إلى الخطابة زعيم العراق وسيّد تميم الأحنف بن قيس ، الذي تقول فيه ميسون أُمّ يزيد : لو لم يكن في العراق إلا هذا لكفاهم [1]. وتقدّم فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ التفت إلى معاوية قائلا :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إنّ الناس في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره.

يا أمير المؤمنين ، فاعرف مَنْ تسند إليه الأمر مِنْ بعدك ثمّ اعصِ أمر مَنْ يأمرك ، ولا يغررك مَن يُشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أنّ أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيّاً.

وأثار خطاب الأحنف موجةً مِن الغضب والاستياء عند الحزب الأُموي ، فاندفع الضحّاك بن قيس مندِّداً به ، وشتم أهلَ العراق ، وقدح بالإمام الحسن (عليه السّلام) ، ودعا الوفد العراقي إلى الإخلاص لمعاوية والامتثال لما دعا إليه. ولمْ يعن به الأحنف ، فقام ثانياً فنصح معاوية ودعاه إلى الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه مِن تسليم الأمر إلى الحسن (عليه السّلام) مِن بعده ؛ حسب اتفاقية الصلح التي كان من أبرز بنودها إرجاع الخلافة مِن بعده إلى الإمام الحسن (عليه السّلام) ، كما أنّه هدّد معاوية بإعلان الحرب إذا لمْ يفِ بذلك.

---

(١) تذكرة ابن حمدون / ٨١.

فشل المؤتمر :

وفشل المؤتمر فشلا ذريعا بعد خطاب الزعيم الكبير الأحنف بن قيس ، ووقع نزاع حاد بين أعضاء الوفود وأعضاء الحزب الأُموي ، وانبرى يزيد بن المقفّع فهدّد المعارضين باستعمال القوّة قائلا : أمير المؤمنين هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ ، فإنْ هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ ، ومَنْ أبى فهذا ـ وأشار إلى السيف ـ.

فاستحسن معاوية قوله ، وراح يقول له : اجلس فأنت سيّد الخطباء وأكرمهم.

ولمْ يعن به الأحنف بن قيس ، فانبرى إلى معاوية فدعاه إلى الإمساك عن بيعة يزيد ، وأنْ لا يُقدّم أحدا على الحسن والحسين (عليهما السّلام). وأعرض عنه معاوية ، وبقي مصرّاً على فكرته التي هي أبعد ما تكون عن الإسلام.

وعلى أي حالٍ ، فإنّ المؤتمر لمْ يصل إلى النتيجة التي أرادها معاوية ؛ فقد استبان له أنّ بعض الوفود الإسلاميّة لا تُقرّه على هذه البيعة ولا ترضى به.

سفر معاوية ليثرب :

وقرّر معاوية السفر إلى يثرب التي هي محطّ أنظار المسلمين ، وفيها أبناء الصحابة الذين يُمثّلون الجبهة المعارضة للبيعة ؛ فقد كانوا لا يرون يزيداً نِدّاً لهم ، وإنّ أخذ البيعة له خروجٌ على إرادة الأُمّة ، وانحراف عن الشريعة الإسلاميّة التي لا تُبيح ليزيد أنْ يتولّى شؤون المسلمين ؛ لما عُرِفَ به مِن الاستهتار وتفسّخ الأخلاق.

وسافر معاوية إلى يثرب في زيارة رسمية ، وتحمّل أعباء السفر لتحويل الخلافة الإسلاميّة إلى مُلْكٍ عضوض ، لا ظل فيه للحقّ والعدل.

اجتماع مغلق :

وفور وصول معاوية إلى يثرب أمر بإحضار عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعقد معهم اجتماعاً مغلقاً ، ولمْ يُحضر معهم الحسن والحسين (عليهما السّلام) ؛ لأنّه قد عاهد الحسن (عليه السّلام) أنْ تكون الخلافة له مِنْ بعده ، فكيف يجتمع به؟ وماذا يقول له؟ وقد أمر حاجبه أن لا يسمح لأي أحد بالدخول عليه حتى ينتهي حديثه معهم.

كلمة معاوية :

وابتدأ معاوية الحديث بحمد الله والثناء عليه ، وصلّى على نبيّه ، ثمّ قال : أمّا بعد ، فقد كبر سنّي ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أنْ أُدعى فأُجيب ، وقد رأيت أنْ استخلف بعدي يزيد ، ورأيته لكم رضا. وأنتم عبادلة قريش وخيارهم وأبناء خيارهم ، ولمْ يمنعني أنْ أُحضِر حسناً وحُسيناً إلاّ أنّهما أولاد أبيهما علي ، على حُسنِ رأي فيهما ، وشدّة محبّتي لهما ، فردّوا على أمير المؤمنين خيرا رحمكم الله.

ولم يستعمل معهم الشدّة والإرهاب ؛ استجلاباً لعواطفهم ، ولمْ يخفَ عليهم ذلك ، فانبروا جميعا إلى الإنكار عليه.

كلمة عبد الله بن عباس :

وأوّل مَنْ كلّمه عبد الله بن عباس ، فقال بعد حمد الله ، والثناء عليه : أمّا بعد ، فإنّك قد تكلّمت فأنصتنا ، وقلت فسمعنا ، وإنّ الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه اختار محمّداً (صلّى الله عليه وآله) لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرّفه على خلقه ، فأشرف الناس مَنْ تشرّف به ، وأولاهم بالأمر أخصّهم به ، وإنّما على الأُمّة التسليم لنبيّها إذا اختاره الله له ؛ فإنّه إنّما اختار محمّداً (صلّى الله عليه وآله) بعلمه ، وهو العليم الخبير ، واستغفر الله لي ولكم.

وكانت دعوة ابن عباس صريحة في إرجاع الخلافة لأهل البيت (عليهم السّلام) ، الذين هم ألصق الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأمسّهم به رحماً ؛ فإنّ الخلافة إنّما هي امتداد لمركز رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فأهل بيته أحقّ بمقامه وأولى بمكانته.

كلمة عبد الله بن جعفر :

وانبرى عبد الله بن جعفر ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة إنْ أُخذ فيها بالقرآن فأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإنْ أُخذ فيها بسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فأُولوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وإنْ أُخذ فيها بسنّة الشيخين أبي بكر وعمر فأي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر مِنْ آل الرسول (صلّى الله عليه وآله)؟ وأيم الله ، لو ولّوها بعد نبيّهم لوضعوا الأمر موضعه ؛ لحقّه وصدقه ، ولأُطيع الرحمن وعُصي الشيطان ، وما اختلف في الأُمّة سيفان ، فاتقِ الله يا معاوية ، فإنّك قد صرت راعياً ونحن رعيّة ، فانظر لرعيتك فإنّك مسؤول عنها غدا ،

وأمّا ما ذكرت مِن ابنَي عمّي وتركك أنْ تحضرهم ، فوالله ما أصبت الحقّ ، ولا يجوز ذلك إلاّ بهما ، وإنّك لتعلم أنّهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع ، واستغفر الله لي ولكم.

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى الحق ، والإخلاص للأُمّة ، فقد رشّح أهل البيت (عليهم السّلام) للخلافة وقيادة الأُمّة ، وحذّره مِنْ صرفها عنهم كما فعل غيره مِن الخلفاء ، فكان مِنْ جرّاء ذلك أنْ مُنِيَتِ الأُمّة بالأزمات والنّكسات ، وعانت أعنف المشاكل وأقسى الحوادث.

كلمة عبد الله بن الزبير :

وانطلق عبد الله بن الزبير للخطابة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة لقريش خاصة ، نتناولها بمآثرها السنيّة وأفعالها المرضيّة ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتّقِ الله يا معاوية وأنصف نفسك ؛ فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وعلي خلّف حسناً وحُسيناً ، وأنت تعلم مَنْ هما وما هما؟ فاتّقِ الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك.

وقد رشح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة ، وقد حفّزهم بذلك لمعارضة معاوية وإفساد مهمّته.

كلمة عبد الله بن عمر :

واندفع عبد الله بن عمر ، فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيّه : أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة ، ولا قيصريّة ، ولا كسرويّة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستّة مِنْ أصحاب الشورى إلاّ على أنّ الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنّما هي في قريش خاصة لمنْ كان لها أهلاً ؛ ممّن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، ممّن كان أتقى وأرضى ، فإنْ كنت تريد الفتيان مِنْ قريش فلعمري أنّ يزيد مِنْ فتيانها ، واعلم أنّه لا يُغني عنك مِن الله شيئا.

ولمْ تعبّر كلمات العبادلة عن شعورهم الفردي ، وإنّما عبّرت تعبيراً صادقاً عن رأي الأغلبية السّاحقة مِن المسلمين الذين كرهوا خلافة يزيد ، ولمْ يرضوا به.

كلمة معاوية :

وثقلَ على معاوية كلامهم ، ولمْ يجد ثغرة ينفذ منها للحصول على رضاهم ، فراح يشيد بابنه فقال : قد قلت وقلتم ، وإنّه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبّ إليّ مِن أبنائهم ، مع أنّ ابني إنْ قاولتموه وجد مقالاً ، وإنّما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ؛ لأنّهم أهل رسول الله ، فلمّا مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمر مِنْ غير معدن المُلْك والخلافة ، غير أنّهما سارا بسيرةٍ جميلةٍ ، ثمّ رجع المُلْك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد

أخرجك الله يابن الزبير ، وأنت يابن عمر منه ، فأمّا ابنا عمّي هذان فليسا بخارجين مِن الرأي إنْ شاء الله [١].

وانتهى اجتماع معاوية بالعبادلة ، وقد أخفق فيه إخفاقاً ذريعاً ؛ فقد استبان له أنّ القوم مصمّمون على رفض بيعة يزيد. وعلى إثر ذلك غادر يثرب ، ولمْ تذكر المصادر التي بأيدينا اجتماعه بسبطي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فقد أهملت ذلك ، وأكبر الظن أنّه لمْ يجتمع بهما.

فزع المسلمين :

وذُعِرَ المسلمون حينما وافتهم الأنباء بتصميم معاوية على فرض ابنه خليفة عليهم ، وكان مِنْ أشدّ المسلمين خوفاً المدنيون والكوفيون ، فقد عرفوا واقع يزيد ، ووقفوا على اتجاهاته المعادية للإسلام.

يقول توماس آرنولد : كان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألِفوا البيعة والشورى ، والنُّظم الأُولى في الإسلام ، وهم بعدُ قريبون منها ؛ ولهذا أحسّوا . وخاصة في مكّة والمدينة ، حيث كانوا يتمسّكون بالأحاديث والسّنن النّبوية الأُولى . أن الأُمويّين نقلوا الخلافة إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية ، مطبوع بالعظمة وحبّ الذات بدلاً مِنْ أنْ يحتفظوا بتقوى النّبي وبساطته [٢].

لقد كان إقدام معاوية على فرض ابنه يزيد حاكما على المسلمين تحوّلا خطيرا في حياة المسلمين الذين لم يألفوا مثل هذا النظام الثقيل الذيفُرِض عليهم بقوّة السّلاح.

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٨٠ - ١٨٣ ، جمهرة الخطب ٢ / ٢٣٣ - ٢٣٦.

(٢) الخلافة - لتوماس / ١٠.

الجبهة المعارضة :

وأعلن الأحرار والمصلحون في العالم الإسلامي رفضهم القاطع لبيعة يزيد ، ولمْ يرضوا به حاكما على المسلمين ، وفيما يلي بعضهم :

١ . الإمام الحسين (عليه السّلام) :

وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، فقد كان يحتقر يزيد ويكره طباعه الذميمة ، ووصفه بأنّه صاحب شراب وقنص ، وأنّه قد لزم طاعة الشيطان وترك طاعة الرحمن ، وأظهر الفساد ، وعطّل الحدود ، واستأثر بالفيء ، وأحلّ حرام الله وحرّم حلاله [١]. وإذا كان بهذه الضِعة ، فكيف يبايعه ويقرّه حاكماً على المسلمين؟!

ولما دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الإمام (عليه السّلام) : «أيّها الأمير ، إنّا أهل بيت النّبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله وبنا يختم ، ويزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، وقاتل النّفس المحترمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله».

ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأُسرة النّبوية تبعاً لزعيمهم العظيم ، ولمْ يشذّوا عنه.

الحرمان الاقتصادي :

وقابل معاوية الأسرة النّبوية بحرمان اقتصادي ؛ عقوبةً لهم لامتناعهم عن بيعة يزيد ، فقد حبس عنهم العطاء سنة كاملة [٢] ، ولكنّ ذلك لمْ يثنهم عن عزمهم في شجب البيعة ورفضها.

---

(١) تاريخ ابن الأثير.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٢ ، الإمامة والسياسة ١ / ٢٠٠.

٢ . عبد الرحمن بن أبي بكر :

ومِن الذين نقموا على بيعة يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقد وسمها بأنّها هرقلية ، كلّما مات هرقل قام مكانه هرقل آخر [١]. وأرسل إليه معاوية مئة ألف درهم ليشتري بها ضميره فأبى ، وقال : لا أبيع ديني [٢].

٣ . عبد الله بن الزبير :

ورفض عبد الله بن الزبير بيعة يزيد ، ووصفه بقوله : يزيد الفجور ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات [٣]. ولمّا أجبرته السّلطة المحلّية في يثرب على البيعة فر منها إلى مكّة.

٤ . المنذر بن الزبير :

وكره المنذر بن الزبير بيعة يزيد وشجبها ، وأدلى بحديث له عن فجور يزيد أمام أهل المدينة ، فقال : إنّه قد أجازني بمئة ألف ، ولا يمنعني ما صنع بي أنْ أخبركم خبره. والله ، إنّه ليشرب الخمر. والله ، إنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة [٤].

٥ . عبد الرحمن بن سعيد :

وامتنع عبد الرحمن بن سعيد مِن البيعة ليزيد ، وقال في هجائه :

---

(١) الاستيعاب.

(٢) الاستيعاب ، البداية والنهاية ٨ / ٨٩.

(٣) أنساب الأشراف ٤ / ٣٠.

(٤) الطبري ٤ / ٣٦٨.

لســـــت منّيــــا ولـــــيس خالُـــك منّيـــا ‌ ‌ ‌ ‌ يـــــا مضـــــيع الصـــــلاة للشـــــهوات [١]

٦ . عابس بن سعيد :

ورفض عابس بن سعيد بيعة يزيد حينما دعاه إليها عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال له : أنا أعرَفُ به منك ، وقد بعتَ دينك بدنياك [٢].

٧ . عبد الله بن حنظلة :

وكان عبد الله بن حنظلة مِن أشدّ الناقمين على البيعة ليزيد ، وكان مِن الخارجين عليه في وقعة الحرّة ، وقد خاطب أهل المدينة ، فقال لهم : فو الله ، ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أنْ نُرمى بالحِجارة مِن السّماء.

حياة الإمام الحُسين

إنّ رجلاً ينكح الأُمّهات والبنات ، ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة ، والله لو لمْ يكن معي أحدٌ مِن الناس لأبليت لله فيه بلاء حسنا [٣].

وكان يرتجز في تلك الواقعة :

بعـــــدا لمَـــــن رام الفســـــاد وطغـــــى ‌ ‌ ‌ ‌ وجانـــــب الحـــــق وآيـــــات الهـــــدى

لا يبعد الرحمن إلا مَن عصى [٤]

---

(١) الحُسين بن علي (عليه السّلام) ٢ / ٦.

(٢) القضاة . للكندي / ٣١٠.

(٣) طبقات ابن سعد.

(٤) تاريخ الطبري ٧ / ١٢.

موقف الأُسرة الأُمويّة :

ونقمت الأُسرة الأُمويّة على معاوية في عقده البيعة ليزيد ، ولكن لمْ تكن نقمتهم عليه مشفوعة بدافع ديني أو اجتماعي ، وإنّما كانت مِنْ أجل مصالحهم الشخصية الخاصة ؛ لأنّ معاوية قلّد ابنه الخلافة وحرمهم منها ، وفيما يلي بعض الناقمين :

١ . سعيد بن عثمان :

وحينما عقد معاوية البيعة ليزيد أقبل سعيد بن عثمان إلى معاوية ، وقد رفع عقيرته قائلاً : علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك؟! فوالله لأبي خير مِنْ أبيه ، وأُمّي خير مِنْ أُمّه ، وأنا خيرٌ مِنه ، وقد ولّيناك فما عزلناك ، وبنا نلت ما نلت!

فراوغ معاوية وقال له : أمّا قولك إنّ أباك خير مِنْ أبيه فقد صدقت ، لعمر الله إنّ عثمان لخير مِنّي ؛ وأمّا قولك إنّ أُمّك خير مِنْ أُمّه فحسب المرأة أنْ تكون في بيت قومِها ، وأنْ يرضاها بعلها ، ويُنجب ولدها ؛ وأمّا قولك إنّك خير مِنْ يزيد ، فوالله ما يسرّني أنّ لي بيزيد ملء الغوطة ذهباً مثلك ؛ وأمّا قولك إنّكم ولّيتموني فما عزلتموني ، فما ولّيتموني إنّما ولاّني مَنْ هو خير مِنكم عمر بن الخطاب فأقررتموني.

وما كنت بئس الوالي لكم ؛ لقد قمت بثأركم ، وقتلتُ قتلة أبيكم ، وجعلت الأمر فيكم ، وأغنيت فقيركم ، ورفعت الوضيع منكم ...

وكلّمه يزيد فأرضاه ، وجعله والياً على خراسان [1].

٢ . مروان بن الحكم :

وشجب مروان بن الحكم البيعة ليزيد وتقديمه عليه ، فقد كان شيخ الأُمويِّين وزعيمهم ، فقال له : أقم يابن أبي سفيان ، واهدأ مِنْ تأميرك الصبيان ، واعلم أنّ لك في قومك نُظراء ، وأنّ لهم على مناوئتك وزرا.

فخادعه معاوية ، وقال له : أنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفي كلّ شدّة عضده ، فقد ولّيتك قومك ، وأعظمنا في الخراج سهمك ، وإنّا مجيرو وفدك ، ومحسنو وفدك [2].

وقال مروان لمعاوية : جئتم بها هرقلية ، تُبايعون لأبنائكم! [3].

٣ . زياد بن أبيه :

وكره زياد بن أبيه بيعة معاوية لولده ؛ وذلك لما عرف به مِن الاستهتار والخلاعة والمجون.

ويقول المؤرّخون : إنّ معاوية كتب إليه يدعوه إلى أخذ البيعة بولايته العهد ليزيد ، وإنّه ليس أولى مِن المغيرة بن شعبة. فلمّا قرأ كتابه دعا برجل مِن أصحابه كان يأتمنه حيث لا يأتمن أحدا غيره ، فقال له : إني اُريد أن ائتمنك على ما لم ائتمن على بطون الصحائف ؛ ائت معاوية وقل له : يا أمير المؤمنين ، إنّ كتابك ورد عليّ بكذا ، فماذا يقول

---

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٣٨٩ . ٣٩٠.

(٢) الإمامة والسّياسة ١ / ١٢٨.

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٢ / ٣٩٥.

الناس إنْ دعوناهم إلى بيعة يزيد ، وهو يلعب بالكلاب والقرود ، ويلبس المصبغ ، ويدمن الشراب ، ويمسي على الدفوف ، ويحضرهم . أي الناس . الحُسين بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر؟! ولكن تأمره أن يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين ، فعسانا أن نموه على الناس. وسار الرسول إلى معاوية فأدّى إليه رسالة زياد ، فاستشاط غضباً ، وراح يتهدّده ويقول :

ويلي على ابن عُبيد! لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الأمير بعدي زياد. والله ، لأردّنه إلى أُمّه سُميّة وإلى أبيه عُبيد [1].

هؤلاء بعض الناقدين لمعاوية مِن الأُسرة الأُمويّة وغيرهم في توليته لخليعه يزيد خليفة على المسلمين.

إيقاع الخلاف بين الأُمويّين :

واتّبع معاوية سياسة التفريق بين الأُمويّين حتى يصفو الأمر لولده يزيد ؛ فقد عزل عامله على يثرب سعيد بن العاص واستعمل مكانه مروان بن الحكم ، ثمّ عزل مروان واستعمل سعيداً مكانه ، وأمره بهدم داره ومصادرة أمواله ، فأبى سعيد مِنْ تنفيذ ما أمره به معاوية فعزله وولّى مكانه مروان ، وأمره بمصادرة أموال سعيد وهدم داره ، فلمّا همّ مروان بتنفيذ ما عهد إليه أقبل إليه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية في شأنه ، فامتنع مروان مِن القيام بما أمره معاوية.

وكتب سعيد إلى معاوية رسالة يندّد فيها بعمله ، وقد جاء فيها : العجب ممّا صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا له ، أنْ يضغن بعضنا

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩٦.

على بعض! فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره مِن الأخبثين ، وعفوه وإدخاله القطيعة بنا والشحناء ، وتوارث الأولاد ذلك! [١].

وعلّق عمر أبو النّصر على سياسة التفريق التي تبعها معاوية مع أُسرته بقوله : إن سبب هذه السّياسة هو رغبة معاوية في إيقاع الخلاف بين أقاربه الذين يخشى نفوذهم على يزيد مِنْ بعده ، فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلّوا بحاجة إلى عطفه وعنايته [٢].

تجميد البيعة :

وجمّد معاوية رسميا البيعة ليزيد إلى أجل آخر حتى يتم له إزالة الحواجز والسدود التي تعترض طريقه. ويقول المؤرّخون : إنّه بعد ما التقى بعبادلة قريش في يثرب ، واطّلع على آرائهم المعادية لما ذهب إليه ، أوقف كلّ نشاط سياسي في ذلك ، وأرجأ العمل إلى وقت آخر [٣].

اغتيال الشخصيات الإسلاميّة :

ورأى معاوية أنّه لا يمكن بأي حال تحقيق ما يصبوا إليه مِن تقليد ولده الخلافة مع وجود الشخصيات الرفيعة التي تتمتّع باحترام بالغ في نفوس المسلمين ، فعزم على القيام باغتيالهم ؛ ليصفو له الجو ، فلا يبقى أمامه أي مزاحم ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٨.

(٢) السياسة عند العرب ـ عمر أبو النّصر / ٩٨.

(٣) الإمامة والسياسة ١ / ١٨٢.

وقد قام باغتيال الذوات التالية :

١ ـ سعد بن أبي وقاص :

ولسعد المكانة العليا في نفوس الكثيرين مِن المسلمين ، فهو أحد أعضاء الشورى ، وفاتح العراق ، وقد ثقل مركزه على معاوية فدسّ إليه سُمّاً فمات منه [١].

٢ ـ عبد الرحمن بن خالد :

وأخلص أهل الشام لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وأحبّوه كثيراً ، وقد شاورهم معاوية فيمَنْ يعقد له البيعة بعد وفاته ، فقالوا له : رضينا بعبد الرحمن بن خالد ، فشقّ ذلك عليه ، وأسرّها في نفسه.

ومرض عبد الرحمن ، فأمر معاوية طبيباً يهودياً كان مكيناً عنده أنْ يأتيه للعلاج فيسقيه سقية تقتله ، فسقاه الطبيب فمات على أثر ذلك [٢].

٣ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر :

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر مِنْ أقوى العناصر المعادية لبيعة معاوية لولده ، وقد أنكر عليه ذلك ، وبعث إليه معاوية بمئة ألف درهم فردّها عليه ، وقال : لا أبيع ديني بدنياي. ولم يلبث أن مات فجأة بمكة [٣].

وتعزو المصادر سبب وفاته إلى أن معاوية دس إليه سُمّا فقتله.

---

(١) مقاتل الطالبيِّين / ٢٩.

(٢) الاستيعاب.

(٣) المصدر نفسه.

٤ ـ الإمام الحسن (عليه السّلام) :

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة وإثم في الإسلام ، فقد عمد إلى اغتيال سبط النّبي (صلّى الله عليه وآله) وريحانته الإمام الحسن (عليه السّلام) ، الذي عاهده بأنْ يكون الخليفة مِنْ بعده.

ولم يتحرّج الطاغية مِنْ هذه الجريمة في سبيل إنشاء دولة أُمويّة تنتقل بالوارثة إلى أبنائه وأعقابه ، وقد وصفه (الميجر وا ُزبورن) بأنّه مخادع ، وذو قلب خال مِنْ كلّ شفقة ، وأنّه كان لا يتهيّب مِن الإقدام على أيّة جريمة مِنْ أجل أنْ يضمن مركزه ؛ فالقتل إحدى وسائله لإزالة خصومه ، وهو الذي دبّر تسميم حفيد الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، كما تخلّص مِنْ مالك الأشتر قائد علي بنفس الطريقة [1].

وقد استعرض الطاغية السفّاكين ليعهد إليهم القيام باغتيال ريحانة النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فلمْ يرَ أحداً خليقاً بارتكاب الجريمة سوى جُعيدة بنت الأشعث ؛ فإنّها مِنْ بيت قد جُبِلَ على المكر ، وطُبِعَ على الغدر والخيانة ، فأرسل إلى مروان بن الحكم سُمّاً فاتكاً كان قد جلبه مِنْ مَلكِ الروم ، وأمره بأنْ يُغري جُعيدة بالأموال وزواج ولده يزيد إذا استجابت له ، وفاوضها مروان سرّاً ففرحت ، فأخذت مِنه السُّمّ ودسّته للإمام (عليه السّلام) ، وكان صائماً في وقت ملتهب مِن شدّة الحرّ ، ولما وصل إلى جوفه تقطّعت أمعاؤه ، والتفت إلى الخبيثة فقال لها : «قتلتيني قتلك الله. والله لا تصيبنَّ مِنّي خَلفاً ، لقد غرّك ـ يعني معاوية ـ وسخر مِنك ، يخزيك الله ويخزيه».

وأخذ حفيد الرسول (صلّى الله عليه وآله) يعاني الآلام الموجعة مِنْ شدّة السُّمّ ،

---

(١) روح الإسلام / ٢٩٥.

وقد ذبلت نضارته ، واصفرّ لونه حتى وافاه الأجل المحتوم. وقد ذكرنا تفصيل وفاته مع ما رافقها مِن الأحداث في كتابنا (حياة الإمام الحسن (عليه السّلام»).

إعلان البيعة رسميّا :

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول (صلّى الله عليه وآله) وريحانته ، فقد قضى على مَنْ كان يحذر منه ، وقد استتبت له الأمور ، وخلت السّاحة مِنْ أقوى المعارضين له ، وكتب إلى جميع عمّاله أنْ يبادروا دونما أي تأخير إلى أخذ البيعة ليزيد ، ويُرغموا المسلمين على قبولها. وأسرع الولاة في أخذ البيعة مِن الناس ، ومَنْ تخلّف عنها نال أقصى العقوبات الصارمة.

مع المعارضين في يثرب :

وامتنعت يثرب مِنْ البيعة ليزيد ، وأعلن زعماؤهم وعلى رأسهم الإمام الحُسين (عليه السّلام) رفضهم القاطع للبيعة ، ورفعت السّلطة المحلّية ذلك إلى معاوية ، فرأى أنْ يسافر إلى يثرب ليتولّى بنفسه إقناع المعارضين ، فإنْ أبوا أجبرهم على ذلك. واتّجه معاوية إلى يثرب في موكب رسمي تحوطه قوّة هائلة مِن الجيش ، ولما انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة فجفاهم وهدّدهم.

وفي اليوم الثاني أرسل إلى الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وإلى عبد الله بن عباس ، فلمّا مَثُلا عنده قابلهما بالتكريم والحفاوة ، وأخذ يسأل الحُسين (عليه السّلام) عن أبناء أخيه والإمام (عليه السّلام) يُجيبه ، ثمّ خطب معاوية فأشاد بالنّبي (صلّى الله عليه وآله) وأثنى عليه ، وعرض إلى بيعة يزيد ، ومنح ابنه الألقاب الفخمة ، والنعوت الكريمة ، ودعاهما إلى بيعته.

خطاب الإمام الحُسين (عليه السّلام) :

وانبرى أبي الضيم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أمّا بعد يا معاوية ، فلن يؤدّي المادح وإنْ أطنب في صفة الرسول (صلّى الله عليه وآله) مِنْ جميع جزءاً ، وقد فهمتُ ما لبست به الخلف بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مِنْ إيجاز الصفة ، والتنكّب عن استبلاغ النّعت ، وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السُّرج ، ولقد فضلّتَ حتّى أفرطت ، واستأثرتَ حتّى أجحفت ، ومنعتَ حتّى بخلت ، وجُرْتَ حتّى جاوزت ، ما بذلت لذي حقٍّ مِنْ اسمٍ حقّه مِنْ نصيب حتّى أخذ الشيطان حظّه الأوفر ، ونصيبه الأكمل.

وفهمت ما ذكرته عن يزيد مِن اكتماله ، وسياسته لأُمّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) ؛ تريد أن توهم الناس في يزيد ، كأنّك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تُخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص ، وقد دلّ يزيد مِنْ نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به مِن استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش ، والحَمام السبق لأترابهنَّ ، والقيان ذوات المعازف ، وضروب الملاهي تجده ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ؛ فما أغناك أنْ تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه ، فوالله ما برحتَ تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم حتّى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت إلاّ غمضة ، فتُقدم على عمل محفوظ ، في يوم مشهود ، ولات حين مناص.

ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آبائنا تُراثاً ، ولعمر الله أورثنا الرسول (صلّى الله عليه وآله) ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائمَ عند موت الرسول ، فأذعن للحجّة بذلك ، وردّه الإيمان إلى النّصف ، فركبتم الأعاليل ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم : كان

ويكون ، حتّى أتاك الأمر يا معاوية مِنْ طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك فاعتبروا يا أُولي الأبصار.

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وتأميره له ، وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له ، وما صار ـ لعمر الله ـ يومئذ مبعثهم حتّى أنِفَ القوم إمرته ، وكرهوا تقديمه ، وعدّوا عليه أفعاله ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : لا جرم يا معشر المهاجرين ، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري. فكيف تحتج بالمنسوخ مِن فعل الرسول في أوكد الأحكام وأولاها بالمجتمع عليه مِن الصواب؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعاً وحولك مَنْ لا يُؤمن في صحبته ، ولا يعتمد في دينه وقرابته ، وتتخطّاهم إلى مسرف مفتون ، تريد أنْ تُلبس الناس شبهةً يسعد بها الباقي في دنياه ، وتشقى بها في آخرتك؟! إن هذا لهو الخسران المبين! واستغفر الله لي ولكم».

وفنّد الإمام (عليه السّلام) في خطابه جميع شبهات معاوية ، وسدّ عليه جميع الطرق والنوافذ ، وحمّله المسؤولية الكبرى فيما أقدم عليه مِن إرغام المسلمين على البيعة لولده. كما عرض للخلافة وما منيت به مِن الانحراف عمّا أرادها الله مِن أن تكون في العترة الطاهرة (عليهم السّلام) ، إلاّ أنّ القوم زووها عنهم ، وحرفوها عن معدنها الأصيل.

وذُهل معاوية مِن خطاب الإمام (عليه السّلام) ، وضاقت عليه جميع السّبل ، فقال لابن عباس : ما هذا يابن عباس؟!

ـ لعمر الله إنّها لذرّيّة الرسول (صلّى الله عليه وآله) ، وأحد أصحاب الكساء ، ومِن البيت المطهّر ، فاله عمّا تريد ؛ فإنّ لك في الناس مقنعاً حتّى يحكم الله

بأمره ، وهو خير الحاكمين [1].

ونهض أبيّ الضيم ، وترك معاوية يتميّز مِن الغيظ ، وقد استبان له أنّه لا يتمكّن أن يخدع الإمام الحُسين (عليه السّلام) ويأخذ البيعة منه.

إرغام المعارضين :

وغادر معاوية يثرب متّجهاً إلى مكّة وهو يطيل التفكير في أمر المعارضين ، فرأى أنْ يعتمد على وسائل العنف والإرهاب ، وحينما وصل إلى مكّة أحضر الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعرض عليهم مرّة أُخرى البيعة إلى يزيد فأعلنوا رفضهم له ، فانبرى إليهم مغضباً ، وقال : إني أتقدّم إليكم أنّه قد أُعذِر مَن أنذر. كنتُ أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذّبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنّي قائم بمقالة فأُقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتّى يسبقها السّيف إلى رأسه ، فلا يسبقني رجل إلاّ على نفسه.

ودعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال له : أقم على رأس كلّ رجل مِن هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإنْ ذهب رجل منهم يردّ عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثمّ خرج وخرجوا معه ، فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتزّ أمرٌ دونهم ،

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٩٥ ـ ١٩٦.

ولا يُقضى إلاّ عن مشورتهم ، وإنّهم رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله.

فبايعه الناس ، ثمّ ركب رواحله وغادر مكّة [1] ، وقد حسب معاوية أنّ الأمر قد تمّ لولده ، واستقر المِلْكُ في بيته ، ولمْ يعلم أنّه قد جرّ الدمار على دولته ، وأعدّ المجتمع للثورة على حكومة ولده.

موقف الإمام الحُسين (عليه السّلام) :

كان موقف الإمام الحُسين (عليه السّلام) مع معاوية يتّسم بالشدّة والصرامة ، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر إلى مقاومة معاوية ، ويحذّرهم مِنْ سياسته الهدّامة ، الحاملة لشارات الدمار إلى الإسلام.

وفود الأقطار الإسلاميّة :

وأخذت الوفود تترى على الإمام (عليه السّلام) مِن جميع الأقطار الإسلاميّة وهي تعج بالشكوى إليه ، وتستغيث به ممّا ألمّ بها مِن الظلم والجور ، وتطلب منه القيام بإنقاذها مِن الاضطهاد.

ونقلت الاستخبارات في يثرب إلى السّلطة المحلية تجمّع الناس واختلافهم على الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وكان الوالي مروان ، ففزع مِنْ ذلك وخاف إلى حدٍّ بعيدٍ.

---

(١) الكامل ٣ / ٢٥٢ ، الأمالي ٢ / ٧٣ ، ذيل الأمالي / ١٧٧ ، عيون الأخبار ٢ / ٢١٠ ، البيان والتبيين ١ / ٣٠٠.

مذكّرة مروان لمعاوية :

ورفع مروان مذكّرة لمعاوية سجّل فيها تخوّفه مِن تحرك الإمام (عليه السّلام) ، واختلاف الناس عليه ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فقد كثُر اختلاف الناس إلى حُسين ، والله إنّي لأرى لكم منه يوماً عصيبا [1].

جواب معاوية :

وأمره معاوية بعدم القيام بأي حركة مضادّة للإمام (عليه السّلام) ، فقد كتب إليه : اترك حُسيناً ما تركك ولمْ يُظهر لك عداوته ويبد صفحته ، وأكمن عنه كمون الثرى إنْ شاء الله ، والسّلام [2].

لقد خاف معاوية مِنْ تطور الأحداث ، فعهد إلى مروان بعدم التعرّض له بأيّ أذى أو مكروه.

رأي مروان في إبعاد الإمام (عليه السّلام) :

واقترح مروان على معاوية إبعاد الإمام (عليه السّلام) عن يثرب ، وفرض الإقامة الجبرية عليه في الشام ؛ ليقطعه عن الاتصال بأهل العراق ، ولمْ يرتضِ معاوية ذلك ، فردّ عليه : أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به ، فإنْ صبرت عليه صبرت على ما أكره ، وإن أسأت إليه قطعت رحمه [3].

---

(١) و (٢) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

(٣) العقد الفريد ٢ / ١١٦.

رسالة معاوية للحُسين (عليه السّلام) :

واضطرب معاوية مِن تحرك الإمام (عليه السّلام) واختلاف الناس عليه ، فكتب إليه رسالة ، وقد رويت بصورتين :

١ ـ رواها البلاذري ، وهذا نصّها : أمّا بعد ، فقد أُنهيت إليّ عنك أُمورٌ إنْ كانت حقّاً فإنّي لمْ أظنّها بك ؛ رغبة عنها ، وإنْ كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها ، وبحظّ نفسك تبدأ ، وبعهد الله توفي ، فلا تحملني على قطيعتك والإساءة إليك ؛ فإنّك متى تنكرني أنكرك ، ومتى تكدني أكِدْك ، فاتّقِ الله يا حُسين في شقّ عصا الأُمّة ، وأنْ تردهم في فتنة [١].

٢ ـ رواها ابن كثير ، وهذا نصّها : إنّ مَنْ أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء ، وقد أُنبئتُ أنّ قوماً مِنْ أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق ، وأهل العراق مَنْ قد جرّبت ، قد أفسدوا على أبيك وأخيك ، فاتّقِ الله واذكر الميثاق ؛ فإنك متى تكدْني أكِدْكَ [٢].

واحتوت هذه الرسالة حسب النّص الأخير على ما يلي :

١ ـ أن معاوية قد طالب الإمام (عليه السّلام) بتنفيذ ما شرطه عليه في بنود الصلح أن لا يخرج عليه ، وقد وفّى له الإمام (عليه السّلام) بذلك ، إلاّ أنّ معاوية لمْ يفِ بشيء ممّا أبرمه على نفسه مِن شروط الصلح.

٢ ـ أن معاوية كان على علم بوفود أهل الكوفة التي دعت الإمام (عليه السّلام) للخروج عليه ، وقد وسمهم بأنّهم أهل الشقاق ، وأنّهم قد غدروا بعلي والحسن (عليهما السلام) مِن قبل.

٣ ـ التهديد السافر للإمام (عليه السّلام) بأنّه متى كاد معاوية فإنّه يكيده.

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

(٢) تاريخ ابن كثير ٨ / ١٦٢.

جواب الإمام (عليه السّلام) :

ورفع الإمام (عليه السّلام) إلى معاوية مذكّرة خطيرة كانت جواباً لرسالته ، حمّله مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد مِن سفك الدماء ، وفقدان الأمن ، وتعريض الأُمّة للأزمات ، وهي مِنْ أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الأحداث التي صدرت مِنْ معاوية ، وهذا نصّها :

«أمّا بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنّه انتهت إليك عنّي أُمور أنت عنها راغب ، وأنا بغيرها عندك جدير ، وإنّ الحسنات لا يهدي لها ولا يُسدّد إليها إلاّ الله تعالى.

أمّا ما ذكرت أنّه رقي إليك عنّي ، فإنّه إنّما رقاه إليك الملاّقون ، المشّاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الجمع ، وكذب الغاوون. ما أردت لك حرباً ، ولا عليك خلافاً ، وإنّي لأخشى الله في ترك ذلك منك ، ومن الإعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين حزب الظلمة.

ألست القاتل حِجْر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلّين العابدين الذين كانوا يُنكرون الظلم ، ويستعظمون البدع ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ثمّ قتلتهم ظُلما وعدوانا مِن بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلّظة والمواثيق المؤكدة ؛ جرأة على الله واستخفافا بعهده؟!

أوَلست قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، العبد الصالح الذي أبلته العبادة ، فنحل جسمه واصفرّ لونه ، فقتلته بعد ما أمنته وأعطيته ما لو فهمته العصم لنزلت مِن رؤوس الجبال؟!

أوَلست بمدّعي زياد بن سُميّة المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت أنّه ابن أبيك ، وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَرَ

فتركت سُنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تعمّداً ، وتبعت هواك بغير هدىً مِن الله ، ثمّ سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويسملُ أعينهم ، ويصلبهم على جذوع النّخل ، كأنّك لست مِنْ هذه الأُمّة ، وليسوا منك؟!

أوَلست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنّه على دين علي (عليه السّلام) ، فكتبت إليه أن اقتل كل مَن كان على دين علي. فقتلهم ومثّل بهم بأمرك ، ودينُ علي هو دين ابن عمّه (صلّى الله عليه وآله) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين ؛ رحلة الشتاء والصيف؟!

وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ودينك ولأُمّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، واتّقِ شقّ عصا هذه الأُمّة وأن تردهم إلى فتنة. وإنّي لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأُمّة مِنْ ولايتك عليها ، ولا أعظم لنفسي ولديني ولأُمّة محمّد (صلّى الله عليه وآله) أفضل مِن أن أجاهرك ؛ فإن فعلت فإنّه قربة إلى الله ، وإنْ تركته فإنّي استغفر الله لديني ، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.

وقلت فيما قلت : إنّني إنْ أنكرتك تنكرني ، وإنْ أكِدْك تكدني. فكِدْني ما بدا لك ؛ فإني أرجو أنْ لا يضرّني كيدك ، وأنْ لا يكون على أحدٍ أضر منه على نفسك ؛ لأنّك قد ركبت جهلك ، وتحرّصت على نقض عهدك.

ولعمري ما وفيتَ بشرطٍ ، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النّفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان ، والعهود والمواثيق ، فقتلتهم مِنْ غير أنْ يكونوا قاتَلوا وقُتِلوا ، ولمْ تفعل ذلك بهم إلاّ لذكرهم فضلنا ، وتعظيمهم حقّنا ؛ مخافة أمر لعلّك لو لمْ تقتلهم متّ قبل أنْ يفعلوا ، أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فأبشر يا معاوية بالقصاص ، واستيقن بالحساب ، واعلم أنّ لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وليس الله بناسٍ لأخذك بالظنّة ، وقتلك أولياءَه على التّهم ، ونفيك إيّاهم مِن دورهم إلى دار الغربة ، وأخذك الناس ببيعة ابنك الغلام الحدث ، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلاّ قد خسرت نفسك ، وتبرتَ دينك [1] ، وغششت رعيتك ، وسمعت مقالة السّفيه الجاهل ، وأخفت الورع التّقي ، والسّلام» [2].

لا أكاد أعرف وثيقة سياسة في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة ، وسجّلت الجرائم التي ارتكبها معاوية ، والدماء التي سفكها ، والنفوس التي أرعبها غير هذه الوثيقة ، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد.

والله كم هي هذه الكلمة رقيقة شاعرة «كأنّك لست مِن هذه الأُمّة وليسوا مِنك». هذه الكلمة المشبعة بالشعور القومي الشريف ، وقديماً قال الصابي : إن الرجل مِن قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم. وهو اتّهام مِن الحُسين لمعاوية في وطنيته وقوميته ، واتّخذ مِن الدماء الغزيرة المسفوكة عنوانا على ذلك [3].

لقد حفلت هذه المذكّرة بالأحداث الخطيرة التي اقترفها معاوية وعمّاله ، خصوصاً زياد بن سُميّة الذي نشر الإرهاب والظلم بين الناس ؛ فقتل على الظنّة والتّهمة ، وأعدم كلّ مَنْ كان على دين الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) الذي هو دين ابن عمّه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقد أسرف هذا الطاغية في سفك الدماء بغير حق.

ومن الطبيعي أنّه لمْ يقترف ذلك إلاّ بإيعاز مِنْ معاوية ، فهو الذي عهد إليه بذلك.

---

(١) تبرت : أهلكت دينك.

(٢) الإمامة والسياسة ١ / ٢٨٤ ، رجال الكشّي / ٣٢ ، الدرجات الرفيعة / ٣٣٤.

(٣) الإمام الحُسين (عليه السّلام) / ٣٣٨.

صدى الرسالة :

ولمّا انتهت رسالة الإمام (عليه السّلام) إلى معاوية ضاق بها ذرعاً ، وراح يراوغ على عادته ، ويقولُ : إن أثرنا بأبي عبد الله إلا أسدا [١].

المؤتمر السياسي العام :

وعقد الإمام (عليه السّلام) في مكة مؤتمراً سياسياً عامّاً ، دعا فيه جمهوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحجّ ؛ مِن المهاجرين والأنصار ، والتابعين وغيرهم مِن سائر المسلمين ، فانبرى (عليه السّلام) خطيباً فيهم ، وتحدّث ببليغ بيانه بما ألمّ بعترة النّبي (صلّى الله عليه وآله) وشيعتهم مِن المحن والخطوب التي صبّها عليهم معاوية ، وما اتّخذه مِن الإجراءات المشدّدة مِنْ إخفاء فضائلهم ، وستر ما أُثِرَ عن الرسول الأعظم في حقّهم ، وألزم حضّار مؤتمره بإذاعة ذلك بين المسلمين ، وفيما يلي نصّ حديثه ، فيما رواه سليم بن قيس :

قال : ولما كان قبل موت معاوية بسنة حجّ الحُسين بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، فجمع الحُسين بني هاشم ونساءهم ومواليهم ، ومَنْ حجّ مِن الأنصار ممّن يعرفهم الحُسين وأهل بيته ، ثمّ أرسل رسلاً ، وقال لهم : «لا تدَعوا أحدا حج العام مِن أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، المعروفين بالصلاح والنُّسك إلاّ اجمعوهم لي». فاجتمع إليه بمِنى أكثر مِنْ سبعمئة رجل وهم في سرادق ، عامّتهم مِن التابعين ، ونحو مِنْ مئتي رجل مِنْ أصحاب النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أمّا بعد ، فإنّ هذا الطاغية ـ يعني معاوية ـ قد فعل بنا وبشيعتنا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٩٨.

ما قد رأيتم ، وعلمتم وشهدتم ، وإنّي أُريد أنْ أسألكم عن شيء ؛ فإنْ صدقت فصدّقوني ، وإنْ كذبت فكذّبوني. اسمعوا مقالتي واكتبوا قولي ، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم ، فمَنْ أمنتم مِن الناس ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون مِن حقّنا ؛ فإنّي أتخوف أنْ يُدرسَ هذا الأمر ويُغلب ، والله مُتِم نوره ولو كرِه الكافرون».

وما ترك شيئاً ممّا أنزله الله فيهم مِن القران إلاّ تلاه وفسّره ، ولا شيئاً ممّا قاله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في أبيه وأخيه وفي نفسه وأهل بيته (عليهم السّلام) إلاّ رواه ، وكلّ ذلك يقول أصحابه : اللهمّ نعم ، قد سمعنا وشهدنا. ويقول التابعي : اللهم قد حدّثني به مَن أُصدّقه وأئتمنه مِن الصحابة. فقال (عليه السّلام) : «أنشدُكم الله إلا حدّثتم به مَن تثقون به وبدينه» (١).

وكان هذا المؤتمر أوّل مؤتمر إسلامي عرفه المسلمون في ذلك الوقت ، وقد شجب فيه الإمام (عليه السّلام) سياسة معاوية ، ودعا المسلمين لإشاعة فضائل أهل البيت (عليهم السّلام) ، وإذاعة مآثرهم التي حاولت السّلطة حجبها عن المسلمين.

رسالة جعدة للإمام (عليه السّلام) :

وكان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب مِن أخلص الناس للإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وأكثرهم مودّة له ، وقد اجتمعت عنده الشيعة وأخذوا يلحّون عليه في مراسلة الإمام للقدوم إلى مصرهم ؛ ليعلن الثورة على حكومة معاوية.

ورفع جعدة رسالة للإمام (عليه السّلام) ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّ مِنْ قِبَلِنا مِنْ شيعتك متطلّعة أنفسهم إليك ، لا يعدلون بك أحداً ، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن أخيك في الحرب ، وعرفوك باللين

---

(١) حياة الإمام الحسن (عليه السّلام) ٢ / ٢١٦ ـ ٢١٧.

لأوليائك ، والغلظة على أعدائك ، والشدّة في أمر الله ، فإنْ كنت تحبّ أنْ تطلب هذا الأمر فاقدم علينا ؛ فقد وطنّا أنفسنا على الموت معك.

جواب الإمام (عليه السّلام) :

ولم يكن من رأي الإمام الحُسين (عليه السّلام) الخروج على معاوية ؛ وذلك لعلمه بفشل الثورة وعدم نجاحها ؛ فإنّ معاوية بما يملك مِنْ وسائل دبلوماسية وعسكرية لا بدّ أنْ يقضي عليها ، ويخرجها مِنْ إطارها الإسلامي إلى حركة غير شرعية ، ويوسم القائمين بها بالتمرّد والخروج على النظام ، وقد أجابهم (عليه السّلام) بعد البسملة والثناء على الله بما يلي :

«أمّا أخي فإنّي أرجو أنْ يكون الله قد وفّقه وسدّده ، وأمّا أنا فليس رأيي اليوم ذلك ، فالصقوا رحمكم الله بالأرض ، واكمنوا في البيوت ، واحترسوا مِن الظنّة ما دام معاوية حيّاً ، فإنْ يُحدث الله به حدثاً وأنا حيّ كتبت إليكم برأيي ، والسّلام» [1].

لقد أمر (عليه السّلام) شيعته بالخلود إلى الصبر ، والإمساك عن المعارضة ، وأنْ يلزموا بيوتهم خوفاً عليهم مِن سلطان معاوية الذي كان يأخذ البريء بالسّقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتل على الظنّة والتهمة. وأكبر الظنّ أنّ هذه الرسالة كانت في عهد زياد الذي سمل عيون الشيعة ، وصلبهم على جذوع النخل ، ودمّرهم تدميراً ساحقاً.

---

(١) الأخبار الطوال / ٢٠٣ ، أنساب الأشراف ١ / ق ١.

نصيحة الخدري للإمام (عليه السّلام) :

وشاعت في الأوساط الاجتماعية أنباء وفود أهل الكوفة على الإمام الحُسين (عليه السّلام) واستنجادهم به لإنقاذهم مِن ظلم معاوية وجوره ، ولما علم أبو سعيد الخدري بذلك خفّ مسرعاً للإمام (عليه السّلام) ينصحه ويحذّره ، وهذا نص حديثه : يا أبا عبد الله ، إنّي أنا ناصح ، وإنّي عليكم مشفق ، وقد بلغني أنّه قد كاتبك قوم مِنْ شيعتكم بالكوفة يدعونكم إلى الخروج إليهم ، فلا تخرج إليهم ؛ فإني سمعت أباك يقول بالكوفة : «والله لقد مللتهم وأبغضتهم ، وملّوني وأبغضوني ، وما يكون منهم وفاء قط ، ومَنْ فاز به فاز بالسّهم الأخيب. والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر ، ولا صبر على السّيف» [1].

وليس مِن شك في أن أبا سعيد الخدري كان مِن ألمع أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، وأكثرهم إخلاصاً وولاءً لأهل البيت (عليهم السّلام) ، وقد دفعه حرصه على الإمام الحُسين (عليه السّلام) وخوفه عليه مِن معاوية أن يقوم بالنصيحة له في عدم خروجه على معاوية. ولم تذكر المصادر التي بأيدينا جواب الإمام الحُسين (عليه السّلام) له.

استيلاء الحُسين (عليه السّلام) على أموال للدولة :

وكان معاوية يُنفق أكثر أموال الدولة على تدعيم مُلْكه ، كما كان يهبُ الأموالَ الطائلة لبني أُميّة لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي ، وكان الإمام الحُسين (عليه السّلام) يشجب هذه السياسة ، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال مِنْ معاوية وإنفاقها على المحتاجين. وقد اجتازت على يثرب أموال مِن اليمن إلى خزينة دمشق ، فعمد الإمام (عليه السّلام) إلى الاستيلاء عليها ، ووزّعها على

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦١ ، تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٧.

المحتاجين مِنْ بني هاشم وغيرهم ، وكتب إلى معاوية :

«مِن الحُسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان. أمّا بعد ، فإنّ عيراً مرّت بنا مِن اليمن تحمل مالاً وحُللاً ، وعنبراً وطيباً إليك ، لتودعها خزائن دمشق ، وتعل بها بعد النهل بني أبيك ، وإنّي احتجت إليها فأخذتها ، والسّلام».

وأجابه معاوية : مِن عبد الله معاوية إلى الحُسين بن علي. أمّا بعد ، فإنّ كتابك ورد عليّ تذكر أنّ عيراً مرّت بك مِن اليمن تحمل مالاً وحُللاً ، وعنبراً وطيباً إليّ لأودعها خزائن دمشق ، وأعل بها بعد النهل بني أبي ، وإنّك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إليّ ؛ لأنّ الوالي أحقّ بالمال ، ثمّ عليه المخرج منها. وأيم الله ، لو تركت ذلك حتى صار إليّ لَمْ أبخسك حظّك منها ، ولكنّني قد ظننت يابن أخي أنّ في رأسك نزوة ، وبودّي أنْ يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك وأتجاوز عن ذلك ، ولكنّني والله ، أتخوّف أنْ تُبلى بمَنْ لا ينظرك فواق ناقة.

وكتب في أسفل كتابه هذه الأبيات :

يا حُسين بن عليٍّ ليس ما ... جئت بالسائغ يوماً والعلل
أخذك المال ولم تُؤمر به ... إن هذا مِن حُسين لَعجل
قد أجزناها ولم نغضب لها ... واحتملنا مِن حُسين ما فعل
يا حُسين بن عليٍّ ذا الأمل ... لك بعدي وثبة لا تُحتمل
وبودِّي أنّني شاهدُها ... فإليها مِنك بالخلق الأجل
إنّني أرهب أن تصل بمَن ... عنده قد سبق السيف العذل [1]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٣٢٧ الطبعة الأولى.

وفي هذا الكتاب تهديد للإمام بمَنْ يخلف معاوية ، وهو ابنه يزيد ، الذي لا يؤمن بمقام الحُسين ومكانته مِن رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

وعلى أيّ حالٍ ، فقد قام الإمام بإنقاذ هذه الأموال مِنْ معاوية وأنفقها على الفقراء ، في حين أنّه لمْ يكن يأخذ لنفسه أيّ صلة مِنْ معاوية ، وقد قدّم له مالاً كثيراً وثياباً وافرة وكسوة فاخرة ، فرد الجميع عليه [1].

وقد روى الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) أن الحسن والحُسين كانا لا يقبلان جوائز معاوية [2].

حديث موضوع :

مِن الأخبار الموضوعة ما روي أن الإمام الحُسين وفد مع أخيه الحسن على معاوية فأمر لهما بمئة ألف درهم ، وقال لهم : خُذاها وأنا ابن هند ، ما أعطاها أحدٌ قبلي ، ولا يُعطيها أحد بعدي.

فانبرى إليه الإمام الحُسين قائلا : «والله ، ما أعطى أحدٌ قبلك ولا بعدك لرجلين أشرف منّا».

ولا مجال للقول بصحة هذه الرواية ، فإنّ الإمام الحُسين (عليه السّلام) لم يفد على معاوية بالشام ، وإنّما وفد عليه الإمام الحسن (عليه السّلام) لا لأجل الصلة والعطاء ، كما يذهب لذلك بعض السذّج مِن المؤرّخين ، وإنّما كان الغرض إبراز الواقع الأُموي والتدليل على مساوئ معاوية ، كما أثبتت ذلك

---

(١) الحُسين ـ لعلي جلال ١ / ١١٧.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام) ٢ / ٣٣٢.

مناظراته مع معاوية وبطانته ، والتي لمْ يقصد فيها إلاّ تلك الغاية ، وقد أوضحنا ذلك بصورة مفصلّة في كتابنا (حياة الإمام الحسن).

الحُسين مع بني أُميّة :

كانت العداوة بين الحُسين وبين بني أُميّة ذاتية ، فهي عداوة الضد للضد ، وقد سأل سعيد الهمداني الإمام الحُسين عن بني أُميّة ، فقال (عليه السّلام) : «إنّا وهم الخصمان اللذان اختصما في ربّهم» [1].

أجل ، إنّهما خصمان في أهدافهم ، وخصمان في اتّجاههم ، فالحُسين (عليه السّلام) كان يُمثّل جوهر الإيمان بالله ، ويُمثّل القيم الكريمة التي يشرف بها الإنسان ، وبنو أُميّة كانوا يُمثّلون مساوئ الجاهلية التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق ، وكان الأُمويّون بحسب طباعهم الشريرة يحقدون على الإمام الحُسين ، ويبالغون في توهينه ، وقد جرت منازعة بين الحُسين وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في مال كان بينهما فتحامل الوليد على الحُسين في حقّه ، فثار الإمام في وجهه ، وقال : «أحلف بالله لتنصفي مِنْ حقّي أو لآخذنّ سيفي ، ثمّ لأقومنّ في مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأدعون بحلف الفضول».

لقد أراد أنْ يُحيي حلف الفضول الذي أسسه الهاشميون ، والذي كان شعاره إنصاف المظلومين والأخذ بحقوقهم ، وقد حاربه الأُمويّون في جاهليتهم ؛ لأنّه يتنافى مع طباعهم ومصالحهم.

وانبرى عبد الله بن الزّبير فانضمّ للحُسين وانتصر له ، وقال :

---

(١) الكنى والأسماء ـ لأبي بشر الدولابي ١ / ٧٧.

وأنا أحلف بالله ، لئن دعا به لآخذنّ سيفي ثمّ لأقومنّ معه حتى ينتصف مِنْ حقّه أو نموت جميعا.

وبلغ المسوّر بن مخرمة بن نوفل الزهري الحديث فانضمّ للحُسين وقال بمثل مقالته ، وشعر الوليد بالوهن والضعف فتراجع عن غيّه ، وأنصف الحُسين (عليه السّلام) مِن حقّه [1].

ومِن ألوان الحقد الأُموي على الحُسين أنّه كان جالسا في مسجد النّبي (صلّى الله عليه وآله) فسمع رجلاً يُحدّث أصحابه ، ويرفع صوته ليُسمع الحُسين ، وهو يقول : إنّا شاركنا آل أبي طالب في النّبوة حتّى نلنا مِنها مثلَ ما نالوا مِنها مِن السّبب والنّسب ، ونلنا مِن الخلافة ما لمْ ينالوا فبِمَ يفخرون علينا؟

وكرّر هذا القول ثلاثاً ، فأقبل عليه الحُسين ، فقال له : «إني كففت عن جوابك في قولك الأول حلماً ، وفي الثاني عفواً ، وأمّا في الثالث فإنّي مجيبك. إني سمعت أبي يقول : إن في الوحي الذي أنزله الله على محمّد (صلّى الله عليه وآله) ، إذا قامت القيامة الكبرى حشر الله بني أُميّة في صوَرِ الذر يطؤهم الناس حتى يفرغ مِن الحساب ، ثمّ يُؤتى بهم فيحاسبوا ويُصار بهم إلى النار» [2]. ولم يطق الأُموي جوابا وانصرف وهو يتميّز مِن الغيظ.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف الإمام مع معاوية وبني أُميّة ، ونعرض فيما يلي إلى وفاة معاوية وما رافقها مِن الأحداث.

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٢.

(٢) المناقب والمثالب للقاضي نعمان المصري / ٦١.

مرض معاوية :

ومرض معاوية وتدهورت صحته ، ولمْ تُجْدِ معه الوصفات الطيبة ، فقد تناهبت جسمه الأمراض ، وقد شعر بدنوّ أجله ، وكان في حزن على ما اقترفه في قتله لحِجْرِ بن عَدِي ، فكان ينظر إليه شبحاً مخيفاً ، وكان يقول :

ويلي مِنك يا حِجْر! إن لي مع ابن عديٍ ليوما طويلا [1] ، وتحدّث الناس عن مرضه ، فقالوا : إنّه الموت ، فأمر أهله أنْ يحشوا عينيه أثمداً ، ويسبغوا على رأسه الطيب ويجلسوه ، ثمّ أذن للناس فدخلوا وسلّموا عليه قياماً ، فلمّا خرجوا مِنْ عنده أنشد قائلاً :

وتجلُّدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا اتضعضع

فسمعه رجل مِن العلويّين فأجابه :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها ... ألفيت كلَّ تميمة لا تنفع [2]

وصاياه :

ولما ثقل حال معاوية عهد بوصيته إلى يزيد ، وقد جاء فيها : يا بُني ، إنّي قد كفيتك الشرّ والترحال ، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لمْ يجمعه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز فإنّهم أصلك وأكرم مَنْ قدم عليك منهم وتعاهد مَنْ غاب ، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملا فافعل ؛ فإن عزل عامل

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٢٤٥.

(٢) حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٩.

أيسر مِنْ أنْ يُشهر عليك مئة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإنْ رابك مِنْ عدوك شيء فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فارددْ أهل الشام إلى بلادهم ؛ فإنْ أقاموا بغير بلادهم تغيّر أخلاقهم.

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر مِن قريش : الحُسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزّبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ؛ فأمّا ابن عمر فإنّه رجل قد وقذته العبادة ، فإذا لمْ يبقَ أحدٌ غيره بايعك ، وأمّا الحُسين بن علي فهو رجل خفيف ، ولنْ يترك أهل العراق حتّى يخرجوه ، فإنْ خرج وظفرت به فاصفح عنه ؛ فإنّ له رحماً ماسة وحقّاً عظيماً وقرابة مِنْ محمّد ، وأمّا ابن أبي بكر فإنْ رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همّة إلاّ في النساء واللّهو ، وأمّا الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزّبير ، فإنْ هو فعلها بك فظفرت به فقطّعه إرباً إرباً ، واحقنْ دماء قومك ما استطعت [1].

وأكبر الظنّ أنّ هذه الوصية مِن الموضوعات ؛ فقد افتُعلتْ لإثبات حلم معاوية ، وإنّه عهد إلى ولده بالإحسان الشامل إلى المسلمين وهو غير مسؤول عن تصرفاته.

وممّا يؤيد وضعها ما يلي :

١ ـ إنّ المؤرّخين رووا أنّ معاوية أوصى يزيد بغير ذلك ، فقال له : إن لك مِن أهل المدينة يوما ، فإنْ فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة ، فإنّه رجل قد عرفنا نصيحته [2] ، وكان مسلم بن عقبة جزّرا جلادا لا يعرف الرحمة والرأفة ، وقد استعمله يزيد بعهد مِنْ أبيه في واقعة الحرّة فاقترف كلّ موبقة

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٩.

(٢) تاريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٩.

وإثم ، فكيف تلتقي هذه الوصيّة بتلك الوصيّة التي عهد فيها بالإحسان إلى أهل الحجاز؟!

٢ . إنّه أوصاه برعاية عواطف العراقيين والاستجابة لهم إذا سألوه في كل يوم عزل مَن ولاّه عليهم ، وهذا يتنافى مع ما ذكره المؤرّخون أنّه عهد بولاية العراق إلى عبيد الله بن زياد وهو يعلم شدّته وصرامته وغدره ؛ فهو ابن زياد الذي أغرق العراق بدماء الأبرياء ، فهل العهد إليه بولايته العراق من الإحسان إلى العراقيين والبرّ بهم؟!

٣ . إنّه جاء في هذه الوصية أنّه يتخوّف عليه مِن عبد الله بن عمر وقد وصفه بأنّه قد وقذته العبادة ، وإذا كان كذلك فهو بطبيعة الحال منصرف عن السّلطة والمنازعات السّياسية فما معنى التخوّف منه؟!

٤ . إنّه جاء في هذه الوصية أنّه يتخوّف عليه مِنْ عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نصّ المؤرّخون أنّه توفي في حياة معاوية ، فما معنى التخوّف عليه مِنْ إنسان ميّت؟

٥ . إنّه أوصاه برعاية الحُسين (عليه السّلام) وإنّ له رحماً ماسّة ، وحقًّا عظيماً وقرابةً مِنْ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ومن المؤكد أنّ معاوية بالذّات لمْ يرعَ أيّ جانب مِنْ جوانب القرابة مِنْ رسول الله فقد قطع جميع أواصرها ، فقد فرض سبّها على رؤوس الأشهاد ، وعهد إلى لجان التربية والتعليم بتربية النشء ببغض أهل البيت ، ولمْ يتردّد في ارتكاب أيّ وسيلة للحطّ مِنْ شأنهم.

وقد علّق الأُستاذ عبد الهادي المختار على هذه الفقرات مِن الوصيّة بقوله : وتقول بعض المصادر إنّ معاوية أوصى ولده يزيد برعاية الحُسين ، والذي نعتقده أنّه لا أثر لها من الصحة ؛ فإن معاوية لم يتردّد في اغتيال

الإمام الحسن حتى بعد ما بايعه ، فكيف يوصي ولده بالعفو عن الحُسين إنْ ظفر به.

لم يكن معاوية بالذي يرعى لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) حرمة أو قرابة حتى يوصي ابنه برعاية آل محمّد ، كلاّ أبداً ، فقد حارب الرسول في الجاهلية حتّى أسلم كُرها يوم فتح مكّة ، ثمّ حارب صهر الرسول وخليفته وابن عمّه علي ، ونزا على خلافة المسلمين وانتزعها قهراً ، وسمّ ابن بنت الرسول الحسن ، فهل يُصدَّق بعد هذا كلّه أنْ يوصي بمثل ما أوصى به؟!

قد يكون أوصاه أنْ يغتاله سرّاً ويدسّ له السمّ ، أو يبعث له مَنْ يطعنه بليل ، ربّما كان هذا الفرض أقرب إلى الصحة مِن تلك الوصية ، ولكنّ المؤرّخين ـ سامحهم الله ـ أرادوا أنْ يُبرّئوا ساحة الأب ويلقوا جميع التبعات على الابن ، وهما في الحقيقة غرسُ إثمٍ واحدٌ وثمرةُ جريمةٍ واحدة.

وأضاف يقول : ولو أن الوصيّة المزعومة كانت صحيحة لما كان يزيد لاهمَّ له بعد موت أبيه إلا تحصيل البيعة مِن الحُسين وتشديده على عامله بالمدينة بلزوم إجبار الحُسين على البيعة [1].

موت معاوية :

واستقبل معاوية الموت غير مطمئن فكان يتوجّع ويظهر الجزع على ما اقترفه مِن الإسراف في سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم ، وقد وافاه الأجل في دمشق محروماً عن رؤية ولده الذي اغتصب له الخلافة ، وحمله

(١) مجلة الغري السنة الثامنة العدد ٩ و ١٠.

على رقاب المسلمين ، وكان يزيد فيما يقول المؤرّخون مشغولاً عن أبيه في أثناء وفاته برحلات الصيد ، وعربدات السكر ونغمة العيدان.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية وما رافقها من الأحداث الجسام.

حكومة يزيد

وتسلّم يزيد بعد هلاك أبيه قيادة الدولة الإسلاميّة وهو في غضارة العمر ، لمْ تهذّبه الأيام ولمْ تصقله التجارب ، وإنّما كان . فيما أجمع عليه المؤرّخون . موفور الرغبة في اللّهو والقنص ، والخمر والنساء وكلاب الصيد ، ومُمْعناً كلّ الإمعان في اقتراف المنكر والفحشاء ، ولم يكن حين هلاك أبيه في دمشق ، وإنّما كان في رحلات الصيد في حوارين الثنية [1] ، فأرسل إليه الضحّاك بن قيس رسالة يعزّيه فيها بوفاة معاوية ويهنئه بالخلافة ، ويطلب منه الإسراع إلى دمشق ليتولّى أزمّة الحكم ، وحينما قرأ الرسالة اتّجه فوراً نحو عاصمته في ركب مِنْ أخواله ، وكان ضخماً كثير الشعر ، وقد شعث في الطريق وليس عليه عمامة ولا متقلّداً بسيف ، فأقبل الناس يسلّمون عليه ويعزّونه ، وقد عابوا عليه ما هو فيه وراحوا يقولون : هذا الأعرابي الذي ولاّه معاوية أمر الناس ، والله سائله عنه [2].

واتّجه نحو قبر أبيه فجلس عنده وهو باك العين ، وأنشأ يقول :

جاء البريد بقرطاس يخبُّ به ... فأوجس القلب مِن قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابكُم ... قال الخليفة أمسى مدنفا وجعا [3]

ثم سار متّجها نحو القبة الخضراء في موكب رسمي تحف به علوج أهل الشام وأخواله وسائر بني أُميّة.

(١) الفتوح ٤ / ٢٦٥.

(٢) تاريخ الإسلام . الذهبي ١ / ٢٦٧.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦١.

خطاب العرش :

واتّجه يزيد نحو منصّة الخطابة ليعلن للناس سياسته ومخطّطات حكومته ، فلمّا استوى عليها ارتجّ عليه ولمْ يطق الكلام ، فقام إليه الضحّاك بن قيس فصاح به يزيد ما جاء بك؟ قال له الضحّاك : كلّم الناس وخذ عليهم ، فأمره بالجلوس [(١)] ، وانبرى خطيباً فقال : الحمد لله الذي ما شاء صنع ومَنْ شاء منع ، ومَنْ شاء خفض ومَنْ شاء رفع ، إنّ أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ كان حبلاً مِنْ حبال الله مدّه ما شاء أنْ يمدّه ، ثمّ قطعه حين أراد أنْ يقطعه ، وكان دون مَنْ قبله وخيراً ممّا يأتي بعده ، ولا أُزكّيه عند ربّه وقد صار إليه ؛ فإنْ يعفُ عنه فبرحمته ، وإنْ يعاقبه فبذنبه. وقد وُلّيت بعده الأمر ولست اعتذر مِنْ جهل ولا آتي على طلب علم ، وعلى رسلكم : إذا كره الله شيئاً غيّره ، وإذا أحبّ شيئاً يسّره [(٢)].

ولم يعرض يزيد في هذا الخطاب لسياسة دولته ، ولمْ يدلِ بأيّ شيء ممّا تحتاج إليه الأُمّة في مجالاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ومن المقطوع به أنّ ذلك ممّا لمْ يفكّر به ، وإنّما عرض لطيشه وجبروته واستهانته بالأُمّة ، فهو لا يعتذر إليها مِنْ أيّ جهل يرتكبه ولا مِنْ سيئة يقترفها ، وإنّما على الأُمّة الإذعان والرضا لظلمه وبطشه.

---

(١) تاريخ الخلفاء ، نشر أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي.

(٢) العقد الفريد ٤ / ١٥٣ ، عيون الأخبار ٢ / ٢٣٩.

خطابُه في أهل الشام :

وخطب في أهل الشام خطابا أعلن فيه عن عزمه وتصميمه على الخوض في حرب مدمّرة مع أهل العراق ، وهذا نصه : يا أهل الشام ، فإنّ الخير لم يزل فيكم وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد ، وقد رأيت في منامي كأنّ نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً ، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم أقدر على ذلك حتى جاءني عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه.

وانبرى أهل الشام فأعلنوا تأييدهم ودعمهم الكامل له ، قائلين : يا أمير المؤمنين ، امضِ بنا حيث شئت واقدم بنا على مَنْ أحببت ، فنحن بين يديك وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين.

فشكرهم يزيد وأثنى على إخلاصهم وولائهم له [1] ، وقد بات من المقطوع به عند أوساط الشام أن يزيد سيعلن الحرب على أهل العراق لكراهتهم لبيعته وتجاوبهم مع الإمام الحُسين.

مع المعارضة في يثرب :

ولم يرق ليزيد أنْ يرى جبهة معارضة لا تخضع لسلطانه ولا تدين بالولاء لحكومته ، وقد عزم على التنكيل بها بغير هوادة ، فقد استتبت له الأمور وخضعت له الرقاب وصارت أجهزة الدولة كلّها بيده ، فما الذي يمنعه من إرغام أعدائه ومناوئيه؟

وأهم ما كان يفكّر به من المعارضين الإمام الحُسين (عليه السّلام) ؛ لأنّه يتمتّع

---

(١) الفتوح ٥ / ٦.

بنفوذ واسع النّطاق ومكانة مرموقة بين المسلمين ، فهو حفيد صاحب الرسالة وسيد شباب أهل الجنة ، أمّا ابن الزّبير فلمْ تكن له تلك الأهميّة البالغة في نفسه.

الأوامر المشدّدة إلى الوليد :

وأصدر يزيد أوامره المشدّدة إلى عامله على يثرب الوليد بن عتبة بإرغام المعارضين له على البيعة ، وقد كتب إليه رسالتين :

الأولى : وقد رويت بصورتين وهما :

١ . رواها الخوارزمي وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّ معاوية كان عبداً مِنْ عباد الله أكرمه واستخلصه ومكّن له ، ثمّ قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته.

عاش بقدر ومات بأجل ، وقد كان عهد إليّ وأوصاني أنّ الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان ؛ لأنّهم أنصار الحقّ وطلاّب العدل ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة [1].

وقد احتوت هذه الرسالة على ما يلي :

١ . نعي معاوية إلى الوليد.

٢ . تخوّف يزيد مِن الأُسرة النبوية ؛ لأنّه قد عهد إليه أبوه بالحذر منها ، وهذا يتنافى مع تلك الوصية المزعومة لمعاوية التي جاء فيها اهتمامه بشأن الحُسين (عليه السّلام) ، وإلزام ولده بتكريمه ورعاية مقامه.

٣ . الإسراع في أخذ البيعة من أهل المدينة.

٢ . رواها البلاذري ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوّله

---

(١) مقتل الحسين (عليه السّلام) للخوارزمي ١ / ١٧٨.

ومكّن له ، فعاش بقدر ومات بأجل فرحمة الله عليه ، فقد عاش محموداً ومات برّاً تقيّاً ، والسّلام [1].

وأكبر الظنّ أنّ هذه الرواية هي الصحيحة ؛ لأنّها قد اقتصرت على نعي معاوية إلى الوليد من دون أن تعرض إلى أخذ البيعة من الحُسين وغيره مِن المعارضين ، أمّا على الرواية الأولى فإنّه يصبح ذكر الرسالة التالية ـ التي بعثها يزيد إلى الوليد لإرغام الحُسين على البيعة ـ لغوا.

الثانية : رسالة صغيرة وصِفَت كأنّها أُذن فأرة ، وقد رويت بثلاث صور :

١ ـ رواها الطبري والبلاذري ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فخذ حُسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزّبير أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتّى يبايعوا ، والسّلام [2].

٢ ـ رواها اليعقوبي ، وهذا نصها : إذا أتاك كتابي فاحضر الحُسين بن علي وعبد الله بن الزّبير فخُذهما بالبيعة ، فإن امتنعا فاضرب أعناقهما وابعث إليّ برأسيهما ، وخُذ الناس بالبيعة فمَنْ امتنع فانفذ فيه الحكم ، وفي الحُسين بن علي وعبد الله بن الزّبير ، والسّلام [3].

وليس في الرواية الثانية ذكرٌ لعبد الله بن عمر ، وأكبر الظن أنّه أُضيف اسمه إلى الحُسين وابن الزّبير لإلحاقه بالجبهة المعارضة وتبريره من التأييد السافر لبيعة يزيد.

٣ ـ رواها الحافظ ابن عساكر ، وهذا نصها : أن ادع الناس

---

(١) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٨٤ ، أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٢٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥.

فبايعهم وابدأ بوجوه قريش ، وليكن أوّل مَنْ تبدأ به الحُسين بن علي ؛ فإنّ أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ عهد إلي في أمره الرفق واستصلاحه [1].

وليس في هذه الرواية ذكر لابن الزّبير وابن عمر ، إذ لمْ تكن لهما أيّة أهميّة في نظر يزيد ، إلاّ إنّا نشك فيما جاء في آخر هذه الرسالة مِن أن معاوية قد عهد إلى يزيد الرفق بالحُسين واستصلاحه ؛ فإن معاوية قد وقف موقفا [سلبيا] يتّسم بالعداء والكراهية لعموم أهل البيت (عليهم السّلام) ، واتّخذ ضدّهم جميع الإجراءات القاسية كما ألمعنا إلى ذلك في البحوث السابقة ، وأكبر الظنّ أنّ هذه الجملة قد أُضيفت إليها لتبرير معاوية ونفي المسؤولية عنه فيما ارتكبه ولده مِن الجرائم ضد العترة الطاهرة.

بقي هنا شيء وهو أنّ هذه الرسالة قد وصفها المؤرّخون كأنّها أُذن فأرة لصغرها ، ولعلّ السبب في إرسالها بهذا الحجم هو أنّ يزيد قد حسِبَ أنّ الوليد سينفّذ ما عهد إليه مِنْ قتل الحُسين وابن الزّبير.

ومِن الطبيعي أنّ لذاك كثيراً مِن المضاعفات السيئة ، ومِنْ أهمها ما يلحقه مِن التذمّر والسّخط الشامل بين المسلمين ، فأراد أنْ يجعل التبعة على الوليد وأنّه لمْ يعهد إليه بقتلهما ، وأنّه لو أمره بذلك لأصدر مرسوما خاصا مطوّلا به.

وحمل الرسالتين زُريق مولاه ، فأخذ يجد في السير لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى يثرب [2] ، وكان معه عبد الله بن سعد بن أبي سرح متلثّماً لا يبدو منه إلاّ عيناه ، فصادفه عبد الله بن الزّبير فأخذ بيده وجعل

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨.

(٢) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ١ / ٢٦٩ ، تاريخ خليفة بن خيّاط ١ / ٢٢٢ ، وجاء في تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ وكتب يزيد مع عبد الله بن عمر ، وابن إدريس العامري عامر بن لؤي هذه الرسالة.

يسأله عن معاوية وهو لا يجيبه ، فقال له : أمات معاوية؟ فلم يكلّمه بشيء فاعتقد بموت معاوية ، وقفل مسرعاً إلى الحُسين وأخبره الخبر [١] ، فقال له الحُسين : «إنّي أظنّ أنّ معاوية قد مات ، فقد رأيت البارحة في منامي كأن منبر معاوية منكوساً ، ورأيت داره تشتعل ناراً ، فأوّلت ذلك في نفسي بموته» [٢].

وأقبل زِرُيق إلى دار الوليد فقال للحاجب : استاذن لي ، فقال : قد دخل ولا سبيل إليه ، فصاح به زِرُيق : إنّي جئته بأمر ، فدخل الحاجب وأخبره بالأمر فأذن له ، وكان جالساً على سرير فلمّا قرأ كتاب يزيد بوفاة معاوية جزع جزعاً شديداً ، وجعل يقوم على رجليه ويرمي بنفسه على فراشه [٣].

فزع الوليد :

وفزع الوليد ممّا عهد إليه يزيد مِن التنكيل بالمعارضين ؛ فقد كان على يقين من أن أخذ البيعة من هؤلاء النفر ليس بالأمر السّهل حتّى يقابلهم بالعنف ، أو يضرب أعناقهم كما أمره يزيد.

إن هؤلاء النفر لم يستطع معاوية مع ما يتمتّع به مِن القابليات الدبلوماسية أن يُخضعهم لبيعة يزيد ، فكيف يصنع الوليد أمرا عجز عنه معاوية؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ١١٥.
(٢) الفتوح ٥ / ١٤.
(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط ١ / ٢٢٢.

استشارته لمروان :

وحار الوليد في أمره فرأى أنّه في حاجة إلى مشورة مروان عميد الأُسرة الأُمويّة فبعث خلفه ، فأقبل مروان وعليه قميص أبيض وملأة مورّدة [1] فنعى إليه معاوية فجزع مروان وعرض عليه ما أمره يزيد مِن إرغام المعارضين على البيعة له وإذا أصرّوا على الامتناع فيضرب أعناقهم ، وطلب مِن مروان أن يمنحه النّصيحة ويخلص له في الرأي.

رأي مروان :

وأشار مروان على الوليد فقال له : ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد ، فإنْ فعلوا قبلت ذلك منهم وإنْ أبَوا قدّمهم واضرب أعناقهم قبل أنْ يدروا بموت معاوية ؛ فإنّهم إنْ علموا ذلك وثب كلّ رجل منهم فأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه ، فعند ذلك أخاف أنْ يأتيك مِنْ قِبَلِهم ما لا قِبَلَ لك به ، إلاّ عبد الله بن عمر فإنّه لا ينازع في هذا الأمر أحدا ... مع إني أعلم أن الحُسين بن علي لا يجيبك إلى بيعة يزيد ولا يرى له عليه طاعة ، ووالله ، لو كنت في وضعك لمْ أُراجع الحُسين بكلمة واحدة حتى أضرب رقبته كان في ذلك ما كان.

وعظُمَ ذلك على الوليد وهو أحنك بني أُميّة وأملكهم لعقله ورشده ، فقال لمروان : يا ليت الوليد لم يولد ولم يك شيئا مذكورا.

---

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ١ / ٢٦٩.

فسخر منه مروان وراح يندّد به قائلا : لا تجزع ممّا قلت لك! فإن آل أبي تراب هم الأعداء مِن قديم الدهر ولم يزالوا ، وهم الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان ثمّ ساروا إلى أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ فحاربوه.

ونهره الوليد فقال له : ويحك يا مروان عن كلامك هذا! وأحسِن القول في ابن فاطمة ، فإنّه بقيّة النّبوة [1]. واتّفق رأيهم على استدعاء القوم وعرض الأمر عليهم ؛ للوقوف على مدى تجاوبهم مع السلطة في هذا الأمر.

أضواء على موقف مروان :

لقد حرّض مروان الوليد على التنكيل بالمعارضين ، واستهدف بالذات الإمام الحُسين ، فألحّ بالفتك به إنْ امتنع من البيعة ، وفيما أحسب أنّه إنّما دعاه لذلك ما يلي :

١ ـ أنّ مروان كان يحقد على الوليد ، وكانت بينهما عداوة متأصّلة وهو على يقين أنّ الوليد يحبّ العافية ولا ينفّذ ما عهد إليه في شأن الإمام الحُسين ، فاستغلّ الموقف وراح يشدّد عليه في اتّخاذ الإجراءات الصارمة ضد الإمام ؛ ليستبين لطاغية الشام موقفه فيسلب ثقته عنه ويقصيه عن ولاية يثرب ، وفعلاً قد تحقّق ذلك ، فإنّ يزيد حينما علم بموقف الوليد مع الحُسين (عليه السّلام) غضب عليه وأقصاه عن منصبه.

---

(١) الفتوح ٥ / ١٢ ـ ١٣.

٢ . أن مروان كان ناقما على معاوية حينما عهد بالخلافة لولده ولم يرشحّه لها ؛ لأنّه شيخ الأُمويِّين وأكبرهم سناً ، فأراد أنْ يورّط يزيد في قتل الإمام ؛ ليكون به زوال ملكه.

٣ . كان مروان من الحاقدين على الحُسين ؛ لأنّه سبط رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الذي حصد رؤوس بني أُميّة ونفى أباه الحكم عن يثرب ، وقد لعنه ولعن مَنْ تناسل منه ، وقد بلغ الحقد بمروان للأُسرة النّبوية أنّه منع مِن دفن جنازة الحسن (عليه السّلام) مع جدّه رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

ويقول المؤرّخون : إنّه كان يبغض أبا هريرة ؛ لأنّه يروي ما سمعه مِن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في فضل سبطيه وريحانتيه ، وقد دخل على أبي هريرة عائداً له فقال له : يا أبا هريرة ، ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلا في حبّك الحسن والحُسين.

فأجابه أبو هريرة : أشهد لقد خرجنا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فسمع الحسن والحُسين يبكيان ، فقال : «ما شأن ابني؟» فقالت فاطمة : «العطش» ، يا مروان كيف لا أحبّ هذين وقد رأيت مِن رسول الله ما رأيت؟! [1]

لقد دفع مروان الوليد إلى الفتك بالحُسين لعله يستجيب له فيروي بذلك نفسه المترعة بالحقد والكراهية لعترة النّبي (صلّى الله عليه وآله).

٤ . كان مروان على يقين أنّه سيلي الخلافة ، فقد أخبره الإمام أمير المؤمنين وصي النّبي (صلّى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه حينما تشفّع الحسنان به بعد واقعة الجمل ، فقال : «إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه» ، وقد اعتقد بذلك مروان ، وقد حرّض الوليد على الفتك بالحُسين ؛ ليكون

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٠٨.

ذلك سببا لزوال مُلْك بني سفيان ورجوع الخلافة إليه.

هذه بعض الأسباب التي حفّزت مروان إلى الإشارة على الوليد بقتل الإمام الحُسين ، وإنّه لمْ يكن بذلك مشفوعا بالولاء والإخلاص إلى يزيد.

استدعاء الحُسين (عليه السّلام) :

وأرسل الوليد في منتصف الليل [١] عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث خلف الحُسين وابن الزّبير ، وإنّما بعثه في هذا الوقت لعلّه يحصل على الوفاق من الحُسين ولو سرّاً على البيعة ليزيد ، وهو يعلم أنّه إذا أعطاه ذلك فلن يخيس بعهده ولن يتخلّف عن قوله.

ومضى الفتى يدعو الحُسين وابن الزّبير للحضور عند الوليد فوجدهما في مسجد النّبي (صلّى الله عليه وآله) فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له وأمراه بالانصراف ، وذعر ابن الزّبير ، فقال للإمام :

ـ ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟

ـ «أظنّ أنّ طاغيتهم ـ يعني معاوية ـ قد هلك ، فبعث إلينا بالبيعة قبل أنْ يفشو بالناس الخبر».

ـ وأنا ما أظن غيره ، فما تريد أنْ تصنع؟

ـ «أجمع فتياني السّاعة ثم أسير إليه ، وأجلسهم على الباب».

ـ إني أخاف عليك إذا دخلت.

ـ «لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع» [٢].

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦٠.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.

وانصرف أبي الضيم إلى منزله فاغتسل وصلّى ودعا الله [1] ، وأمر أهل بيته بلبس السّلاح والخروج معه ، فخفّوا محدقين به ، فأمرهم بالجلوس على باب الدار ، وقال لهم : «إني داخل فإذا دعوتكم ، أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم». ودخل الإمام على الوليد فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة ، فأمرهما الإمام بالتقارب والإصلاح وترك الأحقاد ، وكانت سجية الإمام (عليه السّلام) التي طُبع عليها الإصلاح حتى مع أعدائه وخصومه.

فقال (عليه السّلام) لهما : «الصلة خير من القطيعة ، والصلح خير مِن الفساد ، وقد آن لكما أنْ تجتمعا ، أصلح الله ذات بينكما» [2].

ولم يجيباه بشيء فقد علاهما صمت رهيب ، والتفت الإمام إلى الوليد فقال له : «هل أتاك مِنْ معاوية خبر ، فإنّه كان عليلاً وقد طالت علّته ، فكيف حاله الآن؟».

فقال الوليد بصوت خافت ، حزين النّبرات : آجرك الله في معاوية ، فقد كان لك عمّ صدوق ، وقد ذاق الموت ، وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد.

فاسترجع الحُسين (عليه السّلام) ، وقال له : «لماذا دعوتني؟».

دعوتك للبيعة [3].

فقال (عليه السّلام) : «إنّ مثلي لا يبايع سرّاً ولا يُجتزئ بها منّي سرّاً ، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة دعوتنا معهم ، وكان الأمر واحداً».

---

(١) الدر النظيم / ١٦٢.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.

(٣) الفتوح ٥ / ١٧.

لقد طلب الإمام تأجيل الأمر إلى الصباح ؛ حتى يعقد اجتماعا جماهيريا فيدلي برأيه في شجب البيعة ليزيد ، ويستنهض همم المسلمين على الثورة والإطاحة بحكمه ، وكان الوليد ـ فيما يقول المؤرّخون ـ يحب العافية ويكره الفتنة ، فشكر الإمام على مقالته وسمح له بالانصراف إلى داره.

وانبرى الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيظ محنق فصاح بالوليد : لئن فارقك السّاعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإنْ بايع وإلاّ ضربت عنقه.

ووثب أبيّ الضيم إلى الوزغ بن الوزغ ، فقال له : «يابن الزرقاء ، أأنت تقتلني أمْ هو؟ كذبت والله ولؤمت» (١).

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعة ليزيد قائلا : «أيّها الأمير ، إنّا أهل بيت النّبوة ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ومحل الرّحمة ، بنا فتح الله وبنا يختم. ويزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرّمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون أينا أحقّ بالخلافة والبيعة؟» (٢).

وكان هذا أوّل إعلان له على الصعيد الرسمي بعد هلاك معاوية في رفض البيعة ليزيد ، وقد أعلن ذلك في بيت الإمارة ورواق السلطة بدون مبالاة ولا خوف ولا ذعر.

لقد جاء تصريحه بالرفض لبيعة يزيد معبّراً عن تصميمه ، وتوطين نفسه حتّى النّهاية على التضحية عن سموّ مبدئه وشرف عقيدته ، فهو بحكم مواريثه الروحية ، وبحكم بيئته التي كانت ملتقى لجميع الكمالات الإنسانية

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.

(٢) الفتوح ٥ / ١٨.

كيف يبايع يزيد الذي هو مِن عناصر الفسق والفجور؟ ولو أقرّه إماما على المسلمين لساق الحياة الإسلاميّة إلى الانهيار والدمار ، وعصف بالعقيدة الدينية في متاهات سحيقة مِن مجاهل هذه الحياة.

وكانت كلمة الحقّ الصارخة التي أعلنها أبو الأحرار قد أحدثت استياءً في نفس مروان ، فاندفع يعنّف الوليد ويلومه على إطلاق سراحه قائلا : عصيتني! لا والله ، لا يمكّنك مثلها من نفسه أبدا.

وتأثّر الوليد مِنْ منطق الإمام وتيقّظ ضميره ، فاندفع يرد أباطيل مروان قائلا : ويحك! إنّك أشرت علي بذهاب ديني ودنياي. والله ، ما أحبّ أنْ أملك الدنيا بأسرها ، وإنّي قتلت حُسيناً. سُبحان الله! أأقتل حُسينا إن قال لا أُبايع؟! والله ، ما أظنّ أحداً يلقى الله بدم الحُسين إلاّ وهو خفيف الميزان ، لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، ولا يزكّيه وله عذاب أليم.

وسخر منه مروان وطفق يقول : إذا كان هذا رأيك فقد أصبت [1].

وعزم الحُسين على مغادرة يثرب والتوجّه إلى مكّة ؛ ليلوذ بالبيت الحرام ويكون بمأمن مِن شرور الأمويّين واعتدائهم.

الحسين (عليه السّلام) مع مروان :

والتقى أبي الضيم في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي أعلن فيها رفضه لبيعة يزيد ، فبادره مروان قائلاً :

---

(١) الطبري.

«إنّي ناصح ، فأطعني ترشد وتسدّد ..».

«وما ذاك يا مروان؟».

«إني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد ؛ فإنه خير لك في دينك ودنياك».

والتاع كأشدّ ما تكون اللوعة واسترجع ، وأخذ يردّ على مقالة مروان ببليغ منطقه قائلاً : «على الإسلام السّلام ، إذ قد بُليت الأُمّة براعٍ مثل يزيد. ويحك يا مروان! أتأمرني ببيعة يزيد وهو رجل فاسق؟! لقد قلت شططا من القول. لا ألومك على قولك ؛ لأنّك اللعين الذي لعنك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص».

وأضاف الإمام يقول : «إليك عني يا عدو الله! فإنّا أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والحقّ فينا ، وبالحقّ تنطق ألسنتنا ، وقد سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان ، وعلى الطلقاء وأبناء الطلقاء. وقال : إذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه. فوالله ، لقد رآه أهل المدينة على منبر جدّي فلم يفعلوا ما أُمروا به».

وتميّز الخبيث الدنس مروان غيظاً وغضباً ، واندفع يصيح : والله ، لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغراً ؛ فإنّكم آل أبي تراب قد أُشربتم بغض آل أبي سفيان ، وحقّ عليكم أن تبغضوهم وحقّ عليهم أن يبغضوكم.

وصاح به الإمام : «إليك عنّي فإنّك رجس ، وأنا مِنْ أهل بيت الطهارة الذين أنزل الله فيهم على نبيه (صلّى الله عليه وآله) : إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا».

ولمْ يطق مروان الكلام وقد تحرّق ألماً وحزناً ، فقال له الإمام : «أبشر يابن الزرقاء بكل ما تكره من الرسول (صلّى الله عليه وآله) يوم تقْدِم

على ربّك فيسألك جدّي عن حقّي وحق يزيد».

وانصرف مروان مسرعا إلى الوليد فأخبره بمقالة الحُسين له [1].

اتصال الوليد بدمشق :

وأحاط الوليدُ يزيدَ علماً بالأوضاع الراهنة في يثرب ، وعرّفه بامتناع الحُسين (عليه السّلام) من البيعة ، وأنّه لا يرى له طاعة عليه ، ولما فهم يزيد بذلك تميّز غيظا وغضبا.

الأوامر المشدّدة مِن دمشق :

وأصدر يزيد أوامره المشدّدة إلى الوليد بأخذ البيعة مِنْ أهل المدينة ثانياً ، وقتل الحُسين (عليه السّلام) وإرسال رأسه إليه.

وهذا نص كتابه : من عبد الله يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أمّا بعد ، فإذا ورد عليك كتابنا هذا فخذ البيعة ثانيا على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم وذر عبد الله بن الزّبير ؛ فإنّه لن يفوت أبداً مادام حيّاً ، وليكن مع جوابك إليّ برأس الحُسين بن علي ، فإنْ فعلت ذلك فقد جعلت لك أعنّة الخيل ولك عندي الجائزة والحظّ الأوفر والنّعمة ، والسّلام.

رفض الوليد :

ورفض الوليد رسميّاً ما عهد إليه يزيد من قتل الحُسين ، وقال : لا والله ، لا يراني الله قاتلَ الحُسين بن علي. لا أقتل ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله)

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٤.

ولو أعطاني يزيد الدنيا بحذافيرها [1] ، وقد جاءته هذه الرسالة بعد مغادرة الإمام يثرب إلى مكّة.

وداع الحُسين (عليه السّلام) لقبر جدّه (صلّى الله عليه وآله) :

وخف الحُسين (عليه السّلام) في الليلة الثانية إلى قبر جدّه (صلّى الله عليه وآله) وهو حزين كئيب ؛ ليشكو إليه ظلم الظالمين له ، ووقف أمام القبر الشريف بعد أن صلّى ركعتين وقد ثارت مشاعره وعواطفه ، فاندفع يشكو إلى الله ما ألمّ به من المحن والخطوب قائلاً : «اللّهم ، إنّ هذا قبرَ نبيّك محمّدٌ وأنا ابن بنت محمّد ، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت. اللّهم ، إنّي أُحبّ المعروف وأُنكر المنكر ، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق هذا القبر ومَن فيه إلا ما اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى».

رؤيا الحُسين (عليه السّلام) لجدّه (صلّى الله عليه وآله) :

وأخذ الحُسين يطيل النظر إلى قبر جدّه وقد وثقت نفسه أنّه لا يتمتّع برؤيته وانفجر بالبكاء ، وقبل أن يندلع نور الفجر غلبه النوم فرأى جدّه الرسول (صلّى الله عليه وآله) قد أقبل في كتيبة مِن الملائكة ، فضمّ الحُسين إلى صدره وقبّل ما بين عينيه ، وهو يقول له : «يا بُني ، كأنّي عن قريب أراك مقتولاً مذبوحاً بأرض كربٍ وبلاء ، بين عصابة مِنْ أُمّتي ، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى ، وظمآن

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٦ ـ ٢٧.

لا تُروى ، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة! فما لهم عند الله مِن خلاق.

حبيبي يا حُسين ، إنّ أباك وأُمّك وأخاك قد قدموا عليّ وهم إليك مشتاقون. إن لك في الجنّة درجات لن تنالها إلا بالشهادة».

وجعل الحُسين يطيل النظر إلى جدّه (صلّى الله عليه وآله) ويذكر عطفه وحنانه عليه فازداد وجيبه. وتمثّلت أمامه المحن الكبرى التي يعانيها من الحكم الأُموي. فهو إمّا أن يُبايع فاجر بني أُميّة أو يُقتل ، وأخذ يتوسّل إلى جدّه ويتضرّع إليه قائلاً : «يا جدّاه ، لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا ، فخذني إليك وأدخلني معك إلى منزلك».

والتاع النّبي (صلّى الله عليه وآله) ، فقال له : «لا بد لك مِن الرجوع إلى الدنيا حتى تُرزق الشهادة ، وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم ؛ فإنّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تُحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنّة» [1].

واستيقظ الحُسين فزعاً مرعوباً ، قد ألمت به تياراتٌ من الأسى والأحزان ، وصار على يقين لا يخامره أدنى شك أنّه لا بد أنْ يُرزق الشهادة ، وجمع أهل بيته فقصّ عليهم رؤياه الحزينة ، فطافت بهم الآلام وأيقنوا بنزول الرزء القاصم.

ووصف المؤرّخون شدّة حزنهم بأنّه لمْ يكن في ذلك اليوم لا في شرق الأرض ولا في غربها أشدّ غمّا مِن أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولا أكثر باكية وباك منهم [2].

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٨ . ٢٩.

(٢) مقتل العوالم / ٥٤.

وداعه لقبر أُمّه وأخيه (عليهما السّلام) :

وتوجّه الحُسين في غلس الليل البهيم إلى قبر أُمّه وديعة النّبي (صلّى الله عليه وآله) وبضعته ، ووقف أمام قبرها الشريف مليّاً وهو يُلقي عليه نظرات الوداع الأخير ، وقد تمثّلت أمامه عواطفها الفيّاضة وشدّة حنوّها عليه ، وقد ودّ أنْ تنشقّ الأرض لتواريه معها ، وانفجر بالبكاء وودّع القبر وداعاً حاراً ، ثمّ انصرف إلى قبر أخيه الزكي أبي محمّد ، فأخذ يروّي ثرى القبر مِنْ دموع عينيه وقد ألمت به الآلام والأحزان ، ثمّ رجع إلى منزله وهو غارق بالأسى والشجون [1].

فزع الهاشميّات :

ولمّا عزم الإمام على مغادرة يثرب واللّجوء إلى مكّة اجتمعْن السيّدات مِن نساء بني عبد المطّلب ، وقد جاشت عواطفهنَّ بالأسى والحزن ، فقد تواترت عليهنَّ الأنباء عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن مقتل ولده الحُسين ، وجعلْنَ ينحْنَ وتعالت أصواتهنَّ بالبكاء وكان منظرا مفزعاً ، وانبرى إليهنَّ الحُسين وهو رابط الجأش ، فقال لهنَّ : «أُنشدكنَّ الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله».

فذابت نفوسهنَّ ، وصحنَ : لمن نستبقي النياحة والبكاء؟ فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلي وفاطمة والحسن ، جعلنا الله فداك يا حبيب الأبرار.

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٩.

وأقبلت عليه بعض عمّاته وهي شاحبة اللون ، فقالت بنبرات منقطّعة بالبكاء : لقد سمعت هاتفا يقول :

وإن قتيل الطف مِن آل هاشم أذل رقابا مِن قريش فذلّت

وجعل الإمام (عليه السّلام) يُهدِّئ أعصابها ويأمرها بالخلود إلى الصبر ، كما أمر سائر السيّدات مِن بني عبد المطّلب بذلك [1].

مع أخيه ابن الحنفيّة :

وفزع محمّد بن الحنيفة إلى الحُسين ، فجاء يتعثّر في خطاه وهو لا يُبصر طريقه مِنْ شدّة الحزن والأسى ، ولما استقر به المجلس أقبل على الحُسين فقال له بنبرات مشفوعة بالإخلاص والحنوّ عليه : يا أخي ، فدتك نفسي ، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ ، ولست والله ، أدّخر النصيحة لأحد من الخلق ، وليس أحد أحقّ بها مِنك ؛ فإنّك كنفسي وروحي وكبير أهل بيتي ، ومَنْ عليه اعتمادي وطاعته في عنقي ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى قد شرّفك وجعلك مِنْ سادات أهل الجنّة ، وإني رأُيد أن أُشير عليك برأيي فاقبله مني.

لقد عبّر محمّد بهذا الحديث الرقيق عن عواطفه الفيّاضة المترعة بالولاء والإكبار لأخيه ، وأقبل عليه الإمام فقال له محمّد : أُشير عليك أن تتنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ، ثمّ ابعث برسلك إلى الناس ، فإنْ بايعوك حمدت الله على ذلك ، وإنْ اجتمعوا على غيرك لمْ ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولمْ تذهب مروءتك ولا فضلك ، وإنّي أخاف عليك أن تدخل مصرا مِن هذه

---

(١) مقتل الحسين . للمقرم / ١٤٨.

الأمصار فيختلف الناس بينهم ، فطائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأوّل الأسنّة غرضاً ، فإذا خير هذه الأُمّة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً.

وبادر الإمام الحُسين فقال له : «أين أذهب؟».

ـ تنزل مكّة فإن اطمأنت بك الدار وإلاّ لحقت بالرمال وشعب الجبال ، وخرجت مِنْ بلد إلى آخر حتّى ننظر ما يصير إليه أمر الناس ، فإنّك أصوب ما تكون رأياً وأحزمهم عملاً حتّى تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور أبداً أشكل عليك منها حتّى تستدبرها استدباراً [1].

وانطلق الإمام وهو غير حافل بالأحداث ، فأخبره عن عزمه وتصميمه الكامل على رفض البيعة ليزيد قائلا : «يا أخي ، لو لمْ يكن في الدنيا ملجأً ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية».

وانفجر ابن الحنفيّة بالبكاء ، فقد أيقن بالرزء القاصم ، واستشفّ ماذا سيجري على أخيه من الرزايا والخطوب ، وشكر الإمام نصيحته وقال له : «يا أخي ، جزاك الله خيراً ، لقد نصحت وأشرت بالصواب ، وأنا عازم على الخروج إلى مكّة ، وقد تهيّأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي ؛ أمرهم أمري ورأيهم رأيي. وأمّا أنت فلا عليك أن تُقيم بالمدينة فتكون لي عينا لا تخُف عني شيئا مِن أُمورهم» [2].

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٩١.

(٢) الفتوح ٥ / ٣٢.

وصيته لابن الحنفيّة :

وعهد الإمام بوصيته الخالدة إلى أخيه ابن الحنفيّة ، وقد تحدّث فيها عن أسباب ثورته الكبرى على حكومة يزيد ، وقد جاء فيها بعد البسملة : «هذا ما أوصى به الحُسين بن علي إلى أخيه محمّد بن الحنفيّة ، إنّ الحُسين يشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله جاء بالحقّ مِنْ عنده ، وأنّ الجنّة حقّ ، والنار حقّ ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنّ الله يبعث مَن في القبور.

وإنّي لمْ أخرج أشِرَاً ولا بطراً ، ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي (صلّى الله عليه وآله) ؛ أُريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب ، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ ، ومَن رد علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين. وهذه وصيتي إليك يا أخي ، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب» [1].

من أجل هذه الأهداف النبيلة فجّر الإمام ثورته الخالدة ، فهو لمْ يخرج أشِرَاً ولا بطراً ، ولمْ يبغِ أي مصلحة مادية له أو لأُسرته ، وإنّما خرج على حكم الظلم والطغيان ، يريد أنْ يُقيمَ صروح العدل بين الناس ، وما أروع قوله : «فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ ، ومَنْ ردّ عليّ أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين».

لقد حدّد الإمام خروجه بأنّه كان من أجل إحقاق الحقّ ، وإماتة الباطل

---

(١) الفتوح ٥ / ٣٣ ، مقتل الخوارزمي ١ / ١٨٨.

ودعا الأُمّة باسم الحقّ إلى الالتفاف حوله ؛ لتحمي حقوقها وتصون كرامتها وعزّتها التي انهارت على أيدي الأُمويّين ، وإذا لمْ تستجب لنصرته فسيواصل وحده مسيرته النضالية بصبر وثبات في مناجزة الظالمين والمعتدين حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين.

كما حدّد الإمام خروجه بأنّه يريد أنْ يسير على منهاج جدّه وأبيه ، وليس على منهاج أيّ أحد من الخلفاء. وهذه الوصية من البنود التي نرجع إليها في دراستنا عن أسباب ثورته (عليه السّلام).

وتهيّأ الإمام بعد وصيته لأخيه محمّد إلى السفر إلى مكّة ؛ ليلتقي بحجّاج بيت الله الحرام وغيرهم ، ويعرض عليهم الأوضاع الراهنة في البلاد ، وما تعانيه الأُمّة من الأزمات والأخطار في عهد يزيد.

وقبل أن يغادر الإمام (عليه السّلام) يثرب متّجها إلى مكّة دخل مسجد جدّه الرسول (صلّى الله عليه وآله) وهو غارق في الأسى والشجون ، فألقى عليه نظرة الوداع الأخير ، وقد نظر إلى محراب جدّه (صلّى الله عليه وآله) ومنبره فطافت به ذكريات ذلك العطف الذي كان يفيضه عليه جدّه (صلّى الله عليه وآله) حينما كان في غضون الصّبا ، فلمْ ينسَ الحسين في جميع فترات حياته ذلك الحنان الذي أغدقه عليه جدّه حينما يقول فيه : «حسين منّي وأنا مِنْ حسين ، أحبّ الله مَن أحب حُسينا. حُسين سبط مِن الأسباط».

وتذكّر كيف كان النّبي (صلّى الله عليه وآله) يفرغ عليه ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من المثل العليا التي كان بها خاتم النبين وسيد المرسلين ، وأيقن أنّه لمْ يكن يشيع ذلك في نفسه بمحض العاطفة ، بل بشعور آخر هو الإبقاء على رسالته ومبادئه ، ورأى أنّه لا بد أنْ يقدّم التضحية الرهيبة التي تصون

رسالة الإسلام مِن عبث الناقمين عليه. ويقول المؤرّخون : إنّه دخل المسجد بين أهل بيته ، وهو يعتمد في مشيه على رَجُلَين ، ويتمثّل بقول يزيد بن مفرغ :

لا ذُعــرت السَّـــوام في فلـــق الصـبح مغـــــيرا ولا دُعيــــــت يزيـــــدا

يـــوم أُعطـــي مِـــن المهانـــة ضـــيما والمنايـــا ترصـــدنني أن أحيــــدا [1]

ويقول أبو سعيد : لما سمعت هذين البيتين قلت في نفسي : إنّه ما تمثّل بهما إلاّ لشيء يريده ، فما مكثت إلا قليلا حتى بلغني أنّه سار إلى مكة [2]. لقد صمّم على التضحية والفداء ليغير مجرى الحياة ، ويرفع كلمة الله وفكرة الخير في الأرض.

أمّا يثرب مهد النّبوة فإنّه حينما أُذيع فيها مغادرة الحُسين عنها علتها الكآبة ، وخيّم على أهلها الحزن والذعر ، فقد أيقنوا بالخسارة الفادحة التي ستحلّ بهم ، فسيغيب عنهم قبس من نور الرسالة الذي كان يضيء لهم الحياة ، وحزنت البقية الباقية مِنْ صحابة النّبي (صلّى الله عليه وآله) كأعظم ما يكون الحزن ، فقد كانوا يرون في الحُسين امتداداً لجدّه الرسول (صلّى الله عليه وآله) الذي أنقذهم من حياة التّيْه في الصحراء.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٥.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٣٢٩ ، تاريخ الطبري.

الثورة الحسينيّة

أسبابها ومخططاتها

ولم يفجّر الإمام الحُسين (عليه السّلام) ثورته الكبرى أشِراً ولا بطَرَاً ، ولا ظالماً ولا مفسداً . حسب ما يقول . وإنّما انطلق ليؤسس معالم الإصلاح في البلاد ، ويحقّق العدل الاجتماعي بين الناس ، ويقضي على أسباب النكسة الأليمة التي مُنِي بها المسلمون في ظلّ الحكم الأموي الذي ألحق بهم الهزيمة والعار.

لقد انطلق الإمام ليصحّح الأوضاع الراهنة في البلاد ، ويُعيد للأُمّة ما فقدته من مقوّماتها وذاتياتها ، ويُعيد لشراينها الحياة الكريمة التي تملك بها إرادتها وحريتها في مسيرتها النضالية لقيادة أُمم العالم في ظل حكم متوازن تُذاب فيه الفوارق الاجتماعية ، وتُقام الحياة على أسس صلبة من المحبّة والإخاء ، إنّه حكم الله خالق الكون وواهب الحياة ، لا حكم معاوية الذي قاد مركبة حكومته على إماتة وعي الإنسان وشل حركاته الفكرية والاجتماعية.

لقد فجّر الإمام (عليه السّلام) ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأولي الألباب ، فأضاء بها الطريق وأوضح بها القصد وأنار بها الفكر ، فانهارت بها السّدود والحواجز التي وضعها الحكم الأُموي أمام التطوّر الشامل الذي يريده الإسلام لأبنائه ، فلمْ يعد بعد الثورة أي ظل للسلبيات الرهيبة التي أقامها الحكم الأُموي على مسرح الحياة الإسلاميّة ، فقد انتفضت الأُمّة . بعد مقتل الإمام . كالمارد الجبّار وهي تسخر مِن الحياة وتستهزأ بالموت ، وتزجّ بأبنائها في ثورات متلاحقة حتى أطاحت بالحكم الأُموي واكتسحت معالم زهوه.

ولم يقدم الإمام على الثورة إلاّ بعد أنْ انسدّت أمامه جميع الوسائل ، وانقطع كلّ أمل له في إصلاح الأُمّة ، وإنقاذها مِن السلوك في المنعطفات ، فأيقن أنّه لا طريق للإصلاح إلاّ بالتضحية الحمراء ، فهي وحدها التي

تتغيّر بها الحياة ، وترتفع راية الحقّ عالية في الأرض.

وفيما أعتقد أن أهم ما يتطلّبه القرّاء لأمثال هذه البحوث الوقوف على أسباب الثورة الحسينيّة ومخططاتها ، وفيما يلي ذلك :

أسباب الثورة :

وأحاطت بالإمام (عليه السّلام) عدّة من المسؤوليات الدينية والواجبات الاجتماعية وغيرها ، فحفّزته إلى الثورة ودفعته إلى التضحية والفداء ، وهذه بعضها :

١ . المسؤولية الدينيّة :

وأعلن الإسلام المسؤولية الكبرى على كل مسلم عمّا يحدث في بلاد المسلمين من الأحداث والأزمات التي تتنافي مع دينهم ، وتتجافى مع مصالحهم ، فإنّه ليس من الإسلام في شيء أنْ يقف المسلم موقفا يتّسم بالميوعة واللامبالات أمام الهزّت التي تدهم الأُمّة وتدمّر مصالحها.

وقد أعلن الرسول (صلّى الله عليه وآله) هذه المسؤولية ، يقول (صلّى الله عليه وآله) : «كلّكم راعٍ ، وكلّكم مسؤول عن رعيته». فالمسلم مسؤول أمام الله عن رعاية مجتمعه ، والسّهر على صالح بلاده والدفاع عن أُمّته.

وعلى ضوء هذه المسؤولية الكبرى ناهض الإمام جور الأُمويّين ، وناجز مخططاتهم الهادفة إلى استعباد الأُمّة وإذلالها ونهب ثرواتها.

وقد أدلى (عليه السّلام) بما يحتّمه الإسلام عليه مِن الجهاد لحكم الطاغية يزيد ، أمام الحرّ وأصحابه قال (عليه السّلام) :

«يا أيها الناس ، إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : مَن رأى سلطانا جائرا ؛ مستحلا لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بقول ولا فعل كان حقّا على الله أن يُدخله مدخله».

لقد كان الواجب الديني يحتّم عليه القيام بوجه الحكم الأُموي الذي استحلّ حُرمات الله ، ونكث عهوده وخالف سنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وقد صرّح جماعة مِنْ علماء المسلمين بأن الواجب الديني كان يقضي على الإمام أن ينطلق في ميادين الجهاد دفاعا عن الإسلام ، وفيما يلي بعضهم :

١ ـ الإمام محمّد عبده ، وألمع الإمام محمّد عبده في حديثه عن الحكومة العادلة والجائرة في الإسلام إلى خروج الإمام على حكومة يزيد ، ووصفه بأنّه كان واجباً شرعياً عليه ، قال : إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع وحكومة جائرة تعطّله ، وجب على كل مسلم نصر الأولى وخذل الثانية.

ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين (عليه السّلام) ، سبط الرسول (صلّى الله عليه وآله) على إمام الجور والبغي الذي وَلِيَ أمرَ المسلمين بالقوّة والمنكر يزيد بن معاوية خذله الله ، وخذل مَن انتصر له من الكرامية والنواصب [1].

٢ ـ محمّد عبد الباقي ، وتحدّث الأُستاذ محمّد عبد الباقي سرور عن المسؤولية الدينية والاجتماعية اللّتين تحتّمان على الإمام القيام بمناهضة حكم يزيد ، قال :

---

(١) تفسير المنار ١ / ٣٦٧ ، و ١٢ / ١٨٣ و ١٨٥.

لو بايع الحُسين يزيد الفاسق المستهتر الذي أباح الخمر والزنا ، وحطّ بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات ، وعقد حلقات الشراب في مجلس الحكم ، والذي ألبس الكلاب والقرود خلاخل من ذهب ومئات الآلوف من المسلمين صرعى الجوع والحرمان.

لو بايع الحُسين يزيد أن يكون خليفة لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) على هذا الوضع لكانت فتيا من الحُسين بإباحة هذا للمسلمين ، وكان سكوته هذا أيضاً رضى ، والرضا من ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت إثم وجريمة في حكم الشريعة الإسلاميّة. والحُسين بوضعه الراهن في عهد يزيد هو الشخصية المسؤولة في الجزيرة العربية ، بل في البلاد الإسلاميّة كافة عن حماية التراث الإسلامي لمكانته في المسلمين ، ولقرابته من رسول ربّ العالمين ، ولكونه بعد موت كبار المسلمين كان أعظم المسلمين في ذلك الوقت علما وزهدا وحسبا ومكانة. فعلى هذا الوضع أحس بالمسؤولية تناديه وتطلبه لإيقاف المنكرات عند حدّها ، ولا سيّما إن الذي يضع هذه المنكرات ويشجّع عليها هو الجالس في مقعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هذا أولا.

وثانيا : أنّه (عليه السّلام) جاءته المبايعات بالخلافة من جزيرة العرب ، وجاءه ثلاثون ألفاً من الخطابات من ثلاثين ألف من العراقيين من سكّان البصرة والكوفة يطلبون فيها منه الشخوص لمشاركتهم في محاربة يزيد بن معاوية ، وألحّوا تكرار هذه الخطابات حتّى قال رئيسهم عبد الله بن الحصين الأزدي : يا حُسين سنشكوك إلى الله تعالى يوم القيامة إذا لم تلبِّ طلبنا وتقوم بنجدة الإسلام ، وكيف والحُسين ذو حمية دينية ونخوة إسلامية ، والمفاسد تترى أمام عينيه ، كيف لا يقوم بتلبية النداء؟ وعلى هذا الوضع لبّى النداء كما تأمر به الشريعة الإسلاميّة ، وتوجّه نحو العراق (١).

---

(١) الثائر الأول في الإسلام / ٧٩.

وهذا الرأي وثيق للغاية ؛ فقد شُفّع بالأدلة الشرعية التي حمّلت الإمام مسؤولية الجهاد ، والخروج على حكم طاغية زمانه.

٣ ـ عبد الحفيظ أبو السّعود ، يقول الأُستاذ عبد الحفيظ أبو السعود : ورأى الحُسين أنّه مطالب الآن ـ يعني بعد هلاك معاوية ـ أنْ يُعلن رفضه لهذه البيعة ، وأنْ يأخذ البيعة لنفسه من المسلمين ، وهذا أقلّ ما يجب ؛ حفاظاً لأمر الله ورفعاً للظلم ، وإبعاداً لهذا العابث ـ يعني يزيد ـ عن ذلك المنصب الجليل [١].

٤ ـ الدكتور أحمد محمود صبحي ، وممّن صرّح بهذه المسؤولية الدينية الدكتور أحمد محمود صبحي ، قال :

ففي إقدام الحُسين على بيعة يزيد انحراف عن أصل من أصول الدين من حيث أن السياسة الدينية للمسلمين لا ترى في ولاية العهد وراثة الملك إلاّ بدعة هرقلية دخيلة على الإسلام ، ومن حيث أنّ اختيار شخص يزيد مع ما عرف عنه من سوء السّيرة ، وميله إلى اللّهو وشرب الخمر ومنادمة القرود ليتولى منصب الخلافة عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أكبر وزر يحل بالنظام السياسي للإسلام. يتحمّل وزره كلّ مَنْ شارك فيه ورضى عنه ، فما بالك إذا كان المقْدِم على ذلك هو ابن بنت رسول الله؟!

كان خروج الحُسين إذا أمرا يتّصل بالدعوة والعقيدة أكثر ممّا يتّصل بالسياسة والحرب [٢].

---

(١) سبط الرسول / ١٣٣.

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية / ٣٣٤.

٥ ـ العلائلي

يقول العلائلي : وهناك واجب على الخليفة إذا تجاوزه وجب على الأُمّة إسقاطه ، ووجبت على الناس الثورة عليه ؛ وهو المبالغة باحترام القانون الذي يخضع له الناس عامّة ، وإلاّ فأيّ تظاهر بخلافه يكون تلاعباً وعبثاً ، ومن ثمّ وجب على رجل القانون أنْ يكون أكثر تظاهراً باحترام القانون من أي شخص آخر ، وأكبر مسؤولية من هذه الناحية ، فإذا فسق الملِك ثمّ جاهر بفسقه وتحدّى الله ورسوله والمؤمنين لم يكن الخضوع له إلا خضوعا للفسق وخضوعا للفحشاء والمنكر ، ولم يكن الاطمئنان إليه إلا اطمئنانا للتلاعب والمعالنة الفاسقة.

هذا هو المعنى التحليلي لقوله (عليه السّلام) : «ويزيد رجل فاسق ، وشارب للخمر وقاتل النفس المحرّمة ، معلن بالفسق» [1].

هذه بعض الآراء التي أدلى بها جماعة من العلماء في إلزام الإمام شرعا بالخروج على حكم الطاغية يزيد ، وإنّه ليس له أنْ يقفَ موقفاً سلبياً أمام ما يقترفه يزيد من الظلم والجور.

٢ ـ المسؤولية الاجتماعيّة :

وكان الإمام (عليه السّلام) بحكم مركزه الاجتماعي مسؤولا أمام الأُمّة عمّا مُنِيَت به من الظلم والاضطهاد من قبل الأمويّين. ومَن هو أولى بحمايتها ورد الاعتداء عنها غيره؟ فهو سبط رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وريحانته ، والدين دين جدّه ، والأُمّة أُمّة جدّه ، وهو المسؤول بالدرجة الأولى عن رعايتهما.

---

(١) الإمام الحسين / ٩٤.

لقد رأى الإمام أنّه مسؤول عن هذه الأُمّة ، وأنّه لا يجدي بأيّ حالٍ في تغيير الأوضاع الاجتماعية التزام جانب الصمت ، وعدم الوثوب في وجه الحكم الأُموي المليء بالجور والآثام. فنهض (عليه السّلام) بأعباء هذه المسؤولية الكبرى ، وأدى رسالته بأمانة وإخلاص ، وضحّى بنفسه وأهل بيته وأصحابه ؛ ليعيد على مسرح الحياة عدالة الإسلام وحكم القران.

٣ . إقامة الحجّة عليه :

وقامت الحجّة على الإمام لإعلان الجهاد ، ومناجزة قوى البغي والإلحاد ، فقد تواترت عليه الرسائل والوفود من أقوى حامية عسكرية في الإسلام وهي الكوفة ، فكانت رسائل أهلها تحمّله المسؤولية أمام الله إنْ لمْ يستجبْ لدعواتهم الملحّة لإنقاذهم من عسف الأُمويِّين وبغيهم.

ومن الطبيعي أنّه لو لمْ يجيبهم لكان مسؤولاً أمام الله ، وأمام الأُمّة في جميع مراحل التاريخ ، وتكون الحجّة قائمة عليه.

٤ . حماية الإسلام :

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها حفيد الرسول (صلّى الله عليه وآله) حماية الإسلام من خطر الحكم الأُموي ، الذي جهد على محو سطوره وقلع جذوره وإقبار قِيَمِه ، فقد أعلن يزيد وهو على دست الخلافة الإسلاميّة الكفر والإلحاد بقوله :

لعبــــت هاشـــــم بالملـــــك فـــــلا خـــــبر جـــــاء ولا وحـــــي نــــــزل

وكشف هذا الشعر عن العقيدة الجاهلية التي كان يدين بها يزيد ، فهو لمْ يؤمن بوحي ولا كتاب ولا جنّة ولا نار ، وقد رأى السّبط أنّه إنْ لمْ يثأر لحماية الدين فسوف يجهز عليه حفيد أبي سفيان ويجعله أثراً بعد عين ، فثار (عليه السّلام) ثورته الكبرى التي فدى بها دين الله ، فكان دمه الزاكي المعطر بشذى الرسالة هو البلسم لهذا الدين ، فإنّ من المؤكد أنّه لولا تضحيته لمْ يبقَ للإسلام اسم ولا رسم ، وصار الدين دين الجاهلية ودين الدعارة والفسوق ، ولذهبت سدى جميع جهود النّبي (صلّى الله عليه وآله) وما كان ينشده للناس من خير وهدى.

وقد نظر النّبي (صلى الله عليه وآله) من وراء الغيب واستشفّ مستقبل أُمّته ، فرأى بعين اليقين ما تُمْنى به الأُمّة من الانحراف عن الدين ، وما يصيبها من الفتن والخطوب على أيدي أُغيلمة مِنْ قريش ، ورأى أنّ الذي يقوم بحماية الإسلام هو الحُسين (عليه السّلام) ، فقال (صلّى الله عليه وآله) كلمته الخالدة : «حُسين مني وأنا مِن حُسين» ، فكان النّبي (صلّى الله عليه وآله) حقّاً من الحُسين ؛ لأنّ تضحيته كانت وقاية للقرآن ، وسيبقى دمه الزكي يروّي شجرة الإسلام على ممر الأحقاب والآباد.

٥ . صيانة الخلافة :

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها الإمام الحُسين (عليه السّلام) تطهير الخلافة الإسلاميّة من أرجاس الأُمويّين الذين نزوا عليها بغير حقّ ، فلمْ تَعُدْ الخلافة في عهدهم كما يريدها الإسلام وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس ، والقضاء على جميع أسباب التخلّف والفساد في الأرض.

لقد اهتم الإسلام اهتماما بالغا بشأن الخلافة ؛ باعتبارها القاعدة الصلبة لإشاعة الحق والعدل بين الناس ، فإذا صلحت نَعِمَتِ الأُمّة بأسرها ،

وإذا انحرفت عن واجباتها فإنّ الأُمّة تصاب بتدهور سريع في جميع مقوّماتها الفكرية والاجتماعية ، ومِنْ ثمّ فقد عنى الإسلام في شأنها أشدّ ما تكون العناية ، فألزم مَنْ يتصدّى لها بأنْ تتوفّر فيه النزعات الخيّرة والصفات الشريفة من العدالة والأمانة ، والخبرة بما تحتاج إليه الأُمّة في مجالاتها الاقتصادية والإدارية والسياسية ، وحرّم على مَنْ فقد هذه الصفات أنْ يرشّح نفسه للخلافة ،

وقد تحدّث (عليه السّلام) في أولى رسائله إلى أهل الكوفة عن الصفات التي يجب أن تتوفّر فيمَنْ يُرشِّح نفسه إلى إمامة المسلمين وإدارة شؤونهم ، قال (عليه السّلام) : «فلعمري ، ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحقّ ، والحابس نفسه على ذات الله» [1].

فمَنْ تحلّى بهذه الصفات كان له الحقّ في تقديم نفسه لإمامة المسلمين وخلافتهم ، ومَنْ لمْ يتّصف بها فلا حقّ له في التصدي لهذا المركز الخطير الذي كان يشغله الرسول (صلّى الله عليه وآله).

إنّ الخلافة الإسلاميّة ليست مجرّد سلطة زمنية على الأُمّة ، وإنّما هي نيابة عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) وامتداد ذاتي لحكومته المشرقة. وقد رأى الإمام الحُسين أن مركز جدّه قد صار إلى سكّير مستهتر لا يعي إلاّ شهواته ورغباته ، فثار (عليه السّلام) ليعيد للخلافة الإسلاميّة كيانها المشرق وماضيها الزاهر.

---

(١) الطبري ٦ / ١٩٧.

٦ ـ تحرير إرادة الأُمّة :

ولم تملك الأُمّة في عهد معاوية ويزيد إرادتها واختيارها ، فقد كانت جثة هامدة لا وعي فيها ولا اختيار ، قد كُبّلت بقيود ثقيلة سدّت في وجهها منافذ النور والوعي ، وحيل بينها وبين إرادتها.

لقد عمل الحكم الأُموي على تخدير المسلمين وشلّ تفكيرهم ، وكانت قلوبهم مع الإمام الحُسين ، إلاّ إنّهم لا يتمكّنون من متابعة قلوبهم وضمائرهم ، فقد استولت عليها حكومة الأُمويّين بالقهر ، فلمْ يملكوا من أمرهم شيئاً ، فلا إرادة لهم ولا اختيار ولا عزم ولا تصميم ، فأصبحوا كالأنصاب لا وعي فيهم ولا حراك ، قد قبعوا أذلاء صاغرين تحت وطأة سياط الأُمويّين وبطشهم.

لقد هبّ الإمام إلى ساحات الجهاد والفداء ؛ ليطعم المسلمين بروح العزّة والكرامة ، فكان مقتله نقطة تحوّل في تاريخ المسلمين وحياتهم ، فانقلبوا رأساً على عقب ، فتسلّحوا بقوة العزم والتصميم ، وتحرروا من جميع السلبيات التي كانت ملمّة بهم ، وانقلبت مفاهيم الخوف والخنوع التي كانت جاثمة عليهم إلى مبادئ الثورة والنضال ، فهبّوا متضامنين في ثورات مكثّفة وكان شعارهم (يا لثارات الحُسين) ، فكان هذا الشعار هو الصرخة المدوّية التي دكّت عروش الأُمويّين وأزالت سلطانهم.

٧ ـ تحرير اقتصاد الأُمّة :

وانهار اقتصاد الأُمّة الذي هو شرايين حياتها الاجتماعية والفردية ، فقد عمد الأُمويّين بشكل سافر إلى نهب الخزينة المركزية ، والاستئثار بالفيء

وسائر ثمرات الفتوح والغنائم ؛ فحازوا الثراء العريض ، وتكدّست في بيوتهم الأموال الهائلة التي حاروا في صرفها ، وقد أعلن معاوية أمام المسلمين أنّ المال مال الله وليس مال المسلمين فهو أحقّ به.

ويقول سعيد بن العاص : إنّما السّواد بستان قريش ، وقد أخذوا ينفقون الأموال على أغراضهم السياسية التي لا تمت بصلة لصالح الأُمّة.

أمّا موارد إنفاقهم البارزة فهي :

أ . شراء الضمائر والأديان : وقد تقدّمت الشواهد المؤيدة لذلك عند البحث عن سياسة معاوية الاقتصادية.

ب . الإنفاق على لجان الوضع : لافتعال الأخبار التي تدعم الكيان الأُموي وتحط من قيمة أهل البيت ، وقد ألمعنا إلى ذلك بصورة مفصلة.

ج . الهبات الهائلة ، والعطايا الوافرة للوجوه والأشراف : لِكَم أفواههم عمّا تقترفه السّلطة مِن الظلم للرعية.

د . الصرف على المجون والدعارة : فقد امتلأت بيوتهم بالمغنين والمغنيات ، وأدوات العزف وسائر المنكرات.

هذه بعض الموارد التي كان يُنفق عليها الأموال ، في حين أنّ الجوع قد نهش الأُمّة وعمّت فيها المجاعة ، وانتشر شبح الفقر في جميع الأقطار الإسلاميّة سوى الشام ، فقد رفّه عليها ؛ لأنّها الحصن المنيع الذي كان يحمي جور الأُمويّين وظلمهم.

وقد ثار الإمام الحُسين (عليه السّلام) ليحمي اقتصاد الأُمّة ويعيد توازن حياتها المعاشية ، وقد صادر أموالاً من الخراج كانت قد أُرسلت لمعاوية ، كما صادر أموالاً أُخرى أُرسلت من اليمن إلى خزينة دمشق في أيّام يزيد ، وقد أنفقها على الفقراء والمعوزين ، وكان (عليه السّلام) أكثر ما يعاني من الآلام هو أنّه يرى الفقر قد أخذ بخناق المواطنين ، ولمْ ينفق شيء مِن بيت المال على إنعاش حياتهم.

٨ ـ المظالم الاجتماعية :

وانتشرت المظالم الاجتماعية في أنحاء البلاد الإسلاميّة ، فلم يعُد قطر من الأقطار إلاّ وهو يعجّ بالظلم والاضطهاد مِنْ جورهم ، وكان مِنْ مظاهر ذلك الظلم ما يلي :

١ ـ فقد الأمن : وانعدم الأمن [وانعدامه] في جميع أنحاء البلاد ، وساد الخوف والإرهاب على جميع المواطنين ، فقد أسرفت السّلطة الأُمويّة بالظلم ، فجعلت تأخذ البريء بالسّقيم ، والمقبل بالمدبر ، وتعاقب على الظنّة والتهمة ، وتسوق الأبرياء بغير حساب إلى السجون والقبور ، وكان الناس في عهد زياد يقولون : انج سعد فقد هلك سعيد ، ولا يوجد أحد إلاّ وهو خائف على دمه وماله ، فثار الإمام الحُسين (عليه السّلام) لينقذ الناس مِن هذا الجور الهائل.

٢ ـ احتقار الأُمّة : وكان الخط السياسي الذي انتهجه الأمويّون العمل على إذلال الأُمّة والاستهانة بها ، وكان مِنْ مظاهر ذلك الاحتقار أنّهم كانوا يختمون في أعناق المسلمين كما توسم الخيل ؛ علامة لاستعبادهم كما نقشوا على أكف المسلمين علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة [1].

وقد هب الإمام (عليه السّلام) في ميادين الجهاد ليفتح للمسلمين أبواب العزّ والكرامة ، ويحطّم عنهم ذلك الكابوس المظلم الذي أحال حياتهم إلى ظلام قاتم لا بصيص فيه من النور.

---

(١) تاريخ التمدّن الإسلامي.

٩ . المظالم الهائلة على الشيعة :

وذهبت نفس الإمام الحُسين أسى على ما عانته الشيعة . في عهد معاوية . مِن ضروب المحن والبلاء ، فقد أمعن معاوية في ظلمهم وإرهاقهم. وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وراح يقول للإمام الحُسين : يا أبا عبد الله ، علمت أنّا قتلنا شيعة أبيك فحنّطناهم وكفّناهم وصلّينا عليهم ودفناهم.[١]

وقد بذل قصارى جهوده في تصفية الحساب معهم ، وقد ذكرنا عرضاً مفصّلاً لما عانوه في عهد معاوية ، وخلاصته :

١ . إعدام أعلامهم : كحِجْر بن عَدِي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وصيفي بن فسيل وغيرهم.

٢ . صلبهم على جذوع النخل.

٣ . دفنهم أحياء.

٤ . هدم دورهم.

٥ . عدم قبول شهادتهم.

٦ . حرمانهم من العطاء.

٧ . ترويع السيّدات مِن نسائهم.

٨ . إذاعة الذعر والخوف في جميع أوساطهم.

إلى غير ذلك مِنْ صنوف الإرهاق الذي عانوه ، وقد ذُعِرَ الإمام الحُسين (عليه السلام) ممّا حلّ بهم ، فبعث بمذكرته الخطيرة لمعاوية التي سجّل فيها جرائم ما ارتكبه في حقّ الشيعة ، وقد ذكرناها في البحث عن حكومة معاوية.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٦.

لقد كانت الإجراءات القاسية التي اتّخذها الحكم الأموي ضدّ الشيعة مِنْ أسباب ثورته ، فهبّ لإنقاذهم مِن واقعهم المرير وحمايتهم مِن الجور والظلم.

١٠ . محو ذكر أهل البيت (عليهم السّلام) :

ومِن ألمع الأسباب التي ثار مِن أجلها أبو الشهداء (عليه السّلام) هو أن الحكم الأُموي قد جهد على محو ذكر أهل البيت (عليهم السّلام) واستئصال مآثرهم ومناقبهم. وقد استخدم معاوية في هذا السبيل أخبث الوسائل ، وهي :

١ . افتعال الأخبار في الحطّ مِنْ شأنهم.

٢ . استخدام أجهزة التربية والتعليم لتربية النشء على بغضهم.

٣ . معاقبة مَن يذكر مناقبهم بأقصى العقوبات.

٤ . سبّهم على المنابر والمآذن وخطب الجمعة.

وقد عقد الإمام الحُسين (عليه السّلام) مؤتمره السياسي الكبير في مكّة المكرّمة ، وأحاط المسلمين علما بالإجراءات الخطيرة التي اتّخذها معاوية إلى إزالة أهل البيت عن الرصيد الإسلامي ، وكان (عليه السّلام) يتحرّق شوقاً إلى الجهاد ، ويودّ أنّ الموت قد وافاه ولا يسمع سبّ أبيه على المنابر والمآذن.

١١ . تدمير القِيَم الإسلاميّة :

وعمد الأُمويّون إلى تدمير القِيَم الإسلاميّة ، فلمْ يعد لها أيّ ظلّ على واقع الحياة الإسلاميّة ، وهذه بعضها :

أ ـ الوحدة الإسلاميّة :

وأشاع الأُمويّون الفرقة والاختلاف بين المسلمين فأحيوا العصبيات القبلية ، وشجّعوا الهجاء بين الأُسر والقبائل العربية حتى لا تقوم وحدة بين المسلمين.

وقد شجّع يزيد الأخطل على هجاء الأنصار الذين آووا النّبي (صلّى الله عليه وآله) وحاموا عن دينه أيّام غربة الإسلام ومحنته.

لقد كانت الظاهرة البارزة في شعر ذلك العصر هي الهجاء المقذع ، فقد قصر الشعراء مواهبهم الأدبية على الهجاء والتفنن في أساليب القذف ، والسبّ للأُسر التي كانت تنافس قبائلهم.

وقد خلا الشعر الأُموي عن كلّ نزعة إنسانية أو مقصد اجتماعي ، وتفرّد بظاهرة الهجاء ، وقد خولف بذلك ما كان ينشده الإسلام من الوحدة الشاملة بين أبنائه.

ب ـ المساواة :

وهدم الأُمويّون المساواة العادلة التي أعلنها الإسلام ، فقدّموا العرب على الموالي ، وأشاعوا جوّاً رهيبا من التوتر والتكتّل السياسي بين المسلمين ، وكان مِنْ جرّاء ذلك أنْ ألّف الموالي مجموعة مِن الكتب في نقض العرب وذمهم ، كما ألّف العرب كتباً في نقض الموالي واحتقارهم ، وعلى رأس القائمة التي أثارت هذا النحو من التوتر بين المسلمين زياد بن أبيه ، فقد كان حاقداً على العرب ، وقد عهد إلى الكتاب بانتقاصهم.

وقد خالفت هذه السياسة النكراء روح الإسلام الذي ساوى بين المسلمين في جميع الحقوق والواجبات على اختلاف قومياتهم.

ج ـ الحرية :

ولمْ يعُد أيّ مفهوم للحرية ماثلاً على مسرح الحياة طيلة الحكم الأُموي ، فقد كانت السلطة تحاسب الشعب حساباً منكراً وعسيراً على كلّ بادرة لا تتفق مع رغباتها ، حتّى لمْ يعُد في مقدور أيّ أحد أنْ يطالب بحقوقه ، أو يتكلّم بأيّ مصلحة للناس ، فقد كان حكم النّطع والسيف هو السائد في ذلك العصر.

لقد ثار أبو الأحرار لينقذ الإنسان المسلم وغيره مِن الاضطهاد الشامل ، ويُعيد للناس حقوقهم التي ضاعت في أيّام معاوية ويزيد.

١٢ ـ انهيار المجتمع :

وانهار المجتمع في عصر الأُمويّين ، وتحلّل مِنْ جميع القِيَم الإسلاميّة.

أمّا أهمّ العوامل التي أدّت إلى انهياره فهي :

١ ـ حرمان المجتمع مِن التربية الروحية : فلمْ يحفل بها أحد مِن الخلفاء سوى الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، فقد عني بها عناية بالغةً ، إلاّ إنّه قد مُنِيَ بالأحداث الرهيبة التي منعته مِنْ مواصلة مسيرته في إصلاح الناس وتقويم أخلاقهم.

٢ ـ إمعان الحكم الأُموي في إفساد المجتمع وتضليله ، وتغديته بكلّ ما هو بعيد عن واقع الإسلام وهديه.

إنّ هذين العاملين ـ فيما نحسب ـ مِنْ أهم العوامل التي أدّت إلى انهيار ذلك المجتمع. أمّا مظاهر ذلك التحلّل والانهيار فهي :

١ . نقض العهود :

ولَمْ يتأثم أغلب أبناء ذلك المجتمع من نقض العهود والمواثيق ، فقد كان عدم الوفاء بها أمراً عادياً ومتسالماً عليه ، وقد شجعهم على ذلك (كسرى العرب) ، فقد أعلن في خطابه بالنّخيلة أنّ كلّ ما شرطه على نفسه للإمام الحسن لا يفي به ، وعمد إلى نقض جميع الشروط التي أعطاها له.

وكانت هذه الظاهرة مِنْ أبرز ذاتيات الكوفيين ، فقد أعطوا للإمام الحُسين أعظم العهود والمواثيق على مناصرته ومناجزة عدوّه ، إلاّ أنّهم خاسوا ما عاهدوا عليه الله فخذلوه وقتلوه.

٢ . عدم التحرّج مِن الكذب :

ومِن الأمراض التي أُصيب بها ذلك المجتمع عدم التحرّج مِن الكذب ، وقد مُنِي الكوفيون بذلك بصورة خاصة ، فإنّهم لما أحاطوا بالإمام الحُسين (عليه السّلام) يوم الطفّ لقتله ، وجّه (عليه السّلام) سؤالاً إلى قادة الفرق الذين كاتبوه بالقدوم إليهم ، فقال : «يا شبث بن ربعي ، ويا حجّار بن أبجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا زيد بن الحرث ، ألَمْ تكتبوا إليّ أنْ قد أينعت الثمار ، واخضرّ الجناب ، وإنّما تقدم على جند لك مجنّدة».

ولَمْ تخجلْ تلك النفوس القذرة مِنْ تعمّد الكذب ، فأجابوه مجمعين : لم نفعل.

وبُهِرَ الإمام فاندفع يقول : «سُبحان الله! بلى والله لقد فعلتم».

وقد جرّوا إلى المجتمع بما اقترفوه مِن الآثام كثيراً مِن الويلات والخطوب ، وتسلّح بهم أئمّة الظلم والجور إلى اضطهاد المسلمين وإرغامهم على ما يكرهون.

٣ . عرض الضمائر للبيع :

وقد كان مِنْ أحطّ ما وصل إليه ذلك المجتمع مِن الانحراف والزيغ عرض الضمائر والأديان لبيعها على السّلطة جهاراً ، وقد ألمعنا إلى ذلك بصورة مفصّلة عند البحث عن عهد معاوية.

٤ . الإقبال على اللّهو :

وأقبل المجتمع بِنَهَمٍ على اللّهو والدعارة ، وقد شجّع الأُمويّون بصورة مباشرة حياة المجون لزعزعة العقيدة الدينية مِن النفوس ، وصرف الناس عمّا ينشده الإسلام مِن التوازن في سلوك الفرد.

هذه بعض الأمراض التي ألمت بالمجتمع الإسلامي ، وقد أدّت إلى تسيّبه وانهيار قِيَمِه.

وقد ثار الإمام الحُسين (عليه السّلام) ليقضي على التذبذب والانحراف الذي مُنِيَت به الأُمّة.

١٣ . الدفاع عن حقوقه :

وانبرى الإمام الحُسين (عليه السّلام) للجهاد دفاعاً عن حقوقه التي نهبها الأُمويّون واغتصبوها ، وأهمها . فيما نحسب . ما يلي :

١ . الخلافة :

وآمن الإمام الحُسين (عليه السّلام) كأبيه أن العترة الطاهرة أولى بمقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأحقّ بمركزه مِنْ غيرهم ؛ لأنّهم أهل بيت النّبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ، بهم فتح الله وبهم ختم . على حدّ تعبيره . وقد طبع على هذا الشعور وهو في غضون الصبا. فقد انطلق إلى عمر وكان على منبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فصاح به : «انزل عن منبر أبي ، واذهب إلى منبر أبيك».

ولمْ ينفرد الإمام الحُسين بهذا الشعور ، وإنّما كان سائداً عند أئمّة أهل البيت (عليهم السّلام) ، فهم يرون أن الخلافة مِنْ حقوقهم ؛ لأنّهم ألصق الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأكثرهم وعيا لأهدافه.

وهناك شيء آخر جدير بالاهتمام وهو أن الحُسين (عليه السّلام) كان هو الخليفة الشرعي بمقتضى معاهدة الصلح التي تمّ الاتفاق عليها ، فقد جاء في بنودها : ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد مِنْ بعده ، والأمر بعده للحسن ، فإنْ حدث به حدث فالأمر للحُسين [1].

وعلى هذا فلم تكن بيعة يزيد شرعية. فلم يخرج الإمام الحُسين (عليه السّلام) على إمام مِن أئمّة المسلمين كما يذهب لذلك بعض ذوي النزعات الأُمويّة ، وإنّما خرج (عليه السّلام) على ظالم مغتصب لحقّه.

٢ . الخُمس :

والخمس حق مفروض لأهل البيت (عليهم السّلام) نصّ عليه القرآن وتواترت به السنّة ، ولكن الحكومات السابقة تناهبته فلم تؤد لهم منه شيئا ؛ لشل حركة المقاومة عند العلويين، وقد أشار الإمام الحُسين (عليه السّلام) إلى ذلك في

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٢٨٨ الطبعة الثانية.

حديثه مع أبي هرّة الذي نهاه عن الخروج على بني أُميّة ، فقال (عليه السّلام) له :

«ويحك أبا هرة! إن بني أُميّة أخذوا مالي فصبرت».

وأكبر الظن أن المال الذي أخذته بنو أُميّة منه هو الخمس ، وقد أعلن ذلك دعبل الخزاعي في رائعته التي انشدها أمام الرضا (عليه السّلام) في خراسان بقوله :

أرى فيئهم في غيرِهم متقسّماً وأيديهم مِن فيئِهم صفرات

والتاع الإمام الرضا (عليه السّلام) فجعل يقلّب يديه وهو يقول : «إنّها والله لصفرات». وقد أقضّ مضاجع العلويين منعهم من الخمس ؛ باعتباره أحد المصادر الرئيسية لحياتهم الاقتصادية.

ولعل الإمام الحُسين قد استهدف بنهضته ارجاع هذا الحق السليب لأهل البيت (عليهم السّلام).

١٤ . الأمر بالمعروف :

ومِن أوكد الأسباب التي ثار مِن أجلها أبي الضيم (عليه السّلام) إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإنّهما مِنْ مقوّمات هذا الدين ، والإمام بالدرجة الأولى مسؤول عنهما.

وقد أدلى (عليه السّلام) بذلك في وصيته لأخيه ابن الحنفيّة التي أعلن فيها عن أسباب خروجه على يزيد ، فقال (عليه السّلام) : «إني لم أخرج أشِراً ولا بطراً ، ولا ظالماً ولا مفسداً ، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي ؛ أريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

لقد انطلق (عليه السّلام) إلى ميادين الجهاد ليقيم هذا الصرح الشامخ الذي بُنيت عليه الحياة الكريمة في الإسلام ، وقد انهارت دعائمه أيّام الحكم الأُموي ، فقد أصبح المعروف في عهدهم منكراً والمنكر معروفاً ، وقد

أنكر عليهم الإمام في كثير مِن المواقف ، والتي كان مِنها خطابه الرائع أمام المهاجرين والأنصار ، فقد شجب فيه تخاذلهم عن نصرة الحقّ ودحض الباطل وإيثارهم للعافية ، وقد ذكرناه في الحلقة الأولى مِن هذا الكتاب.

وممّا قاله (عليه السّلام) في هذا المجال أمام أصحابه وأهل بيته يوم الطفّ : «ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟! ليرغب المؤمن في لقاء ربّه».

لقد آثر الموت على الحياة ؛ لأنّه يرى الحق قد تلاشى والباطل قد استشرى.

١٥ . إماتة البدع :

وعمد الحكم الأُموي إلى نشر البدع بين المسلمين ، التي لمْ يقصد منها إلاّ محق الإسلام وإلحاق الهزيمة به. وقد أشار الإمام (عليه السّلام) إلى ذلك في رسالة بعثها لأهل البصرة ، يقول (عليه السّلام) : «فإنّ السنّة قد أُميتت ، والبدعة قد أُحييت» [١].

لقد ثار (عليه السّلام) ليقضي على البدع الجاهلية التي تبنّاها الأُمويون ، ويحيي سنّة جدّه التي أماتوها ، فكانت نهضته الخالدة مِنْ أجل إماتة الجاهلية ونشر راية الإسلام.

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٠.

١٦ ـ العهد النّبوي :

واستشف النّبي (صلّى الله عليه وآله) مِنْ وراء الغيب ما يُمنى به الإسلام مِن الأخطار الهائلة على أيدي الأُمويِّين ، وإنّه لا يمكن بأيّ حالٍ تجديد رسالته وتخليد مبادئه إلاّ بتضحية ولده الإمام الحُسين (عليه السّلام) ؛ فإنّه هو الذي يكون الدرع الواقي لصيانة الإسلام ، فعهد إليه بالتضحية والفداء.

وقد أدلى الحُسين بذلك حينما عذله المشفقون عليه مِن الخروج إلى العراق ، فقال (عليه السّلام) لهم : «أمرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بأمر وأنا ماض إليه».

ويقول المؤرّخون : إن النّبي (صلّى الله عليه وآله) كان قد نعى الحُسين إلى المسلمين وأحاطهم علماً بشهادته وما يعانيه مِنْ أهوال المصائب ، وكان ـ باستمرار ـ يتفجّع عليه ويلعن قاتله ، وكذلك أخبر الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) بشهادته وما يجري عليه ، وقد ذكرنا في الحلقة الأولى مِن هذا الكتاب الأخبار المتواترة بذلك.

وكان الإمام الحُسين (عليه السّلام) على علم وثيق بما يجري عليه ، فقد سمع ذلك مِنْ جدّه وأبيه وقد أيقن بالشهادة ، ولمْ يكن له أيّ أمل في الحياة ، فمشى إلى الموت بعزم وتصميم امتثالاً لأمر جدّه الذي عهد إليه بذلك.

١٧ ـ العزة والكرامة :

ومِن أوثق الأسباب التي ثار مِن أجلها أبو الأحرار هو العزّة والكرامة ، فقد أراد الأُمويّون إرغامه على الذلّ والخنوع ، فأبى إلاّ أنْ يعيش عزيزاً تحت ظلال السيوف والرماح ، وقد أعلن سلام الله عليه ذلك يوم الطف بقوله : «ألا وإن الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين : بين السلّة والذلّة ،

وهيهات منّا الذلّة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله ، ونفوسٌ أبيّة وأنوفٌ حميّة مِنْ أنْ نؤثِرَ طاعة اللئام على مصارع الكرام». وقال (عليه السّلام) : «لا أرى الموت إلاّ سعادة ، والحياة مع الظالمين إلاّ برما».

لقد عانق الموت بثغر باسم في سبيل إبائه وعزّته ، وضحّى بكلّ شيء مِن أجل حريته وكرامته.

١٨ ـ غدر الأُمويِّين وفتكهم :

وأيقن الإمام الحُسين (عليه السّلام) أنّ الأُمويِّين لا يتركونه ، ولا تكفّ أيديهم عن الغدر والفتك به حتّى لو سالمهم وبايعهم ، وذلك لما يلي :

١ ـ إنّ الإمام كان ألمع شخصية في العالم الإسلامي ، وقد عقد له المسلمون في دخائل نفوسهم خالص الودّ والولاء ؛ لأنّه حفيد نبيّهم وسيد شباب أهل الجنّة ، ومِن الطبيعي أنّه لا يروق للأمويين وجود شخصية تتمتّع بنفوذ قوي ومكانة مرموقة في جميع الأوساط ، فإنّها تشكّل خطراً على سلطانهم وملكهم.

٢ ـ إن الأُمويِّين كانوا حاقدين على النّبي (صلّى الله عليه وآله) ؛ لأنّه وترهم في واقعة بدر وألحق بهم الهزيمة والعار ، وكان يزيد يترقّب الفرص للانتقام مِنْ أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) ؛ ليأخذ ثارات بدر منهم.

ويقول الرواة إنّه كان يقول :

لست مِن خندف إن لم أنتقم مِن بني أحمد ما كان فعل

ولما استوفى ثاره وروّى أحقاده بإبادتهم ، أخذ يترنّم ويقول :

قد قتلنا القرمَ مِنْ ساداتهمْ وعدلناه ببدر فاعتدل

٣ ـ إنّ الأُمويِّين قد عُرِفُوا بالغدر ونقض العهود ؛ فقد صالح الحسن معاوية ، وسلّم إليه الخلافة ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدسّ إليه سمّاً فقتله ، وأعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به.

وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم.

وقد أعلن الإمام الحُسين (عليه السّلام) أن بني أُميّة لا يتركونه. يقول (عليه السّلام) لأخيه محمّد بن الحنفية : «لو دخلت في جحر هامة مِن هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني».

وقال (عليه السّلام) لجعفر بن سليمان الضبعي : «والله ، لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة ـ يعني قلبه الشريف ـ مِن جوفي». واختار (عليه السّلام) أن يعلن الحرب ويموت ميتة كريمة تهزّ عروشهم ، وتقضي على جبروتهم وطغيانهم.

هذه بعض الأسباب التي حفّزت أبا الأحرار إلى الثورة على حكم يزيد.

رأي رخيص :

ووصف جماعة مِن المتعصّبين لبني أُميّة خروج الإمام على يزيد بأنّه كان مِن أجل المُلْك والظفر بخيرات البلاد ، وهذا الرأي ينمّ عن حقدهم على الإمام بما أحرزه مِن الانتصارات الرائعة في نهضته المباركة التي لمْ يظفر بمثل معطياتها أيّ مصلح اجتماعي في الأرض ، وقد يكون لبعضهم العذر لجهلهم بواقع النهضة الحسينيّة وعدم الوقوف على أسبابها.

لقد كان الإمام على يقين بإخفاق ثورته في الميادين العسكرية ؛ لأن خصمه كان يدعمه جند مكثّف أُولوا قوّة وأُولوا بأس شديد ، وهو لمْ تكن عنده أيّة قوّة عسكرية ليحصل على المُلْك ، ولو كان المُلْك غايته كما يقولون لعاد

إلى الحجاز ، أو مكان آخر حينما بلغه مقتل سفيره مسلم بن عقيل وانقلاب الكوفة عليه ، ويعمل حينئذ مِن جديد على ضمان غايته ونجاح مهمّته. لقد كان الإمام (عليه السّلام) على علم بأنّ الأوضاع السائدة كلّها كانت في صالح بني أُميّة ، وليس منها ممّا يدعمه أو يعود لصالحه.

يقول ابن خلدون : إن هزيمة الحُسين كانت أمرا محتّما ؛ لأن الحُسين لم تكن له الشوكة التي تمكّنه مِن هزيمة الأُمويّين ؛ لأنّ عصبية مضر في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف ، وعصبية عبد مناف في بني أُميّة ، فعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس لا ينكرونه [1].

لقد كانت ثورة الإمام مِنْ أجل غاية لا يفكّر بها أولئك الذين فقدوا وعيهم واختيارهم ، فقد كان خروجه على حكم يزيد مِن أجل حماية المُثُل الإسلاميّة والقِيَم الكريمة مِن الأُمويّين الذين حملوا معول الهدم.

يقول بعض الكتاب المعاصرين : ويحق لنا أن نسأل ماذا كان هدف الحُسين (عليه السّلام) ، وماذا كانت القضية التي يعمل مِن أجلها؟

أمّا لو كان هدفه شخصيّا يتمثّل في رغبته في إسقاط يزيد ليتولى هو بنفسه الخلافة التي كان يطمع إليها ، ما وجدنا فيه هذا الإصرار على التقدّم نحو الكوفة رغم وضوح تفرّق الناس مِنْ حوله ، واستسلامهم لابن زياد وحملهم السلاح في أعداد كثيرة لمواجهته والقضاء عليه.

إن أقصر الناس نظرا كان يدرك أن مصيره لن يختلف عمّا آل إليه فعله ، ولو كان الحُسين بهذه المكانة مِن قصر النظر لعاد إلى مكّة ليعمل مِن جديد للوصول إلى منصب الخلافة. ولو كان هدفه في أول الأمر الوصول إلى منصب الخلافة ثم لما بلغه مصرع ابن عمّه وقرّوا صلة السفر للثأر

---

(١) المقدمة / ١٥٢.

مِن قاتليه ـ كما يزعم بعض الباحثين ـ استجابة لقضية أهله وأقاربه. لو كان هذا هدفه لأدرك أن جماعته التي خرجت معه للثأر وهي لا تزيد على التسعين ؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً ، لنْ تصل إلى شيء مِنْ ذلك مِنْ دون أنْ يقضى على أفرادها جميعاً ، وبغير أنْ يضحّي هو بنفسه ضحيّة رخيصة في ميدان الثأر.

ومِنْ ثمّ يكون مِنْ واجبه للثأر أنْ يرجع ليعيد تجميع صفوف أنصاره وأقربائه ، ويتقدّم في الجمع العظيم مِن الغاصبين والموتورين.

فالقضية إذاً ليست قضية ثأر ، والهدف ليس هدفاً شخصيّاً ، وإنّما الأمر أمر الأُمّة ، والقضية كانت للحقّ ، والإقدام إقدام الفدائي الذي أراد أنْ يُضربَ المثل بنفسه في البذل والتضحية ، ولمْ يكن إصرار الحُسين على التقدّم نحو الكوفة بعد ما علم مِن تخاذل أهلها ونكوصهم عن الجهاد إلا ليجعل مِن استشهاده علماً تلتف حوله القلّة التي كانت لا تزال تؤمن بالمثُل ، وتلتمس في القادة مَنْ يُنير لها طريق الجدّ في الكفاح ، وتحريكاً لضمائر المتخاذلين القاعدين عن صيانة حقوقهم ورعاية صوالحهم.

وألمّ هذا القول بالواقع المشرق الذي ناضل مِنْ أجله الإمام الحُسين ، فهو لمْ يستهدف أي مصلحة ذاتية ، وإنّما استهدف مصلحة الأُمّة وصيانتها مِن الأُمويِّين.

تخطيط الثورة :

ودرس الإمام الحُسين (عليه السّلام) أبعاد الثورة بعمق وشمول ، وخطّط أساليبها بوعي وإيمان ، فرأى أنْ يزجَّ بجميع ثقله في المعركة ويضحّي بكلّ شيء ؛ لإنقاذ الأُمّة مِنْ محنتها في ظلّ ذلك الحكم الأسود الذي تنكّر لجميع متطلبات الأُمّة.

وقد أدرك المستشرق الألماني (ماربين) تخطيط الإمام

الحُسين لثورته ، فاعتبر أنّ الحُسين قد توخّى النصر منذ اللحظة الأولى وعلم النصر فيه ، فحركة الحُسين في خروجه على يزيد ـ كما يقول ـ إنّما كانت عزمة قلب كبير عزّ عليه الإذعان ، وعزّ عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة.

لقد أيقن أبو الشهداء (عليه السّلام) أن القضية الإسلاميّة لا يمكن أن تنتصر إلا بفخامة ما يقدّمه مِن التضحيات ، فصمّم بعزم وإيمان على تقديم أروع التضحيات ، وهذه بعضها :

١ ـ التضحية بنفسه :

وأعلن الإمام (عليه السّلام) عن عزمه على التضحية بنفسه فأذاع ذلك في مكّة ، فأخبر المسلمين أنّ أوصالَه سوف تتقطّع بين النواويس وكربلاء ، وكان في أثناء مسيرته إلى العراق يتحدّث عن مصرعه ، ويشابه بينه وبين أخيه يحيى بن زكريا ، وأنّ رأسه الشريف سوف يُرفع إلى بغي مِنْ بغايا بني أُميّة ، كما رُفِعَ رأس يحيى إلى بغي مِنْ بغايا بني إسرائيل.

لقد صمّم على الموت ، واستهان بالحياة مِنْ أجل أنْ تُرتفع راية الحقّ ، وتعلو كلمة الله في الأرض ، وبقي صامداً على عزمه الجبّار ، فلم يرتهب حينما أحاطت به الجيوش الهائلة وهي تُبيد أهل بيته وأصحابه في مجزرة رهيبة اهتزّ مِنْ هولها الضمير الإنساني ، وقد كان في تلك المحنة الحازبة مِنْ أربط الناس جأشاً وأمضاهم جناناً ، فلمْ يرَ قبله ولا بعده شبيهاً له في شدّة بأسه وقوة عزيمته ، كما لا يعرف التاريخ في جميع مراحله تضحية أبلغ أثرا في

حياة الناس مِن تضحيته (عليه السّلام) ، فقد بقيت صرخة مدوّية في وجوه الظالمين والمتسبدّين.

٢ . التضحية بأهل بيته (عليهم السّلام) :

وأقدم أبو الشهداء (عليه السّلام) على أعظم تضحية لم يقدّمها أي مصلح اجتماعي في الأرض ، فقد قدّم أبناءه وأهل بيته وأصحابه فداءً لما يرتأيه ضميره مِنْ تعميم العدل وإشاعة الحقّ والخير بين الناس.

وقد خطّط هذه التضحية وآمن بأنّها جزء مِنْ رسالته الكبرى ، وقد أذاع ذلك وهو في يثرب حينما خفّت إليه السيّدة أم سلمة زوج النّبي تعدله عن الخروج ، فأخبرها عن قتله وقتل أطفاله. وقد مضى إلى ساحات الجهاد وهو متسلّح بهذا الإيمان ، فكان يشاهد الصفوة مِنْ أصحابه الذين هم مِنْ أنبل مَنْ عرفتهم الإنسانية في ولائهم للحقّ وهم يتسابقون إلى المنيّة بين يديه ، ويرى الكواكب مِن أهل بيته وأبنائه وهم في غضارة العمر وريعان الشباب وقد تناهبت أشلاءهم السيوفُ والرماحُ ، فكان يأمرهم بالثبات والخلود إلى الصبر قائلاً : «صبراً يا بني عمومتي ، صبراً يا أهل بيتي ، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً».

واهتزّ الدنيا مِن هول هذه التضحية التي تمثّل شرف العقيدة وسمو القصد ، وعظمة المبادئ التي ناضل مِنْ أجلها ، وهي من دون شك ستبقى قائمة على ممرّ القرون والأجيال تضيء للناس الطريق ، وتمدّهم بأروع الدروس عن التضحية في سبيل الحقّ والواجب.

٣ . التضحية بأمواله :

وضحى أبي الضيم بجميع ما يملك فداء للقرآن ووقاية لدين الله ، وقد هجمت بعد مقتله الوحوش الكاسرة مِن جيوش الأُمويّين على مخيّمه فتناهبوا ثقله ومتاعه حتى لم يتركوا ملحفة أو إزاراً على مخدرات الرسالة إلاّ نهبوه ، ومثّلوا بذلك خسّة الإنسان حينما يفقد ذاتياته ويُمسخ ضميره.

٤ . حمل عقائل النّبوة :

وكان مِن أروع ما خطّطه الإمام العظيم (عليه السّلام) في ثورته الكبرى حمله لعقائل النّبوة ومخدّرات الرسالة إلى كربلاء ، وهو يعلم ما سيجري عليهنّ مِنْ النّكبات والخطوب ، وقد أعلن ذلك حينما عذله ابن عباس عن حملهنّ معه إلى العراق ، فقال له : «قد شاء الله أن يراهنَّ سبايا».

لقد أراد (عليه السّلام) بذلك أنْ يستكمل أداء رسالته الخالدة في تحرير الأُمّة ، وإنقاذها مِن الاستبعاد الأُموي. وقد قمْنَ تلك السيدات بدور مشرق في إكمال نهضة أبي الشهداء (عليه السّلام) فأيقظنَ المجتمع بعد سباته ، وأسقطنَ هيبة الحكم الأُموي وفتحن باب الثورة عليه ، ولولاهن لم يتمكن أحد أن يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر.

وقد أدرك ذلك كلّ مَنْ تأمّل في نهضة الإمام ودرس أبعادها. وقد ألمع إليها بعض العلماء والكتّاب ، وفيما يلي بعضهم :

١ . الإمام كاشف الغطاء :

وأكّد الإمام الشيخ محمّد الحُسين آل كاشف الغطاء (رحمه الله) في كثير مِن مؤلفاته أن الغاية مِنْ خروج الإمام بعائلته إلى كربلاء إكمالاً لنهضته ، وبلوغاً إلى هدفه في تحطيم دولة الأُمويِّين ، يقول : وهل تشك وترتاب في أن الحُسين (عليه السّلام) لو قُتِل هو وولْده ولم يتعقّبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جباراً ، ولمْ يطلب به أحد ثاراً ولضاع دمه هدراً ، فكان الحُسين يعلم أنّ هذا علم لابد منه ، وأنّه لا يقوم به إلاّ تلك العقائل فوجب عليه حتماً أنْ يحملهنَّ معه ؛ لا لأجل المظلومية بسبيهنَّ فقط ، بل لنظر سياسي وفكر عميق وهو تكميل الغرض وبلوغ الغاية مِنْ قلب الدولة على يزيد ، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أنْ تقضي على الإسلام وتعود الناس إلى جاهليتها الأولى [1].

٢ . أحمد فهمي :

يقول الأُستاذ السيّد أحمد فهمي : وقد أدرك الحُسين أنّه مقتول ؛ إذ هو يعلم علم اليقين قُبْح طويّة يزيد ، وإسفاف نحيزته وسوء سريرته ، فيزيد بعد قتل الحُسين ستمتد يده إلى أنْ يؤذي النّبي (صلّى الله عليه وآله) في سلالته مِنْ قتل الأطفال الأبرياء وانتهاك حرمة النساء ، وحملهنَّ ومَنْ بقي مِن الأطفال مِنْ قفرةٍ إلى قفرةٍ ومِنْ بلدٍ إلى بلدٍ ، فيُثير مرأى أولئك حفيظة المسلمين ، فليس ثمّة أشنع ولا أفظع مِن التشفّي والانتقام مِن النساء والأطفال بعد قتل الشباب والرجال ، فهو بخروجه بتلك الحالة أراد أن يثأر

---

(١) تحدّث الإمام كاشف الغطاء عن هذه الجهة بالتفضيل في كتابه (السياسة الحسينيّة).

مِن يزيد في خلافته ويقتله في كرامته ، وحقّاً لقد وقع ما توقّعه ، فكان لما فعله يزيد وعصبته مِنْ فظيع الأثر في نفوس المسلمين ، وزاد في أضغانهم ما عرضوا به سلالة النّبوة مِنْ هتك خدر النساء ، وهنَّ اللاتي ما عُرِفْنَ إلاّ بالصيانة والطهر والعزّ والمنعة ، ممّا أطلق ألسِنَة الشعراء بالهجاء والذمّ ، ونفر أكثر المسلمين مِنْ خلافة الأُمويّين ، وأسخط عليهم قلوب المؤمنين ، فقد قتله الحُسين أشدّ مِن قتله إيّاه (١).

٣ . أحمد محمود صبحي :

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي : ثم رفض . يعني الحُسين . إلا أن يصحب أهله ؛ ليشهد الناس على ما يقترفه أعداؤه بما لا يبرّره دين ولا وزاع مِنْ إنسانية ، فلا تضيع قضيته مع دمه المراق في الصحراء فيفترى عليه أشد الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على كل ما جرى بينه وبين أعدائه.

تقول الدكتورة بنت الشاطئ : أفسدت زينت أخت الحُسين على ابن زياد وبني أُميّة لذّة النصر ، وسكبت قطرات مِن السمّ الزعاف في كؤوس الظافرين ، وإنّ كلّ الأحداث السياسية التي ترتّبت بعد ذلك مِنْ خروج المختار وثورة ابن الزّبير ، وسقوط الدولة الأُمويّة وقيام الدولة العباسية ، ثمّ تأصل مذهب الشيعة إنّما كانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته (٢).

أريد أن أقول : ماذا يكون الحال لو قُتِل الحُسين ومَن معه جميعا مِن الرجال؟ ألا يسجّل التاريخ هذه الحادثة الخطيرة مِن وجهة نظر أعدائه

(١) ريحانة الرسول / ١٦٧.

(٢) بطلة كربلاء / ١٧٦ و ١٨٠.

فيضيع كل أثر لقضيته مع دمه المسفوك في الصحراء؟ (١)

هذه بعض الآراء التي تدعم ما ذكرناه مِن أن خروج الحُسين (عليه السّلام) بعائلته لم يكن الغرض منه إلاّ بلورة الرأي العام ، وإيضاح المقاصد الرفيعة التي ثار مِنْ أجلها ، ومِنْ أهمها القضاء على دولة الأُمويّين التي كانت تشكّل خطرا مباشرا على العقيدة الإسلاميّة.

وهناك رأي آخر أدلى به العلاّمة المغفور له الشيخ عبد الواحد المظفر ، وهو : أن الحُسين إنّما خرج بعائلته خوفاً عليها مِنْ اعتقال الأُمويّين وزجّها في سجونهم قال : الحسين لو أبقى النساء في المدينة لوضعت السلطة الأُمويّة عليها الحَجْر ، لا بل اعتقلتها علناً وزجّتها في ظلمات السجون ، ولا بد له حينئذ مِنْ أحد أمرين خطيرين ، كلّ منهما يشلّ أعضاء نهضته المقدسة :

أمّا الاستسلام لأعدائه وإعطاء صفقته لهم طائعا ليستنقذ العائلة المصونة ، وهذا خلاف الإصلاح الذي ينشده ، وفرض على نفسه القيام به مهما كلّفه الأمر مِن الأخطار ، أو يمضي في سبيل إحياء دعوته ، ويترك المخدّرات اللّواتي ضرب عليهن الوحي ستراً مِن العظمة والإجلال ، وهذا ما لا تطيق احتماله نفس الحُسين الغيور ، ولا يردع أُميّة رادع من الحياء ، ولا يزجرها زاجر من الإسلام.

إنّ أُميّة لا يهمّها اقتراف الشائن في بلوغ مقاصدها وإدراك غاياتها ، فتتوصل إلى غرضها ولو بارتكاب أقبح المنكرات الدينية والعقلية.

ألمْ يطرق سمعك سجن الأُمويّين لزوجة عمرو بن الحمق الخزاعي ، وزوجة عبيد الله بن الحر الجعفي ، وأخيراً زوجة الكميت الأسدي؟! (٢)

---

(١) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية / ٣٤٣.

(٢) توضيح الغامض من أسرار السنن والفرائض / ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد حطّم الإمام بخروجه لعائلته جميع مخطّطات السياسة الأُمويّة ، ونسف جميع ما أقامه معاوية من معالم الظلم.

فقد قمْنَ عقائل الوحي بدور فعال ببثّ الوعي الاجتماعي ، وتعريف المجتمع بواقع الأُمويِّين ، وتجريدهم من الإطار الديني ، ولولاهنَّ لاندرست معالم ثورة الحُسين وذهبت أدراج الرياح.

إن مِن ألمع الأسباب في استمرار خلود مأساة الإمام الحُسين (عليه السّلام) ، واستمرار فعالياتها في بثّ الإصلاح الاجتماعي على امتداد التاريخ ، هو حمل ودائع الرسالة وعقائل الوحي مع الإمام ، فقد قمْنَ بدور مشرق ببلورة الرأي العام ، فحملنَ راية الإيمان التي حملها الإمام العظيم ، ونشرنَ مبادئه العليا التي استشهد مِن أجلها.

فقد انبرت حفيدة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وشقيقة الحُسين السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين (عليه السّلام) إلى ساحات الجهاد ، وهي تدكُّ حصونَ الظالمين وتدمّر جميع ما أحرزوه مِن الانتصارات في قتل أخيها ، وتلحق بهم الهزيمة والعار وتملأ بيوتهم مأساة وحزنا.

لقد أقبلت قائدة المسيرة الحسينيّة عقيلة الوحي زينب (عليها السّلام) إلى ساحة المعركة وهي تشقّ صفوف الجيش ، تفتّش عن جثمان أخيها الإمام العظيم ، فلمّا وقفت عليه شخصت لها أبصار الجيش واستحال إلى سمع ، فماذا تقول أمام هذه الخطوب المذهلة التي تواكبت عليها؟

إنّها وقفت عليه غير مدهوشة ولمْ تذهلها الرزايا التي تميد منها الجبال ، فشخصت ببصرها إلى السّماء وهي تقول بحماسة الإيمان وحرارة العقيدة : اللّهم تقبّل منّا هذا القربان.

وأطلقت بذلك أوّل شرارة للثورة على الحكم الأُموي بعد أخيها ، ودّ الجيش أنْ تسيخ به الأرض ؛ فقد استبان له عِظَمُ ما اقترفه مِن الإثم ، وإنّه قد أباد

عناصر الإسلام ومراكز الوعي والإيمان.

ولما اقتربت سبايا أهل البيت (عليهم السّلام) إلى الكوفة خرجت الجماهير الحاشدة لاستقبال السبايا ، فخطبت فيهم عقيلة الوحي خطاباً مثيراً ومذهلاً ، وإذا بالناس حيارى لا يعون ولا يدرون ، قد استحالت بيوتهم إلى مآتم وهم يندبون حظّهم التعيس ويبكون على ما اقترفوه مِن الجرم ، وحينما انتهت إلى دار الإمارة استقبلها الطاغية متشفّياً بأحطّ وأخس ما يكون التشفّي قائلا : كيف رأيت صنع الله بأخيك؟

وانطلقت عقيلة بني هاشم ببسالة وصمود فأجابته بكلمات النصر والظفر قائلة : ما رأيت إلا جميلاً ، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أُمّك يابن مرجانة.

وأخزت هذه الكلمات ابن مرجانة فكانت أشق عليه مِن ضرب السيوف وطعن الرماح. ولمّا انتهت إلى الشام هزّت العرش الأُموي بخطابها المثير الرائع ، وحقّقت بذلك مِن النصر ما لمْ تحقّقه الجيوش.

لقد كان حمل الإمام الحُسين (عليه السّلام) لعائلته قائما على أساس مِن الوعي العميق الذي أحرز به الفتح والنصر.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض أسباب الثورة الحسينيّة ومخططاتها.

في مكّة

وبعدما أعلن الإمام الحُسين (عليه السّلام) رفضه الكامل لبيعة يزيد اتجّه مع أهل بيته إلى مكّة التي هي حرم الله وحرم رسوله ؛ عائذا ببيتها الحرام الذي فرض فيه تعالى الأمن والطمأنينة لجميع العباد.

لقد اتّجه إلى هذا البلد الأمين ؛ ليكون بمأمن مِنْ شرور الأُمويّين واعتداءاتهم.

ويقول المؤرّخون : إنّه خرج ليلة الأحد لليلتين بقيتا مِن رجب سنة (٦٠ هـ) [١] ، وقد خيّم الذعر على المدنيين حينما رؤوا آل النّبي (صلّى الله عليه وآله) ينزحون عنهم إلى غير مآب.

وفصل الركب مِنْ يثرب وهو جادّ في مسيرته ، وكان الإمام (عليه السّلام) يتلو قوله تعالى : «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». لقد شبّه خروجه بخروج موسى على فرعون زمانه ، وكذلك قد خرج على طاغية زمانه فرعون هذه الأُمّة ؛ ليقيم الحق ويبني صروح العدل ، وسلك الطريق العام الذي يسلكه الناس مِن دون أن يتجنّب عنه.

وأشار عليه بعض أصحابه أن يحيد عنه كما فعل ابن الزّبير مخافة أن يدركه الطلب مِن السلطة في يثرب ، فأجابه (عليه السّلام) بكل بساطة وثقة في النفس قائلا : «لا والله ، لا فارقت هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكّة ، أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى».

لقد رضي بكلّ قضاء يبرمه الله ، ولمْ يضعف ولمْ توهن عزيمته الأحداث الهائلة التي لا يطيقها أيّ إنسان ، وكان يتمثّل في أثناء مسيره

---

(١) خطط المقريزي ٢ / ٢٨٥ ، المنتظم لابن الجوزي ، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، وفي الفتوح ٥ / ٣٤ أنّه خرج لثلاث ليال مضين من شعبان.

بشعر يزيد بن المفرغ :

لا ذُعرت السَّوام في فلق الصبح مغيرا ولا دُعيت يزيدا
يوم أُعطي مِن المهانة ضيما والمنايا ترصدنني أن أحيدا [1]

لقد كان على ثقة أن المنايا ترصده مادام مصمّما على عزمه الجبّار في أن يعيش عزيزا لا يُضام ، ولا يُذلّ ولا يخضع لحكم يزيد.

ويقول بعض الرواة : إنّه كان في مسيرته ينشد هذه الأبيات :

إذا المرء لم يحم بنيه وعرسَه ونسوتَه كان اللئيم المسببا
وفي دون ما يبغي يزيد بنا غدا نخوض حياض الموت شرقا ومَغرِبا
ونضرب ضربا كالحريق مقدما إذا ما رآه ضيغم راح هاربا

ودل هذا الشعر على مدى عزمه على أن يخوض حياض الموت ؛ سواء أكانت في المشرق أم في المغرب ولا يبايع يزيد بن معاوية.

مع عبد الله بن مطيع :

واستقبله في أثناء الطريق عبد الله بن مطيع العدوي ، فقال له : أين تريد أبا عبد الله؟ جعلني الله فداك.

ـ «أمّا في وقتي هذا أُريد مكّة ، فإذا صرت إليها استخرت الله في أمري بعد ذلك».

ـ خار الله لك يابن بنت رسول الله فيما قد عزمت عليه ، إنّي أشير عليك بمشورة فاقبلها مني.

ـ «ما هي؟».

---

(١) تاريخ الطبري.

ـ إذا أتيت مكّة فاحذر أنْ يغرّك أهل الكوفة ؛ فيها قُتِلَ أبوك ، وأخوك طعنوه بطعنة كادت أنْ تأتي على نفسه ، فالزم الحرم فإنّك سيد العرب في دهرك ، فو الله لئن هلكت ليهلكن أهل بيتك بهلاكك.

وشكره الإمام وودّعه ودعا له بخير [١] ، وسار موكب الإمام يجدّ السير لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى مكّة ، فلمّا نظر الإمام (عليه السّلام) إلى جبالها تلا قوله تعالى : «وَلَمّا تَوَجّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السّبِيلِ» [٢].

---

(١) المنتظم ـ ابن الجوزي ـ الجزء الخامس ، الفتوح ٥ / ٣٤ ، وجاء في تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٥٥ أن الحُسين مر بابن مطيع وهو يحفر بئراً ، فقال له : إلى أين فداك أبي وأمي ، فقال له : «أردت مكّة». وذكر له كتب أهل الكوفة إليه ، فقال ابن مطيع : فداك أبي وأمي! متّعنا بنفسك ولا تسر إليهم. فأبى الحُسين. ثم قال له ابن مطيع : إن بئري هذه قد رسحتها ، وهذا اليوم أوان تمامها قد خرج إلينا في الدلو شيء مِن مائها ، فلو دعوت الله لنا فيها بالبركة ، فقال (عليه السّلام) : «هات مِن مائها». فأتاه منه فشرب منه وتمضمض وردّه في البئر ، فعذب ماؤها. وجاء في وسيلة المال في عد مناقب الآل ـ صفي الدين / ١٨٥ : أن عبد الله لقى الحُسين (عليه السّلام) فقال له : جعلت فداك أين تريد؟ فقال : «أمّا الآن فمكّة ، وأمّا بعدها فأستخير الله». فقال : خار الله لك وجعلنا فداك! الزم الحرم فإنّك سيد العرب ، لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ، وتتداعى إليك الناس مِنْ كلّ جانب. لا تفارق الحرم فداك عمّي وخالي ، فوالله إنْ هلكت لنسترقنّ بعدك.

(٢) الفتوح ٥ / ٣٧.

لقد كانت هجرته إلى مكّة كهجرة موسى إلى مدين ، فكلّ منهما قد فرّ مِنْ فرعون زمانه ، وهاجر لمقاومة الظلم ومناهضة الطغيان.

في مكّة :

وانتهى الإمام إلى مكّة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين مِن شعبان [١] ، وقد حطّ رحله في دار العباس بن عبد المطلب [٢] ، وقد استُقبل استقبالاً حافلاً مِن المكيين ، وجعلوا يختلفون إليه بكرةً وعشية وهم يسألونه عن أحكام دينهم وأحاديث نبيّهم.

يقول ابن كثير : وعكف الناس بمكة يفدون إليه ويجلسون حواليه ، ويستمعون كلامه وينتفعون بما يسمعون منه ، ويضبطون ما يروون عنه [٣].

لقد كان بجاذبيته الروحية مهوى القلوب وندى الأفئدة ، وقد حامت حوله النفوس تروي غليلها مِن نمير علومه التي هي امتداد مِن علوم جدّه مفجّر العلم والنور في الأرض.

احتفاء الحِجّاج والمعتمرين به :

وأخذ القادمون إلى بيت الله مِن الحِجّاج والمعتمرين مِن سائر الآفاق يختلفون إليه [٤] ، ويهتفون بالدعوة إليه ويطوفون حوله ، هذا يلتمس

(١) المنتظم لابن الجوزي ، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة.
(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ ، وفي الأخبار الطوال / ٢٠٩ ، أنّه نزل في شعب علي.
(٣) البداية والنهاية.
(٤) الفصول المهمة لابن الصباغ / ١٧٠ ، وسيلة المال في عدّ مناقب الآل / ١٨٥.

منه العلم والحديث وذاك يقتبس مِنه الحكم النافعة والكلم الجامعة ؛ ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة [١] ، ولم يترك الإمام ثانية مِنْ وقته تمرّ دون أنْ يبثّ الوعي الاجتماعي ، ويدعو إلى اليقظة والحذر من السياسة الأُمويّة الهادفة إلى استعباد المسلمين وإذلاهم.

فزع ابن الزّبير :

وكان ابن الزّبير لاجئاً إلى مكّة فراراً مِن البيعة ليزيد ، وقد ثقل عليه اختلاف الناس على الإمام الحُسين (عليه السّلام) وإجماعهم على تعظيمه وتبجيله وزهد الناس وانصرافهم عنه ؛ لأنّه لم يكن يتمتع بصفة محبوبة ولا بنزعة كريمة.

يقول زيد بن علي الجذعاني : وكانت فيه خلال لا تصلح معها الخلافة ؛ لأنّه كان بخيلا ضيّق العطن [٢] ، سيّئ الخُلُق ، حسوداً كثير الخلاف. أخرج محمّد بن الحنفيّة ونفى عبد الله بن عباس إلى الطائف [٣].

ومِن مظاهر ذاتياته الشحّ والبخل ، وفيه يقول الشاعر :

رأيت أبا بكر وربُّك غالب ... على أمره يبغي الخلافة بالتمر [٤]

وقد عانى الشعب في أيّام حكمه القصير الجوع والحرمان ، كما عانت الموالي التي بالغت في نصرته أشدّ ألوان الضيق ، وقد عبّر شاعرهم عن خيبة أملهم في نصرته يقول :

---

(١) نهضة الحسين / ٧٣.

(٢) العطن : مبرك الإبل ، ومربض الغنم.

(٣) فوات الوفيات ١ / ٤٤٨.

(٤) المعارف . ابن قتيبة / ٧٦.

إن المـــوالي أمســـت وهـــي عاتبـــة علـى الخليفـة تشـكو الجـوع والسَّـغبا
مـــاذا علينـــا ومـــاذا كـــان يرزؤنـــا أي الملـوك علـى مَـن حولنـا غلبـا [1]

وأظهر ابن الزّبير النسك والطاعة والتقشف ؛ تصنّعا لصيد البسطاء وإغراء السذّج . وقد وصفه الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) بقوله : «ينصب حبالة الدين لاصطفاء الدنيا» [2].

ومِن المؤكد أنّه لم يكن يبغي في خروجه على سلطان بني أُميّة وجه الله ؛ وإنّما كان يبغي المِلْك والسلطان ، وقد أدلى بذلك عبد الله بن عمر حينما ألحّت عليه زوجته في مبايعته ، وذكرت له طاعته وتقواه ، فقال لها : أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهباء؟ فإن ابن الزّبير ما يريد غيرهن [3].

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ ابن الزّبير لمْ يكن شيء أثقل عليه مِنْ أمر الحُسين ؛ لعلمه بأنّه لا يبايعه أحد مع وجود الحُسين (عليه السّلام) ؛ لأنّه ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، فليس على وجه الأرض أحد يساميه ولا يساويه ، كما يقول ابن كثير [4].

وأكّد ذلك (أوكلي) قال : إن ابن الزّبير كان مقتنعا تماما بأن كل جهوده ستضيع عبثا طالما بقي الحُسين على قيد الحياة ، ولكن إذا أصابه مكروه فإنّ طريق الخلافة سيكون ممهّداً له.

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ٧ / ٢٤.

(٣) المختار / ٩٥.

(٤) البداية والنهاية ٨ / ١٥٠ وجاء في وسيلة المال / ١٨٥ ، وقد ثقلت وطأة الحُسين على ابن الزّبير ؛ لأنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحُسين بالبلد ، ولا يتهيأ له ما يطلب منهم مع وجود الحُسين.

وكان يشير على الإمام بالخروج إلى العراق للتخلّص منه ، ويقول له : ما يمنعك مِن شيعتك وشيعة أبيك؟ فو الله ، لو أنّ لي مثلهم ما توجّهت إلاّ إليهم [1].

ولم يمنح ابن الزّبير النصيحة للإمام ولم يخلص له في الرأي ؛ وإنّما أراد أن يستريح منه.

ولمْ تخفَ على الإمام دوافعه ، فراح يقول لأصحابه : «إن هذا ـ وأشار إلى ابن الزّبير ـ ليس شيء مِن الدنيا أحبّ إليه مِنْ أن أخرج مِن الحجاز ، وقد علم أنّ الناس لا يعدلونه بي ؛ فودّ أنّي خرجت حتى يخلو له» [2].

ولم تحفل السلطة الأُمويّة بابن الزّبير وإنّما وجّهت جميع اهتمامها نحو الإمام الحُسين (عليه السّلام).

رأي الغزالي :

واستبعد الشيخ محمّد الغزالي أن ابن الزّبير قد أشار على الحُسين بالخروج إلى العراق ليستريح منه ، قال : فعبد الله بن الزّبير اتقى الله وأعرق في الإسلام مِن أن يقترف هذه الدنية [3].

وهذا الرأي بعيد عن الواقع ؛ فإن ابن الزّبير لم تكن له أيّة حريجة في الدين ، فهو الذي أجّج نار الفتنة في حرب الجمل وزج أباه فيها ، وقد تهالك على السلطان وضحّى بكلّ شيء في سبيله ، وقد كان مِنْ

---

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ٢ / ٢٦٨.

تاريخ ابن الأثير ٤ / ١٦ ، الطبري ٦ / ٢١٦.

(٣) من معالم الحق / ١٣١.

أعدى الناس للعترة الطاهرة ، ومَنْ كان هذا شأنه فهل يكون تقيّاً وعريقاً في الإسلام؟!

رأي رخيص :

مِن الآراء الرخيصة ما ذهب إليه أنيس زكريا المعروف بنزعته الأُمويّة ، أنّ مِنْ أهمّ الأسباب التي أدّت إلى قتل الإمام الحُسين (عليه السّلام) تشجيع ابن الزّبير له في الخروج إلى العراق ، فقد كان له أثره المهم في نفسه [1].

وهذا القول مِن أهزل الآراء ؛ فإن الإمام الحُسين (عليه السّلام) لم يتأثر بقول ابن الزّبير ولم ينخدع بتشجيعه له ، وإنّما كانت هناك عوامل أُخرى حفّزته إلى الخروج إلى العراق ، وقد ذكرناها بالتفصيل في البحوث السابقة.

فزع السلطة المحلّية :

وذُعرت السلطة المحلّية في مكّة مِنْ قدوم الإمام إليها ، وخافت أنْ يتّخذها مقرّاً سياسياً لدعوته ، ومنطلقاً لإعلان الثورة على حكومة دمشق ، وقد خفت حاكم مكّة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الإمام ، فقال له : ما أقدمك؟

ـ «عائذاً بالله ، وبهذا البيت» [2].

---

(١) الدولة الأُمويّة في الشام / ٥٤.

(٢) تذكرة الخواص / ٢٤٨.

لقد جاء الإمام (عليه السّلام) عائذاً ببيت الله الحرام الذي مَنْ دخله كان آمناً ، وكان محصناً مِن كل ظلم واعتداء.

ولم يحفل الأشدق بكلام الإمام ، وإنّما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علماً بمجيء الإمام إلى مكّة ، واختلاف الناس إليه وازدحامهم على مجلسه وإجماعهم على تعظيمه ، وأخبره إنّ ذلك يشكّل خطرا على الدولة الأُمويّة.

قلق يزيد :

واضطرب يزيد كأشد ما يكون الاضطراب حينما وافته الأنباء بامتناع الحُسين عن بيعته ، وهجرته إلى مكّة واتّخاذها مركزاً لدعوته ، وإرسال العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته ، فكتب إلى عبد الله بن عباس رسالة ، وهذا نصها :

أمّا بعد ، فإنّ ابن عمّك حُسيناً ، وعدو الله ابن الزّبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة مرصدين للفتنة ، معرّضين أنفسهما للهلكة ؛ فأمّا ابن الزّبير فإنّه صريع الفنا وقتيل السيف غداً ، وأمّا الحُسين فقد أحببت الأعذار إليكم أهل البيت ممّا كان منه ، وقد بلغني أنّ رجالاً مِنْ شعيته مِن أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم ، ويمنّونه الخلافة ويمنّيهم الإمرة ، وقد تعلمون ما بيني وبينكم مِن الوصلة وعظيم الحرمة ونتائج الأرحام ، وقد قطع ذلك الحُسين وبتّه ، وأنت زعيم أهل بيتك وسيد بلادك ، فالقه فاردده عن السعي في الفتنة ، فإنْ قبل منك وأناب فله عندى الأمان والكرامة الواسعة ، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه ، وإنْ طلب الزيادة فاضمن له ما أدّيك ، وأنفّذ ضمانك وأقوم له بذلك

وله عليّ الأيمان المغلظّة ، والمواثيق المؤكدة بما تطمئن به نفسه ويعتمد في كلّ الأمور عليها. عجّل بجواب كتابي وبكلّ حاجة لك قبلي ، والسلام. وختم كتابه بهذه الأبيات :

يـا أيّهـا الراكـب العـادي مطيّتَـه ... علـى عُـذافرة في سـيرِها قحـم
أبلـغ قريشـاً علـى نـأي المـزارِ بهـا ... بيـني وبـين حُسـين الله والـرَّحِم
وموقـف بفنـاء البيـت أنشـدُه ... عهـد الإلـه ومـا تـوفي بـه الـذمم
عنيـتم قـومَكم فخـرا بـأُمّكم ... أمٌّ لَعمـري حَصـان عفـة كـرم
هـي الـتي لا يـداني فضـلَها أحـد ... بنـت الرسـول وخـير النـاس قـد علمـوا
إني لأعلـم أو ظنّـا كعالِمـه ... والظـنُّ يصـدق أحيانـا فينـتظم
أنْ سـوف يـترُكُكُمْ مـا تـدّعون بهـا ... قتلـى تهـاداكُمُ العقبـانُ والـرّخمُ
يـا قومَنـا لا تشـبّوا الحـرب إذ سـكنت ... وأمسـكوا بحبـال السـلم واعتصـموا
قـد جـرّب الحـرب مَـن قـد كـان قـبلَكُم ... مِـن القـرونِ وقـد بـادتْ بهـا الأُمـمُ
فأنصـفوا قـومَكم لا تهلكـوا برحـاً ... فـربّ ذي بـرح زلّـت بـه القـدم

ودلّت هذه الرسالة على غباوة يزيد ؛ فقد حسب أن الإمام يطلب المال والثراء في خروجه عليه ، ولمْ يعلم أنّه إنّما ناهضه لا يبغي بذلك إلا الله والتماس الأجر في الدار الآخرة.

جواب ابن عباس :

وأجابه ابن عباس : أمّا بعد ، فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحُسين وابن الزّبير بمكة ؛ فأمّا ابن الزّبير فرجل منقطع عنّا برأيه وهواه ؛ يكاتمنا مع ذلك أضغانا يسرّها في صدره ، يوري علينا وري الزناد ، لا فكّ الله أسيرها ، فارى في أمره ما أنت راء ؛ وأمّا الحُسين فإنّه لما نزل مكة

وترك حرم جدّه ومنازل آبائه سألته عن مقدمه فأخبرني أنّ عمّالك بالمدينة أساؤا إليه ، وعجّلوا عليه بالكلام الفاحش فأقبل إلى حرم الله مستجيراً به ، وسألقاه فيما أشرت إليه ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة ، ويطفئ بها النائرة ، ويخمد بها الفتنة ، ويحقن بها دماء الأُمّة.

فاتّقِ الله في السرّ والعلانية ، ولا تبيتَنَ ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة ، ولا ترصده بمظلمة ولا تحقّر له مهواة [1] ، فكم مِنْ حافر لغيره حفراً وقع فيه ، وكم مِنْ مؤمّل أملاً لمْ يؤت أمله ، وخذْ بحظّك مِنْ تلاوة القرآن ونشر السنّة ، وعليك بالصيام والقيام لا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها ؛ فإنّ كلّ ما اشتغلت به عن الله يضرّ ويفنى ، وكلّ ما اشتغلت به مِنْ أسباب الآخرة ينفع ويبقى. والسلام [2].

وحفلت هذه الرسالة بما يلي :

١ ـ أنّه لا علاقة لبني هاشم بابن الزّبير ولا هم مسؤولون عن تصرفاته ؛ فقد كان عدوا لهم يتربص بهم الدوائر ويبغي لهم الغوائل.

٢ ـ أن الإمام الحُسين إنّما نزح مِن يثرب إلى مكّة لا لإثارة الفتنة ؛ وإنّما لإساءة عمّال يزيد له ، وقد قدم إلى مكّة ليستجير ببيتها الحرام.

إقصاء حاكم المدينة :

كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على يثرب بعد عزل مروان عنها ، وكان فيما يقول المؤرّخون فطناً ذكيّاً ، يحب العافية ويكره الفتنة ، ولما امتنع الإمام الحُسين (عليه السّلام) مِن البيعة ليزيد لم يتّخذ معه

---

(١) المهواة : الحفرة.

(٢) تذكرة الخواص / ٢٤٨ ـ ٢٥٠ ، تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٧٠.

الإجراءات الصارمة ولمْ يكرهه على ما لا يحبّ ، وإنّما فسح له المجال في الرحيل إلى مكّة مِنْ دون أنْ يعوّقه عنها ، في حين قد أصرّ عليه مروان بالتنكيل به فرفض ذلك ، وقد نقل الأُمويّون موقفه المتّسم باللين والتسامح مع الحُسين إلى يزيد فغضب عليه وعزله عن ولايته [1] ، وقد عهد بها إلى جبّار مِن جبابرة الأُمويِّين عمرو بن سعيد الأشدق [2] وقد عُرِفَ بالقسوة والغلظة ، فقدم إلى المدينة في رمضان بعد أن تسلّم ولايته عليها فصلّى بالناس صلاة العتمة.

وفي الصباح خرج على الناس وعليه قميص أحمر وعمامة حمراء ، فرماه الناس بأبصارهم منكرين ما هو عليه ، فصعد المنبر فقال : يا أهل المدينة ، ما لكم ترموننا بأبصاركم كأنّكم تقروننا سيوفكم؟ أنسيتم ما فعلتم! أما لو انتقم في الأولى ما عدتم إلى الثانية ، أغرّكم إذ قتلتم عثمان فوجدتموه صابراً حليماً وإماماً ، فذهب غضبه وذهبت ذاته فاغتنموا أنفسكم ، فقد وليكم إمام بالشباب المقتبل البعيد الأمل ، وقد اعتدل جمسه واشتدّ عظمه ، ورمى الدهر ببصره واستقبله بأسره ، فهو إنْ عضّ لهس وإنْ وطيء فرس ، لا يقلقه الحصى ولا تقرع له العصا.

وعرض في خطابه لابن الزّبير فقال : فو الله لنغزونّه ، ثمّ لئن دخل الكعبة لنحرقنّها عليه على رغم

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٤٨.

(٢) الأشدق : لقّب بذلك لتشادقه الكلام. وقيل : إنّما لقّب بذلك لأنّه كان أفقم مائل الذقن ، جاء ذلك في البيان والتبيين ١ / ٣١٥ ، وقيل : إنّما لقّب بذلك لأنّه أصابه اعوجاج في حلقه لإغراقه في شتم علي ، جاء ذلك في معجم الشعراء / ٢٣١.

أنف مَن رغم [١].

ورعف الطاغية على المنبر فألقى إليه رجل عمامة فمسح بها دمه ، فقال رجل مِن خثعم : دم على المنبر في عمامة فتنة عمّت وعلا ذكرها ورب الكعبة [٢]. وقد أُثر عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : «ليرعفنَّ على منبري جبّار مِن جبابرة بني أُميّة فيسيل رعافه» [٣].

وعزم الأشدق على مقابلة الجبهة المعارضة بالقوة والبطش ، وقد حفّزه إلى ذلك ما حل بسلفه الوليد مِن الإقصاء وسلب الثقة عنه ؛ نتيجة تساهله مع الحُسين (عليه السّلام).

ولعل مِن أوثق الأسباب التي دعت الإمام الحُسين (عليه السّلام) إلى مغادرة الحجاز هو الحذر مِنْ بطش هذا الطاغية به ، والخوف مِنْ اغتياله وهو في الحرم.

الحُسين مع ابن عمر وابن عباس :

وكان عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر مقيمين في مكّة حينما أقبل الإمام الحُسين إليها ، وقد خفّا لاستقباله والتشرّف بخدمته وكانا قد عزما على مغادرة مكّة.

فقال له ابن عمر : أبا عبد الله ، رحمك الله ، اتّقِ الله الذي إليه معادك ، فقد عرفت مِن عداوة أهل هذا البيت ـ يعني بني أُميّة ـ لكمْ ، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد بن معاوية ولستُ آمن أن يميل الناس إليه ؛ لمكان هذه الصفراء

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ٢ / ٢٦٨.
(٢) سمط النجوم العوالي ٣ / ٥٧.
(٣) مجمع الزوائد ٥ / ٢٤٠.

والبيضاء فيقتلونك ويهلك فيك بشر كثير ، فإنّي قد سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : «حُسين مقتول ، ولئن قتلوه وخذلوه ولن ينصروه ليخذلهم الله إلى يوم القيامة». وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس ، واصبر كما صبرتَ لمعاوية مِنْ قبل ، فلعلّ الله أنْ يحكم بينك وبين القوم الظالمين.

فقال له أبي الضيم : «أنا أُبايع يزيد وأدخل في صلحه وقد قال النّبي (صلّى الله عليه وآله) فيه وفي أبيه ما قال؟!». وانبرى ابن عباس فقال له : صدقت أبا عبد الله ؛ قال النّبي (صلّى الله عليه وآله) في حياته : «ما لي وليزيد! لا بارك الله في يزيد ، وإنّه يقتل ولدي وولد ابنتي الحسين. والذي نفسي بيده ، لا يُقتل ولدي بين ظهراني قوم فلا يمنعونه إلاّ خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم». وبكى ابن عباس والحُسين ، والتفت إليه قائلاً : «يابن عباس ، أتعلم أنّي ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله)؟».

ـ اللّهم نعم ، نعلم ما في الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك ، وإنّ نصرك لفرض على هذه الأُمّة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأُخرى.

فقال له الحُسين (عليه السّلام) : «يابن عباس ، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مِنْ داره وقراره ، ومولده وحرم رسوله ، ومجاورة قبره ومسجده وموضع مهاجره ، فتركوه خائفاً مرعوباً لا يستقر في قرار ، ولا يأوي في

موطن ، يريدون في ذلك قتله وسفك دمه ، وهو لمْ يشرك بالله ولا اتّخذ من دونه وليّاً ، ولمْ يتغيّر عمّا كان عليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله)؟».

وانبرى ابن عباس يؤيد كلامه ويدعم قوله قائلا : ما أقول فيهم إلاّ أنّهم كفروا بالله ورسوله ، (وَلاَ يَأْتُونَ الصّلاَةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى ، يُرَاءُونَ النّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلا قَلِيلاً ، مُذَبْذَبِينَ ذلِكَ لا إِلَى هؤُلاَءِ وَلا إِلَى هؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَه سَبِيلا) ، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى ، وأمّا أنت يا بن رسول الله ، فإنّك رأس الفخار برسول الله ، فلا تظنَّ يابن بنت رسول الله أن الله غافل عمّا يفعل الظالمون ، وأنا أشهد أنّ مَنْ رغِبَ عن مجاورتك وطمعَ في محاربتك ومحاربة نبيّك محمّد فما له مِن خلاق.

وانبرى الإمام الحُسين فصدّق قوله قائلا : «اللّهم نعم».

وانطلق ابن عباس يظهر له الاستعداد للقيام بنصرته قائلا : جعلت فداك يابن بنت رسول الله ، كأنّك تريدني إلى نفسك وتريد منّي أنْ أنصرك ، والله الذي لا إله إلاّ هو أنْ لو ضربتُ بين يديك بسيفي هذا بيدي حتّى انخلعا جميعاً من كفّي لما كنت ممّن وفّى مِنْ حقك عشر العشر ، وها أنا بين يديك مرني بأمرك.

وقطع ابن عمر كلامه ، وأقبل على الحُسين ، فقال له : مهلا عما قد عزمت عليه ، وارجع مِنْ هنا إلى المدينة وادخل في صلح القوم ، ولا تغب عن وطنك وحرم جدك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجّة وسبيلاً ، وإنْ أحببت أنْ لا تبايع فأنت متروك حتّى ترى رأيك ، فإنّ يزيد بن معاوية عسى أنْ لا يعيش إلا قليلا فيكفيك الله أمره.

وزجره الإمام (عليه السّلام) ، وردّ عليه قوله قائلاً :

ﮎا ُ لهذا الكلام أبدا ما دامت السماوات والأرض! أسألك يا عبد الله ، أنا عندك على خطأ مِن أمري؟ فإن كنت على خطأ ردّني فأنا أخضع وأسمع وأطيع».

فقال ابن عمر : اللّهم لا ، ولمْ يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطأ ، وليس مثلك مِن طهارته وصفوته مِن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على مثل يزيد بن معاوية ، ولكنْ أخشى أنْ يُضربَ وجهُك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى مِنْ هذه الأُمّة ما لا تحبّ ، فارجع معنا إلى المدينة ، وإنْ لمْ تحبّ أنْ تبايع فلا تبايع أبداً واقعد في منزلك.

والتفت إليه الإمام فأخبره عن خبث الأُمويّين وسوء نواياهم نحوه قائلا : «هيهات يابن عمر! إنّ القوم لا يتركوني وإنْ أصابوني ، وإنْ لمْ يصيبوني فلا يزالون حتّى أُبايع وأنا كاره أو يقتلوني. أما تعلم يا عبد الله ، إنّ مِنْ هوان الدنيا على الله تعالى أنّه أُتي برأس يحيى بن زكريا إلى بغي مِنْ بغايا بني إسرائيل والرأس ينطق بالحجّة عليهم؟! أما تعلم يا أبا عبد الرحمن ، إنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيا ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلّهم كأنّهم لمْ يصنعوا شيئاً ، فلمْ يعجّل الله عليهم ، ثمّ أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر؟!» [١]

وكشفت هذه المحاورة عن تصميمه على الثورة وعزمه على مناجزة يزيد ؛ لأنّه لا يتركه وشأنه ؛ فإمّا أن يبايع وبذلك يذل هو ويذل الإسلام

---

(١) الفتوح ٥ / ٣٨ . ٤٢.

وتُستباح حرُماته ، وإمّا أنْ يُقتلَ عزيزاً كريماً ، فاختار المنيّة للحفاظ على كرامته وكرامة الأُمّة ومقدّساتها.

وصيته لابن عباس :

وأقبل الحُسين على ابن عباس فعهد إليه بهذه الوصية قائلاً : «وأنت يابن عباس ابن عم أبي ، لمْ تزل تأمر بالخير منذ عرفتك ، وكنت مع أبي تشير عليه بما فيه الرشاد والسداد ، وقد كان أبي يستصحبك ويستنصحك ويستشيرك وتشير عليه بالصواب ، فامض إلى المدينة في حفظ الله ولا تخف علي شيئا مِن أخبارك ؛ فإني مستوطن هذا الحرم ومقيم به ما رأيت أهله يحبّونني وينصرونني ، فإذا همْ خذلوني استبدلت بهم غيرهم ، واستعصمت بالكلمة التي قالها إبراهيم يوم اُلقي في النّار : حسبي الله ونعم الوكيل. فكانت النار عليه بردا وسلاما» (١).

رسائله إلى زعماء البصرة :

وكتب الإمام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة يستنهضهم على نصرته والأخذ بحقّه ، وقد كتب إلى الأشراف ، ومِنْ بينهم :

١ ـ مالك بن مسمع البكري.

٢ ـ الأحنف بن قيس.

٣ ـ المنذر بن الجارود.

٤ ـ مسعود بن عمرو.

---

(١) مقتل الخوارزمي ١ / ١٩٣.

٥ ـ قيس بن الهيثم.

٦ ـ عمر بن عبيد الله بن معمر [١].

وقد أرسل كتاباً إليهم بنسخة واحدة ، وهذا نصه : «أمّا بعد ، فإنّ الله اصطفى محمّداً (صلّى الله عليه وآله) مِنْ خلقه وأكرمه بنبوّته واختاره لرسالته ، ثمّ قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلّغ ما أُرسل به ، وكنّا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحقّ الناس بمقامه ، فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا ، وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك الحقّ المستحق علينا ممّن تولاه ، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ؛ فإنّ السنّة قد أُميتت ، والبدعة قد أُحييت ، فإنْ تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد» [٢].

وألقت هذه الرسالة الأضواء على الخلافة الإسلاميّة فهي حسب تصريح الإمام حق لأهل البيت (عليهم السّلام) ؛ لأنّهم ألصق الناس برسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأكثرهم وعيا لأهدافه ، إلاّ أنّ القوم استأثروا بها فلمْ يسع العترة الطاهرة إلا الصبر كراهة للفتنة وحفظا على وحدة المسلمين.

كما حفلت هذه الرسالة بالدعوة إلى الحقّ بجميع رحابه ومفاهيمه ، فدعت إلى إحياء كتاب الله وسنّة نبيّه ، فإنّ الحكم الأموي عمد إلى إقصائهما عن واقع الحياة.

وعلّق بعض الكتّاب على دعوة الإمام لأهل البصرة لبيعته ، فقال : إن رسالة الحُسين إلى أهل البصرة تُرينا كيف كان يعرف مسؤوليته ويمضي معها ، فأهل البصرة لمْ يكتبوا إليه ولمْ يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة ، ومع هذا فهو يكتب إليهم ويعدّهم للمجابهة المحتومة ،

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٠.

ذلك أنّه حين قرّر أنْ ينهض بتبعات دينه وأُمّته كان قراره هذا آتياً مِنْ أعماق روحه وضميره ، وليس مِنْ حركة أهل الكوفة ودعوتهم إيّاه.

وعلى أي حالٍ ، فقد بعث الإمام كتبه لأهل البصرة بيد مولى له يُقال له سليمان ، ويُكنى أبا رزين ، وقد جدّ في السير حتّى انتهى إلى البصرة ، فسلّم الكتب إلى أربابها.

جواب الأحنف بن قيس :

وأجاب الأحنف بن قيس زعيم العراق الإمام برسالةٍ كتب فيها هذه الآية الكريمة ، ولمْ يزد عليها (صَبِرْنِإ ِ وَعْدَ اللّه حَق وَلا يَسْتَخِفَّنّك الّذِين لا يُوقِنُون) [١]. وقد طلب مِن الإمام الخلود إلى الصبر ، ولا يستخفّه الذين لا يوقنون بالله ولا يرجون له وقاراً.

جريمة المنذر :

أمّا المنذر بن الجارود العبدي فقد كان مِنْ أجلاف العرب وحُقرائهم ، فقد عمد إلى رسول الإمام فبعثه مخفوراً إلى ابن زياد ، وكان زوج ابنته ليظهر له الإخلاص والولاء فقتله ابن مرجانة ، وصلبه عشية الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة [٢].

واعتذر بعض المؤرّخين عن المنذر ، أو هو اعتذر عن نفسه بأنّه خشي أنْ يكون الرسول مِنْ قبل ابن مرجانة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٠.

لاختباره فلذا سلّمه إليه ، وهو اعتذار مهلهل ؛ فإنّ اللازم كان إجراء التحقيق معه حتّى يستبين له الأمر.

استجابة يزيد بن مسعود :

واستجاب الزعيم الكبير يزيد بن مسعود النهشلي إلى تلبية نداء الحقّ ، فاندفع بوحي مِنْ إيمانه وعقيدته إلى نصرة الإمام ، فعقد مؤتمراً عاماً دعا فيه القبائل العربية الموالية له ، وهي :

١ . بنو تميم.

٢ . بنو حنظلة.

٣ . بنو سعد.

ولما اجتمعت هذه القبائل انبرى فيهم خطيباً ، فوجّه خطابه أولاً إلى بني تميم ، فقال لهم : يا بني تميم ، كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ وتعالت أصوات بني تميم وهي تعلن ولاءها المطلق وإكبارها له ، قائلين بلسان واحد : بخ بخ! أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر ؛ حللت في الشرف وسطاً ، وتقدّمت فيه فرطاً.

وسرّه تأييدهم ، فانطلق يقول : إنّي جمعتكم لأمر أُريد أنْ أُشاوركم ، وأستعين بكم عليه. واندفعوا جميعا يظهرون له الولاء والطاعة ، قائلين : إنّا والله ، نمنحك النصيحة ونجهد لك الرأى ، فقل حتى نسمع.

وتطاولت الأعناق واشرأبت النفوس لتسمع ما يقول الزعيم الكبير ، وانبرى قائلاً : إن معاوية مات ، فأهون به والله هالكاً ومفقوداً ، ألا إنّه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم ، وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنّه قد أحكمه ، وهيهات الذي أراد! اجتهد والله ففشل ، وشاور فخذل ، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على المسلمين ، ويتأمّر عليهم بغير رضى منهم مع قصر حلم وقلّة علم ، لا يعرف مِن الحقّ موطأ قدميه ، فأُقسم بالله قسما مبرورا لَجهاده على الدين أفضل مِن جهاد المشركين.

وهذا الحُسين بن علي وابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل [1] ، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف ، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته ، يعطف على الصغير ويُحسن إلى الكبير ، فأكرم به راعي رعية ، وإمام قوم وجبت لله به الحجّة وبلغت به الموعظة ، فلا تعشوا عن نور الحقّ ولا تسكعوا في وهد الباطل ، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ونصرته ، والله ، لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلاّ أورثه الله الذلّ في ولْده والقلّة في عشيرته.

وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها وادّرعت لها بدرعها. مَنْ لمْ يُقتل يمت ، ومَنْ يهرب لمْ يفت ، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

وحفل هذا الخطاب الرائع بأمور بالغة الأهمية ، وهي :

أولا : الاستهانة بهلاك معاوية ، وإنّه قد انكسر بموته باب الظلم والجور.

---

(١) الرأي الأثيل : الأصيل.

ثانيا : القدح في بيعة معاوية ليزيد.

ثالثا : عرض الصفات الشريرة الماثلة في يزيد مِن الإدمان على الخمر ، وفقد الحلم وعدم العلم وعدم التبصّر بالحق.

رابعا : الدعوة إلى الالتفات حول الإمام الحُسين (عليه السّلام) ؛ وذلك لما يتمتّع به مِن الصفات الشريفة ، كأصالة الفكر وغزارة العلم وكبر السنّ ، والعطف على الكبير والصغير وغير ذلك مِن النزعات الكريمة التي تجعله أهلا لإمامة المسلمين.

خامسا : إنّه عرض للجماهير عن استعداده الكامل للقيام بنصرة الإمام والذب عنه.

ولما أنهى الزعيم العظيم خطابه انبرى وجهاء بني حنظلة فأظهروا الدعم الكامل له ، قائلين : يا أبا خالد ، نحن نبلُ كنانتك وفرسان عشيرتك. إن رميت بنا أصبت وإن غزوت بنا فتحت. لا تخوض والله غمرة إلا خضناها ولا تلقى والله شدّة إلا لقيناها ؛ ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا إذا شئت.

وكان منطقاً مشرّفاً دلّ على تعاطفهم ووقوفهم إلى جانبه ، وقام مِنْ بعدهم بنو عامر فأعربوا عن ولائهم العميق له ، قائلين : يا أبا خالد ، نحن بنو أبيك وحلفاؤك ؛ لا نرضى إنْ غضبت ، ولا نبقى إنْ ظعنت ، والأمر إليك فادعنا إذا شئت.

وأمّا بنو سعيد فأظهروا التردد وعدم الرغبة فيما دعاهم إليه ، قائلين : يا أبا خالد ، إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج عن رأيك ، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل فحمدنا أمرنا وبقي عزّنا فينا ، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

وساءه تخاذلهم فاندفع يندّد بهم قائلاً :

لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبدا ولا زال سيفكم فيكم.

جوابه للإمام (عليه السّلام) :

ورفع يزيد بن مسعود رسالة للإمام دلّت على شرفه ونبله واستجابته لدعوته ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فقد وصل إليّ كتابك وفهمت ما ندبتني إليه ، ودعوتني له مِن الأخذ بحظّي مِنْ طاعتك والفوز بنصيبي مِنْ نصرتك ، وإنّ الله لمْ يُخلِ الأرض قطّ مِنْ عامل بخير ودليل على سبيل نجاة ، وأنتم حجّة الله على خلقه ووديعته في أرضه. تفرعتم مِن زيتونة أحمدية ، هو أصلها وأنتم فرعها ، فاقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذلّت لك أعناق بني تميم ، وتركتهم أشدّ تتابعاً في طاعتك مِن الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها [1] ، وقد ذلّت لك رقاب بني سعد وغسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع.

وحفلت هذه الرسالة بسمو أدبه وكريم طباعه وتقديره البالغ للإمام.

ويقول بعض المؤرّخين : إنّها انتهت إلى الإمام في اليوم العاشر مِن المحرّم بعد مقتل أصحابه وأهل بيته ، وهو وحيد فريد ، قد أحاطت به القوى الغادرة ، فلمّا قرأ الرسالة طفق يقول : «ما لك! آمنك الله مِن الخوف ، وأرواك يوم العطش الأكبر».

ولما تجهّز ابن مسعود لنصرة الإمام بلغه قتله فجزع لذلك وذابت

---

(١) خمسها : بالكسر الإبل الضماء التي ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع.

نفسه أسى وحسرات [1].

استجابة يزيد البصري :

ولبّى نداء الحقّ يزيد بن نبيط البصري ، وكان ـ فيما يقول المؤرّخون ـ يتردّ إلى دار مارية ابنة سعد أو منقذ ، وكانت دارها مِنْ منتديات الشيعة ، وفيها تذاع فضائل أهل البيت (عليهم السّلام) وتنشر مآثرهم.

ولما وجّه الإمام دعوته إلى أهل البصرة لنصرته استجاب لها يزيد بن نبيط ، ولحق به مِنْ أولاده العشرة عبد الله وعبيد الله ، وخاف عليه أصحابه أنْ يدركه الطلب مِنْ شرطة ابن زياد ، فقال لهم : لو استوت أخفافها بالجدد لهان علي طلب مَن طلبني [2] واستوى على جواده مع ولديه ، وصحبه مولاه عامر وسيف بن مالك والأدهم بن أُميّة فلحقوا بالإمام في مكّة وصحبوه إلى العراق ، واستشهدوا بين يديه في كربلاء [3].

نقمة العراق على الأُمويِّين :

وكره العراقيون بصورة عامّة حكم الأُمويِّين وبغضوا سلطانهم ، وفيما نحسب أنّ الأسباب في ذلك ما يلي :

١ ـ إنّ العراق أيّام معاوية أصبح يُساس بالروح العسكرية ، والأحكام العرفية التي لا تتقيد بالقانون ، خصوصاً أيام زياد بن سميّة ، فقد كان يأخذ

---

(١) اللهوف / ١٦ ـ ١٩.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٨.

(٣) مقتل المقرم / ١٥٨ نقلا عن ذخيرة الدارين / ٢٢٤.

البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتل على الظنّة والتّهمة ، ممّا أدى إلى إشاعة الكراهية للأمويين.

٢ ـ إن الكوفة كانت في عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) عاصمة الدولة الإسلاميّة ، وفي أيام معاوية أصبحت دمشق العاصمة ومركز الحكم ، وأصبح العراق مصراً كسائر الأمصار ، وانتقلت عنه الخزينة المركزية ، وقد أخذ الكوفيون يندبون حظّهم التعيس بعد تحوّل الخلافة عنهم ، وأصبح اسم الإمام عندهم رمزاً إلى دولتهم المفقودة ، وتعلّقت آمالهم بأبناء الإمام فكانوا ينظرون إليهم إنّهم الأبطال لاستقلال بلادهم السياسي وتحررها مِن التبعية لدمشق.

فقد كره أهل العراق الخضوع لأهل الشام ، كما كره أهل الشام الخضوع والسيطرة لأهل العراق ، وقد صوّر شاعر الشام هذه النزعة بقوله :

أرى الشـــام تكـــره مُلـــك العـــراق وأهـــل العـــراق لهـــم كارهونـــا

وقـــالوا علـــيٌّ إمـــام لنـــا فقلنـــا رضـــينا ابـــن هنـــد رضـــينا

وصوّر شاعر العراق هذه النزعة السائدة عند العراقيّين بقوله مخاطبا أهل الشام :

أتـــاكم علـــيٌّ بأهـــل العـــراق وأهـــل الحجـــاز فمـــا تصـــنعونا

فـــإن يكـــره القـــوم مُلـــك العـــراق فقـــدما رضـــينا الـــذي تكرهونـــا [1]

وكانت الثورات المتلاحقة التي قام بها العراق إنّما هي لكراهية أهل الشام والتخلّص مِنْ حكم الأُمويّين.

٣ ـ إن السياسة الخاطئة التي تبعها معاوية مع زعماء الشيعة الذين تبنّوا القضايا المصيرية للشعب العراقي وكافة الشعوب الإسلاميّة ، وما عانوه مِن القتل والتنكيل قد هزّت مشاعر الكوفيّين ، وأوغرت صدورهم بالحقد

---

(١) الأخبار الطوال / ٧٠ طبع ليدن.

على الأُمويِّين ، كما إنّ سبّ الإمام على المنابر قد زاد في بغضهم للأمويين ، وأشعل جذوة المعارضة في نفوسهم.

٤ . إنّ الأُمويِّين كانوا ينظرون إلى أهل الكوفة إنّهم الجبهة المعارضة لحكمهم ، وإنّهم المصدر الخطير الذي يهدد دولتهم فقابلوهم بمزيد مِن القسوة والإرهاب ، ممّا دعى الكوفيين إلى العمل المستمر لمناهضة الحكم الأُموي وتقويض سلطانه.

هذه بعض الأسباب التي أدّت إلى نقمة العراق على الحكم الأُموي وبغضهم له.

إعلان التمرّد في العراق :

وبعد هلاك معاوية أيقن العراقيون بانهيار الدولة الأُمويّة ، وقد رؤوا أنّ في تقليد يزيد مهام الخلافة إنّما هو استمرار للحكم الأُموي الذي جهد على إذلالهم وقهرهم.

وقد أجمعت الشيعة في الكوفة على مناجزته والخروج على سلطانه ، ورأوا أنّ في كفاحهم له جهادا دينيا حسب ما يقول (جولد تسهير) [1]. ويرى (كريمر) إن الأخيار والصلحاء مِن الشيعة كانوا ينظرون إلى يزيد نظرتهم إلى ورثة أعداء الإسلام ، وخلفاء أبي سفيان [2].

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ شيعة الكوفة لمْ ترضَ بحكم يزيد ، وأجمعت على خلعه والبيعة للإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وقد قاموا بما يلي :

---

(١) (٢) العقيدة والشريعة في الإسلام / ٦٩.

المؤتمر العام :

وعقدت الشيعة بعد هلاك معاوية مؤتمرا عاما في بيت أكبر زعمائهما سليمان بن صرد الخزاعي ، واندفعوا اندفاعاً كلياً في إلقاء الخطب الحماسية التي تظهر مساوئ الحكم الأُموي وفضائحه ، كما أشادوا بالإمام الحُسين ودعوا إلى البيعة له.

خطبة سليمان :

واعتلى سليمان بن صرد منصّة الخطابة ، فافتتح أولى جلساتهم بهذا الخطاب ، وقد جاء فيه : إنّ معاوية قد هلك ، وإنّ حُسيناً قد قبض على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكّة وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإنْ كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدوا عدوه فاكتبوا إليه ، وإنْ خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل مِن نفسه.

وتعالت أصواتهم مِنْ كلّ جانب وهم يقولون بحماس بالغ : نقتل أنفسنا دونه ، لا بل نقاتل عدوه [1]. وأظهروا رغبتهم الملحّة ودعمهم الكامل للإمام ، وقرّروا ما يلي :

١ ـ خلع بيعة يزيد.

٢ ـ إرسال وفد للإمام يدعونه للقدوم إليهم.

---

(١) الإرشاد / ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

٣ ـ بعث الرسائل للإمام مِن مختلف الطبقات الشعبية التي تمثّل رغبة الجماهير الحاشدة لحكم الإمام.

وفد الكوفة :

وأوفدت الكوفة وفداً إلى الإمام يدعوه إلى القدوم إليهم ، ومِنْ بين ذلك الوفد عبد الله الجدلي [١] ، ولما مثل الوفد عند الإمام عرض عليه اجماع أهل الكوفة على نصرته والأخذ بحقّه ، وإنّه ليس لهم إمام غيره وحثّوه على القدوم إليهم.

الرسائل :

وعمد أهل الكوفة بعد مؤتمرهم فكتبوا الرسائل إلى الإمام (عليه السّلام) وهي تعرب عن إخلاصهم وولائهم له ، وتحثّه على القدوم إليهم ليتولّى قيادة الأُمّة ، وهذه بعضها :

١ ـ قد جاء فيما بعد البسملة ما نصّه : مِنْ سليمان بن صرد والمسيب بن نجيّة ، ورفاعة بن شدّاد وحبيب بن مظاهر ، وشيعته والمسلمين مِنْ أهل الكوفة.

أمّا بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبّار العنيد ـ يعني معاوية ـ الذي انتزى على هذه الأُمّة فابتزّها أمرها واغتصبها فيئها وتأمّر عليها بغير رضى منها ، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دُولَة بين جبابرتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعُدت ثمود! إنّه ليس علينا إمام

---

(١) مقاتل الطالبيّين / ٩٥.

فاقبلْ لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إنْ شاء الله. والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته [١].

وكتبت هذه الرسالة في أواخر شهر شعبان ، وحملها عبد الله الهمداني وعبد الله بن وائل الهمداني ، وقد أمروهما بالإسراع والحذر مِن العدو. وأخذا يجدّان في السير لا يلويان على شيء ، وقدما مكّة لعشر مضين مِن رمضان [٢] ، وسلّما الرسالة للإمام وعرّفاه بشوق الناس إلى قدومه.

وقد عرضت هذه الرسالة مساوئ الحكم الأُموي ، فوصفت معاوية بالجبّار العنيد ، وأنّه ابتز أمر الأُمّة بالقهر والغلبة وتأمّر عليها بغير رضى منها ، وقد قتل خيارها وصلحاءها وجعل العطاء خاصة للأغنياء والوجوه ، وحرم منه بقيّة طوائف الشعب ، كما عرضت إلى مقاطعة الشيعة لحاكم الكوفة النعمان بن بشير ، وإنّهم إذا بلغهم قدوم الإمام قاموا بإقصائه عن الكوفة وإلحاقه بدمشق.

٢ ـ وقد أرسل الرسالة الثانية جماعة مِنْ أهل الكوفة ، وهذا نصها : إلى الحُسين بن علي مِن شيعته والمسلمين. أمّا بعد ، فحي هلا [٣] ، فإنّ الناس ينتظرونك ولا رأي لهم غيرك [٤] ، فالعجل ثمّ العجل ، والسّلام [٥]

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١ ، الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري ٢ / ٣ ـ ٤.

(٢) الفتوح ٥ / ٤٤.

(٣) حي هلا : اسم فعل بمعنى أقبل وعجّل.

(٤) في تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥ ، لا إمام لهم غيرك.

(٥) الإرشاد / ٢٢٤.

وحمل هذه الرسالة قيس بن مسهر الصيداوي مِنْ بني أسد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي وعمارة بن عبد الله السلولي ، كما حملوا معهم نحواً مِنْ خمسين صحيفة مِن الرجُل والاثنين والثلاثة والأربعة (١) ، وهي تحث الإمام على الإسراع إليهم والترحيب بقدومه ، وتعلن دعمهم الكامل له.

٣ . وأرسل هذه الرسالة جماعة مِن الانتهازيين الذين لا يؤمنون بالله ، وهم شبث بن ربعي اليربوعي ومحمّد بن عمر التميمي ، وحجّار بن أبجر العجلي ويزيد بن الحارث الشيباني ، وعزرة بن قيس الأحمسي وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار وطمّت الجمام (٢) ، فاقدم على جند لك مجنّدة. والسّلام عليك (٣).

وأعربت هذه الرسالة عن شيوع الأمل وازدهار الحياة ، وتهيأة البلاد عسكريّاً للأخذ بحقّ الإمام ومناجزة خصومه ، وقد وقعّها أولئك الأشخاص الذين كانوا في طليعة القوى التي زجّها ابن مرجانة لحرب الإمام.

ومِن المؤكّد أنّهم لمْ يكونوا مؤمنين بحقّه ، وإنّما اندفعوا لمساومة السلطة الأُمويّة ، والحصول منها على الأموال ومتع الحياة ، كما صرح الإمام الحُسين بذلك أمام أصحابه.

٤ . ومِن بين تلك الرسائل : إنّا قد حبسنا أنفسنا عليك ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة ، فاقدم علينا فنحن في مئة ألف سيف ، فقد فشا فينا الجور وعمل فينا بغير كتاب الله وسنّة نبيّه ، ونرجوا أن يجمعنا

---

(١) أنساب الأشراف ٤ / ق ١.

(٢) الجمام : الآبار.

(٣) أنساب الأشراف ١ / ق ١ ، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول / ٧٤.

الله بك على الحقّ وينفي عنّا بك الظلم ، فأنت أحقّ بهذا الأمر مِنْ يزيد وأبيه الذي غضب الأُمّة وشرب الخمور ، ولعب بالقرود والطنابير وتلاعب بالدين [١].

٥ ـ وكتب جمهور أهل الكوفة الرسالة الآتية ووقّعوها ، وهذا نصها : للحُسين بن علي أمير المؤمنين مِن شيعة أبيه (عليه السّلام). أمّا بعد ، فإنّ الناس ينتظرونك لا رأي لهم في غيرك ، العجل العجل يا بن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ؛ لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ويؤيد بك المسلمين والإسلام. بعد أجزل السّلام وأتمّه عليك ورحمة الله وبركاته [٢].

٦ ـ وكتب إليه جماعة هذه الرسالة الموجزة : إنّا معك ومعنا مئة ألف سيف [٣].

٧ ـ وكانت آخر الرسائل التي وصلت إليه هذه الرسالة : عجّل القدوم يابن رسول الله ، فإنّ لك بالكوفة مئة ألف سيف فلا تتأخّر [٤].

وقد تتابعت عليه الرسائل ما ملأ منها خرجين.

ويقول المؤرّخون : إنّه اجتمع عنده في نوب متفرّقة اثنا عشر ألف كتاب [٥] ، ووردت إليه قائمة فيها مئة وأربعون ألف اسم يعربون عن نصرتهم له حال ما يصل إلى

(١) تذكرة الخواص / ٢٤٨ ، الصراط السوي في مناقب آل النّبي ـ السيّد محمود القادي ، مِن مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، وبصورة موجزة رواه المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٤.

(٢) وسيلة المال / ١٨٥ ، الفصول المهمّة ـ ابن الصباغ / ١٧٠.

(٣) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

(٤) بحار الأنوار ١٠ / ١٨٠.

(٥) اللهوف / ١٩.

الكوفة [١] ، كما وردت عليه في يوم واحد ستمئة كتاب [٢].

وعلى أيّ حالٍ ، فقد كثرت كتب أهل الكوفة إلى الإمام ، وقد وقّع فيها الأشراف وقرآء المصر ، وهي تمثّل تعطّشهم لقدوم الإمام ؛ ليكون منقذاً لهم مِنْ طغمة الحكم الأُموي ، ولكن بمزيد الأسف فقد انطوت صحيفة ذلك الأمل ، وانقلب الوضع وتغيّرت الحالة ، وإذا بالكوفة تنتظر الحُسين لتسقي سيوفها مِن دمه وتُطعم نبالها مِن لحمه. تريد أن تحتضن جسد الحُسين لتوزّعه السيوف وتطعنه الرماح وتسحقه الخيول بحوافراها.

الكوفة تنتظر الحُسين لتثب عليه وثبة الأسد ، وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر. الكوفة تنتظر الحُسين لتسبي عياله بدل أنْ تحميهم ، وتروّع أطفاله بدل أنْ تؤويهم [٣]. وهكذا شاءت المقادير ، ولا راد لأمر الله على نكث القوم لبيعة الإمام وإجماعهم على حربه.

ويقول المؤرّخون : إنّ الإمام بعد ما وافته هذه الرسائل عزم على أن يلبّي أهل الكوفة ، ويوفد إليهم ممثّله العظيم مسلم بن عقيل.

---

(١) الوافي في المسألة الشرقية ١ / ٤٣.

(٢) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٧ من مخطوطات مكتبة الإمام الحكيم.

(٣) مع الحسين في نهضته / ١٥٧.

إيفاد مسلم إلى العراق

وتتابعت كتب أهل الكوفة كالسيل إلى الإمام الحُسين وهي تحثّه على المسير والقدوم إليهم ؛ لإنقاذهم مِنْ ظلم الأُمويِّين وعنفهم ، وكانت بعض تلك الرسائل تحمّله المسؤولية أمام الله والأُمّة إن تأخّير عن إجابتهم.

ورأى الإمام قبل كلّ شيء أنْ يختار للقياهم سفيراً له يعرّفه باتّجاهاتهم وصدق نيّاتهم ، فإنْ رأى منهم نيّة صادقة وعزيمة مصمّمة فيأخذ البيعة منهم ثم يتوجّه إليهم بعد ذلك. وقد اختار لسفارته ثقته وكبير أهل بيته والمبرز بالفضل فيهم مسلم بن عقيل ، وهو مِنْ أفذاذ التاريخ ومِنْ أمهر الساسة وأكثرهم قابلية على مواجهة الظروف ، وللصمود أمام الأحداث ، وعرض عليه الإمام القيام بهذه المهمّة فاستجاب له عن رضى ورغبة ، وزوّده برسالة رويت بصور متعدّدة وهي :

الأولى : رواها أبو حنيفة الدينوري ، وهذا نصّها : «مِن الحُسين بن علي إلى مَن بلغه كتابي هذا مِنْ أوليائه وشيعته بالكوفة ، سلام عليكم. أما بعد ، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم مِن محبّتكم لقدومي عليكم ، وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي مِنْ أهلي مسلم بن عقيل ؛ ليعلم لي كنه أمركم ، ويكتب إليّ بما يتبيّن له مِن اجتماعكم ؛ فإنْ كان أمركم على ما أتتني به كتبكم وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم إليكم إنْ شاء الله ، والسّلام» [١].

الثانية : رواها صفي الدين ، وقد جاء فيها بعد البسملة : «أمّا بعد ، فقد وصلتني كتبكم وفهمت ما اقتضته آراؤكم ، وقد بعثت إليكم ثقتي وابن عمّي مسلم بن عقيل ، وسأقدم عليكم وشيكا في إثره إن شاء الله» [٢].

---

(١) الأخبار الطوال / ٢١٠.

(٢) وسيلة المال / ١٨٦ من مصورّات مكتبة الإمام الحكيم.

وهذه الرواية شاذّة ؛ إذ لم يذكر فيها مهمّة مسلم في إيفاده إليهم مِن أخذ البيعة له وغير ذلك ، ممّا هو مِنْ صميم الموضوع في إرسال مسلم.

الثالثة : رواها الطبري ، وقد جاء فيها بعد البسملة : «مِن الحُسين بن علي إلى الملأ مِن المؤمنين والمسلمين. أمّا بعد ، فإنّ هانئاً وسعيداً [1] قدما عليّ بكتبكم ، وكانا آخر مَنْ قدم عليّ مِنْ رسلكم ، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلّكم : أنّه ليس علينا إمام فأقبل ؛ لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق.

وقد بعثت لكم أخي وابن عمّي وثقتي مِنْ أهل بيتي ، وأمرته أنْ يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم ؛ فإن كتب أنّه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجا مِنكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله. فلعمري ، ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحقّ ، والحابس نفسه على ذات الله. والسّلام» [2].

وحفلت هذه الرسالة حسب نص الطبري بالأُمور التالية :

١ ـ توثيق مسلم والتدليل على سموّ مكانته ، فهو ثقة الحُسين.

٢ ـ تحديد صلاحية مسلم باستكشاف الأوضاع الراهنة ، ومعرفة التيارات السياسية ومدى صدق القوم في دعواهم. ومِن الطبيعي أنّه لا تُناط معرفة هذه الأمور الحساسة إلا بمَن كانت له المعرفة التامّة بشؤون المجتمع وأحوال الناس.

٣ ـ إنّه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلم له بإجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته ، فلا يقدم عليهم حتى يعرّفه سفيره بذلك.

---

(١) هما : هانئ بن هانئ السّبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٧.

٤ ـ إنّه تحدّث عمّا يجب أن يتّصف به الإمام والقائد لمسيرة الأُمّة مِن الصفات ، وهي :

أ ـ العمل بكتاب الله.

ب ـ الأخذ بالقسط.

ج ـ الإداناة بالحق.

د ـ حبس النفس على ذات الله.

ولم تتوفّر هذه الصفات الرفيعة إلا في شخصيته الكريمة التي تحكي اتّجاهات الرسول (صلّى الله عليه وآله) ونزعاته.

وتسلّم مسلم هذه الرسالة ، وقد أوصاه الإمام بتقوى الله وكتمان أمره [1] ، وغادر مسلم مكّة ليلة النصف مِن رمضان [2] ، وعرج في طريقه على يثرب فصلّى في مسجد الرسول (صلّى الله عليه وآله) وطاف بضريحه ، وودّع أهله وأصحابه [3] ، وكان ذلك هو الوداع الأخير لهم ، واتّجه صوب العراق وكان معه قيس بن مسهر الصيداوي ، وعمارة بن عبد الله السلولي وعبد الرحمن بن عبد الله الأزدي ، واستأجر مِنْ يثرب دليلين مِنْ قيس يدلاّنه على الطريق [4].

وسارت قافلة مسلم تجدّ في السير لا تلوي على شيء ، يتقدّمها الدليلان وهما يتنكبان الطريق ؛ خوفاً مِن الطلب فضلاً عن الطريق ، ولم يهتديا له وقد أعياهما السير واشتدّ بهما العطش ، فأشارا إلى مسلم بسنن الطريق بعد

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

(٢) مروج الذهب ٢ / ٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٨.

(٤) الأخبار الطوال / ٢٣١ ، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

أن بان لهما وتوفيا في ذلك المكان حسبما يقوله المؤرّخون [١] ، وسار مسلم مع رفقائه حتّى أفضوا إلى الطريق ووجدوا ماءً فأقاموا فيه ؛ ليستريحوا ممّا ألمّ بهمْ مِنْ عظيم الجهد والعناء.

رسالة مسلم للحُسين (عليهما السّلام) :

ويقول المؤرّخون : إنّ مسلم تخوّف مِنْ سفره وتطيّر بعد أنْ أصابه مِن الجهد وموت الدليلين ، فرفع للإمام رسالة يرجو فيها الاستقالة مِنْ سفارته ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّي أقبلت مِن المدينة مع دليلين ، فجازا [٢] عن الطريق فضلاّ ، واشتدّ عليهما العطش فلمْ يلبثا أنْ ماتا ، وأقبلنا حتّى انتهينا إلى الماء فلمْ ننجُ إلاّ بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى (المضيق) مِن بطن الخبث ، وقد تطيّرت مِنْ توجّهي هذا ، فإنْ رأيت أعفيتني مِنه وبعثت غيري ، والسّلام.

جواب الحُسين (عليه السّلام) :

وكتب الإمام الحُسين جوابا لرسالة مسلم ندد فيه بموقفه واتّهمه بالجبن ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فقد خشيت أنْ لا يكون حمَلَك على الكتاب إليّ في الاستعفاء مِن الوجه الذي وجّهتك له إلاّ الجبن ، فامضِ لوجهك الذي

(١) الإرشاد / ٢٢٧.

(٢) جازا عن الطريق : أي تركاه خلفهما.

وجّهتك فيه ، والسّلام [1].

أضواء على الموضوع :

وأكبر الظنّ أنّ رسالة مسلم مع جواب الإمام مِن الموضوعات ، ولا نصيب لها مِن الصحة ؛ وذلك لما يلي :

١ ـ إن مضيق الخبث الذي بعث منه مسلم رسالته إلى الإمام يقع ما بين مكّة والمدينة حسب ما نص عليه الحموي [2] ، في حين أنّ الرواية تنصّ على أنّه استأجر الدليلين مِنْ يثرب ، وخرجوا إلى العراق فضلّوا عن الطريق وماتا الدليلان. ومِن الطبيعي أن هذه الحادثة وقعت ما بين المدينة والعراق ولم تقع ما بين مكّة والمدينة.

٢ ـ إنّه لو كان هناك مكان يُدعى بهذا الاسم يقع ما بين يثرب والعراق لمْ يذكره الحموي ، فإنّ السفر منه إلى مكّة ذهاباً وإياباً يستوعب زماناً يزيد على عشرة أيّام ، في حين أنّ سفر مسلم مِن مكّة إلى العراق قد حدّده المؤرّخون فقالوا : إنّه سافر مِن مكّة في اليوم الخامس عشر مِن رمضان وقدم إلى الكوفة في اليوم الخامس مِنْ شوال ، فيكون مجموع سفره عشرين يوماً ، وهي أسرع مدّة يقطعها المسافر مِن مكّة إلى المدينة ؛ فإن المسافة بينهما تزيد على ألف وستمئة كيلو متر.

وإذا استثنينا مِن هذه المدّة سفر رسول مسلم مِن ذلك المكان ورجوعه إليه فإن مدّة سفره مِن مكّة إلى الكوفة تكون أقلّ مِنْ عشرة أيّام ، ويستحيل عادة قطع تلك

---

(١) الإرشاد / ٢٢٦ ، وفي الحدائق الوردية ١ / ١١٧ خرج مسلم مِنْ مكّة حتّى أتى المدينة ، وأخذ منها دليلين ، فمرّا به في البريّة فأصابهما عطش فمات أحد الدليلين ، فكتب مسلم إلى الحُسين يستعفيه ، فكتب إليه الحُسين (عليه السّلام) : «أن امض إلى الكوفة».

(٢) معجم البلدان ٢ / ٣٤٣.

المسافة بهذه الفترة مِن الزمن.

٣ . إنّ الإمام اتّهم مسلماً في رسالته بالجبن ، وهو يناقض توثيقه له مِنْ أنّه ثقته وكبير أهل بيته والمبرز بالفضل عليهم ، ومع اتّصافه بهذه الصفات كيف يتّهمه بالجبن؟!

٤ . إنّ اتّهام مسلم بالجبن يتناقض مع سيرته ؛ فقد أبدى هذا البطل العظيم مِن البسالة والشجاعة النادرة ما يبهر العقول ، فإنّه حينما انقلبت عليه جموع أهل الكوفة قابلها وحدّه مِنْ دون أنْ يعينه أو يقف إلى جنبه أيّ أحد ، وقد أشاع في تلك الجيوش المكثّفة القتل ممّا ملأ قلوبهم ذعراً وخوفاً ، ولما جيء به أسيراً إلى ابن زياد لمْ يظهر عليه أيّ ذلّ أو انكسار.

ويقول فيه البلاذري : إنّه أشجع بني عقيل وأرجلهم [١] ، بل هو أشجع هاشمي عرفه التاريخ بعد أئمّة أهل البيت (عليهم السّلام).

إن هذا الحديث مِن المفتريات الذي وضِع للحط مِن قيمة هذا القائد العظيم الذي هو مِن مفاخر الأُمّة العربية والإسلاميّة.

في بيت المختار :

وسار مسلم يطوي البيداء حتى دخل الكوفة فاختار النزول في بيت المختار الثقفي [٢] ، وهو مِن أشهر أعلام الشيعة وأحد سيوفهم ومِن أحب الناس وأنصحهم للإمام الحُسين.

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

(٢) الإرشاد / ٢٢٦ ، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧ ، وقيل : نزل مسلم في بيت مسلم بن عوسجة ، وقيل : نزل في بيت هانئ بن عروة ، جاء ذلك في كلّ مِن الإصابة ١ / ٣٣٢ ، وتهذيب التهذيب.

لقد اختار مسلم النزول في بيت المختار دون غيره مِن زعماء الشيعة ؛ وذلك لوثوقه بإخلاصه للإمام الحُسين وتفانيه في حبّه ، كما أنّ هناك عاملاً آخر له أهمّيته ، فقد كان المختار زوجاً لعمرة بنت النعمان بن بشير حاكم الكوفة ، ولا شك أنّ يده لنْ تمتد إلى المسلم طالماً كان مقيما في بيت صهره المختار ، وقد دلّ ذلك على إحاطة مسلم بالشؤون الاجتماعية.

وفتح المختار أبواب داره لمسلم وقابله بمزيد مِن الحفاوة والتكريم ، ودعا الشيعة إلى مقابلته ، فأقبلوا إليه مِن كل حدب وصوب وهم يظهرون له الولاء والطاعة.

ابتهاج الكوفة :

وعمّت الأفراح بمقدم مسلم جميع الأوساط الشيعية في الكوفة ، وقد وجد منهم مسلم ترحيباً حارّاً وتأييداً شاملاً ، وكان يقرأ عليهم رسالة الحُسين وهم يبكون ويبدون التعطّش لقدومه والتفاني في نصرته ؛ لينقذهم مِنْ جور الأُمويّين وظلمهم ويعيد في مصرهم حكم الإمام أمير المؤمنين ، مؤسس العدالة الكبرى في الأرض ، وكان مسلم يوصيهم بتقوى الله وكتمان أمرهم حتّى يقدم إليهم الإمام الحُسين.

البيعة للحُسين (عليه السّلام) :

وانثالت الشيعة على مسلم تبايعه للإمام الحُسين (عليه السّلام) ، وكانت صيغة البيعة الدعوة إلى كتاب الله وسنّة رسوله وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسمة الغنائم بين المسلمين بالسويّة ، وردّ المظالم إلى

أهلها ونصرة أهل البيت (عليهم السّلام) ، والمسالمة لمَنْ سالموا والمحاربة لمَنْ حربوا. وقد شبّه السيّد المقرّم هذه البيعة ببيعة الأوس والخزرج للنّبي (صلى الله عليه وآله) [١] ، وكان حبيب بن مظاهر الأسدي يأخذ البيعة منهم للحُسين [٢].

كلمة عابس الشاكري :

وانبرى المؤمن الفذ عابس بن شبيب الشاكري فأعرب لمسلم عن ولائه الشخصي واستعداده للموت في سبيل الدعوة ، إلاّ إنّه لمْ يتعهد له بإيّ أحد مِنْ أهل مصره قائلاً : أمّا بعد ، فإنّي لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما في أنفسهم وما أغرّ منهم. والله ، إنّي محدّثك عمّا أنا موطّن عليه نفسي. والله ، لأُجيبنَّكم إذا دعوتم ولأُقاتلنَّ معكم عدوكم ، ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتّى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلاّ ما عند الله.

وقد صدق عابس ما عاهد عليه الله ؛ فلم يخن ضميره ففدى بنفسه ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) واستشهد بين يديه في كربلاء. وانبرى حبيب ابن مظاهر فخاطب عابسا قائلا له : رحمك الله ، فقد قضيت ما في نفسك بواجز مِنْ قولك ، وأنا والله الذي لا إله إلاّ هو على مثل ما أنت عليه.

واندفع سعيد الحنفي فأيّد مقالة صاحبيه [٣] ، وهؤلاء الأبطال مِنْ

---

(١) الشهيد مسلم بن عقيل / ١٠٣.

(٢) الحدائق الوردية ١ / ١٢٥ مِن مخطوطات مكتبة الإمام كاشف الغطاء العامّة.

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٩.

أنبل مَن عرفهم التاريخ صدقا ووفاءً ، فقد بذلوا أرواحهم بسخاء إلى الإمام الحُسين واستشهدوا بين يديه في كربلاء.

عدد المبايعين :

وتسابقت جماهير الكوفة إلى بيعة الحُسين على يد سفيره مسلم بن عقيل ، وقد اختلف المؤرّخون في عدد مَنْ بايعه ، وهذه بعض الأقوال :

١ ـ أربعون ألفا [١].

٢ ـ ثلاثون ألفاً ، ومِنْ بينهم حاكم الكوفة النعمان بن بشير [٢].

٣ ـ ثمانية وعشرون ألفا [٣].

٤ ـ ثمانية عشر ألفاً ، حسب ما جاء في رسالة مسلم إلى الحُسين ، يقول فيها : وقد بايعني مِن أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا فعجل الإقبال [٤].

---

(١) شرح شافية أبي فراس ١ / ٩٠ مِنْ مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم ، مثير الأحزان لابن نما / ١١.

(٢) دائرة معارف وجدي ٣ / ٤٤٤ ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان . محمد بن أبي بكر المتوفى سنة (٧٣٠ هـ) / ٦٧ مِنْ مصوّرات مكتبة الحكيم ، مناقب الإمام علي بن أبي طالب / ١٣ ، وجاء فيه : أن النعمان قال : يا أهل الكوفة ، ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أحب إليكم مِن ابن بنت بجدل.

(٣) تاريخ أبي الفداء ١ / ٣٠٠.

(٤) تاريخ الطبري ٦ / ٢٢٤.

٥ ـ اثنا عشر ألفا [١].

رسالة مسلم للحُسين :

وازداد مسلم إيماناً ووثوقاً بنجاح الدعوة حينما بايعه ذلك العدد الهائل مِنْ أهل الكوفة ، فكتب للإمام يستحثّه فيها على القدوم إليهم ، وكان قد كتبها قبل شهادته ببضع وعشرين ليلة [٢] ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّ الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني مِنْ أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً [٣] فعجّل حين يأتيك كتابي ، فإنّ الناس كلّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى [٤].

لقد كتب مسلم هذه الرسالة ؛ لأنّه لمْ يرَ أيّة مقاومة لدعوته ، وإنّما رأى إجماعاً شاملاً على بيعة الإمام وتلهّفاً حارّاً لرؤيته ، وحمل الكتاب جماعة مِنْ أهل الكوفة وعليهم البطل العظيم عابس الشاكري ، وقدم الوفد مكّة المكرّمة وسلّم الرسالة إلى الإمام ، وقد استحثّوه على القدوم إلى الكوفة وذكروا إجماع أهلها على بيعته وما قالاه مسلم مِن الحفاوة البالغة منهم ؛ وعند ذلك تهيأ الإمام إلى السفر للكوفة.

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٤ ، الصراط السوي في مناقب آل النّبي / ٨٦ مِنْ مصوّرات مكتبة الإمام الحكيم ، تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥٠ ، الإصابة ١ / ٣٣٢ ، الحدائق الوردية ١ / ١١٧.

(٢) أنساب الأشراف ١ / ق ١.

(٣) وفي رواية البلاذري (إن جميع أهل الكوفة معك).

(٤) تاريخ الطبري ٦ / ٢٢٤.

موقف النعمان بن بشير :

كان موقف النعمان بن بشير [1] من الثورة موقفاً يتّسم باللين والتسامح ، وقد اتّهمه الحزب الأُموي بالضعف ، أو التضاعف في حفظ مصلحة الدولة والاهتمام بسلامتها ، فأجابهم : لأن أكون ضعيفا وأنا في طاعة الله أحب إلي مِن أن أكون قويّا في معصية الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله [2].

وقد أعطى الشيعة بموقفه هذا قوّة وشجعهم على العمل ضد الحكومة علناً ، ولعلّ سبب ذلك يعود لأمرين :

١ ـ إنّ مسلم بن عقيل كان ضيفاً عند المختار ، وهو زوج ابنته عمرة ، فلم يعرض للثوار بسوء رعاية للمختار.

---

(١) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي ، كان قد ولاّه معاوية الكوفة بعد عبد الرحمن بن الحكم ، وكان عثماني الهوى ؛ يجاهر ببغض علي ويسيء القول فيه ، وقد حاربه يوم الجمل وصفين ، وسعى بإخلاص لتوطيد المُلْك إلى معاوية ، وهو الذي قاد بعض الحملات الإرهابيّة على بعض المناطق العراقيّة. ويقول المحقّقون : إنّه كان ناقماً على يزيد ، ويتمنّى زوال المُلْك عنه شريطة أن لا تعود الخلافة لآل علي (عليه السّلام). ومِن الغريب في شأن هذا الرجل أن يزيد لمّا أوقع بأهل المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيّام لم يثأر النعمان لكرامة وطنه وقومه ، وفي الإصابة ٣ / ٥٣٠ إنّه لمّا هلك يزيد دعا النعمان إلى ابن الزّبير ، ثمّ دعا إلى نفسه فقاتله مروان ، فقُتل وذلك في سنة (٦٥ هـ). وكان شاعراً مجيداً ، له ديوان شعر طُبع حديثا.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠٦.

٢ ـ إن النعمان كان ناقما على يزيد ؛ وذلك لبغضه للأنصار. فقد أغرى الأخطل الشاعر المسيحي في هجائهم ، فثار لهم النعمان كما ألمعنا إلى ذلك في البحوث السابقة ، ولعل لهذا ولغيره لم يتّخذ النعمان أي إجراء مضاد للثورة.

خطبة النعمان :

وأعطى النعمان للشيعة قوّة في ترتيب الثورة وتنظيماً ، وهيأ لهم الفرص في أحكام قواعدها ممّا ساء الحزب الأُموي ، فأنكروا عليه ذلك وحرّضوه على ضرب الشيعة ، فخرج النعمان وصعد المنبر فأعلن للناس سياسته المتّسمة بالرفق ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أمّا بعد ، فاتّقوا الله عباد الله ، ولا تُسارعوا إلى الفتنة والفرقة ؛ فإنّ فيها تهلك الرجال وتُسفك الدماء وتُغصب الأموال. إني لمْ أُقاتل مَنْ لمْ يُقاتلني ، ولا أثب على مَنْ لا يثب عليّ ، ولا أُشاتمكم ، ولا أتحرّش بكم ، ولا آخذ بالقرف [١] ولا الظنّة ولا التّهمة ، ولكنّكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله إلاّ هو ، لأضربنّكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لمْ يكن منكم ناصر. أما إني أرجو أن يكون مَن يعرف الحق منكم أكثر ممّن يرديه الباطل [٢].

وليس في هذا الخطاب أي ركون إلى وسائل العنف والشدّة ، وإنّما كان فيه تحذير مِنْ مغبّة الفتنة وحبّ للعافية ، وعدم التعرّض لمنْ لا يثب على السلطة ، وعدم أخذ الناس بالظنّة والتّهمة كما كان يفعل زياد بن أبيه

(١) القرف : التهمة.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

والي العراق. وعلق أنيس زكريا على خطاب النعمان بقوله :

ولنا مِن خطبه ـ أي خطب النعمان ـ في الكوفة برهان آخر على أنّه كان يرى الفتنة يقظى ولا بد أنْ تشتعل ، وإنّه لنْ يهاجم القائمين بها قبل أنْ يهاجموه ، فجعل لأنصارها قوّة وطيدة الأركان ويدا فعالة في ترتيب المؤامرة وتنظيمها على الأسس المتينة (١).

سخط الحزب الأموي :

وأغضبت سياسة النعمان عملاء الحكم الأُموي ، فانبرى إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي حليف بني أُميّة ، فأنكر خطّته قائلاً : إنّه لا يصلح ما ترى إلا الغشم (٢) ، وإنّ هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوّك رأي المستضعفين! (٣).

ودافع النعمان عن نفسه بأنّه لا يعتمد على أيّة وسيلة تبعده عن الله ، ولا يسلك طريقاً يتجافى مع دينه ، وقد استبان للحزب الأُموي ضعف النعمان وانهياره أمام الثورة.

اتصال الحزب الأُموي بدمشق :

وفزع الحزب الأُموي مِن تجاوب الرأي العام مع مسلم واتّساع نطاق الثورة ، في حين أنّ السلطة المحليّة أغضّت النظر عن مجريات الأحداث

---

(١) الدولة الأُمويّة في الشام / ٤١.

(٢) الغشم : الظلم.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

وقد اتّهمتها بالضعف أو بالتواطؤ مع الثوار ، وقام الحزب الأُموي باتّصال سريع بحكومة دمشق ، وطلبوا منها اتّخاذ الإجراءات الفورية قبل أنْ يتّسع نطاق الثورة ، ويأخذ العراق استقلاله وينفصل عن التبعية لدمشق.

ومِنْ بين الرسائل التي وفدت على يزيد رسالة عبد الله الحضرمي ، جاء فيها : أمّا بعد ، فإنّ مسلم بن عقيل قدم الكوفة وبايعته الشيعة للحسين بن علي ، فإنْ كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويّا ينفّذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوّ ؛ فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعّف [1].

وتدعو هذه الرسالة إلى إقصاء النعمان عن مركزه ، واستعمال شخص آخر مكانه قوي البطش ؛ ليتمكن مِن القضاء على الثورة ، فإنّ النعمان لا يصلح للقضاء عليها. وكتب إليه بمثل ذلك عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد.

فزع يزيد :

وفزع يزيد حينما توافدت عليه رسائل عملائه في الكوفة بمبايعة أهلها للحُسين ، فراودته الهواجس وظل ينفق ليله ساهرا يطيل التفكير في الأمر ؛ فهو يعلم أن العراق مركز القوّ في العالم الإسلامي وهو يبغضه ويحقد على أبيه ، فقد أصبح موتراً منهم لما صبّوه عليه مِن الظلم والجور ، وإنّ كراهية أهل العراق ليزيد لا تقلّ عن كراهيتهم لأبيه ، كما إنّه على

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

يقين أن الأغلبية الساحقة في العالم الإسلامي تتعطّش لحكم الإمام الحُسين ؛ لأنّه المثل الشرعي لجدّه وأبيه ولا يرضون بغيره بديلا.

استشارته لسرجون :

وأحاطت الهواجس بيزيد وشعر بالخطر الذي يهدّد مُلْكه فاستدعى سرجون الرومي ، وكان مستودع أسرار أبيه ومِنْ أدهى الناس ، فعرض عليه الأمر ، وقال له : ما رأيك إن حُسينا قد توجّه إلى الكوفة ، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحُسين ، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيئ ، فما ترى مَنْ أستعمل على الكوفة؟

وتأمّل سرجون وأخذ يطيل التفكير ، فقال له : أرأيت أن معاوية لو نُشر أكنت آخذا رأيه؟ فقال يزيد : نعم. فأخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة ، وقال : هذا رأي معاوية وقد مات ، وقد أمر بهذا الكتاب (١).

أمّا دوافع سرجون في ترشيح ابن زياد لولاية الكوفة فهي لا تخلو مِن أمرين :

١ ـ إنّه يعرف قسوة ابن زياد وبطشه وأنّه لا يقوى أحد على إخضاع العراق غيره ؛ فهو الذي يتمكّن مِن القضاء على الثورة بما يملك مِن وسائل الإرهاب والعنف.

٢ ـ إنّه قد دفعته العصبية القومية لهذا الترشيح ؛ فإن ابن زياد رومي.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨.

ولاية ابن زياد على الكوفة :

وكان يزيد ناقماً على ابن زياد كأشدّ ما تكون النقمة ، وأراد عزله عن البصرة [١] ؛ وذلك لمعارضة أبيه في البيعة له ، إلاّ إنّه استجاب لرأي سرجون ؛ فقد رأى فيه الحفاظ على مصلحة دولته ، فعهد له بولاية الكوفة والبصرة ، وبذلك فقد خضع العراق بأسره لحكمه ، وكتب إليه هذه الرسالة : أمّا بعد ، فإنّه كتب إليّ شيعتي مِنْ أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشقّ عصا المسلمين ، فسرْ حين تقرأ كتابي هذا حتّى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتّى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه ، والسّلام.

وأشارت هذه الرسالة إلى مدى قلق السلطة في دمشق وفزعها مِنْ مسلم بن عقيل ، وقد شدّدت على ابن زياد في الإسراع بالسفر إلى الكوفة لإلقاء القبض عليه.

وتنص بعض المصادر أن يزيد كتب إلى ابن زياد : إن كان لك جناحان فطر إلى الكوفة [٢] ، وهذا ممّا ينبئ عن الخوف الذي ألم بيزيد مِن الثورة في العراق. وحمل مسلم بن عمرو الباهلي العهد لابن زياد بولاية الكوفة مع تلك الرسالة.

ويقول المؤرّخون : إنّ الباهلي كان مِنْ عيون بني أُميّة في الكوفة ومِنْ أهمّ عملائهم ، كما كان مِنْ أجلاف العرب ، وهو الذي ضنّ على مسلم أنْ يشرب جرعة مِن الماء حينما جيء به أسيراً إلى ابن زياد.

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠١.

وتسلّم ابن زياد مِن الباهلي العهد له بولاية الكوفة وقد طار فرحا ؛ فقد تم له الحكم على جميع أنحاء العراق بعد ما كان مهدّداً بالعزل عن ولاية البصرة ، وقد سرّ ما خولته دمشق مِن الحكم المطلق على العراق.

وبما سوّغت له مِن استعمال الشدّة والقسوة وسفك الدماء لكل مَن لا يدخل في طاعة يزيد أو يشترك بأيّة مؤامرة ضدّه ، وكان هذا التفويض المطلق في استعمال القسوة على الناس ممّا يتّفق مع رغبات ابن زياد وميوله ؛ فقد كان مِن عوامل استمتاعاته النفسية حب الجريمة والإساءة إلى الناس ، وعدم التردّد في سفك الدماء.

خطبة ابن زياد في البصرة :

وتهيأ ابن زياد لمغادرة البصرة والتوجّه إلى الكوفة ، وقبل مغادرته لها جمع الناس وخطب فيهم خطاباً قاسياً ، جاء فيه : إن أمير المؤمنين يزيد ولاّني الكوفة وأنا غاد إليها الغداة. فوالله ، إنّي ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنآن ، وإنّي لنكل لمَنْ عاداني وسمّ لمَنْ حاربني ، أنصف القارة مِن راماها.

يا أهل البصرة ، قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإيّاكم والخلاف والإرجاف ، فوالله الذي لا إله غيره ، لئن بلغني عن رجلٍ منكم خلاف لأقتلنّه وعرينه [1] ووليّه ، ولآخذنّ الأدنى بالأقصى حتّى تسمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ... أنا ابن زياد أشبه

---

(١) العرين : الجماعة.

بين مَنْ وطأ الحصا ، ولمْ ينتزعني شبه خال ولا ابن عم [١].

ما أهون سفك الدماء عند اُولئك البرابرة الوحوش مِن ولاة بني اُميّة! لقد تجرّد الطاغية عن نفسيته الشريرة التي توغّلت في الإثم ، فهو يأخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر والأدنى بالأقصى ، ويقتل على الظنّة والتهمة كما كان يفعل أبوه زياد ، الذي أشاع القتل في ربوع العراق.

سفر الطاغية إلى الكوفة :

وسار الخبيث الدنس مِن البصرة متّجها إلى الكوفة ؛ ليقترف أعظم موبقة لم يقترفها شقي غيره ، وقد صحبه مِنْ أهل البصرة خمسمئة رجل فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل وشريك بن الأعور الحارثي [٢] ، وهو مِنْ أخلص أصحاب الإمام الحُسين ، وقد صحب ابن زياد ليكون عيناً عليه ويتعرّف على خططه ، وقد صحب ابن زياد هذا العدد ليستعين بهم على بثّ الإرهاب وإذاعة الخوف بين الناس ، والاتصال بزعماء الكوفة لصرفهم عن الثورة.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد أخذ ابن زياد يجدّ في السير لا يلوي على شيء قد واصل السير إلى الكوفة مخافة أنْ يسبقه الحُسين إليها ، وقد جهد أصحابه وأعياهم المسير ، فسقط منهم جماعة منهم عبد الله بن الحارث فلم يعبأ.

ولمّا ورد القادسية سقط مولاه (مهران) ، فقال له ابن زياد : إن أمسكت على هذا الحال فتنظر إلى القصر فلك مئة ألف. فقال له مهران : لا والله لا أستطيع. ونزل الطاغية فلبس ثيابا

---

(١) الطبري ٦ / ٢٠٠.

(٢) الطبري ٦ / ١٩٩.

يمانية وعمامة سوداء وتلثّم ؛ ليوهم مَنْ رآه أنّه الحُسين ، وسار وحده فدخل الكوفة ممّا يلي النجف [1] ، وكان قلبه كجناح طائر مِنْ شدّة الخوف ، ولو كانت عنده مسكة مِن البسالة والشجاعة لما تنكّر وغير بزّته وأوهم على الناس أنّه الحُسين.

وقد تذرّع الجبان بهذه الوسائل لحماية نفسه ، وتنصّ بعض المصادر أنّه حبس نفسه عن الكلام خوفا مِن أن يعرفه الناس فتأخذه سيوفهم.

في قصر الإمارة :

وأسرع الخبيث نحو قصر الإمارة [2] وقد علاه الفزع وساءه كأشد ما يكون الاستياء ؛ مِن تباشير الناس وفرحهم بقدوم الإمام الحُسين ،

---

(١) مقتل الحُسين ـ المقرم / ١٦٥.

(٢) قصر الإمارة : هو أقدم بناية حكومية شُيّدت في الإسلام ، بناها سعد بن أبي وقاص ، وقد اندثرت معالمه كما اندثرت جميع معالم الكوفة ما عدا الجامع. وقد اهتمت مديرية الآثار العامّة في العراق بالتعرّف عليه ؛ فكشفت في مواسم مختلفة أُسسه ، وقد أظهرت نتائج الحفائر التي أُجريت عليه أنّه يتألّف مِنْ سور خارجي يضمّ أربعة جدران ، تقريبا طولها ١٧٠ متراً ، ومعدل سمكها ٤ أمتار ، وتدعم كلّ ضلع مِنْ الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي ، حيث يدعمها برجان فقط. والمسافة ما بين كل برج وآخر ٢٤ و ٦٠ سنتمتر ، وارتفاع هذا السور بأبراجه يصل إلى ما يقرب مِن عشرين مترا. وقد بُني القصر بناء محكماً ، وصُمّمت هندسته على غاية حربية ؛ ليكون في حماية آمنة مِنْ كلّ غزو خارجي ، جاء ذلك في تخطيط مدينة الكوفة للدكتور كاظم الجنابي / ١٣٥ ـ ١٥٥ =

ولما انتهى إلى باب القصر وجده مغلقاً والنعمان بن بشير مشرف مِنْ أعلا القصر ، وكان قد توهّم أنّ القادم هو الحُسين ؛ لأنّ أصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته ، فانبرى يخاطبه : ما أنا بمؤدٍ إليك أمانتي يا بن رسول الله ، ومالي في قتالك مِنْ إرب.

ولمس ابن مرجانة في كلام النعمان الضعف والانهيار فصاح به بنبرات تقطر غيظاً : افتح لا فتحت ، فقد طال ليلك. ولمّا تكلم عرفه بعض مَن كان خلفه فصاح بالناس : إنّه ابن مرجانة ورب الكعبة!

ومِن الغريب أنّ ذلك المجتمع لمْ يُميّز بين الإمام الحُسين وبين ابن مرجانة ، مع أنّ كلاً منهما قد عاش فترة في ديارهم ؛ ولعل الذي أوقعهم في ذلك تغيير ابن زياد لبزّته ولبسه للعمامة السوداء.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ الناس حينما علموا إنّه ابن زياد جفلوا وخفّوا مسرعين إلى دورهم وهم يتحدّثون عمّا عانوه مِن الظلم والجور أيّام أبيه ، وقد أوجسوا مِنْ عبيد الله الشرّ.

وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسّلاح ، وأنفق ليله ساهراً قد جمع حوله عملاء الحكم الأُموي ، فأخذوا يحدّثونه عن الثورة ويعرّفونه بأعضائها البارزين ، ويضعون معه المخططات للقضاء عليها.

= وقد وقفت عليه غير مرّة ، وتطلّعت إلى كثير مِنْ معالمه ، ففي بعض أبوابه الرئيسة مظلاّت لحرّاس القصر قد ردمت ولمْ يبقَ منها إلاّ بعض معالمها ، وفي جانب منه بعض الغرف التي أُعدّت للسجن ، وقد صُمّمت بشكل غريب ، وفي جانب منه مطابخ القصر . ولم يشر الأُستاذ الجنابي إليها . وقد أُحكم بناء القصر حتى كان مِن المتعذّر اقتحامه والاستيلاء عليه.

خطابه في الكوفة :

وعندما انبثق نور الصبح أمر ابن مرجانة بجمع الناس في المسجد الأعظم ، فاجتمعت الجماهير وقد خيّم عليها الذعر والخوف ، وخرج ابن زياد متقلداً سيفه ومعتمّاً بعمامة ، فاعتلى أعواد المنبر وخطب الناس ، فقال : أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين أصلحه الله ولاّني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مريبكم ، فأنا لمطيعكم كالوالد البرّ الشفيق ، وسيفي وسوطي على مَنْ ترك أمري وخالف عهدي ، فليبق امرؤ على نفسه الصدق ينبئ عنك لا الوعيد [1].

وحفل هذا الخطاب بما يلي :

١ ـ إعلام أهل الكوفة بولايته على مصرهم وعزل النعمان بن بشير عنه.

٢ ـ تعريفهم أن حكومة دمشق قد عهدت له بالإحسان على مَن يتبع السلطة ولم يتمرّ عليها ، واستعمال الشدّة والقسوة على الخارجين عليها.

ولم يعرض ابن مرجانة في خطابه للإمام الحُسين وسفيره مسلم ؛ خوفا مِن انتفاضة الجماهير عليه وهو بعد لم يحكم أمره.

---

(١) مقاتل الطالبيّين / ٩٧.

نشر الإرهاب :

وعمد ابن زياد إلى نشر الإرهاب وإذاعة الخوف ، ويقول بعض المؤرّخين : إنّه لمّا أصبح ابن زياد بعد قدومه إلى الكوفة صالَ وجالَ وأرعدَ وأبرقَ ، وأمسكَ جماعةً مِنْ أهل الكوفة فقتلهم في الساعة [1] ، وقد عمد إلى ذلك لإماتة الأعصاب وصرف الناس عن الثورة.

وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس في المسجد وخرج إليهم بزي غير ما كان يخرج به ، فخطب فيهم خطاباً عنيفاً تهدّد فيه وتوعّد ، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه : أمّا بعد ، فإنّه لا يصلح هذا الأمر إلاّ في شدّة مِنْ غير عنف ولين مِنْ غير ضعف ، وأنْ أخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، والولي بالولي.

فانبرى إليه رجل مِن أهل الكوفة يُقال له : أسد بن عبد الله المري فرد عليه : أيّها الأمير ، إنّ الله تبارك وتعالى يقول : (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) ، إنّما المرء بجدّه ، والسيف بحدّه ، والفرس بشدّه ، وعليك أنْ تقول وعلينا أنْ نسمع ، فلا تقدّم فينا السيئة قبل الحسنة.

وأُفحم ابن زياد فنزل عن المنبر ودخل قصر الإمارة [2].

---

(١) الفصول المهمة / ١٩٧ ، وسيلة المال / ١٨٦.

(٢) الفتوح ٥ / ٦٧.

تحوّل مسلم إلى دار هانئ :

واضطر مسلم إلى تغيير مقره وإحاطة نشاطه السياسي بكثير مِن السر والكتمان ؛ فقد شعر بالخطر الذي داهمه حينما قدم الطاغية إلى الكوفة ، فهو يعلم بخبث هذا الوغد وإنّه لا يرجو لله وقاراً ولا يتحرّج مِنْ اقتراف الإثم ، وقد أجمع أمره على مغادرة دار المختار ؛ لأنّه لمْ تكن عنده قوّة تحميه ولمْ يكن يأوي إلى ركن شديد ، فالتجأ إلى دار هانئ بن عروة ؛ فهو سيّد المصر وزعيم مراد ، وعنده مِن القوّة ما يضمن حماية الثورة والتغلّب على الأحداث.

فقد كان فيما يقول المؤرّخون : إذا ركب يركب معه أربعة آلاف دارع ، وثمانية آلاف راجل ، فإذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع [1] ، كما كانت له ألطاف وأياد بيضاء على أُسرته ممّا جعلتهم يكنّون له أعمق الود والإخلاص.

ومضى مسلم إلى دار هذا الزعيم العربي الكبير ، فرحّب به واستقبله بحفاوة بالغة. وتنص بعض المصادر [2] إنّه قد ثقل على هانئ استجارة مسلم به ، وعظم عليه أنْ يتّخذ داره معقلاً للثورة ومركزاً للتجمعات ضد الدولة ؛ فإنّه بذلك يعرض نفسه للنقمة والبلاء ، إلاّ أنّه استجاب لمسلم على كره ؛ خضوعا للعادات العربية التي لا تطرد اللاجئ إليها وإن عانت مِن ذلك أعظم المصاعب والمشاكل.

والذي نراه أنّه لا صحة لذلك ؛ فإنّ مسلماً لو شعر منه عدم الرضا والقبول لما ركن إليه ، وتحرّج كأشد ما يكون التحرّج من دخول داره ؛ وذلك لما توفّرت في مسلم مِن الطاقات التربوية الدينية ، وما عُرِفَ به مِن الشمم والإباء الذي يبعده كلّ البعد من

(١) مروج الذهب ٢ / ٨٩.

(٢) الأخبار الطوال / ٢١٣.

سلوك أي طريق فيه حرج أو تكلّف على الناس. وبالإضافة إلى ذلك ، فإنّ مسلماً لو لمْ يحرز منه التجاوب التام والإيمان الخالص بدعوته لما التجأ إليه في تلك الفترة العصبية التي تحيط به.

إن مِن المؤكد أن هانيا لم يستجب لحماية مسلم والدفاع عنه على كره أو حياء ، وإنّما استجاب له عن رضى وإيمان يوحي مِن دينه وعقيدته.

وعلى أيّ حالٍ فقد استقر مسلم في دار هانئ واتّخذها مقرّاً للثورة ، وقد أحنف [١] به هانئ ودعا القبائل لمبايعته ، فبايعه في منزله ثمانية عشر ألفاً [٢] ، وقد عرف مسلم هانئا بشؤون الثورة وأحاطه علماً بدُعاتها وأعضائها البارزين.

امتناع مسلم من اغتيال ابن زياد :

وذهب معظم المؤرّخين إلى أن شريك بن الأعور مرض مرضا شديدا في بيت هانئ بن عروة أو في بيته [٣] ، فانتهى خبره إلى ابن زياد ، فأرسل إليه رسولاً يعلمه أنّه آت لعيادته فاغتنم شريك هذه الفرصة ، فقال لمسلم : إنّما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية ، وقد أمكنك الله منه ، وهو صائر إليّ ليعودني ، فقم فادخل الخزانة حتّى إذا أطمأنّ عندي فاخرج إليه فاقتله ، ثمّ صر إلى قصر الإمارة فاجلس فيه ؛ فإنّه لا ينازعك فيه أحد مِن الناس ، وإنْ رزقني الله العافية صرت إلى البصرة فكفيتك أمرها ، وبايع

---

(١) هكذا وردت مفردة (أحنف) ، ولعلها (احتف). (موقع معهد الإمامين الحسنين).

(٢) الأخبار الطوال / ٢١٤.

(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٥٣ ، والمشهور بين المؤرّخون أنّ شريكاً كان في بيت هانئ لا في بيته ، فقد كان مقيماً بالبصرة ، وجاء مع ابن زياد إلى الكوفة.

لك أهلها [١].

وكره هانئ أن يُقتل ابن زياد في داره ؛ تمسّكا بالعادات العربية التي لا تبيح قتل الضيف والقاصد إليها في بيوتها [٢] ، فقال له : ما أحب أن يُقتل في داري.

فقال له شريك : لِمَ! فوالله إن قتله لقربان إلى الله. ولم يعنَ شريك بهانئ ، والتفت إلى مسلم يحثّه على اغتيال ابن زياد قائلا له : لا تقصّر في ذلك.

وبينما هم في الحديث وإذا بالضجّة على الباب ، فقد أقبل ابن مرجانة مع حاشيته ، فقام مسلم ودخل الخزانة مختفياً بها ، ودخل ابن زياد فجعل يسأل شريكاً عن مرضه وشريك يجيبه ، ولما استبطأ شريك خروج مسلم جعل يقول :

ما الانتظار بسلمى أن تحيّوها ... حيّوا سُليمى وحيّوا مَن يُحيّيها

كأس المنيّة بالتعجيل فاسقوها [٣]

---

(١) الأخبار الطوال / ٢١٤ ، مقاتل الطالبيّين / ٩٨ ، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩ ، وذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ الذي دعا مسلما لاغتيال ابن زياد هو هانئ بن عروة كما في الإمامة والسياسة ٢ / ٤.

(٢) يشير إلى ذلك ما جاء في مقاتل الطالبيّين / ٩٨ ، أنّ هانئاً استقبح قتل ابن زياد في داره.

(٣) مقاتل الطالبيين / ٩٨ ، وفي مقتل أبي مخنف أنّه أنشد هذه الأبيات :

ما تنظرون بسلمى لا تُحيّيوها ... حيّوا سُليمى وحيّوا مَن يُحيّيها

هل شربة عذبة أُسقى على ظمأ ... ولو تلفْت وكانت مُنيتي فيها

وإن تخشّيت مِن سلمى مراقبة ... فلست تأمن يوما مِن دواهيها

ورفع صوته ليُسمعَ مسلماً ، قائلاً :

لله أبوك! أسقنيها وإن كانت فيها نفسي [(١)].

وغفل ابن زياد عن مراده وظنّ أنّه يهجر ، فقال لهانئ :

أيهجر؟

ـ نعم أصلح الله الأمير ، لمْ يزل هكذا منذ أصبح [(٢)].

وفطن مهران مولى ابن زياد وكان ذكيّاً إلى ما دُبّرَ لسيّده ، فغمزه ونهض به سريعاً ، فقال له شريك : أيّها الأمير ، إنّي أُريد أنْ أُوصي إليك. فقال له ابن زياد : إني أعود إليك.

والتفت مهران وهو مذعور إلى ابن زياد فقال له : إنّه أراد قتلك. فبهر ابن زياد وقال : كيف مع إكرامي له؟! وفي بيت هانئ ويد أبي عنده!

ولمّا ولى الطاغية خرج مسلم مِن الحجرة ، فالتفت إليه شريك وقلبه يذوب أسىً وحسراتٍ ، قال له : ما منعك مِن قتله؟! [(٣)].

فقال مسلم : منعني منه خلّتان : إحداهما كراهية هانئ لقتله في

وفي الفتوح ٥ / ٧٢ ، والأخبار الطوال / ٢١٤ أنّه أنشد هذا البيت :

مـا تنتظـرون بسـلمى عنـد فرصـتِها فقـد وفى ودّهـا واستوسـق الصـّرم

(١) مقاتل الطالبيّين / ٩٩.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

منزله ، والأُخرى : قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «إن الإيمان قيد الفتك ؛ لا يفتك مؤمن».

فقال له شريك : أما والله ، لو قتلته لاستقام لك أمرك واستوسق لك سلطانك [1].

ولم يلبث شريك بعد الحادثة إلاّ ثلاثة أيّام حتّى توفي ، فصلّى عليه ابن زياد ودفنه بالثوية. ولمّا تبين له ما دبّره له شريك طفق يقول : والله ، لا أصلّي على جنازة عراقي ، ولولا أنْ قبر زياد فيهم لنبشت شريكا [2].

أضواء على الموقف :

ويتساءل الكثيرون مِنْ الناس عن موقف مسلم ، فيلقون عليه اللوم والتقريع ويحمّلونه مسؤولية ا قع نِ لأحداث لو غتال لطاغية ثقذ لمد لمين نِ رٍ ظيم ما نيُ المسلمون بتلك الأزمات الموجعة التي أغرقتهم في المحن والخطوب.

أمّا هذا النقد فليس موضوعيّا ولا يحمل أي طابع مِن التوازن والتحقيق ؛ وذلك لعدم التقائه بسيرة مسلم ولا بواقع شخصيته ، فقد كان الرجل فذّاً مِنْ أفذاذ الإسلام في ورعه وتقواه وتحرّجه في الدين ، فقد تربى في بيت عمّه أمير المؤمنين (عليه السّلام) وحمل اتّجاهاته الفكرية ، واتّخذ سيرته المشرقة منهاجا يسير على أضوائها

---

(١) الأخبار الطوال / ٢١٤ ، وفي تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠ أن هانئا قال لمسلم : لو قتلته لقتلتَ فاسقاً فاجراً ، كافراً غادرا. وذكر ابن نما أن امرأة هانئ تعلّقت بمسلم ، وأقسمت عليه بالله أنْ لا يقتل ابن زياد في دارها ، فلمّا علم هانئ قال : يا ويلها! قتلتني وقتلت نفسها ، والذي فرّت منه وقعت فيه.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٢ ، الأغاني ٦ / ٥٩.

في حياته. وقد بنى الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) واقع حياته على الحق المحض الذي لا التواء فيه ، وتحرّج كأعظم ما يكون التحرّج في سلوكه. فلم يرتكب أي شيء شذ عن هدي الإسلام وواقعه ، وهو القائل : قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز مِنْ تقوى الله. وعلى ضوء هذه السيرة بنى ابن عقيل حياته الفكرية ، وتكاد أنْ تكون هذه السيرة هي المنهاج البارز في سلوك العلويين.

يقول الدكتور محمّد طاهر دروش : كان للهاشميين مجال يحيون فيه ولا يعرفون سواه ، فهم منذ جاهليتهم للرياسة الدينية قد طُبعوا على ما توحي به مِن الإيمان والصراحة والصدق والعفّة والشرف والفضيلة والترفّع ، والخلائق المثالية والمزايا الأدبية والشمائل الدينية والآداب النّبوية [1].

إن مسلما لم يقدم على اغتيال عدوّه الماكر ؛ لأن «الإيمان قيد الفتك ؛ لا يفتك مؤمن».

وعلّق هبة الدين على هذه الكلمة بقوله : كلمة كبيرة المغزى ، بعيدة المدى ؛ فإنّ آل علي مِن قهٍ ّ تمسّكهم بالحق والصدق نبذوا الغدر والمكر حتّى لدى الضرورة ، واختاروا النصر الآجل بقهٍ ّ الحق على النصر العاجل بالخديعة. شنشنة فيهم معروفة عن أسلافهم وموروثة في أخلاقهم ، كأنّهم مخلوقون لإقامة حكم العدل والفضيلة في قلوب العرفاء الأصفياء ، وقد حفظ التاريخ لهم الكراسي في القلوب [2].

ويقول الشيخ أحمد فهمي : فهذا عبيد الله بن زياد ، وهو مَنْ هو في دهائه وشدّة مراسه أمكنت مسلماً الفرصة منه إذ كان بين يديه ، ورأسه قريب المنال منه

(١) الخطابة في صدر الإسلام ٢ / ١٣.

(٢) نهضة الحسين (عليه السّلام) / ٨٤.

وكان في استطاعته قتله ، ولو أنّه فعل ذلك لحرم يزيد نفساً جبّارةً ويداً فتّاكةً وقوّةً لا يُستهان بها ، ولكنّ مسلماً متأثر بهدي ابن عمّه ، عاف هذا المسلك وصان نفسه مِنْ أنْ يقتله غيلةً ومكراً [1].

وإنّ مهمّة مسلم التي عُهِدَ بها إليه هي أخذ البيعة مِن الناس والتعرّف على مجرّبات الأحداث ولمْ يُعهد إليه بأكثر مِنْ ذلك ، ولو قام باغتيال الطاغية لخرج عن حدود مسؤولياته. على أن الحكومة التي جاء مُمثّلاً لها إنّما هي حكومة دينية تعني قبل كلّ شيء بمبادئ الدين ، والالتزام بتطبيق سننه وأحكامه وليس مِن الإسلام في شيء القيام بعملية الاغتيال.

وقد كان أهل البيت (عليهم السّلام) يتحرّجون كأشد ما يكون التحرّج مِن السلوك في المنعطفات ، وكانوا ينعون على الأمويّين شذوذ أعمالهم التي لا تتّفق مع نواميس الدين.

وما قام الحُسين بنهضته الكبرى إلا لتصحيح الأوضاع الراهنة وإعادة المنهج الإسلامي إلى الناس. وماذا يقول مسلم للأخيار والمتحرّجين في دينهم لو قام بهذه العملية التي لا يقرّها الدين؟ وعلى أيّ حالٍ ، فقد استمسك مسلم بفضائل دينه وشرفه مِن اغتيال ابن زياد وكان تحت قبضته.

وإنّ مِنْ أهزل الأقوال وأوهنها ، القول بأنّ عدم فتكه به ناشئ عن ضعفه وخوره ، فإنّ هذا أمر لا يمكن أن يُصغى إليه ؛ فقد أثبت في مواقفه البطولية في الكوفة حينما غدر به أهلها ما لم يُشاهد التاريخ له نظيراً في جميع مراحله ، فقد صمد أمام ذلك الزحف الهائل مِن الجيوش فقابلها وحده ولم تظهر عليه أي بادرة مِن الخوف والوهن.

فقد قام بعزم ثابت يحصد الرؤوس ويحطّم الجيوش حتّى ضجّت الكوفة مِنْ كثرة مَنْ قُتِلَ منها ، فكيف يتّهم بطل هاشم وفخر عدنان بالوهن والضعف؟!

---

(١) ريحانة الرسول / ١٧٨.

المخططات الرهيبة :

وأدهى المخطّطات الرهيبة التي صمّمها الطاغية إلى نجاحه في الميادين السياسية وتغلّبه على الأحداث ، فبعد أنْ كانت الكوفة تحت قبضة مسلم انقلبت عليه رأساً على عقب ، فزجّ بها الماكر الخبيث إلى حرب مسلم والقضاء عليه ، ومِنْ بين هذه المخططات :

١ ـ التجسس على مسلم :

وأوّل بادرة سلكها ابن زياد هي التجسس على مسلم ومعرفة جميع نشاطاته السياسية ، والوقوف على نقاط القوّة والضعف عنده ، وقد اختار للقيام بهذه المهمّة مولاه معقلاً ، وكان مِنْ صنائعه وتربّى في كنفه ودرس طباعه ووثق بإخلاصه وكان فطناً ذكياً ، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وأمره أنْ يتّصل بالشيعة ، ويعرّفهم أنّه مِنْ أهل الشام ، وأنّه مولى لذي الكلاع الحميري.

وكانت الصبغة السائدة على الموالي هي الإخلاص لأهل البيت (عليهم السّلام) ؛ ولذا أمره بالانتساب إلى الموالي حتّى ينفي الشك والرّيب عنه ، وقال له : إنّه إذا التقى بهم فليعرّفهم بأنّه ممّن أنعم الله عليه بحب أهل البيت (عليهم السّلام) ، وقد بلغه قدوم رجل إلى الكوفة يدعو للإمام الحُسين وعنده مال يريد أن يلقاه ليوصله إليه حتى يستعين به على حرب عدوه.

ومضى معقل في مهمّته فدخل الجامع وجعل يفحص ويسأل عمّن له معرفة بمسلم فأرُشد إلى مسلم بن عوسجة ، فانبرى إليه وهو يُظهر الإخلاص والولاء للعترة الطاهرة ، قائلاً له : إني أتيتك لتقبض منّي هذا المال وتدلّني على صاحبك لأُبايعه ،

وإن شئت أخذت بيعتي قبل لقائي إيّاه.

فقال مسلم : لقد سرّني لقاؤك إيّاي لتنال الذي تحبّ وينصر الله بك أهل نبيّه ، وقد ساءني معرفة الناس إيّاي مِن قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسطوته ، ثمّ أخذ منه البيعة وأخذ منه المواثيق المغلّظة على النصيحة وكتمان الأمر [1].

وفي اليوم الثاني أدخله على مسلم فبايعه ، وأخذ منه المال وأعطاه إلى أبي ثمامة الصائدي ؛ وكان قد عيّنه لقبض المال ليشتري به السلاح والكراع.

وكان معقل ـ فيما يقول المؤرّخون ـ أوّل مَنْ يدخل على مسلم وآخر مَنْ يخرج منه ، وجميع البوادر والأحداث التي تصدر ينقلها بتحفّظ في المساء إلى ابن زياد [2] حتى وقف على جميع أسرار الثورة.

مع أعضاء الثورة :

والذي يواجه أعضاء الثورة مِن المؤاخذات ما يلي :

أولا : إن معقلا كان مِن أهل الشام الذين عُرِفوا بالبغض والكراهية لأهل البيت (عليهم السّلام) والولاء لبني أُميّة والتفاني في حبّهم ، فما معنى الركون إليه؟

ثانيا : إنّ اللازم التريّب حينما أعطى المال لمسلم بن عوسجة وهو يبكي ، فما معنى بكاؤه أو تباكيه؟ أليس ذلك ممّا يوجب الرّيب في شأنه؟

ثالثا : إنّه حينما اتّصل بهم كان أوّل داخل وآخر خارج ، فما معنى هذا الاستمرار والمكث الطويل في مقر القيادة العامّة؟ أليس ذلك ممّا يوجب الشك في أمره؟

لقد كان الأولى بالقوم التحرّز منه ، ولكنّ القوم قد خدعتهم المظاهر المزيقة. ومِن الحقّ ، أنّ هذا الجاسوس كان ماهرا في صناعته وخبيرا فيما انتدب إليه.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩.

(٢) الأخبار الطوال / ٢١٥.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ ابن زياد قد استفاد مِنْ عملية التجسس أموراً بالغة الخطورة.

فقد عرف العناصر الفعالة في الثورة ، وعرف مواطن الضعف فيها ، وغير ذلك مِن الأُمور التي ساعدته على التغلّب على الأحداث.

٢ . رشوة الزعماء والوجوه :

ووقف ابن زياد على نبض الكوفة وعرف كيف يستدرج أهلها ، فبادر إلى إرشاء الوجوه والزعماء ، فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودّهم واستولى على قلوبهم ، فصارت ألسنتهم تكيل له المدح والثناء ، وكانوا ساعده القوي في تشتيت شمل الناس وتفريق جموعهم عن مسلم.

لقد استعبدهم ابن مرجانة بما بذله مِن الأموال فأخلصوا له ومنحوه النصيحة ، وخانوا بعهودهم ومواثيقهم التي أعطوها لمسلم ، وقد أخبر بعض أهل الكوفة الإمام عن هذه الظاهرة حينما التقى به في أثناء الطريق ، فقال له : أمّا أشراف الناس فقد عظمت رشوتهم ومُلئت غرائرهم ، يُستمال ودّهم ويُستخلص به نصيحتهم ، وأمّا سائر الناس فإنّ أفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك [1].

لقد تناسى الكوفيّون كتبهم التي أرسلوها للإمام (عليه السّلام) وبيعتهم له على يد سفيره ؛ مِن أجل الأموال التي أغدقتها عليهم السلطة.

يقول بعض الكتّاب : إنّ الجماعات التي أقامها النكير على بني أُميّة وراسلت الحُسين ، وأكّدت له إخلاصها وذرفت أمام مسلم أعزّ دموعها ، هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم والدينار ، وقد ابتاعها فيما بعد مصعب

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٣٣.

ابن الزّبير فتخلّوا عن المختار وتركوه وحيداً يلقى حتفه ، ثمّ اشتراها الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان فتخلّوا عن مصعب وتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك بن مروان [1].

الإحجام عن كبس دار هانئ :

وعلم الطاغية أنّ هانئاً هو العضو البارز في الثورة ، فقد أطلعه الجاسوس الخطير معقل على الدور الفعّال الذي يقوم به هانئ في دعم الثورة ومساندتها بجميع قدراته ، وعرّفه أنّ داره أصبحت المركز العام للشيعة والمقر الرئيسي لسفير الحُسين مسلم ... فلماذا لم يقم بكبسها وتطويقها بالجيش ليقضي بذلك على الثورة؟ وإنّما أحجم عن ذلك لعجزه عسكرياً ، وعدم مقدرته على فتح باب الحرب ؛ فإنّ دار هانئ مع الدور التي كانت محيطة بها ، كانت تضمّ أربعة آلاف مقاتل ممّن بايعوا مسلما.

بالإضافة إلى أتباع هانئ ومكانته المرموقة في المصر ؛ فلهذا لم يستطع ابن زياد مِن القيام بذلك نظرا للمضاعفات السيئة.

رسل الغدر :

وأنفق ابن زياد لياليه ساهراً يطيل التفكير ويطيل البحث مع حاشيته في شأن هانئ ، فهو أعزّ مَنْ في المصر وأقوى شخصية يستطيع القيام بحماية الثورة ، ولا يدع مسلماً فريسة لأعدائه ، فإذا قضى عليه فقد استأصل الثورة مِن جذورها وقد أعرضوا عن إلقاء القبض عليه

---

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي / ٦٩ ـ ٧٠.

وتطويق داره ، فإنّ ذلك ليس بالأمر الممكن ، وقد اتّفق رأيهم على خديعته بإرسال وفد إليه مِنْ قبل السلطة يعرض عليه رغبة ابن زياد في زيارته ، فإذا وقع تحت قبضته فقد تمّ كلّ شيء ، ويكون تشتيت أتباعه ليس بالأمر العسير ، وشكّلوا وفداً لدعوته ، وهم :

١ ـ حسّان بن أسماء بن خارجة زعيم فزارة.

٢ ـ محمّد بن الأشعث زعيم كندة.

٣ ـ عمرو بن الحجّاج.

ولم يكن لحسّان بن أسماء علم بالمؤامرة التي دبّرت ضد هانئ ، وإنّما كان يعلم بها محمّد بن الأشعث وعمرو بن الحجّاج ، وقد أمرهم ابن زياد أنْ يحملوا له عواطفه ورغبته الملحّة في زيارته ، ويعملوا جاهدين على إقناعه.

اعتقال هانئ :

وأسرع الوفد إلى هانئ عشيّة فوجدوه جالسا على باب داره ، فسلّموا عليه وقالوا له : ما يمنعك مِن لقاء الأمير فإنّه قد ذكرك وقال : لو أعلم أنّه شاك لعدته؟

فقال لهم : الشكوى تمنعني.

وأبطلوا هذا الزعم ، وقالوا له : إنّه قد بلغه أنّك تجلس كل عشيّة على باب دارك وقد استبطأك ، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان ، أقسمنا عليك لما ركبت معنا. وأخذوا يلحّون عليه في زيارته فاستجاب لهم على كرهٍ ، فدعا بثيابه

فلبسها ودعا ببغلة فركبها ، فلمّا كان قريباً مِن القصر أحسّت نفسه بالشرّ فعزم على الانصراف ، وقال لحسّان بن أسماء : يابن الأخ إني والله لخائف مِن هذا الرجل فما ترى؟

فقال حسّان : يا عمّ ، والله ما أتخوّف عليك شيئاً ، ولِمَ تجعل على نفسك سبيلاً؟ وأخذ القوم يلحّون عليه حتّى أدخلوه على ابن مرجانة فاستقبله بعنف وشراسة ، وقال : أتتك بخائن رجلاه.

وكان شريح إلى جانبه ، فقال له :

اُريد حياتَه [1] ويريد قتلي عذيرك مِن خليلِك مِن مُراد

وذعر هانئ ، فقال له : ما ذاك أيّها الأمير؟ فصاح به الطاغية بعنف : أيه يا هانئ! ما هذه الأُمور التي تتربّص في دارك لأمير المؤمنين وعامّة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أنّ ذلك يخفى عليّ

فأنكر ذلك هانئ ، وقال : ما فعلت ذلك وما مسلم عندي.

ـ بلى قد فعلت.

وطال النزاع واحتدم الجدال بينهما ، فرأى ابن زياد أنْ يحسم النزاع فدعا معقلاً الذي جعله عيناً عليهم ، فلمّا مثُلَ عنده قال لهانئ : أتعرف هذا؟

ـ نعم.

---

(١) يروى (حباءه) من العطاء.

وأسقط ما في يدي هانئ وأطرق برأسه إلى الأرض ، ولكنْ سرعان ما سيطرت شجاعته على الموقف فانتفض كالأسد ، وقال لابن مرجانة : قد كان الذي بلغك ولن أضيع يدك عندي [١] ، تشخص لأهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم فإنّه جاء حق مَن هو أحق مِن حقّك وحق صاحبك [٢].

فثار ابن زياد وصاح به : والله ، لا تفارقني حتّى تأتيني به.

وسخر منه هانئ ، وأنكر عليه قائلاً له مقالة الرجل الشريف : لا آتيك بضيفي أبدا.

ولما طال الجدال بينهما انبرى إلى هانئ مسلم بن عمر الباهلي وهو مِنْ خدّام السلطة ، ولمْ يكن رجل في المجلس غريب غيره ، فطلب مِن ابن زياد أنْ يختلي بهانئ ليقنعه فأذن له ، فقام وخلا به ناحية بحيث يراهما ابن زياد ويسمع صوتهما إذا علا.

وحاول الباهلي إقناع هانئ فحذّره مِنْ نقمة السلطان ، وإنّ السلطة لا تنوي السوء بمسلم قائلا : يا هانئ ، أنشدك الله أنْ تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك ، إنّ هذا الرجل ـ يعني مسلماً ـ ابن عمّ القوم وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إليه فليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة ؛ إنّما تدفعه إلى السلطان.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

(٢) مروج الذهب ٣ / ٧ ، سمط النجوم العوالي ٣ / ٦١ تايخ الإسلام ـ الذهبي ٢ / ٢٦٩ ورُوي كلامه بصورة أخرى وهي تخالف ما رواه مشهور المؤرّخين.

ولمْ يخفَ على هانئ هذا المنطق الرخيص ، فهو يعلم أنّ السلطة إذا ظفرت بمسلم فسوف تنكّل به ولا تدعه حيّاً ، وإنّ ذلك يعود عليه بالعار والخزي إنْ سلّم ضيفه وافد آل محمّد فريسة لهم قائلا : بلى والله ، عليّ في ذلك أعظم العار أنْ يكون مسلم في جواري وضيفي وهو رسول ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأنا حي صحيح الساعدين كثير الأعوان. والله ، لو لمْ أكن إلا وحدي لما سلّمته أبدا.

وحفل هذا الكلام بمنطق الأحرار الذين يهبون حياتهم للمثُل العُليا ولا يخضعون لما يخلّ بشرفهم.

ولما يئس الباهلي مِن إقناع هانئ انطلق نحو ابن زياد فقال له : أيّها الأمير ، قد أبى أنْ يسلّم مسلما أو يُقتل [1].

وصاح الطاغية بهانئ :

أتأتيني به أو لأضربنَّ عنقك. فلم يعبأ به هانئ ، وقال : إذن تكثر البارقة حولك. فثار الطاغية وانتفخت أوداجه ، وقال : وا لهفا عليك! أبا البارقة تخوّفني؟! [2]

وصاح بغلامه مهران وقال : خذه ، فأخذ بضفيرتي هانئ ، وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه وضربه ضربا عنيفا حتى كسر أنفه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى تحطّم القضيب وسالت الدماء على ثيابه ، وعمد هانئ إلى قائم سيف شرطي محاولاً اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه ، فصاح ابن زياد :

---

(١) الفتوح ٥ / ٨٣.

(٢) البارقة : السيوف التي يلمع بريقها.

أحروري أحللت بنفسك وحل لنا قتلك؟

وأمر ابن زياد باعتقاله في أحد بيوت القصر [١] ، واندفع حسّان بن أسماء بن خارجة وكان ممّن أمّن هانئاً وجاء به إلى ابن زياد ، وقد خاف مِنْ سطوة عشيرته ونقمتها عليه ، فأنكر عليه ما فعله بهانئ قائلاً : أرسله يا غادر! أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلمّا أتيناك به هشمت وجهه وسيلت دماءه وزعمت أنّك تقتله؟!

وغضب منه ابن زياد فأوعز إلى شرطته بتأديبه ، فلهز وتعتع ثمّ ترك. وأمّا ابن الأشعث المتملّق الحقير فجعل يحرّك رأسه ، ويقول ليسمع الطاغية : قد رضينا بما رأى الأمير لنا كان أم علينا ، إنّما الأمير مؤدب [٢].

ولا يهم ابن الأشعث ما اقترفه الطاغية مِن جريمة في سبيل تأمين مصالحه ورغباته.

انتفاضة مذحج :

وانتهى خبر هانئ إلى أُسرته فاندفعت بتثاقل كالحشرات ، فقاد جموعها الانتهازي الجبان عمرو بن الحجّاج الذي لا عهد له بالشرف والمروءة ، فأقبل ومعه مذحج وهو يرفع عقيرته لتسمع السلطة مقالتهم قائلا : أنا عمرو بن الحجّاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة.

وحفل كلامه بالخنوع والمسالمة للسلطة وليس فيه اندفاع لإنقاذ هانئ ؛ ولذا لم يحفل به ابن زياد ، فالتفت إلى شريح القاضي فقال له : ادخل على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

صاحبهم فانظر إليه ، ثمّ اخرج إليهم فأعلمهم أنّه حيّ. وخرج شريح فدخل على هانئ فلمّا بصر به صاح مستجيرا :

يا للمسلمين! أهلكت عشيرتي؟! أين أهل الدين ، أين أهل المصر؟! أيُحذرونني عدوّهم [١].

وكان قد سمع الأصوات وضجيج الناس ، فالتفت إلى شريح [٢] قائلا :

يا شريح ، إنّي لأظنها أصوات مذحج وشيعتي مِن المسلمين ، إنّه إنْ دخل عليّ عشرة أنفر أنقذوني [٣].

وخرج شريح وكان عليه عين لابن زياد ؛ مخافة أن يدلي بشيء على خلاف رغبات السلطة فيفسد عليها أمرها ، فقال لهم :

قد نظرت إلى صاحبكم وإنه حي لم يُقتل. وبادر عمرو بن الحجّاج فقال : إذا لم يُقتل فالحمد لله [٤]. وولّوا منهزمين كأنّما أُتيح لهم الخلاص مِن السجن وهم يصحبون العار والخزي ، وظلّوا مثالاً للخيانة والجبن على امتداد التاريخ.

وفيما أحسب أنّ هزيمة مذحج بهذه السرعة ، وعدم تأكدها مِن سلامة زعيمها جاءت نتيجة اتّفاق سِرّيٍّ بين زعماء مذحج وبين ابن زياد للقضاء على

---

(١) في رواية الطبري : (أيخلّوني وعدوهم).

(٢) شريح القاضي ينتمي لإحدى بطون كندة ، جاء ذلك في الكامل للمبرد / ٢١.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ ، وجاء في تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١ أن هانئا قال لشريح : يا شريح اتّقِ الله ، فإنّه قاتلي.

(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

هانئ ؛ ولولا ذلك لنفرت مذحج حينما أخرج هانئ مِن السجن في وضح النهار ونفّذ فيه حكم الإعدام في سوق الحذّائين.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد خلدت مذحج للذلّ ورضيت بالهوان ، وانبرى شاعر مجهول أخفى اسمه ؛ حذرا مِن نقمة الأُمويّين وبطشهم فرثى هانئا ونددّ بأُسرته ؛ محاولا بذلك أن يثير في نفوسهم روح العصبية القبلية ليثأروا لقتيلهم. يقول :

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل

إلى بطل قد هشّم السيف وجهَه ... وآخر يهوي مِن طمار قتيل [1]

أصابهما أمرُ الأميرِ فأصبحا ... أحاديث مَن يسري بكل سبيل [2]

ترى جسدا قد غيّر الموت لونَه ... ونضْح دم قد سال كل مسيل

فتى كان أحيا مِن فتاة حييّة ... وأقطع مِن ذي شفرتين صقيل

أيركب أسماء الهماليج آمنا ... وقد طلبَتْه مذحج بذحول [3]

---

(١) الطمار : اسم لغرفة شُيّدت فوق قصر الإمارة ، وفي أعلاها قُتِلَ مسلمُ بن عقيل ورُمِيَتْ جثتُه إلى الأرض. وما ذكره ابن أبي الحديد أن الطمار هو الجدار فليس بصحيح.

(٢) وفي رواية (أصابهما بغي الأمير).

(٣) الهماليج : جمع هملاج ، وهو نوع من البرذون. والذحول : جمع ذحل الثأر.

تطـــوف حوالَيْـــه (مـــراد) وكلّهـــم علـــى رقيـــة مِـــن ســـائل ومســـول
فـــإن أنـــتم لم تثـــأروا بـــأخيكم فكونـــوا بغايـــا رُضِّـــيَت بقليـــل [1]

وعلّق الدكتور يوسف خليف على هذه الأبيات ، يقول : واللحن هنا تأثر عنيف ، والتعبير فيه قوّي صريح ، بل تصل فيه الصراحة إلى درجة الجرأة ، وشجّع الشاعر على هذه الجرأة أنّه كان في مأمن مِن بطش الأُمويّين ؛ لأنّه استطاع أن يُخفي اسمه حتى أصبح شخصا مختلفا فيه عند بعض الرواة ومجهولا تماما عند بعضهم.

وهو في هذا اللحن لا يتحدّث عن الحُسين ولا عن السياسة ، وإنّما كلّ حرصه أنْ يُثير روح العصبية القبلية في نفوس اليمنية ؛ ليثأروا لقتيلهم ، وهو مِنْ أجل هذا أغفل متعمّداً مِنْ غير شك ذكر محمّد بن الأشعث اليمني ، ولمْ يذكر إلاّ أسماء بن خارجة الفزاري على أنّه هو المسؤول عن دمِ هانئ ، مع أنّ كليهما كان رسول ابن زياد إليه ، ولكنّ الشاعر حرص على أنْ يغفل ذكر ابن الأشعث ؛ حتى لا يثير فتنة أو انقساما بين اليمنية وهو في أشد الحاجة إلى أن يوحّد صفوفهم حتى يُدركوا ثأرهم.

واعتمد الشاعر في قصيدته على هذه الصورة المفزعة التي رسمها للقتيلين اللذين هشّم السيف وجه أحدهما وأُلقي بالآخر مِنْ أعلى القصر ، واللذين أصبحا أحاديث للناس في كلّ مكان.

وهو حريص في هذه الصورة على أن يعرض للناس منظرين رهيبين يثيران في نفوسهم كل عواطف الحزن والسخط والانتقام. منظر هذين الجسدين وقد

---

(١) في مروج الذهب ٢ / ٧٠ إنّها لشاعر مجهول ، وكذلك في الأغاني ١٣ / ٣٥ ، وفي جمهرة الأنساب / ٢٢٨ إنّها للأخطل ، وفي مقاتل الطالبيّين / ١٠٨ إنّها لعبد الله بن الزّبير الأسدي ، وفي الطبري إنّها للفرزدق ، وفي الأخبار الطوال / ٢١٩ إنّها لعبد الرحمن بن الزّبير الأسدي ، وفي لسان العرب ٦ / ١٧٤ إنّها لسليم بن سلام الحنفي.

غيّر الموتُ مِنْ لونهما ، وهذا الدم الذي ينضخ منهما ويسيل كلّ مسيل ، ثمّ منظر أسماء بن خارجة وهو يختال في طُرقات الكوفة على دوابّه التي تتبختر به آمنا مطمئنا. ويسأل إلى متى سيظل هذا الرجل في أمنه وخيلائه ومِن حوله قبيلة القتيل تطالبه بالثار؟ فلا يجد أشد مِن طعنها في كرامتها ، فيقول لهم : إن لم تثأروا بقتيلكم فكونوا بغايا ببغي شرفهنّ بثمن بخس دراهم معدودات [1].

لقد تنكّرت مذحج لزعيمها الكبير فلم تف له حقوقه ؛ فتركته أسيرا بيد ابن مرجانة يمعن في إرهاقه مِنْ دون أنْ تحرّك ساكناً ، في حين أنّها كانت لها السيادة والسيطرة على الكوفة كما يرى ذلك فلهوزن.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد كان لاعتقال هانئ الأثر الكبير في ذيوع الفزع والخوف في نفوس الكوفيين ممّا أدّى إلى تفرّق الناس عن مسلم وإخفاق الثورة.

ثورة مسلم :

ولما علم مسلم بما جرى على هانئ بادر لإعلان الثورة على ابن زياد ؛ لعلمه بأنّه سيلقى نفس المصير الذي لاقاه هانئاً ، فأوعز إلى عبد الله بن حازم أنْ ينادي في أصحابه وقد ملأ بهم الدور ، فاجتمع إليه أربعة آلاف [2]

---

(١) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة / ٤٦٣ . ٤٦٤.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ ، المناقب لابن شهر آشوب ٥ / ١٢٦ مِن مصورّات مكتبة الإمام أمير المؤمنين.

أو أربعون ألفا [1] وهم ينادون بشعار المسلمين يوم البدر : يا منصور أمت [2].

وقام مسلم بتنظيم جيشه ، وأسند القيادات العامة في الجيش إلى مَنْ عُرفوا بالولاء والإخلاص لأهل البيت (عليهم السّلام) ، وهم :

١ . عبد الله بن عزيز الكندي : جعله على ربع كندة.

٢ . مسلم بن عوسجة : جعله على ربع مذحج.

٣ . أبو ثمامة الصائدي : جعله على ربع قبائل بني تميم وهمدان.

٤ . العباس بن جعدة الجدلي : جعله على ربع المدينة.

واتجّه مسلم بجيشه نحو قصر الإمارة فأحاطوا به [3] ، وكان ابن زياد قد خرج مِن القصر ليخطب الناس على أثر اعتقاله لهانئ ، فجاء إلى المسجد الأعظم فاعتلى أعواد المنبر ، ثمّ التفت إلى أصحابه فرآهم عن يمينه وشماله وفي أيديهم الأعمدة ، وقد شهروا سيوفهم للحفاظ عليه فهدأ روعه ، وخاطب أهل الكوفة قائلاً : أمّا بعد ، يا أهل الكوفة ، فاعتصموا بطاعة الله ورسوله وطاعة أئمّتكم ولا تختلفوا ولا تفرّقوا فتهلكوا وتذلّوا وتندموا وتقهروا ، فلا يجعلنَّ أحد على نفسه سبيلا وقد أُعذر مَن أنذر.

وما أتمّ الطاغية خطابه حتّى سمع الضجّة وأصوات الناس قد علت ، فسأل عن ذلك فقيل له :

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١ ، تذهيب التهذيب ١ / ١٥٠ . الذهبي مِن مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين.

(٢) هذا الشعار فيه تحريض للجيش على الموت في الحرب للتغلب على الأعداء ، وفيه تفاؤل بالنصر.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

الحذر الحذر ، هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع مَن بايعه.

واختطف الرعب لونه وسرت الرعدة بجميع أوصاله ، فأسرع الجبان نحو القصر وهو يلهث مِنْ شدّة الخوف فدخل القصر وأغلق عليه أبوابه [١] ، وامتلأ المسجد والسوق مِن أصحاب مسلم وضاقت الدنيا على ابن زياد وأيقن بالهلاك ؛ إذ لم تكن عنده قوّة تحميه سوى ثلاثين رجلا مِن الشرطة وعشرين رجلا مِن الأشراف الذين هم مِن عملائه [٢].

وقد تزايد جيش مسلم حتى بلغ فيما يقول بعض المؤرّخون ثمانية عشر ألفا وقد نشروا الأعلام وشهروا السيوف ، وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه وجرى بين اتباع ابن زياد وبين جيش مسلم قتال شديد ، كما نصّ على ذلك بعض المؤرّخين.

وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل التي تمكّنه مِنْ إنقاذ حكومته مِن الثورة ، فرأى أنْ لا طريق له سوى حرب الأعصاب ودعايات الإرهاب فسلك ذلك.

حرب الأعصاب :

وأوعز الطاغية إلى جماعة مِن وجوه أهل الكوفة أن يبادروا ببث الذعر ونشر الخوف بين الناس ، وقد انتدب للقيام بهذه المهمّة الذوات التالية :

١ ـ كثير بين شهاب الحارثي.

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤ ، الفتوح ٥ / ٨٥.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

٢ ـ القعقاع بن شور الذهلي.

٣ ـ شبث بن ربعي التميمي.

٤ ـ حجّار بن أبجر.

٥ ـ شمر بن ذي الجوشن الضبابي [١].

وانطلق هؤلاء إلى صفوف جيش مسلم فأخذوا يشيعون الخوف ويبثّون الأراجيف فيهم ، ويظهرون لهم الإخلاص والولاء خوفا عليهم عن جيوش أهل الشام.

فكان ما قاله كثير بن شهاب : أيّها الناس ، الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل ، فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين ـ يعني يزيد ـ قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير ـ يعني ابن زياد ـ العهد لئن أقمتم على حربه ولمْ تنصرفوا مِنْ عشيتكم أنْ يحرمَ ذريتكم العطاء ، ويفرّق مقاتلكم في مغازي أهل الشام مِن غير طمع ، وأنْ يأخذَ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب حتّى لا تبقى فيكم بقيّة مِن أهل المعصية إلا ذاقها وبال ما جرت أيديها [٢].

وكان هذا التهديد كالصاعقة على رؤوس أهل الكوفة ؛ فقد كان يحمل ألوانا قاسية مِن الإرهاب ، وهي :

أ ـ التهديد بجيوش أهل الشام : فقد زحفت إليهم ، وهي ستشيع فيهم القتل والتنكيل إنْ بقوا مصرّين على المعصية والعناد.

ب ـ حرمانهم مِن العطاء : وقد كانت الكوفة حامية عسكرية تتلّقى جميع مواردها الاقتصادية مِن الدولة.

ج ـ تجميرهم في مغازي أهل الشام : وزجّهم في ساحات الحروب

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٨.

د ـ إنّهم إذا أصروا على التمرّد فإنّ ابن زياد سيعلن الأحكام العرفية ويسوسهم بسياسة أبيه التي تحمل شارات الموت والدمار حتى يقضي على جميع ألوان الشغب والعصيان.

وقام بقيّة عملاء السلطة بنشر الإرهاب وإذاعة الذعر ، وكان مِنْ جملة ما أذاعوه بين الناس : يا أهل الكوفة ، اتّقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة ولا تشقّوا عصا هذه الأُمّة ، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام فقد ذقتموها وجربتم شوكتها.

أوبئة الفزع والخوف :

وسرت أوبئة الخوف والفزع في نفوس الكوفيين وانهارت أعصابهم وكان الموت قد خيّم عليهم ، فجعل بعضهم يقول لبعض : ما نصنع بتعجيل الفتنة وغداً تأتينا جموع أهل الشام ، ينبغي لنا أنْ نقيم في منازلنا وندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم [1].

وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها أو زوجها وهي مصفرّ الوجه مِن الخوف فتتوسّل إليه قائلة : الناس يكفونك [2]. وكان الرجل يأتي إلى ولده وأخيه فيملأ قلبه رعباً وخوفاً ، وقد نجح ابن زياد في ذلك إلى حدّ بعيد ، فقد تغلّب على الأحداث وسيطر على الموقف سيطرة تامّة ، وقد خلع الكوفيون ما كانوا يرتدونه مِن ثياب

---

(١) الفتوح ٥ / ٨٧.

(٢) تاريخ أبي الفداء ١ / ٣٠٠ ، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.

التمرّد على بني أُميّة ولبسوا ثياب الذل والعبودية ؛ مِن جراء ذلك الإرهاب الهائل والقسوة في الحكم ، فكانت الدماء تترقرق بين العمائم واللحى.

هزيمة الجيش :

ومُنِيَ جيش مسلم بهزيمة مخزية لمْ يحدث لها نظير في جميع فترات التاريخ ، فقد هزمته الدعايات المضلّلة مِن دون أن تكون في قباله أيّة قوّة عسكرية.

ويقول المؤرّخون : إنّ مسلماً كلّما انتهى إلى زقاق انسلّ جماعة مِنْ أصحابه وفرّوا منهزمين ، وهم يقولون : ما لنا والدخول بين السلاطين؟! [1].

ولمْ يمضِ قليل مِن الوقت حتّى انهزم معظمهم ، وقد صلّى بجماعة منهم صلاة العشاء في الجامع الأعظم فكانوا يفرّون في أثناء الصلاة ، وما أنهى ابن عقيل صلاته حتّى انهزموا بأجمعهم بما فيهم قادة جيشه ، ولمْ يجد أحداً يدلّه على الطريق ، وبقي حيراناً لا يدري إلى أين مسراه وموجله [2] ، وكان قد أُثخن بالجراح فيما يقوله بعض المؤرّخين [3] ، وقد أمسى طريداً مشرّداً لا مأوى يأوي إليه ، ولا قلب يعطف عليه.

---

(١) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٨.

(٢) مقامات الحريري ١ / ١٩٢.

(٣) الفتوح ٥ / ٨٧.

في ضيافة طوعة :

وسار القائد العظيم سليل هاشم وفخر عدنان متلدّداً في أزقّة الكوفة وشوارعها ، ومضى هائما على وجهه في جهة كندة [1] يلتمس داراً لينفق فيها بقيّة الليل ، وقد خلت المدينة مِن المارة وعادت كأنّها واحة موحشة ، فقد أسرع كلّ واحد مِنْ جيشه وأعوانه إلى داره وأغلق عليه الأبواب ؛ مخافة أن تعرفه مباحث الأمن وعيون ابن زياد بأنّه كان مع ابن عقيل فتلقي عليه القبض.

وأحاطت بمسلم تيّارات مذهلة مِن الهموم وكاد قلبه أنْ ينفجر مِنْ شدّة الألم وعظيم الحزن ، وقد هاله إجماع القوم على نكث بيعته وغدرهم به ، واستبان له أنّه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمايته أو يدلّه على الطريق ؛ فقد كان لا يعرف مسالك البلد وطرقها.

وسار وهو حائر الفكر خائر القوى حتى انتهى إلى سيّدة يُقال لها (طوعة) ، هي سيّدة مَنْ في المصر رجالاً ونساءً بما تملكه مِنْ إنسانية ونبل ، وكانت أولدت للأشعث بن قيس فأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالا [2] ، وكانت السيّدة واقفة على الباب تنتظر ابنها وترتقب طلوعه للأحداث الرهيبة التي حلّت في المصر ، ولما رآها مسلم بادر إليها فسلّم عليها فردّت عليه السّلام بتثاقل ، وقالت له :

ـ ما حاجتك؟

---

(١) الأخبار الطوال / ٢٤٠.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢ ، وفي الفتوح ٥ / ٨٨ أنّها كانت فيما مضى امرأة قيس الكندي ، فتزوّجها رجل مِنْ بعده مِنْ حضرموت يُقال له أسد بن البطين ، فأولدها ولداً يقال له أسد.

ـ اسقني ماء.

فبادرت إلى دارها وجاءته بالماء فشرب منه ، ثمّ جلس ، فارتابت منه ، فقالت له : ألم تشرب الماء؟

ـ بلى.

ـ اذهب إلى أهلك إن مجلسك مجلس ريبة [1].

وسكت مسلم ، فأعادت عليه القول بالانصراف وهو ساكت ، وكرّرت عليه القول ثالثاً فلمْ يجبها ، فذعرت منه وصاحت به : سُبحان الله! إني لا أحل لك الجلوس على بابي.

ولمّا حرّمت عليه الجلوس لم يجد بدا مِن الانصراف فقال لها بصوت خافت حزين النبرات : ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعروف؟ ولعلّي أُكافئك بعد اليوم.

وشعرت المرأة بأنّ الرجل غريب ، وأنّه على شأن كبير وله مكانة عظمى يستطيع أنْ يجازيها على معروفها وإحسانها ، فبادرته قائلة : ما ذاك؟ فقال لها وعيناه تفيضان دموعا : أنا مسلم بن عقيل ، كذّبني القوم وغرّوني.

فقالت المرأة في دهشة وإكبار : أنت مسلم بن عقيل؟!

ـ نعم [2].

---

(١) تذهيب التهذيب ـ الذهبي ١ / ١٥١.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.

وانبرت السيّدة بكل خضوع وتقدير فسمحت لضيفها الكبير بالدخول إلى منزلها وقد حازت الشرف والمجد ؛ فقد آوت سليل هاشم وسفير ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وأدخلته في بيت في دارها غير البيت الذي كانت تأوي إليه ، وجاءته بالضياء والطعام فأبى أنْ يأكل ؛ فقد مزّق الأسى قلبه الشريف وأيقن بالرزء القاصم ، وتمثّلت أمامه الأحداث الرهيبة التي سيواجهها ، وكان أكثر ما يفكّر به كتابه للحُسين بالقدوم إلى الكوفة.

ولم يمض قليل مِن الوقت حتى جاء بلال ابن السيّدة طوعة فرأى أمّه تُكثر الدخول والخروج إلى ذلك البيت لتقوم برعاية ضيفها ، فأنكر عليها ذلك واستراب منه فسألها عنه ، فأنكرته فألحّ عليها فأخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق بكتمان الأمر.

وطارت نفس الخبيث فرحا وسرورا وقد أنفق ليله ساهرا يترقّب بفارغ الصبر انبثاق نور الصبح ؛ ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم ، وقد تنكّر هذا الخبيث للأخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف وحمايته ، فقد كان هذا الخُلق سائداً حتّى في العصر الجاهلي ، وإنّا لنتّخذ مِنْ هذه البادرة مقياساً عاماً وشاملاً لانهيار القِيَم الأخلاقية والإنسانية في ذلك المجتمع الذي تنكّر لجميع العادات والقِيَم العربية.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد طوى مسلم ليلته حزيناً ، قد ساورته الهموم وتوسّد الأرق ، وكان فيما يقول المؤرّخون قد قضى شطراً مِن الليل في عبادة الله ، ما بين الصلاة وقراءة القرآن ، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمّه أمير المؤمنين (عليه السّلام) فأخبره بسرعة اللحاق به فأيقن عند ذلك بدنو الأجل المحتوم منه.

تأكّد الطاغية مِن فشل الثورة :

ولما انهزمت جيوش أهل الكوفة وولّت الأدبار تصحب معها العار والخيانة ، وقد خلا الجامع الأعظم منهم ، فلمْ يطمئن الطاغية الجبان مِنْ ذلك ؛ خوفاً مِنْ أنْ يكون ذلك مكيدة وخديعة ، فعهد إلى أذنابه بالتأكد مِن انهزام جيش مسلم وأمرهم بأنْ يشرفوا على ظلال المسجد لينتظروا هل كمِن أحد مِن الثوار فيه؟ وأخذوا يدلون القناديل ويشعلون النار في القصب ويدلونها بالحبال فتصل إلى صحن الجامع ، وفعلوا ذلك بالظلّة التي فيها المنبر فلمْ يروا إنساناً ، فأخبروه بذلك فاطمئن بفشل الثورة وأيقن بالقضاء عليها [1].

إعلان حالة الطوارئ :

وأعلن الطاغية في الصباح الباكر حالة الطوارئ في جميع أنحاء المصر ، وقد شدّد على المدير العام لشرطته الحصين بن تميم بتنفيذ ما يلي :

أ ـ تفتيش جميع الدور والمنازل في الكوفة تفتيشا دقيقا للبحث عن مسلم.

ب ـ الإحاطة بالطرق والسكك لئلا يهرب منها مسلم.

ج ـ الاعتقالات الواسعة لجميع المؤيدين للثورة ، وقد ألقت الشرطة القبض على هؤلاء :

١ ـ عبد الأعلى بن يزيد الكلبي.

٢ ـ عمارة بن صلخب الأزدي.

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٩ ـ ٢١٠.

٣ ـ عبد الله بن نوفل بن الحارث.

٤ ـ مختار الثقفي.

٥ ـ الأصبغ بن نباتة.

٦ ـ الحارث الأعور الهمداني [١].

راية الأمان :

وأوعز الطاغية إلى محمّد بن الأشعث أنْ يرفع راية الأمان ، ويعلن إلى الملأ أنّ مَنْ انضم إليها كان آمنا ؛ ولعل أسباب ذلك ما يلي :

١ ـ التعرّف على العناصر الموالية لمسلم لإلقاء القبض عليها.

٢ ـ إعلان الانتصار والقضاء على الثورة.

٣ ـ شلّ حركة المقاومة ، وإظهار سيطرة الدولة على جميع الأوضاع في البلاد.

ورُفعت راية الأمان فسارع الكوفيون الذين كانوا مع مسلم إلى الانضمام إليها ؛ لنفي التّهمة وإظهار إخلاصهم للحكم القائم آنذاك.

اشتباه :

ومِن الغريب ما ذكره ابن قتيبة [٢] ، والحر العاملي [٣] مِن أن مسلما كان في بيت المختار ثم خرج لحرب ابن زياد ، وبعد فشل ثورته التجأ

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٣١٤.

(٢) الإمامة والسياسة ٢ / ٤.

(٣) الدر المسلوك ١ / ١٠٨.

إلى بيت هانئ فأجاره هانئ ، وقال له : ابن زياد يدخل داري فاضربْ عنقه ، فامتنع مسلم مِن الفتك به ، وقام ابن زياد باعتقال هانئ ، ثمّ أرسل شرطته لإلقاء القبض على مسلم فقاتلهم حتّى ضعف عن المقاومة فوقع أسيرا بأيديهم. وهذا الذي أفاداه لم يذهب إليه أحد مِن المؤرّخين ؛ فإن تفصيل الحادثة حسب ما ذكرناه ، وما عداه فهو مِن الأقوال الشاذّ التي نشأت مِن قلّة التتبّع.

خطبة ابن زياد :

ولما أيقن الطاغية بفشل ثورة مسلم ، وتفلل قواته المسلحة أمر بجمع الناس في الجامع ، فتوافدت الجماهير وقد خيّم عليها الذعر والخوف ، فجاء الطاغية وهو يرعد ويبرق ويتهدّد ويتوعّد ، فصعد المنبر فقال : أيّها الناس ، إنّ مسلمَ بن عقيل أتى هذه البلاد وأظهر العناد وشقّ العصا ، وقد برئت الذمّة مِنْ رجل أصبناه في داره ، ومَنْ جاء به فله ديته.

اتّقوا الله عباد الله ، والزموا طاعتكم وبيعتكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً ، ومَنْ أتاني بمسلم بن عقيل فله عشر آلاف درهم ، والمنزلة الرفيعة مِنْ يزيد بن معاوية ، وله في كلّ يوم حاجة مقضيّة [1].

وحفل هذا الخطاب بالقسوة والصرامة ، وفيه هذه النقاط التالية :

أ ـ الحكم بالإعدام على كل مَن آوى مسلما مهما كانت لذلك الشخص مِن مكانة اجتماعية في المصر.

ب ـ إن دية مسلم تكون لمن جاء به.

ج ـ إن مَن ظفر بمسلم تمنحه السلطة عشرة آلاف درهم.

---

(١) الفتوح ٤ / ٩٠.

د . إن مَن يأتي به يكون مِن القريبين عند يزيد وينال ثقته.

هـ . تُكافئ السلطة مَن جاء به بقضاء حاجة له في كل يوم.

وتمنى أكثر اولئك الأوغاد الظفر بمسلم لينالوا المكافأة مِن ابن مرجانة والتقرّب إلى يزيد بن معاوية.

الإفشاء بمسلم :

وطالت تلك الليلة على بلال ابن السيّدة الكريمة طوعة التي آوت مسلماً ، فقد ظلّ يترقّب بفارغ الصبر طلوع الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم.

ولم يرقد تلك الليلة مِن الفرح والسرور ؛ فقد تمّت فيما يحسب بوارق آماله وأحلامه ، ولما طلع الصبح بادر إلى القصر بحالة تلفت النظر إليها مِن الدهشة ، فقصد عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث ، وهو مِن الأُسرة الخبيثة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة ، فسارّه وأعلمه بمكان مسلم عنده ، فأمره عبد الرحمن بالسكوت لئلا يسمع غيره فيبادر بإخبار ابن زياد فينال الجائزة منه.

وأسرع عبد الرحمن إلى أبيه محمّد بن الأشعث فأخبره بالأمر ، وفطن ابن زياد إلى خطورة الأمر فبادر يسأل ابن الأشعث قائلا : ما قال لك عبد الرحمن؟

ـ أصلح الله الأمير! البشارة العظمى.

ـ ما ذاك؟ مثلك مَن بشّر بخير.

ـ إن ابني هذا يخبرني أن مسلم بن عقيل في دار طوعة.

وسُرّ ابن زياد ، ولمْ يملك أهابه مِن الفرح ، فانبرى يُمني ابن الأشعث بالمال والجاه قائلاً :

. قمْ فأتني به ، ولك ما أردت مِن الجائزة والحظّ الأوفى.

لقد تمكّن ابن مرجانة مِن الظفر بسليل هاشم ليجعله قربانا إلى أُمويّته اللصيقة التي نحر في سبيلها هو وأبوه جميع القِيَم الإنسانية ، واستباحا كلّ ما حرّمه الله مِنْ إثم وفساد.

الهجوم على مسلم :

وندب الطاغية لحرب مسلم عمرو بن حريث المخزومي صاحب شرطته ومحمّد بن الأشعث [١] ، وضمّ إليهما ثلاثمئة رجل من صناديد الكوفة وفرسانها ، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة لحرب القائد العظيم الذي أراد أن يحرّرها مِن الذل والعبودية وينقذها مِن الظلم والجور.

ولما سمع وقْعَ حوافر الخيل وزعقات الرجال علم أنّه قد أُتي إليه ، فبادر إلى فرسه فأسرجه وألجمه وصب عليه درعه وتقلّد سيفه ، والتفت إلى السيّدة الكريمة طوعة فشكرها على ضيافتها وأخبرها أنّه إنّما أُتي إليه مِن قبل ابنها الباغي اللئيم قائلا : رحمك الله ، وجزاك عنّي خيراً. اعلمي إنّما أُتيت مِن قِبل ابنك [٢].

واقتحم الجيش عليه الدار فشدّ عليهم يضربهم بسيفه ففرّوا منهزمين ، ثمّ عادوا إليه فأخرجهم منها وانطلق نحوهم في السكّة شاهراً سيفه لمْ يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه وقد أبدى مِن البطولات النادرة ما لم يشاهد لها التاريخ نظيرا في جميع

---

(١) تهذيب التهذيب ١ / ١٥١.

(٢) الفتوح ٥ / ٩٢ ـ ٩٣.

عمليات الحروب ، وكان يقاتلهم وهو يرتجز :

هـو المـوت فاصـنع ويـك مـا أنـت صـانع فأنـت بكـأس المـوت لا شـكَّ جـارع
فصـبر لأمـر الله جـل جلالـه فحكـم قضـاء الله في الخلـق ذائـع [1]

وأبدى سليل هاشم مِن الشجاعة وقوة البأس ما حيّر الألباب وأبهر العقول ؛ فقد قتل منهم فيما يقول بعض المؤرّخين واحدا وأربعين رجلا [2] ما عدا الجرحى ، وكان مِنْ قوّته النادرة أنّه يأخذ الرجل بيده ويرمي به مِن فوق البيت [3] ، وليس في تاريخ الإنسانية مثل هذه البطولة ولا مثل هذه القوّة ، وليس هذا غريباً عليه ؛ فعمّه علي بن أبي طالب أشجع الناس وأقواهم بأساً وأشدّهم عزيمة.

واستعمل معه الجبناء مِنْ أنذال أهل الكوفة ألواناً قاسية وشاذّة مِنْ الحرب ، فقد اعتلوا سطوح بيوتهم وجعلوا يرمونه بالحجارة وقذائف النار [4] ، ولو كانت في ميدان فسيح لأتى عليهم ، ولكنّها كانت في الأزقة والشوارع.

فشل الجيوش :

وفشلت جيوش أهل الكوفة وعجزت عن مقاومة البطل العظيم ، فقد أشاع فيهم القتل وألحق بهم خسائر فادحة ، وأسرع الخائن الجبان

---

(١) (٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢ / ٢١٢.

(٣) المنذر النضيد / ١٦٤ ، نفس المهموم / ٥٧.

(٤) المحاسن والمساوئ. للبيهقي ١ / ٤٣.

محمّد بن الأشعث يطلب مِن سيّده ابن مرجانة أن يمدّه بالخيل والرجال ؛ فقد عجز عن مقاومة مسلم. ولامه الطاغية قائلا : سُبحان الله! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به ، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة [١]؟!

وثقل هذا التقريع على ابن الأشعث ، فراح يشيد بابن عقيل قائلاً : أتظن أنّك أرسلتني إلى بقّال مِنْ بقالي الكوفة ، أو جرمقاني مِنْ جرامقة [٢] الحيرة؟! [٣] ، وإنّما بعثتني إلى أسد ضرغام وسيف حسام في كفِّ بطل همام مِن آل خير الأنام [٤].

وأمدّه ابن زياد بقوى مكثّفة من الجيش فجعل البطل العظيم يقاتل وحده ، وهو يرتجز :

أقسمت لا أُقتل إلا حرّا ... وإن رأيت الموت شيئا نُكرا

أو يخلط البارد سخنا مُرّا ... رُدّ شعاع الشمس فاستقرا

كلّ امرئ يوما يلاقي شرّا ... أخاف أن أُكذب أو أُغرّ [٥]

لقد كنت يابن عقيل سيّد الأحرار ، فقد رفعت لواء العزّة والكرامة ورفعت شعار الحرية والإباء ، وأمّا خصومك الحقراء فهم العبيد الذين رضوا بالذلّ والهوان.

وحلّل الدكتور يوسف خليف هذا الرجز بقوله : هو رجز مِن الناحية النفسية صادق كل الصدق ، معبّر

---

(١) الفتوح ٥ / ٦٣.

(٢) الجرامقة : قوم من العجم صاروا إلى الموصل.

(٣) مقتل الحسين. المقرّم / ١٨٠.

(٤) الفتوح ٥ / ٩٣.

(٥) تاريخ الطبري.

تعبيرا دقيقا عن الموجات النفسية التي كانت تندفع في نفس الشاعر وهو في موقفه الضيّق الحرج ، فهو قبل كلّ شيء مصمم على أنْ يحتفظ بحريته ولو أدّى هذا إلى قتله ، وهو يعلن في صراحة وصدق أنّ الموت شيء منكر ، ولا يقول هذا كما يقوله غيره ممّن يغالطون أنفسهم أنّ الموت شيء محبّب إلى نفسه ، وإنّما يعبّر عن نفسيته تعبيراً صادقاً ، فالموت شيء لا يحبّه ، ولكنّه لا يفرّ منه ما دام قد صمم على الاحتفاظ بحريته.

ثمّ يحاول أن يهدّئ مِنْ روعه ، ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أنْ يجذبها في تيارات مِن الهلع والفزع ، فيحدّث عن نفسه بأنّ الدنيا متقلبة وكلّ امرئ فيها لا بد أنْ يلاقي ما يسوؤه ، وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنيّة رائعة.

وأضاف يقول : إنّه حريص على الحياة ، ولكنّه حريص على الحرية يجعله متردّداً ؛ لأنّه يخشى ، بل يخاف أنْ يكذّب عليه أعداؤه ، أو يخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده بأنْ يموت في سبيل حريته ، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة.

أرأيت كيف استطاع أنْ يصوّر موقفه الضيّق الحرج هذا التصوير الفنيّ الرائع ، الذي يشمل روعته مِن تعبيره عن نفسيته تعبيرا صادقا لا رياء فيه ولا تضليل؟

إن هذا هو السر الذي يجعل هذه الشطور القليلة تؤثّر في نفوسنا تأثيرا يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها مِن صراع داخلي هائل لا يعدله إلا صراعه الخارجي مع أعدائه [1].

---

(١) حياة الشعر في الكوفة / ٣٧١ ـ ٣٧٢.

أمان ابن الأشعث :

ولما سمع محمّد بن الأشعث رجز مسلم الذي أقسم فيه أنْ يموت ميتة الأحرار ، وأن لا يُخدع ولا يُغر انبرى إليه قائلا : إنّك لا تُكذب ولا تُخدع ، إنّ القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك ولا ضاريّك [١].

فلمْ يعتنِ به مسلم ، وإنّما مضى يقاتلهم أعنف القتال وأشدّه ففرّوا منهزمين مِنْ بين يديه ، واعتلوا فوق بيوتهم يرمونه بالحجارة فأنكر عليهم مسلما ذلك قائلا : ويلكم! ما لكم ترمونني بالحجارة كما تُرمى الكفار ، وأنا مِنْ أهل بيت الأبرار؟! ويلكم! أما ترعون حق رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وذريته؟!

ولمْ يستطيعوا مقابلته وجبنوا عن مقابلته ، وضاق بابن الأشعث أمره فصاح بالجيش : ذروه حتى أكلّمه ، ودنا منه ، فخاطبه : يابن عقيل ، لا تقتل نفسك ، أنتَ آمن ، ودمك في عنقي.

ولم يحفل به مسلم ؛ فإنّه على علم بأن الأشعث لم يمر في تاريخه ولا في تاريخ أُسرته أي معنى مِنْ معاني الشرف والنبل والوفاء ، فاندفع يقول له : يابن الأشعث ، لا أُعطي بيدي أبداً وأنا أقدر على القتال. والله ، لا كان ذلك أبداً.

وحمل مسلم على ابن الأشعث ففرّ الجبان يلهث كأنّه الكلب ، وأخذ العطش القاسي مِنْ مسلم مأخذا عظيما فجعل يقول :

اللّهم ، إنّ العطش قد بلغ منّي.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

وتكاثرت الجنود عليه إلاّ إنّها مُنِيَتْ بالذعر والجبن ، وصاح بهم ابن الأشعث : إن هذا هو العار والفشل أنْ تجزعوا مِنْ رجلٍ واحدٍ هذا الجزع ، احملوا عليه بأجمعكم حملةً واحدةً [١].

وحملوا عليه حملةً واحدةً ؛ فضربه بكير بن حمران الأحمري ضربةً منكرةً على شفته العليا ، وأسرع السيف إلى السفلى ، وضربه مسلم ضربةً أردته إلى الأرض.

أسره :

وبعدما أُثخن مسلم بالجراح ، وأعياه نزيف الدم ، انهارت قواه وضعف عن المقاومة ، فوقع أسيراً بأيدي أُولئك الأوغاد ، فتسابقوا إلى ابن زياد يحملون له البشرى بأسرهم للقائد العظيم الذي جاء ليحررهم مِن الذلّ والعبودية ، وقد طار الطاغية فرحاً ؛ فقد ظفر بخصمه وتمّ له القضاء على الثورة.

أمّا كيفية أسره ، فقد اختلفت فيها أقوال المؤرّخين ، وهذه بعضها :

١ ـ ما ذكره ابن أعثم الكوفي : أنّ مسلماً وقف ليستريح ممّا ألمَّ به مِن الجروح ، فطعنه مِنْ خلفه رجل مِن أهل الكوفة طعنة غادرة فسقط إلى الأرض فأسرعوا إلى أسره [٢].

٢ ـ ما ذكره الشيخ المفيد : أن مسلما لمّا أُثخن بالحجارة وعجز مِن القتال أسند ظهره إلى جنب دار ، فقال له ابن الأشعث : لك الأمان.

---

(١) الفتوح ٥ / ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) الفتوح ٥ / ٥٩.

فقال مسلم : أأمن؟ قال : نعم. فقال للقوم الذين معه : لي الأمان؟ قالوا : نعم ، إلاّ عبيد الله بن العباس السلمي فإنّه قال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل. وتنحّى.

فقال مسلم : أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم. وأُتي ببغلة فحُمِل عليها فاجتمعوا حوله ، وانتزعوا سيفه فكأنّه عند ذلك أيس ، فقال : هذا أول الغدر [1].

٣ ـ ما ذكره أبو مخنف : أنّهم عملوا له حفيرة وستروها بالتراب ثمّ انكشفوا بين يديه ، فحمل عليهم فانكشفوا بين يديه ، فلمّا انتهى إليها سقط فيها فازدحموا عليه وأسروه [2]. وهذا القول لم يذهب إليه غير أبي مخنف.

مع عبيد الله السلمي :

ولم يفكر مسلم في تلك الساعة الحرجة بما سيعانيه مِن القتل والتنكيل على يد الطاغية ابن مرجانة ؛ وإنّما شغل فكره ما كتبه للإمام الحُسين بالقدوم إلى هذا المصر ، فقد أيقن أنّه سيلاقي نفس المصير الذي لاقاه ، فدمعت عيناه وظنّ عبيد الله بن العباس السلمي أنّه يبكي لما صار إليه مِن الأسر ، فأنكر عليه ذلك وقال له : إن مَن يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك.

فرد عليه مسلم ما توهّمه فيه قائلا :

---

(١) الإرشاد / ٢٣٨ ، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

(٢) مقتل أبي مخنف ـ مخطوط بمكتبة السيّد محمود سعيد ثابت في كربلاء ، وذكر ذلك الطريحي في المنتخب / ٢٩٩.

إنّي والله ما لنفسي بكيت ، ولا لها مِن القتل أرثي وإنْ كنت لمْ أحبّ لها طرفة عين تلقها ، ولكن أبكي لأهلي المقبلين. أبكي لحُسين [1].

وازدحمت الشوارع والأزقة بالجماهير الحاشدة لتنظر ما يؤل إليه أمر القائد العظيم وما سيلاقيه مِن الأُمويِّين ، ولمْ يستطع أحد منهم أنْ ينبس ببنت شفة حذراً مِن السلطة العاتية.

مع الباهلي :

وجيء بمسلم أسيراً تحفُّ به الشرطة وقد شهرت عليه السيوف ، فلمّا انتهي به إلى قصر الإمارة رأى جرّة فيها ماء بارد وقد أخذ العطش منه مأخذاً أليماً ، فالتفت إلى مَنْ حوله قائلاً : اسقوني مِن هذا الماء.

فانبرى إليه اللئيم الدنس مسلم بن عمرو الباهلي فقال له : أتراها ما أبردها؟ والله ، لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم.

ولا حد لظلم الإنسان ولا منتهى لوحشيته وجفائه ، فما يضرّ أُولئك الجفاة لو سقوه الماء وهو أسير بين أيديهم لا يملك مِنْ أمره شيئاً ، وكان هذا السمت مِن التردّي وسقوط الأخلاق قد عُرف به جميع السفلة الساقطين مِن قتلة المصلحين.

فانبرى مسلم فأراد التعرّف على هذا الإنسان الممسوخ الذي تنكّر لأبسط القِيَم الإنسانية قائلا له : مَن أنت؟!

---

(١) الإرشاد / ٢٣٨.

فأجابه مفتخراً بأنّه مِنْ عملاء السلطة الأُمويّة وأذنابها قائلاً :

أنا مَنْ عرف الحقّ إذ تركته ونصح الأُمّة ، والإمام إذ غششته وسمع وأطاع إذ عصيته ، أنا مسلم بن عمرو.

أي حق عرفه الباهلي؟ وأي نصيحة أسداها للأُمّة هذا الجلف الجافي الذي ارتطم في الباطل وماج في الضلال؟ لقد كان منتهى ما يفخر به تماديه في خدمة ابن مرجانة الذي هو صفحة عار وخزي على الإنسانية في جميع مراحل التاريخ.

ورد عليه مسلم بمنطقه الفيّاض قائلا : لامّك الثكل! ما أجفاك وأفظك ، وأقسى قلبك وأغلظك! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني.

واستحيا عمارة بن عقبة [1] مِنْ جفوة الباهلي وقسوته ، فدعا بماء بارد فصبّه في قدح فأخذ مسلم كلّما أراد أنْ يشرب يمتلئ القدح دماً ، وفعل ذلك ثلاثاً ، فقال وقد ذاب قلبه مِن الظمأ : لو كان مِن الرزق المقسوم لشربته [2].

وهكذا شاءت المقادير أنْ يُحرمَ مِن الماء ويموت ظامئاً ، كما حُرِمَ مِن الماء ابن عمّه ريحانة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وسيّد شباب أهل الجنّة.

مع ابن زياد :

وكان مِن أعظم ما رُزِئ به مسلم أن يدخلَ أسيراً علي الدعيّ ابن مرجانة ، فقد ودّ أنّ الأرض وارته ولا يمثُل أمامه ، وقد شاءت المقادير

---

(١) في الإرشاد / ٢٣٩ ، وبعث عمرو بن حريث غلاماً له فجاء بقُلّة عليها منديل وقدح فصبّ فيه ماء ، وقال له : اشرب.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

أنْ يدخل عليه ، وقد دخل تحفُّ به الشرطة ، فلمْ يحفل البطل بابن زياد ولم يعنَ به ، فسلّم على الناس ولمْ يسلّم عليه ، فأنكر عليه الحرسي وهو مِنْ صعاليك الكوفة قائلاً : هلا تسلّم على الأمير؟ فصاح به مسلم محتقرا له ولأميره : اسكت لا لمُ لك! ما لك والكلام؟! والله ليس لي بأمير فأُسلّم عليه.

وكيف يكون ابن مرجانة أميرا على مسلم سيّد الأحرار وأحد المستشهدين في سبيل الكرامة الإنسانية؟! إنّما هو أمير على أُولئك الممسوخين الذين لم يألفوا إلا الخنوع والذل والعار.

والتاع الطاغية مِن احتقار مسلم له وتبدّد جبروته ، فصاح به : لا عليك ، سلّمت أمْ لمْ تسلّم فإنّك مقتول.

ولمْ يملك الطاغية سوى سفك الدّم الحرام ، وحَسِبَ أنّ ذلك يخيف مسلماً أو يوجب انهياره وخضوعه له ، فانبرى إليه بطل عدنان قائلاً بكلّ ثقةٍ واعتزاز بالنفس : إن قتلتني فقد قَتَل مَن هو شرٌّ مِنك مَن كان خيرا مني.

ولذعه هذا الكلام الصارم وأطاح بغلوائه ، فقد ألحقه مسلم بالجلاّدين والسفّاكين مِنْ قتلة الأحرار والمصلحين. واندفع الطاغية يصبح بمسلم : يا شاق ، يا عاق ، خرجت على إمام زمانك وشققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة.

أيّ إمام خرج عليه مسلم ، وأيّ عصاً للمسلمين شقّها ، وأيّ فتنة ألقحها؟! إنّما خرج على قرين الفهود والقرود. لقد خرج لينقذ الأُمّة مِن محنتها أيّام ذلك الحكم الأسود.

وانبرى مسلم يرد عليه قائلا :

والله ، ما كان معاوية خليفة بإجماع الأُمّة ، بل تغلّب على وصيّ النّبي (صلّى الله عليه وآله) بالحيلة ، وأخذ منه الخلافة بالغصب ، وكذلك ابنه يزيد ؛ وأمّا الفتنة فإنّما ألقحتها أنت وأبوك زياد مِن بني علاج. وأنا أرجو أنْ يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بربته ، فوالله ما خالفت ولا كفرت ولا بدّلت ، وإنّما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحُسين بن علي ، ونحن أولى بالخلافة مِن معاوية وابنه وآل زياد.

وكانت هذه الكلمات أشدّ على ابن مرجانة مِن الموت ، فقد كشفت واقعه أمام شرطته وعملائه ، وجرّدته مِنْ كلّ نزعة إنسانية ، وأبرزته كأحقر مخلوق على وجه الأرض. ولم يجد الدّعي وسيلة يلجأ إليها سوى الافتعالات الكاذبة التي هي بضاعته وبضاعة أبيه زياد مِن قبل. فأخذ يتّهم مسلما بما هو بريء منه قائلا : يا فاسق ، ألمْ تكن تشرب الخمر في المدينة؟

فصاح به مسلم : أحق والله بشرب الخمر مَن يقتل النفس المحرّمة وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يسمع شيئا.

واسترد الطاغية تفكيره فرأى أن هذه الأكاذيب لا تجديه شيئاً ، فراح يقول له : منّتك نفسك أمرا حال الله بينك وبينه وجعله لأهله.

فقال مسلم باستهزاء وسخرية : مَن أهله؟!

ـ يزيد بن معاوية.

ـ الحمد لله ، كفى بالله حاكماً بيننا وبينكم.

ـ أتظن أن لك مِن الأمر شيئاً

ـ لا والله ، ما هو الظنّ ولكنّه اليقين.

ـ قتلني الله إن لم أقتلك.

ـ إنّك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السريرة. والله ، لو كان معي عشرة ممّن أثق بهم وقدرت على شربة ماء لطال عليك أنْ تراني في هذا القصر ، ولكنْ إنْ كنت عزمت على قتلي فأقم لي رجلا مِن قريش أوصي له بما اُريد (١). وسمح له الطاغية بأن يوصي بما أهمّه.

وصيّة مسلم :

ونظر مسلم في مجلس ابن زياد فرأى عمر بن سعد فأحبّ أنْ يعهد إليه بوصيته ، فقال له : لا أرى في المجلس قرشيّاً غيرك (٢) ، ولي إليك حاجة وهي سرّ (٣).

واستشاط ابن زياد غضباً حيث نفاه مسلم مِنْ قريش ، وأبطل استلحاقه ببني اُميّة ، فقد أبطل ذلك النسب اللصيق الذي ثبت بشهادة أبي مريم الخمّار ، ولمْ يستطع أنْ يقول ابن زياد شيئاً.

وامتنع ابن سعد مِن الاستجابة لمسلم ؛ ارضاءً لعواطف سيّده ابن مرجانة ، وكسباً لمودّته. وقد لمس ابن زياد خوره وخنوعه فأسرّها في نفسه

(١) الفتوح ٥ / ٩٧ ـ ٩٩.

(٢) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب / ١٣٤.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤ ، الإرشاد / ٢٣٩.

ورأى أنّه خليق بأنْ يرشّحه لقيادة قوّاته المسلحة التي يزجّ بها لحرب ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

وأمر ابن زياد عمر بن سعد بأنْ يقوم مع مسلم ليعهد إليه بوصيته ، وقام ابن سعد معه فأوصاه مسلم بما يلي :

١ ـ أنّ عليه ديناً بالكوفة يبلغ سبعمئة درهم ، فيبيع سيفه ودرعه ليوفيها عنه [١].

وقد دلّ ذلك على شدّة احتياطه وتحرّجه في دينه ، كما أوصى أنْ يعطي لطوعة ما يفضل مِنْ وفاء دينه.

٢ ـ أن يستوهب جثته مِن ابن زياد فيواريها [٢] ؛ وذلك لعلمه بخبث الأُمويّين وإنّهم لا يتركون المثلة.

٣ ـ أن يكتب للحُسين بخبره [٣] فقد شغله أمره ؛ لأنّه كتب إليه بالقدوم إلى الكوفة.

وأقبل ابن سعد يلهث على ابن زياد فقال له : أتدري أيّها الأمير ما قال لي؟ إنّه قال : كذا وكذا [٤].

وأنكر عليه ابن زياد إبداءه السر فقال : لا يخونك الأمين ، ولكنْ قد يؤتمن الخائن ؛ أمّا ماله فهو لك تصنع به ما شئت ، وأمّا الحُسين فإنْ لمْ يردنا لمْ نرده وإنْ أرادنا لمْ نكفّ عنه ، وأمّا جثته فإنّا لن نشفّعك فيها [٥].

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤ ، وفي الطبري ٦ / ٢١٢ إنّ عليّ ستمئة درهم ، وفي الأخبار الطوال / ٢٤١ إن علي ألف درهم.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢١٢.

(٣) الإرشاد / ٢٣٩.

(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤.

(٥) وفي الإرشاد / ٢٣٩ أمّا جثته فإنّا لا نبالي إذا قتلناه ما صُنِعَ بها.

لقد ترك الطاغية شفاعة ابن سعد في جثة مسلم ؛ فقد عزم على التمثيل بها للتشفّي منه وليتّخذ مِن ذلك وسيلة لإرهاب الناس وخوفهم.

الطاغية مع مسلم :

وصاح ابن مرجانة بمسلم ، فقال له : بماذا أتيت إلى هذا البلد؟ شتّت أمرهم ، وفرّقت كلمتهم ، ورميت بعضهم على بعض.

وانطلق فخر هاشم قائلا بكل ثقة واعتزاز بالنفس : لست لذلك أتيت هذا البلد ولكنّكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف ، وتأمّرتم على الناس مِنْ غير رضى ، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به ، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر ؛ فأتيناهم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنّة ، وكنّا أهلاً لذلك ؛ فإنّه لمْ تزل الخلافة لنا منذ قُتِلَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) ولا تزال الخلافة لنا ، فإنّا قُهرنا عليها.

إنّكم أوّ مَن خرج على إمام هدى وشق عصا المسلمين ، وأخذ هذا الأمر غصباً ونازع أهله بالظلم والعدوان [1].

وأدلى مسلم بهذا الحديث عن أسباب الثورة التي أعلنها الإمام الحُسين على الحكم الأُموي ، وقد التاع الطاغية مِنْ كلام مسلم وتبدّدت نشوة ظفره ، فلمْ يجد مسلكاً ينفذ منه لإطفاء غضبه سوى السب للعترة الطاهرة ، فأخذ يسبّ علياً والحسن والحُسين.

وثار مسلم في وجهه ، فقال له : أنت وأبوك أحقّ بالشتم منهم ، فاقض ما أنت قاض ؛ فنحن

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠١.

أهل البيت موكّل بنا البلاء [١].

لقد ظلّ مسلم حتّى الرمق الأخير مِنْ حياته عالي الهمّة ، وجابه الأخطار ببأس شديد ، فكان في دفاعه ومنطقه مع ابن مرجانة مثالا للبطولات النادرة.

إلى الرفيق الأعلى :

وآن للقائد العظيم أنْ يُنقل عن هذه الحياة بعد ما أدّى رسالته بأمانة وإخلاص ، وقد رُزِقَ الشهادة على يد الممسوخ القذر ابن مرجانة ، فندب لقتله بكير بن حمران الذي ضربه مسلم ، فقال له : خذ مسلما واصعد به إلى أعلى القصر واضرب عنقه بيدك ؛ ليكون ذلك أشفى لصدرك.

والتفت مسلم إلى ابن الأشعث الذي أعطاه الأمان فقال له : يابن الأشعث ، أما والله ، لولا أنّك آمنتني ما استسلمت. قم بسيفك دوني فقد اخفرت ذمّتك. فلم يحفل به ابن الأشعث [٢].

واستقبل مسلم الموت بثغر باسم ، فصعد به إلى أعلى القصر وهو يسبح الله ويستغفره بكلّ طمأنينة ورضى ، وهو يقول : اللّهم ، احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا [٣].

وأشرف به الجلاّد على موضع الحذائيين فضرب عنقه ، ورمى برأسه

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٢ ، وفي تاريخ ابن الأثير ، والإرشاد أنّ مسلماً لم يكلّم ابن زياد بعد شتمه له.

(٢) الطبري ٦ / ٢١٣.

(٣) الفتوح ٥ / ١٠٣.

وجسده إلى الأرض [1] ، وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم الذي يحمل نزعات عمّه أمير المؤمنين (عليه السّلام) ومُثُل ابن عمّه الحُسين ، وقد استشهد دفاعاً عن الحقّ ودفاعاً عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

ونزل القاتل الأثيم فاستقبله ابن زياد ، فقال له : ماكان يقول وأنتم تصعدون به؟

ـ كان يسبّح الله ويستغفره ، فلمّا أردت قتله قلت له : الحمد لله الذي أمكنني منك وأقادني منك. فضربته ضربة لمْ تغن شيئاً ، فقال لي : أما ترى في خدشا تخدشنيه وفاء مِن دمك أيّها العبد.

فبهر ابن زياد وراح يبدي إعجابه وإكباره له قائلا : أوَفخرا عند الموت [2]!

وقد انطوت بقتل مسلم صفحة مشرقة مِنْ أروع صفحات العقيدة والجهاد في الإسلام ، فقد استشهد في سبيل العدالة الاجتماعية ومن أجل إنقاذ الأُمّة وتحريرها مِن الظلم والجور. وهو أوّل شهيد مِن الأُسرة النّبوية يُقتل علنا أمام المسلمين ولم يقوموا بحمايته والذب عنه.

سلبه :

وانبرى سليل الخيانة محمّد بن الأشعث [3] إلى سلب مسلم ، فسلب

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٩.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤.

(٣) الأشعث بن قيس : إنّما سمي بالأشعث لشعوثة رأسه ، واسمه سعد بن كرب ، هلك بعد مقتل الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) بأربعين ليلة ، وكان عمره ٦٣ سنة ، جاء ذلك في تاريخ الصحابة / ٥ ؛ أمّا محمّد بن الأشعث فأمّه لمُ فروة أخت أبي بكر لأبيه ، جاء ذلك في الرياض المستطاب / ٨.

سيفه ودرعه وهو غير حافل بالعار والخزي ، وقد تعرّض للنقد اللاذع مِنْ جميع الأوساط في الكوفة.

ويقول بعض الشعراء في هجائه :

وتركت عمّك أن تُقاتل دونَه فشلا ولولا أنت كان منيعا
وقتلت وافد آل بيت محمّد وسلبت أسيافا له ودروعا [1]

وعمد بعض أجلاف أهل الكوفة فسلبوا رداء مسلم وثيابه.

تنفيذ الإعدام في هانئ :

وأمر الطاغية بإعدام الزعيم الكبير هانئ بن عروة وإلحاقه بمسلم ؛ مبالغة في إذلال زعماء الكوفة وإذاعة للذعر والخوف بين الناس.

وقام محمّد بن الأشعث فتشفّع فيه خوفا مِن بطش أُسرته قائلا : أصلح الله الأمير ، إنّك قد عرفت شرفه في عشيرته [2] ، وقد عرف قومه إنّي وأسماء بن خارجة جئنا به إليك ، فأُنشدك الله أيّها الأمير لما وهبته لي ؛ فإنّي أخاف عداوة أهل بيته ، وإنّهم سادات أهل الكوفة وأكثرهم عددا.

فلمْ يحفل ابن زياد وإنّما زبره وصاح به ، فسكت العبد ، وأُخرج البطل إلى السوق في موضع تُباع فيه الأغنام مبالغة في إذلاله. ولما عُلم أنّه ملاق حتفه جعل يستنجد بأُسرته وقد رفع عقيرته : وا مذحجاه! ولا مذحج لي اليوم. وا عشيرتاه [3]!

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٨.

(٢) وفي رواية (عرفت شرفه في مصره).

(٣) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٥٥.

ولو كانت عند مذحج صبابة مِن الشرف والنبل لانبرت إلى إنقاذ زعيمها ، ولكنّها كانت كغيرها مِن قبائل الكوفة قد طلّقت المعروف ثلاثا.

وعمد هانئ إلى إخراج يده مِن الكتاف وهو يطلب السلاح ليدافع به عن نفسه ، فلمّا بصروا به بادروا إليه فأوثقوه كتافاً ، وقالوا له : امدد عنقك. فأجاب برباطة جأش ورسوخ يقين : لا والله ، ما كنت بالذي أعينكم على نفسي.

وانبرى إليه وغد مِن شرطة ابن زياد يُقال له رشيد التركي [1] فضربه بالسيف فلم يصنع به شيئا ، ورفع هانئ صوته قائلاً : اللّهم إلى رحمتك ورضوانك. اللّهم ، اجعل هذا اليوم كفّارة لذنوبي ؛ فإني إنّما تعصّبت لابن بنت محمّد.

وضربه الباغي ضربة أخرى فهوى إلى الأرض يتخبّط بدمه الزاكي ، ولمْ يلبث قليلاً حتّى فارق الحياة [2] ، وكان عمره يوم استشهد تسعا وتسعين سنة [3] ، وقد مضى شهيداً دون مبادئه وعقيدته ، وجزع لقتله الأحرار والمصلحون.

وقد رثاه أبو الأسود الدؤلي بقوله :

---

(١) وقد ثار لدم هانئ عبدُ الرحمن بن حصين فقتل رشيداً ، وفي ذلك يقول :

إني قتلت راشد التركيّا وليته أبيض مشرفيّا

أرضى بذلك النّبيا

جاء ذلك في أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٥٥.

(٢) الدر النظيم / ١٦٠ ، مِنْ مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، أنساب الأشراف ١ ق ١.

(٣) مرآة الزمان / ٨٥.

أقـــول: وذاك مِـــن جـــزع ووجـــد | أزال الله مُلـــــك بـــــني زيـــــاد
هُـــمُ جـــدعوا الأنـــوفَ وكـــنّ شُمّـــاً | بقـــتلهِم الكـــريم أخـــا مـــراد [1]

ورثى الأخطل ابن زياد بقوله :

ولم يـــك عـــن يـــوم ابـــن عـــروة غائبـــا | كمـــا لم يغـــب عـــن ليلـــة ابـــن عقيـــل
أخـــو الحـــرب صـــرّها فلـــيس بناكـــل | جبـــار ولا وجـــب الفـــؤاد ثقيـــل

السحل في الشوارع :

وعهد الطاغية إلى زبانيته وعملائه بسحل جثة مسلم وهانئ في الشوارع والأسواق ، فعمدوا إلى شدّ أرجلهما بالحبال وأخذوا يسحلونهما في الطرق [2] ؛ وذلك لإخافة العامة وشيوع الإرهاب ، وليكونوا عبرة لكلّ مَنْ تحدّثه نفسه بالخروج على الحكم الأُموي.

لقد سُحب هانئ أمام اسرته وقومه ، ولو كان عندهم ذرّة مِن الشرف والحمية لانبروا إلى تخليص جثة زعيمهم مِن أيدي الغوغاء الذين بالغوا في إهانتها.

صلب الجثّتين :

ولما قضى الطاغية إربه في سحل جثة مسلم وهانئ أمر بصلبهما ،

(١) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٥٥ ، ديوان أبي الأسود.
(٢) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٥٥ ، الدر النظيم / ١٦٠ ، مقتل الخوارزمي ١ / ٢١٥.

فصُلِبا منكوسين [١] في الكناسة [٢] ، فكان مسلم فيما يقول المؤرّخون أوّل قتيل صُلِبَتْ جثته مِنْ بني هاشم [٣] ، وقد استعظم المسلمون كأشدّ ما يكون الاستعظام هذا الحادث الخطير ؛ فإن هذا التمثيل الفظيع إنّما هو جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، ومسلم وهانئ إنّما هما مِن روّد الحق ودُعاة الإصلاح في الإرض.

وعلى أيّ حالٍ ، فقد أخضع الطاغية بعد قتله لمسلم وهانئ العراق الثائر ، وارتمت جميع أوساطه تحت قدميه بدون أيّة مقاومة.

الرؤوس إلى دمشق :

وعمد ابن مرجانة إلى إرسال رأس مسلم وهانئ وعمارة بن صلخب الأزدي [٤] هدية إلى سيّده يزيد ؛ لينال الجائزة ويحرز إخلاص الأُسرة المالكة له.

وقد أرسل معها هذه الرسالة : أمّا بعد ، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه وكفاه مؤونة عدوّه. أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنّ مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عروة المرادي ، وإنّي جعلت عليهما العيون ، ودسست إليهما الرجال وكدتهما حتّى استخرجتهما ، وأمكن الله منهما ، فضربت أعناقهما وبعثت إليك برأسيهما مع هانئ بن أبي حيّة الوداعي الهمداني ، والزّبير بن الأروح التميمي ، وهما مِنْ أهل السمع والطاعة ، فليسألهما أمير المؤمنين

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٢ / ٩٤.

(٢) المناقب والمثالب / ١٧٢.

(٣) مروج الذهب ٣ / ٧.

(٤) أنساب الأشراف ١ ق ١ / ١٥٥.

عمّا أحب ؛ فإن عندهما علما وصدقاً وفهماً وورعاً ، والسّلام [1].

واحتوت هذه الرسالة على العمليات التي قام بها الطاغية للقضاء على الثورة ، والتي كان مِنْ أهمّها :

١ ـ استعانته بالعيون والجواسيس في معرفة شؤون الثورة والوقوف على أسرارها ، وقد قام بهذه العملية معقل مولاه.

٢ ـ إنّه دس لهانئ العضو البارز في الثورة الرجال حتّى صار تحت قبضته واعتقله ، وكذلك كاد لمسلم حينما ثار عليه ، فقد أرسل عيون أهل الكوفة ووجوهها مع العرفاء فأخذوا يذيعون الذعر وينشرون الإرهاب حتّى انهزم جيشه.

جواب يزيد :

ولمّا انتهت الرؤوس إلى دمشق سر يزيد بذلك سرورا بالغاً ، وكتب لابن مرجانة جواباً عن رسالته شكره فيها ، وهذا نصها : أمّا بعد ، فإنّك لمْ تعد إذ كنت كما أحبّ. عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابض. فقد كفيت وصدقت ظني ورأيي فيك وقد دعوت رسوليك فسألتهما عن الذين ذكرت ، فقد وجدتهما في رأيهما وعقلهما وفهمهما وفضلهما ومذهبهما كما ذكرت ، وقد أمرت لكلّ واحد منهما بعشرة آلاف درهم وسرّحتهما إليك فاستوص بهما خيراً.

وقد بلغني أنّ الحُسين بن علي قد عزم على المسير إلى العراق ، فضع المراصد والمناظر واحترس واحبس على الظنّ ، واكتب إليّ في كلّ

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢١٤.

يوم بما تجدّد لك مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ، والسّلام [1].

وحفلت هذه الرسالة بالتقدير البالغ لابن زياد وأضفت عليه صفة الحازم اليقظ ، وإنّه قد حقّق ظن يزيد فيه أنّه أهل للقيام بمثل هذه الأعمال الخطيرة. وقد عرّفه يزيد بعزم الإمام الحُسين على التوجّه إلى العراق ، وأوصاه باتّخاذ التدابير التالية :

١ ـ وضع المراصد والحرس على جميع الطرق والمواصلات.

٢ ـ التحرّس في أعماله ، وأنْ يكون حذراً يقظاً.

٣ ـ أخذ الناس بسياسة البطش والإرهاب.

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٩ ، أنساب الأشراف ١ ق ١ ، ولمْ يتعرض المؤرّخون إلى شؤون هذه الرؤوس الكريمة ، فهل دُفنت في دمشق أو في مكان آخر؟ فقد أهملوا ذلك ، إلاّ أنّه جاء في مرآة الزمان / ٥٩ فيما يخص رأس هانئ ما نصه : أنّه في هذه السنّة ـ أي سنة ٣٠٢ هـ ـ ورد الخبر إلى بغداد أنّه وُجِد بخراسان بالقصر أزجا فيه ألف رأس في برج ، في أُذن كلّ واحد خيط من إبريسم فيه رقعة فيها اسم صاحبه ، وكان مِنْ جملتها رأس هانئ بن عروة ، وحاتم بن حنّة ، وطلق بن معاذ وغيرهم. وتاريخهم ـ أي تاريخ وضعهم في ذلك الأزج ـ سنة سبعين مِن الهجرة.

ونقل الزركلي في هامش أعلامه ٩ / ٥١ عن صلة تاريخ الطبري / ٦٢ مِن حوادث سنة ٣٠٤ هـ أنّه ورد إلى بغداد كتاب مِنْ خراسان يذكر فيه أنّه وجِدَ بقندهار في أبراج سورها برج متّصل بها ، فيه خمسة آلاف رأس في سلال مِنْ حشيش ، ومِنْ هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأساً ، في أُذن كلّ رأس منها رقعة مشدودة بخيط إبريسم باسم رجل منهم. وعدّ منهم هانئ بن عروة ، وقال : إنّهم قد وجدوا على حالهم إلاّ أنّه قد جفّت جلودهم ، والشعر عليها بحالته لمْ يتغيّر.

٤ . أنْ يكون على اتصال دائم مع يزيد ويكتب له بجميع ما يحدث في القطر ، وطبّق ابن مرجانة جميع ما عهده إليه سيّده ، ونفّذ ما يلي :

إعلان الأحكام العرفية :

وبعدما أطاح الطاغية بثورة مسلم قبض على العراق بيد مِنْ حديد ، وأعلن الأحكام العرفية في جميع أنحاء العراق ، واعتمد في تنفيذ خططه على القسوة البالغة ، فأشاع مِن الظلم والجور ما لا يوصف. فكان اسمه موجبا لإثارة الفزع والخوف في نفوس العراقيين كما كان اسم أبيه زياد مِن قبل.

لقد فوّضتْ إليه حكومة دمشق السلطات الواسعة ، وأمرته بأخذ الناس بالظنّة وإعدام كلّ مَنْ يحقد على الحكم الأُموي ، أو له ضلع بالاشتراك في أيّة مؤامرة تُحاك ضدّه.

وبهذه الأساليب الرهيبة ساق الناس لحرب الحُسين. فقد كان يحكم بالموت على كل مَن يتخلّف ، أو يرتدع عن الخوض في المعركة [1].

احتلال الحدود العراقية :

واحتل ابن زياد جميع الحدود العراقية احتلالاً عسكرياً ، ومنع الناس مِن الدخول للعراق والخروج منه إلاّ بإذن وتأشير خاص مِنْ شرطة الحدود ، وكانوا إذا أخذوا رجلاً أجروا معه التحقيق الكامل. فإنْ علموا براءته أطلقوا سراحه ، وإلاّ بعثوه مخفوراً إلى السلطة المركزية في الكوفة ؛ لتجري معه المزيد مِن التحقيق. وقد احتاط في هذه الجهة أشد الاحتياط ؛ مخافة أن يلج أحد إلى العراق أو يخرج منه مِن شيعة الإمام الحُسين. ويقول المؤرّخون :

---

(١) الدولة الأُمويّة في الشام / ٥٦.

إنّه جعل على جميع المفارق ورؤوس المنازل عيوناً مِنْ عسكره ، كما عيّن في البرّ نقاطاً ومسالح ترصد جميع الحركات ، وقد بعث الحُصين بن نمير رئيس شرطته إلى القادسية ومنها إلى خفان ثمّ إلى القطقطانية وجبل لعلع ، ورتّب في كلّ مكان جماعة مِن الفرسان والخيّالة ؛ لتفتيش الداخل والخارج.

وقد حفظت هذه الإجراءات تلك المناطق مِن الاشتراك بأيّ عمل ضدّ الدولة ، كما حفظت خطوط المواصلات بين الكوفة والشام ، وقد ألقت الشرطة القبض على مسهر الصيداوي رسول الإمام الحُسين إلى الكوفة وبعثته مخفوراً إلى ابن زياد ، وسنذكر حديثه في البحوث الآتية :

الاعتقالات الواسعة :

وقام ابن زياد بحملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الشيعة. فاعتقل منهم فيما يقول بعض المؤرّخين اثني عشر ألفا [١] ، وكان مِنْ بين المعتقلين سليمان بن صرد الخزاعي والمختار بن يوسف الثقفي وأربعمئة مِن الأعيان والوجوه [٢].

وقد أثارث هذه الإجراءات عاصفة مِن الفزع والهلع لا في الكوفة فحسب وإنّما في جميع أنحاء العراق ، وقد ابتعد الكوفيون عن التدخّل في أيّة مشكلة سياسية ، ولم تبد منهم أيّة حركة مِن حركات المعارضة وأيقنوا أنْ لا قدرة لهم على الإطاحة بالعرش الأُموي ، وظلّوا قابعين تحت وطأة سياطه القاسية.

---

(١) المختار ، مرآة العصر الأموي / ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٩.

إخفاق الثورة

ويتساءل الكثيرون عن الأسباب التي أدّت إلى إخفاق مسلم في ثورته مع ما كان يتمتع به مِن القوى العسكرية ، في حين أنّ خصمه لمْ تكن عنده أيّة قوّة يستطيع أنْ يدافع بها عن نفسه ، فضلاً عن الهجوم والدخول في عمليات القتال ، ويعزو بعضهم السبب في ذلك إلى قلّة خبرة مسلم في الشؤون السياسية وعجزه مِن السيطرة على الموقف ؛ فترك المجال مفتوحاً لعدوه حتّى تغلّب عليه.

وهذا الرأي فيما يبدو سطحي ليست له أيّة صبغة مِن التحقيق ؛ وذلك لعدم ابتنائه على دراسة الأحداث بعمق وشمول ، ومِنْ أهمها فيما نحسب دراسة المجتمع الكوفي وما مُنِيَ به مِن التناقض في سلوكه الفردي والاجتماعي ، والوقوف على المخططات السياسية التي اعتمد عليها ابن زياد للتغلّب على الأحداث ، والنظر في الصلاحيات المعطاة لمسلم بن عقيل مِنْ قبل الإمام ؛ فإنّ الإحاطة بهذه الأُمور توضّح لنا الأسباب في إخفاق الثورة ، وفيما يلي ذلك :

المجتمع الكوفي :

ولا بدّ لنا أنْ نتحدّث بمزيد مِن التحقيق عن طبيعة المجتمع الكوفي ؛ فإنّه المرآة الذي تنعكس عليه الأحداث الهائلة التي لعبت دورها الخطير في تاريخ الإسلام السياسي ، وأنْ نتبيّن العناصر التي سكنت الكوفة وننظر إلى طبيعة الصلات الاجتماعية فيما بينهما ، والحياة الاقتصادية التي كانت تعيش فيها ؛ فإنّ البحث عن ذلك يلقي الأضواء على فشل الثورة ، كما يلقي الأضواء على التذبذب والانحرافات الفكرية التي مُنِيَ بها هذا المجتمع ، والتي كان مِنْ نتائجها ارتكابه لأبشع جريمة في تاريخ الإنسانية وهي إقدامه على قتل ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وإلى القراء ذلك :

الظواهر الاجتماعية :

أمّا الظواهر الاجتماعية التي تفرّد بها المجتمع الكوفي دون بقيّة الشعوب فهي :

التناقض في السلوك :

والظاهرة الغريبة في المجتمع الكوفي أنّه كان في تناقض صريح مع حياته الواقعية ؛ فهو يقول شيئاً ويفعل ضدّه ، ويؤمن بشيء ويفعل ما ينافيه ، والحال أنّه يجب أنْ تتطابق أعمال الإنسان مع ما يؤمن به.

وقد أدلى الفرزدق بهذا التناقض حينما سأله الإمام عن أهل الكوفة ، فقال له : خلّفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مشورة عليك. وكان الواجب يقضي أنْ تذب سيوفهم عمّا يؤمنون به ، وأنْ يناضلوا عمّا يعتقدون به ، ولا توجد مثل هذه الظاهرة في تاريخ أيّ شعب مِن الشعوب.

ومِنْ غرائب هذا التناقض أنّ المجتمع الكوفي قد تدخّل تدخّلاً إيجابياً في المجالات السياسية وهامَ في تياراتها ، فكان يهتف بسقوط الدولة الأُمويّة ، وقد كاتبوا الإمام الحُسين لينقذهم مِنْ جور الأُمويّين وبطشهم ، وبعثوا الوفود إليه مع آلاف الرسائل التي تحثّه على القدوم لمصرهم.

ولما بعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل قابلوه بحماس بالغ ، وأظهروا له الدعم الكامل حتّى كاتب الإمام الحُسين بالقدوم إليهم ، ولكنْ لما دهمهم ابن مرجانة ونشر الرعب والفزع في بلادهم تخلّوا عن مسلم وأقفلوا عليهم بيوتهم ، وراحوا يقولون :

«ما لنا والدخول بين السلاطين».

إنّ حياتهم العملية لمْ تكن صدى لعقيدتهم التي آمنوا بها ، فقد كانوا يمنّون قادتهم بالوقوف معهم ثم يتخلّون عنهم في اللحظات الحاسمة.

ومِن مظاهر ذلك التناقض : أنّهم بعدما أرغموا الإمام الحسن (عليه السّلام) على الصلح مع معاوية وغادر مصرهم جعلوا ينوحون ويبكون على ما فرّطوه تجاهه ، ولما قتلوا الإمام الحُسين (عليه السّلام) ودخلت سبايا أهل البيت (عليهم السّلام) مدينتهم أخذوا يعجّون بالنياحة والبكاء ، فاستغرب الإمام زين العابدين (عليه السّلام) ذلك منهم ، وراح يقول : «إن هؤلاء يبكون وينوحون مِن أجلنا! فمَن قتلنا؟!».

إنّ فقدان التوازن في حياة ذلك المجتمع جرّ لهم الويلات والخطوب وألقاهم في شرّ عظيم.

الغدر والتذبذب :

والظاهرة الأُخرى في المجتمع الكوفي الغدر ، فقد كان مِنْ خصائصهم التي اشتهروا بها ، وقد ضُرِبَ بهم المثل فقيل : أغدر مِن كوفي (١) ، كما ضُرِبَ المثل بعدم وفائهم فقيل : الكوفي لا يوفي (٢).

وقد وصفهم أمير المؤمنين (عليهم السّلام) بقوله : «أُسود روّاغة ، وثعالب روّغة». وقال فيهم : «إنّهم أُناس مجتمعة أبدانهم ، مختلفة أهواؤهم ، وإنّ مَنْ فاز بهم فاز بالسهم الأخيب». وإنّه أصبح لا يطمع في نصرتهم

(١) الفرق بين الفِرق . لعبد القاهر البغدادي / ٢٦.

(٢) آثار البلاد . لزكريا القزويني / ١٦٧.

ولا يصدق قولهم [١].

لقد كان الجانب العملي في حياتهم هو التقلّب والتردّد والتخاذل ، وقد غرّوا زيد بن علي الثائر العظيم فقالوا له : إن معك مئة ألف رجل مِن أهل الكوفة يضربون دونّك بأسيافهم [٢] ، وقد أحصى ديوانه منهم خمسة عشر ألفا كانوا قد بايعوه على النصرة [٣] ، ثمّ لما أعلن الثورة هبط عددهم إلى مئتي وثمانية عشر رجلا [٤].

وقد نصح داود بن علي زيداً بأنْ لا ينخدع بأهل الكوفة ، فقال له : يابن عمّ ، إنّ هؤلاء يغرّونك مِن نفسك ؛ أليس قد خذلوا مَن كان أعز عليهم منك جدّك علي بن أبي طالب حتى قُتِل والحسن مِن بعده بايعوه ثمّ وثبوا عليه فانتزعوا رداءه مِنْ عنقه ، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه؟ أو ليس قد أخرجوا جدّك الحُسين وحلفوا له بأوكد الأيمان ثمّ خذلوه وأسلموه ، ثمّ لمْ يرضوا بذلك حتى قتلوه [٥]؟

وكانوا ينكثون البيعة بعد البيعة ، وقد ألمع إلى هذه الظاهرة أعشى همدان الذي كان شاعر ثورة محمّد بن الأشعث الذي ثار على الحجّاج ، يقول داعياً على أهل الكوفة :

أبى الله إلا أن يتمّم نورَه ... ويُطفئ نور الفاسقين فيخمدا

ويُنزل ذلا بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكّدا

وما أحدثوا مِن بدعة وعظيمة ... مِن القول لم تصعد إلى الله مصعدا

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٢٣٨.

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٧.

(٣) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨٥.

(٤) (٥) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٩.

وما نكثوا مِن بيعة بعد بيعة　　إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا [1]

وقد عرفوا بهذا السمت عند جميع الباحثين ، ويرى (فلهوزن) إنّهم متردّدون متقلّبون ، وإنّهم لمْ يألفوا النظام والطاعة ، وإنّ الإخلاص السياسي والعسكري لمْ يكنْ معروفاً لهم على الإطلاق ، وأكّد ذلك الباحث (وزتر شنين) يقول : إنّ مِنْ صفاتهم المميّزة البارزة الهوائية والتقلّب ، ونقص الثقة بأنفسهم [2].

ولمْ يكنْ هذا التذبذب في حياتهم مقتصراً على العامّة ، وإنّما كان شائعاً حتّى عند رجال الفكر والأدب ؛ فسراقة الشاعر المعروف وقف في وجه المختار ، واشترك في قتاله يوم جبّانة السبيع ، فلمّا انتصر المختار وقع سراقة أسيرا بين يدي أصحابه فزُجّ به في السجن ، فأخذ سراقة يستعطفه وينظم القصيد في مدحه ، ويذكر مبادئ ثورته ويبالغ في تمجيده ، فكان ممّا قاله فيه :

نُصرت على عدوّك كل يوم　　بكل كتيبة تنعى حُسينا

كنصر محمّد في يوم بدر　　ويوم الشِّعب إذ لاقى حُنينا

فأسجح [3] إذ ملكت فلو ملكنا　　لجرنا في الحكومة واعتدينا

تقبّل توبة مني فإني　　سأشكر إن جعلت النقد دينا

ولما عفا عنه المختار خرج مِن الكوفة ، فلمْ يبعد عنها قليلاً حتّى أخذ يهجو المختار ويحرّض عليه. وقد قال في هجائه :

ألا أبلغ أبا إسحاق أني　　رأيت البلق دهما مصمتات

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ١١١٣.

(٢) السيادة العربية / ٧٤.

(٣) السجح : حسن العفو.

كفــرت بـــوحيكُم وجعلــت نــذرا	علـــي قتــالكم حـــتى الممـــات
أرى عيـــــني مــــا لم تُبصـــراه	كلانــــا عـــالم بالترّهـــات
إذا قـــالوا أقـــول لهـــم كـــذبتم	وإن خرجـــوا لبســـت لهـــم أداتي [1]

لقد مضى يصب ثورته وسخريته على المختار وأصحابه في نفس الوزن الذي نظم فيه قصيدته السابقة. ومِن الطبيعي إنّ هذا التناقض في حياتهم كان ناجماً مِن الاضطراب النفسي ، وعدم التوازن في السلوك.

ومِن غرائب ذلك التناقض أن بعضهم كان يحتاط في أبسط الأُمور ولا يتحرّج مِن اقتراف أعظم الموبقات! فقد جاء رجل مِن أهل الكوفة إلى عبد الله بن عمر يستفتيه في دم البعوض يكون على الثوب أطاهر أم نجس ، فقال له ابن عمر : مِن أين أنت؟

ـ مِن أهل العراق.

فبُهر ابن عمر وراح يقول : انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله)! وقد سمعته يقول فيه وفي أخيه : «هما ريحانتاي مِن الدنيا» [2]!

ويعزو بعضهم السبب في هذا الاضطراب إلى الظروف السياسية القاسية التي مرّت عليهم ؛ فإن الحكم الأُموي كان قد عاملهم بمنتهى القسوة والشدّة ، فرماهم بأقسى الولاة وأشدّهم عنفاً ، أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن سُميّة ؛ ممّا جعل الحياة السياسية ضيّقة ومتحرّجة ، ممّا نجم عنه هذا التناقض في السلوك.

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٢٣٤ ، الأخبار الطوال / ٢٦٤.

(٢) الصراط السوي في مناقب آل النّبي / ٩٤ مِن مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين.

التمرّد على الولاة :

والطابع الخاص الذي عُرِفَ به المجتمع الكوفي التمرّد على الولاة والتبرّي منهم ، فلا يكاد يتولّى عليهم والٍ وحاكمٍ حتّى أعلنوا الطعن عليه ، فقد طعنوا في سعد بن أبي وقاص مؤسس مدينتهم واتّهموه بأنّه لا يحسن الصلاة [1] فعزله عمر وولّى مكانه الصحابي الجليل عمّار بن ياسر ، ولمْ يلبثوا أنْ شكوه إلى عمر فعزله وولّى مكانه أبا موسى الأشعري ، ولمْ تمضِ أيّام مِنْ ولايته حتّى طعنوا فيه ، وقالوا : لا حاجة لنا في أبي موسى [2].

وضاق عمر بهم ذرعاً وبدا عليه الضجر ، فسأله المغيرة عن شأنه ، فقاله له : ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا مِن عظيم فهل نابك مِن نائب؟ فانبرى عمر يشكو إليه الألم الذي داخله مِن أهل الكوفة قائلا : وأيّ نائب أعظم مِنْ مئة ألف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير [3].

وتحدّث عمر عنهم فقال : مَنْ عذيري مِنْ أهل الكوفة ؛ إنْ استعملت عليهم القوي فجروه ، وإن ولّيت عليهم الضعيف حقروه [4]. لقد جُبلوا على التمرّد فهم لا يُطيقون الهدوء والاستقرار.

ويرى (ديمومبين) إن هذه الظاهرة اعتادها الكوفيون مِن أيّام الفرس الذين دأبوا

---

(١) فتوح البلدان / ٢٨٧.

(٢) الطبري ، وجاء فيه أنّهم اتّهموه بأنّه يتاجر في أقواتهم.

(٣) فتوح البلدان / ٢٧٩.

(٤) مختصر كتاب البلدان / ١٨٤ لابن الفقيه.

على تغيير حكّامهم دوما [١] ، ويذهب (فان فلوتن) إلى أن العرب المستقرين بالكوفة كانوا قد تعوّدوا على حياة الصحراء بما فيها مِنْ ضغن وشحناء ، وحبّ الانتقام والتخريب والأخذ بالثأر ؛ فلذا تعوّدوا على التمرّد وعدم الطاعة للنظام [٢].

الانهزاميّة :

والظاهرة الغريبة التي عُرِفَ بها المجتمع الكوفي هي الانهزامية وعدم الصمود أمام الأحداث ، فإذا جدّ الجد ولّوا منهزمين على أعقابهم ، فقد أجمعوا في حماس على مبايعة مسلم ونصرته ، ولما أعلن الثورة على ابن مرجانة انفضّوا مِنْ حوله حتّى لمْ يبقَ معه إنسان يدلّه على الطريق ، وقد وقفوا مثل هذا الموقف مِنْ زيد بن علي ، فقد تركوه وحده يصارع جيوش الأُمويّين ، وراح يقول : فعلوها حُسينية.

وبايعوا عبد الله بن معاوية ، فقالوا له : ادع إلى نفسك فبنو هاشم أوّلى بالأمر مِن بني مروان [٣] ، وأخرجوه حيث كان مقيماً وأدخلوه القصر فبايعوه ، ولما زحف لقتاله والي الأُمويّين عبد الله بن عمر فرّوا منهزمين ، ونظر عبد الله بن معاوية فإذا الأرض بيضاء مِن أصحابه فقد غدر به قائد قواته ؛ لأنّه كان على اتفاق مع والي الأُمويّين فانهزم وانهزم معه الجيش [٤] ، وكان عيسى بن زيد يقول فيهم : لا أعرف موضع ثقة يفي ببيعته ويثبت عند اللقاء [٥].

---

(١) النظم الإسلاميّة / ٢٦.

(٢) السيادة العربية / ١١.

(٣) (٤) تاريخ الطبري ٢ / ٣ / ١١٨٨٠.

(٥) مقاتل الطالبيّين / ٤١٨.

مساوئ الأخلاق :

واتّصفت الأكثرية الساحقة مِن أهل الكوفة بمساوئ الأخلاق. يقول فيهم عبد الله بن الحسن إنّهم : نفج العلانية ، خور السريرة ، هوج الردّة ، جزع في اللقاء ، تقدمهم ألسنتهم ولا تشايعهم ، وإن حوريتم خرتم ، وإنْ اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإنْ جئتم إلى مشاقّة نكصتم (١).

ووصفهم المختار لعبد الله بن الزّبير حينما سأله عنهم ، فقال : لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء. وعلّق ابن الزّبير على قول المختار فقال : هذه صفة عبيد السوء ، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم ، فإذا غابوا عنهم شتموهم (٢).

وهجاهم أعشى همدان بقوله :

وجبناً حشاه ربُّهُمْ في قلوبهمْ ... فما يقربونَ الناسَ إلاّ تهدّدا

فلا صدق في قول ولا صبر عندهم ... ولكن فخرا فيهم وتزيّدا (٣)

ويقول فيهم أبو السرايا :

وما رست أقطار البلاد فلم أجد ... لكم شبها فيما وطأت مِن الأرض

خلافاً وجهلاً وانتشار عزيمة ... ووهناً وعجزا في الشدائد والخفض

لقد سبقت فيكم إلى الحشر دعوة ... فلا عنكم راض ولا فيكم مَرضي (٤)

---

(١) (٢) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨١.

(٣) الطبري ٢ / ٢ / ١١١٤.

(٤) يشير إلى دعوة الإمام الشهيد الحُسين (عليه السّلام) على أهل الكوفة يوم عاشوراء بقوله : «... ولا يرضي الولاة عنكم أبدا».

ســـأبعد داري مِـــن قلـــى عـــن ديـــارِكُم   فـــذوقوا إذا ولّيـــت عاقبـــة الـــبُغض [1]

وحلّل الدكتور يوسف خليف هذه الأبيات بقوله : وأبو السرايا في هذه الأبيات يردّ تلك الفكرة القديمة التي عُرِفَتْ عن أهل الكوفة مِنْ أنّهم أهل شقاق ونفاق ومساوئ أخلاق ، فيصفهم بالشقاق والجهل وتفرّق العزيمة والضعف والعجز ، ويرى أنّ هذه صفاتهم التي تلازمهم دائما في الحرب والسلم ، وهي صفات لمْ تجعل أحداً مِنْ زعمائهم أو أئمتهم يرضى عنهم ، وهم منفردون بها مِنْ بين سائر البشر في جميع أقطار الأرض التي وطأتها قدماه ، ثمّ يعلن في النهاية ببغضه لهم واعتزامه البعد عنهم ؛ ليذوقوا مِن بعده سوء العاقبة وسوء المصير [2].

ووصفهم أبو بكر الهذلي بقوله : إنّ أهل الكوفة قطعوا الرحم ووصلوا المثانة ، كتبوا إلى الحُسين بن علي إنّا معك مئة ألف وغرّوه ، حتّى إذا جاء خرجوا إليه وقتلوه وأهل بيته صغيرهم وكبيرهم ثمّ ذهبوا يطلبون دمه ، فهل سمع السامعون بمثل هذا؟! [3].

الجشع والطمع :

وهناك نزعة عامّة سادت في أوساط المجتمع الكوفي ، وهي التهالك على المادة والسعي على حصولها بكل طريق. فلا يُبالون في سبيلها بالعار والخزي ، ولقد لعبت هذه الجهة دورها الخطير في إخفاق ثورة مسلم ؛ فقد بذل ابن زياد الأموال بسخاء للوجوه والأشراف فخفّوا إليه سِراعاً ،

---

(١) مقاتل الطالبيّين / ٥٤٤ . ٥٤٦.

(٢) حياة الشعر في الكوفة / ٤٤٥.

(٣) مختصر البلدان / ١٧٣.

فغدروا بمسلم ونكثوا عهودهم ، وقد ملكهم ابن زياد بعطائه ؛ فأخرجهم لحرب ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعد أن أقسموا الأيمان المغلّظة على نصرته والذب عنه.

التأثّر بالدعايات :

وظاهرة أخرى مِنْ ظواهر المجتمع الكوفي ، وهي سرعة التأثر بالدعايات مِنْ دون فحص ووقوف على واقعها ، وقد استغلّ هذه الظاهرة الأُمويّون أيّام (مسكن) ؛ فأشاعوا في أوساط الجيش العراقي أنّ الحسن صالح معاوية ، وحينما سمعوا بذلك ماجوا في الفتنة وارتطموا في الاختلاف ، فعمدوا إلى أمتعة الإمام فنهبوها كما اعتدوا عليه فطعنوه في فخذه. ولمّا أذاعت عصابة ابن زياد بين جيوش مسلم أنّه جيش أهل الشام قد أقبل إليكم فلا تجعلوا أنفسكم عرضة للنقمة والعذاب ، فلمّا سمعوا ذلك انهارت أعصابهم وولّوا منهزمين ، وأمسى ابن عقيل وحده ليس معه إنسان يدلّه على الطريق.

هذه بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة ، وهي تكشف عن ضحالة ذلك المجتمع وانهياره أمام الأحداث ، فلمْ تكنْ له إرادة صلبة ولا وعي اجتماعي أصيل ؛ وقد جرّوا لهم بذلك الويل ، فدمّروا قضاياهم المصيرية وتنكّروا لجميع حقوقهم ، وفتحوا المجال للطاغية ابن مرجانة أنْ يتحكّم فيهم ، ويصبّ عليهم وابلاً مِن العذاب الأليم.

الحياة الاقتصاديّة :

أمّا الحياة الاقتصادية في الكوفة فكانت تتّسم بعدم التوازن ، فقد كانت فيها الطبقة الأرستقراطية التي غرقت في الثراء العريض ، فقد منحتها الدولة الأُمويّة أيّام عثمان ومعاوية الهبات والامتيازات الخاصة ؛ فآثرت على حساب الضعفاء والمحرومين ، ومِنْ بين هؤلاء :

١ ـ الأشعث بن قيس : وقد اشترى في أيّام عثمان أراضي واسعة في العراق ، وكان في طليعة الإقطاعيين في ذلك العصر ، وهو الذي أرغم الإمام على قبول التحكيم ؛ لأن حكومته كانت تهدّد مصالحه وامتيازاته الخاصة.

٢ ـ عمرو بن حُريث : وكان أثرى رجل في الكوفة [١] ، وقد لعب دوراً خطيراً في إفساد ثورة مسلم وشل حركتها.

٣ ـ شبث بن ربعي : وهو مِن الطبقة الأرستقراطية البارزة في الكوفة [٢] ، وهو أحد المخذّلين عن مسلم ، كما تولّى قيادة بعض الفرق التي حاربت الحُسين (عليه السّلام).

هؤلاء بعض المثرين في ذلك العصر ، وكانوا يداً لابن مرجانة وساعده القوي الذي أطاح بثورة مسلم ؛ فقد كانوا يملكون نفوذاً واسعاً في الكوفة ، وقد استطاعوا أنْ يُعلنوا معارضتهم للمختار رغم ما كان يتمتّع به مِن الكُتل الشعبية الضخمة المؤلفة مِن الموالي والعبيد ، وهم الذين أطاحوا بحكومته.

أمّا الأكثرية الساحقة في المجتمع الكوفي فكانت مرتبطة بالدولة ، تتلقّى موادّها المعاشية منها ؛ باعتبارها المعسكر الرئيس للدولة ، فهي التي تقوم

---

(١) في الطبري : أن عمرو بن حُريث كان أكثر أهل الكوفة مالا.

(٢) حياة الشعر في الكوفة / ١٦٨.

بالاتفاق عليها ، وقد عانى بعضهم الحرمان والبؤس. وقد صوّر الشاعر الأسدي سوء حياته الاقتصادية بقصيدة يمدح بها بعض نبلاء الكوفة لينال مِنْ معروفه وكرمه ، يقول فيها :

يا أبا طلحة الجواد أغثني ... بسجال مِنَ سيبك المقسوم

أحيي نفسي فدتك نفسي فإني ... مفلس قد علمت ذاك عديم

أو تطوع لنا بسلت دقيق ... أجره إن فعلت ذاك عظيم

قد علمتم فلا تعامس عني ... ما قضى الله في طعام اليتيم

ليس لي غير جرّة وأصيص ... وكتاب منمنم كالوشوم

وكساء أبيعه برغيف ... قد رقعنا خروقَه بأديم

وإكاف أعارنيه نشيط ... هو لحاف لكلِّ ضيف كريم [1]

أرأيت هذا الفقر المدقع الذي دعا الشاعر إلى هذا الاستعطاف والتذلل ، إنها مشكلة الفقر الذي أخذ بخناقه.

وعلّق شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله : ومِن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأُمويّة ، واحتلّ جوانب غير قليلة منها ؛ فقد كان أساسياً في حياة الناس ، فطبيعي أنْ يكون أساسياً في فنّهم وشعرهم. أليس دعامة هامّة مِن دعائم الحياة؟! فلم لا يكون دعامة هامّة مِن دعائم البناء الفنّي ؟ إنّه يستتر في قاع الحياة وقاع الشعر ؛ لأن الشعر إنّما هو تعبير عن الحياة [2].

إنّ الحياة الاقتصادية تؤثّر أثراً عميقاً وفعّالاً في كيان المجتمع ، وتلعب دوراً خطيراً في توجيه المجتمع نحو الخير أو الشرّ ؛ وقد ثبت أنّ كثيراً مِن الجرائم التي يقترفها بعض المصابين في سلوكهم إنّما جاءت نتيجة لفقرهم وبؤسهم ، أو لجشعهم على تحصيل المادة ، وقد اندفع أكثر الجيش

---

(١) حياة الحيوان . الجاحظ ٥ / ٢٩٧ . ٢٩٩.

(٢) التطور والتجدد في الشعر الأُموي / ١٣٤.

الذي خرج لحرب الإمام الحُسين (عليه السّلام) حينما منّاهم ابن مرجانة بزيادة مرتّباتهم التي يتقاضونها مِن الدولة.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ سوء الحالة الاقتصادية في الكوفة كانت مِن الأسباب الفعّالة في إخفاق ثورة مسلم ، وتحوّل الجماهير عنه حينما أغدق ابن زياد الأموال على الوجوه والعرفاء وغيرهم ، فاندفعوا إلى القيام بمناهضة مسلم وصرف الناس عنه.

عناصر السكّان :

كانت الكوفة أممية قد امتزجت فيها عناصر مختلفة في لغاتها ، ومتباينة في طباعها وعاداتهم وتقاليدها.

فكان فيها العربي والفارسي والنبطي إلى جانب العبيد وغيرهم ، ولمْ تعدْ مدينة عربية خالصة كمكة والمدينة ، وإنّما كانت مدينة أهلها أخلاط مِن الناس كما يقول اليعقوبي.

وقد هاجرت إليها هذه العناصر باعتبارها المركز الرئيسي للمعسكر الإسلامي. فمنها تتدفّق الجيوش الإسلاميّة للجهاد ، كما تتدفّق بها المغانم الكثيرة التي وعد الله بها المجاهدين ، وقد بلغ نصيب الجندي المقاتل مِن فيء المدائن اثني عشر ألفا [1] ؛ ممّا دعا ذلك إلى الهجرة إليها باعتبارها السبيل إلى الثروة. ونلمع إلى بعض تلك العناصر :

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤ ، مختصر كتاب البلدان / ١٦٦.

العرب :

وحينما تم تأسيس الكوفة على يد فاتح العراق سعد بن أبي وقاص اتّجهت إليها أنظار العرب ، وتسابقوا إلى الهجرة إليها ، فقد سكنها في وقت مبكر سبعون بدرياً ، وثلاثمئة مِنْ أصحاب الشجرة [١].

وقد ترجم ابن سعد في طبقاته مئة وخمسين صحابيا ممّن نزلوا الكوفة [٢]. ويقول فيها السفّاح : وهي ـ أي الكوفة ـ منزل خيار الصحابة وأهل الشرف [٣].

أمّا القبائل العربية التي سكنتها فهي :

القبائل اليمنيّة :

وتسابقت القبائل اليمنية إلى سكنى الكوفة ، فكان عددهم فيما يقول المؤرّخون اثني عشر ألفاً [٤] ، وهي :

١ ـ قضاعة.

٢ ـ غسان.

٣ ـ بجيلة.

٤ ـ خثعم.

٥ ـ كندة.

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ٤٣.

(٣) مختصر كتاب البلدان / ٧٣.

(٤) معجم قبائل العرب ١ / ١٥ ، فتوح البلدان / ٢٧٦ ، معجم البلدان ٧ / ٢٦٧.

٦ ـ حضرموت.

٧ ـ الأزد.

٨ ـ مذحج.

٩ ـ حِمْير.

١٠ ـ همدان.

١١ ـ النخع.

فهذه هي الأُسر التي تنتمي إلى اليمن وقد استوطنت الكوفة ، ونزلت في الجانب الشرقي مِن المسجد.

ويرى (فلهوزن) أنّ القبائل المشهورة مِن اليمن ، وهي : مذحج وهمدان وكندة ، قد كانت لها السيطرة والسيادة على الكوفة. ويقول عبد الملك بن مروان بعد دخوله إلى الكوفة ، حينما جاءته قبائل مذحج وهمدان : ما أرى لأحد مع هؤلاء شيئا.

القبائل العدنانيّة :

أمّا القبائل العدنانية التي سكنت الكوفة ، فكان عددها ثمانية آلاف شخصاً ، وهي تتشكّل مِن أسرتين :

١ ـ تميم.

٢ ـ بنو العصر.

قبائل بني بكر :

وسكنت الكوفة قبائل بني بكر ، وهي عدّة أُسر منها :

١ ـ بنو أسد.

٢ ـ غطفان.

٣ ـ محارب.

٤ ـ نمير.

وهناك مجموعة أُخرى مِن القبائل العربية استوطنت الكوفة ، وهي كنانة وجديلة وضبيعة وعبد القيس وتغلب وأياد وطي وثقيف وعامر ومزينة [١].

ويرى (ماسنيون) أنّه إلى جانب القرشيين الذين سكنوا الكوفة عناصر شديدة البداوة مِن سكان الخيام ، وبيوت الشعر وأصحاب الإبل مِنْ بني دارم التميمي وجيرانهم اليمنيين القدماء مِنْ طيء ، وعناصر نصف رحالة مِنْ ربيعة وأسد مِن الغرب والشمال الغربي ، وبكر مِن الشرق والجنوب الشرقي ، وعبد القيس الذين جاءوا مِنْ هجر مِن الجنوب الشرقي.

ثم عناصر متحضّرة من القبائل الجنوبية الأصيلة مِن العربية الذين نزحوا مِن اليمن وحضرموت ، وهؤلاء كانوا قسمين : عناصر نصف متحضّرة مِنْ كندة وبجبلة ، وعناصر متحضّرة تماماً مِنْ سكّان المدن والقرى اليمنية مِن مذحج وحِمْير وهمدان [٢].

إن العنصر العربي الذي استوطن الكوفة منذ تأسيسها كان مزيجاً مِن اليمانية والنزاريّة وغيرها ، ولكنّ اليمانية كانت أكثر عدداً ، كما كان تأثيرها في حياة المجتمع الكوفي أشدّ مِنْ غيرها.

الروح القبليّة :

وسادت في قبائل المجتمع العربي في الكوفة الروح القبلية فكانت كلّ قبيلة

---

(١) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة / ٤٢.

(٢) خطط الكوفة / ١٢ ـ ١٣.

تنزل في حي معين لها لا يشاركها فيه إلاّ حلفاؤها ، كما كان لكلّ قبيلة مسجدها الخاص ومقبرتها الخاصة. ويرى (ماسنيون) أن جبّانات الكوفة هي إحدى الصفات المميّزة لطبوغرافيتها [١] ، كما سمّيت شوارعها وسككها بالقبائل التي كانت تقطن فيها [٢] ، وغدت المدينة صورة تامّة للحياة القبلية ، وبلغ الإحساس بالروح القبلية والتعصّب لها إلى درجة عالية ، فكانت القبائل تتنافس فيما بينها على إحراز النصر كما حدث في واقعة الجمل ؛ ومِن هنا غلب على الحياة فيها طابع الحياة الجاهلية [٣].

ويحدّثنا ابن أبي الحديد عن الروح القبلية السائدة في الكوفة بقوله : إن أهل الكوفة في آخر عهد عليٍّ كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج مِنْ منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أُخرى ، فينادي باسم قبيلته : يا للنخع أو يا لكندة ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي مرّ بها فينادون : يا لتميم أو يا لربيعة ، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها ، فتُسلّ السيوف وتثور الفتنة [٤].

لقد كانت الروح القبلية هي العنصر البارز في حياة المجتمع الكوفي ، وقد استغل ابن سُميّة هذه الظاهرة في إلقاء القبض على حِجْر وإخماد ثورته ؛ فضرب بعض الأُسر ببعض ، وكذلك استغل هذه الظاهرة ابنه للقضاء على حركة مسلم وهانئ وعبد الله بن عفيف الأزدي.

---

(١) (٢) خطط الكوفة / ١٨.

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي / ٨٠ ـ ٨١.

(٤) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٣٩.

الفرس :

وإلى جانب العنصر العربي الذي استوطن الكوفة كان العنصر الفارسي ، وكانوا يسمّون الحمراء [1] ، وقد سألوا عن أمنع القبائل العربية فقيل لهم تميم فتحالفوا معهم [2].

وأكبر موجة فارسية استوطنت الكوفة عقيب تأسيسها هي المجموعة الضخمة مِنْ بقايا فلول الجيوش الساسانية التي انضمت إلى الجيش العربي وأخذت تُقاتل معه ، وقد عُرفت في التاريخ باسم (حمراء ديلم) ، فكان عددهم فيما يقول المؤرّخون أربعة آلاف جندي ، يرأسهم رجل يسمّى (ديلم) ، قاتلوا معه تحت قيادة رستم في القادسية ، فلمّا انهزمت الفرس وقُتل رستم عقدوا أمانا مع سعد بن أبي وقاص ، وشرطوا عليه أن ينزلوا حيث شاؤوا ، ويحالفوا مَنْ أحبّوا ، وأنْ يفرض لهم العطاء ، وقد حالفوا زهرة بن حويّة التميمي أحد قادة الفتح ، وفرض لهم سعد في ألف ألف ، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه كما شهدوا فتح جلولاء ، ثمّ تحوّلوا فنزلوا الكوفة [3].

وقد كوّنت هذه الجالية مجموعة كبيرة في المجتمع الكوفي ، ويذكر (فلهوزن) أنّهم كانوا أكثر مِنْ نصف سكّان الكوفة ، وقد أخذ عددهم بازدياد حتّى تضاءلت نسبة العرب في الكوفة ، وتغلّبوا في عصر المأمون حتى كانت اللغة الفارسية تحتل الصدارة في ذلك العصر [4]. ويقول الجاحظ :

---

(١) الأخبار الطوال / ٢٩٦.

(٢) تاريخ الطبري.

(٣) فتوح البلدان / ٢٨٠ ، خطط الكوفة / ١١.

(٤) فك العربية / ٨٣ ـ ٨٤.

إن اللغة الفارسية أثّرت تأثيرا كبيرا في لغة الكوفة [1].

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ الفرس كانوا يشكّلون عنصراً مهمّاً في الكوفة وكوّنوا بها جالية متميزة ، فكان أهل الكوفة يقولون : جئت مِن حمراء ديلم [2].

ويقول البلاذري : إن زيادا سير بعضهم إلى الشام وسير قوما منهم إلى البصرة [3] ، وقد شاركت هذه الجالية في كثير مِن الفتوحات الإسلاميّة ، كما شكّلت المدّ العالي للإطاحة بالحكم الأُموي.

الأنباط :

وكانت الأنباط مِن العناصر التي سكنت الكوفة ، وقد أثّروا في الحياة العامّة تأثيراً عقلياً واجتماعيا.

ويقول المؤرّخون : إن الأنباط ليسوا عنصراً خاصاً مِن البشر وإنّما هم مِن العرب ، وكانوا يستخدمون اللغة الدارمية في كتابتهم ، وكانوا يستوطنون بلاد العرب الصخرية وقد انتقلوا منها إلى العراق ، واشتغلوا بالزراعة ، وكانوا ينطقون بلغتهم الدارمية [4] ، وقد أثّروا تأثيراً بالغاً في حياة الكوفة.

يقول أبو عمرو بن العلاء لأهل الكوفة : لكم حذلقة النبط وصلفهم ، ولنا زهاء الفرس وأحلامهم [5].

ويروي الطبري أنّ رجلاً مِنْ بني عبس أسر رجلاً مِنْ أهل نهاوند اسمه دينار ، وكان يواصل العبسي ويهدي إليه ، وقد قدم

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٩ . ٢٠.

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري / ٥٥.

(٣) فتوح البلدان / ٢٧٩.

(٤) الحضارة الإسلاميّة / ٩٧.

(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٠٦.

الكوفة في أيّام معاوية فقام في الناس وقال لهم : يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أوّل مَنْ مررتم بنا كنتم خيار الناس ، فعمّرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثمّ تغيّرتم ، وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخبّ وغدر وضيق ، ولمْ يكن فيكم واحدة منهنّ فرافقتكم فإذا ذلك في مواليدكم ، فعلمت مِنْ أين أتيتم (١).

ويرى (دي بود) أنّ التغيّر الاجتماعي ، وتبدّل الأخلاق في الكوفة قد نشأ في وقت مبكّر أيّام معاوية بن أبي سفيان (٢) ، ومِن الطبيعي أنّ للأنباط ضلعاً كبيراً في هذا التغيير.

السريانيّة :

والعنصر الرابع الذي شارك في تكوين الكوفة هي السريانية ، فقد كانت منتشرة في العراق قبل الفتح الإسلامي ، وكان الكثيرون منهم مقيمين على حوض دجلة ، وبعضهم كان مقيماً في الحيرة والكوفة وقد ارتبطوا بأهل الكوفة وتأثّروا بعاداتهم وأخلاقهم ؛ فإنّ الحياة الاجتماعية ـ كما يقول علماء الاجتماع ـ حياة تأثير وتأثر ، فكلّ إنسان يتأثر ويؤثر فيمَنْ حوله.

هذه هي العناصر التي شاركت في استيطان الكوفة وبناء مجتمعها ، فهي لمْ تكن عربيةً خالصةً وإنّما امتزجت بها هذه العناصر ، وقد نشأت بينها المصاهرة ، فنشأ جيل مختلط مِنْ هذه العناصر ولكنْ التغلّب الجنسي كان للعرب ؛ باعتبارهم الأكثرية الساحقة في القطر ، فقد أصبحت التقاليد

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام / ١٥ ـ ١٨.

الدينية والعادات الاجتماعية خاضعة للعرب ، كما كانت لهم الكلمة العليا في البلاد. وبهذا ينتهي بنا الحديث عن عناصر السكّان في الكوفة.

الأديان :

ولمْ يكن المجتمع الكوفي يدين بدين واحد وإنّما كانت فيه أديان متعدّدة ، ولكلّ دينٍ الحرية في إقامة طقوسه الدينية ، وهذه بعضها :

١ . الإسلام :

وكان الإسلام دين الأكثرية الساحقة للعرب الذين استوطنوا الكوفة ، فإنّها إنّما أُنشأت لتكون حامية للجنود الإسلاميّة التي كانت تبعث بهم الدولة لحركات الفتوح وعمليات الجهاد ، ولكنّ الإسلام لمْ ينفذ إلى أعماق قلوب الكثيرين منهم ، وإنّما جرى على ألسنتهم طمعا بثمرات الفتوح التي أفاء الله بها على المجاهدين.

وقد أكّد علم الاجتماع أنّ التحوّل الاجتماعي لا يكون إلاّ بعد أجيال وأجيال ، وأنّ المجتمع يظلّ محافظاً على عاداته وتقاليده التي اكتسبها مِنْ آبائه ، ويؤيد ذلك ما مُنِيَ به مِن الحركات الفكرية التي تتنافى مع الإسلام ، والانقسامات الخطيرة بين صفوفه ، ونلمع إلى بعض تلك الانقسامات :

الخوارج :

واعتنق هذه الفكرة القرّاء وأصحاب الجباه السود حينما رفعت المصاحف في صفّين ، وقد رغمو الإمام لى ول لتحكيم عد ا نيِ

معاوية بالهزيمة الساحقة ، فاستجاب لهم الإمام على كره ، وقد حذّرهم مِنْ أنّها مكيدة وخديعة فلمْ يكن يجدي ذلك معهم وأصروا على فكرتهم.

ولما استبان لهم ضلال ما اقترفوه أقبلوا على الإمام وهم يقولون له : إنّا قد كفرنا وتبنا فاعلن توبتك ، وقرّ على نفسك بالكفر لنكون معك ، فأبى (عليه السّلام) فاعتزلوه ، واتّخذوا لهم شعاراً (لا حكم إلا لله) ، وانغمسوا في الباطل ، وماجوا في الضلال ؛ فحاربهم الإمام (عليه السّلام) وقضى على الكثيرين منهم ، إلاّ أنّ البقيّة الباقية منهم ظلّت تواصل نشر أفكارها بنشاط ، وقد لعبت دورا مهمّا في إفساد جيش الإمام الحسن (عليه السّلام) حتى اضطر إلى الصلح مع معاوية ، كما كان أكثر الجيش الذي زجّه ابن زياد لحرب الإمام الحُسين مِن الخوارج ، وكانوا موتورين مِن الإمام أمير المؤمنين (عليه السّلام) ، فرووا أحقادهم مِنْ أبنائه الطيّبين في كارثة كربلاء.

الحزب الأموي :

وهؤلاء يمثّلون وجوه الكوفة وزعماءها ، كقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ، ويزيد بن الحرث وشبث بن ربعي ، وعمرو بن حُريث وعمر بن سعد ، وكانوا يدينون بالولاء لبني أُميّة ، ويرون أنّهم أحقّ بالخلافة وأولى بزعامة الأُمّة مِنْ آل البيت (عليهم السّلام).

وقد لعبوا دوراً خطيراً في فشل ثورة مسلم ، كما زجّوا الناس لحرب الإمام الحُسين.

الشيعة :

وهي التي تدين بالولاء لأهل البيت (عليهم السّلام) ، وترى أنّه فرض ديني ، وقد أخلصت شيعة الكوفة في الولاء لهم ، أمّا مظاهر حبّهم فهي :

١ ـ الخطب الحماسية التي يُمجّدون فيها أهل البيت ويذكرون فضلهم ومآثرهم ، وما شاهدوه مِن صنوف العدل والحق في ظل حكومة الإمام أمير المؤمنين.

٢ ـ الدموع السخية التي يهريقونها حينما يذكرون آلام آل البيت (عليه السّلام) وما عانوه في عهد معاوية مِن التوهين والتنكيل ، ولكنّهم لمْ يبذلوا أيّ تضحية تذكر لعقيدتهم ، فقد كان تشيّعهم عاطفيّاً لا عقائديّاً ، وقد تخلّوا عن مسلم وتركوه فريسة بيد الطاغية ابن مرجانة.

ويروي البلاذري أنّهم كانوا في كربلاء ، وهم ينظرون إلى ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقد تناهبت جسمه الشريف السيوف والرماح فكانوا يبكون ، ويدعون الله قائلين : اللّهم انزل نصرك على ابن بنت نبيك. فانبرى إليهم أحدهم فأنكر عليهم ذلك الدعاء ، وقال لهم : هلا تهبّون إلى نصرته بدل هذا الدعاء ، وقد جرّدهم الإمام الحُسين (عليه السّلام) مِن إطار التشيّع وصاح بهم : «يا شيعة آل أبي سفيان ...».

والحق أن الشيعة بالمعنى الصحيح لمْ تكن إلاّ فئة نادرة في ذلك العصر ، وقد التحق بعضهم بالإمام الحُسين واستشهدوا معه ، كما زُجّ الكثيرون منهم في ظلمات السجون.

وعلى أيّ حالٍ ، فلمْ يكن المسلمون في الكوفة على رأي واحد وإنّما كانت هناك انقسامات خطيرة بين صفوفهم.

النصارى :

مِن العناصر التي سكنت الكوفة النصارى ، فقد أقبلوا إليها مِن الحيرة بعد زوال مجدها وقد أقاموا لهم في الكوفة عدّة كنائس ، فقد كانت لهم كنيسة في ظهر قبلة المسجد الأعظم [١] ، وكان لهم أسقفان ؛ أحدهما نسطوري والآخر يعقوبي [٢] ، وكانوا طائفتين :

١ . نصارى تغلب :

وقد استوطنوا الكوفة عند تخطيطها مع سعد ، وكانت لهذه الطائفة عزّة ومنعة [٣] ، وقد رفض أبناؤها دفع الجزية ممّا اضطر عمر أن يعاملهم معاملة المسلمين فجعل جزيتهم مثل صدقة المسلمين [٤].

٢ . نصارى نجران :

نزلوا الكوفة في خلافة عمر ، واستوطنوا في ناحية منها سمّيت محلّة (النجرانية) [٥].

وقد شاركت النصارى مشاركة إيجابية في كثير مِنْ أعمال الدولة ، فقد اتّخذ أبو موسى الأشعري أمير الكوفة كاتبا نصرانيا [٦] ، كما ولّى الوليد بن عقبة والي عثمان رجلاً مسيحياً لإدارة شؤون مسجد قريب مِن الكوفة [٧].

---

(١) فتوح البلدان / ٢٨٤.

(٢) خطط الكوفة / ٣٥.

(٣) تاريخ الطبري.

(٤) تاريخ الطبري.

(٥) حياة الشعر في الكوفة / ١٤٤.

(٦) عيون الأخبار ١ / ٤٣.

(٧) الأغاني ٤ / ١٨٤.

وقد شغل المسيحيون في الكوفة أعمال الصيرفة وكوّنوا أسواقا لها [١] ، وكانت الحركة المصرفية بأيديهم ، كما كانوا يقومون بعقد القروض لتسهيل التجارة ، وكانت تجارة التبادل والصيرفة بأيديهم [٢] ، وقد مهروا في الصيرفة ونظّموها على شكل يشبه البنوك في هذا العصر.

وكانت هذه البنوك الأهلية تستقرض منها الحكومة المحلّية الأموال إذا حدثت ثورة في القطر ، فكانت الأموال توزّع على أعضاء الثورة لإخمادها. وقد استقرض منها ابن زياد الأموال فوزّعها على وجوه الكوفة وأشرافها للقضاء على ثورة مسلم.

وعلى أيّ حالٍ ، فإنّ المجتمع الكوفي كان مزيجاً بين المسلمين والمسيحيين ، وكانت العلاقة بينهما وثيقة للغاية.

اليهود :

واستوطن اليهود الكوفة سنة (٢٠ هـ) [٣] ، وقد قدِمَ قسمٌ كبير منهم مِن الحجاز بعد أنْ أجلاهم منها عمر بن الخطاب [٤] ، وقد كانت لهم محلّة تُعرف باسمهم في الكوفة ، كما بنوا فيها معابد لهم. ويذكر الرحّالة (بنيامين)

---

(١) تاريخ الكوفة / ١٤٦ ، يبدأ سوق البنوك والصيرفة مِنْ مسجد سهيل إلى المسجد الأعظم ، كما نصّت على ذلك بعض المصادر.

(٢) خطط الكوفة / ١٤٦.

(٣) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمة / ١٠٣.

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة / ١٠٥.

إنّ بالكوفة سبعة آلاف يهودي ، وفيها قبر يسكنه اليهود وحوله كنيس لهم [1] ، وقد زاولوا بعض الحرف التي كان العرب يأنفون منها كالصياغة وغيرها ، وكانت اليهود تحقد على الرسول (صلّى الله عليه وآله) كأعظم ما يكون الحقد ؛ لأنّه أباد الكثيرين منهم وألحق بهم العار والهزيمة. وقد قاموا بدور فعّال . فيما يقول بعض المحققين . في مجزرة كربلاء تشفّيا مِن النّبي (صلّى الله عليه وآله) بأبنائه وذريته. وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض الأديان السائدة في الكوفة ، وقد اشترك معظمها في حركات الجهاد وعمليات الحروب في ذلك العصر.

تنظيم الجيش :

وأُنشأت الكوفة لتكون معسكرا للجيوش الإسلاميّة ، وقد نُظِّمَ الجيش فيها على أساس قبلي ، كما كانوا مرتّبين وفق قبائلهم ، وكانوا يقسّمون في معسكراتهم باعتبار القبائل والبطون التي ينتمون إليها ، وقد رتّبت كما يلي :

نظام الأسباع :

ووزّع الجيش توزيعا سباعيا يقوم قبل كل شيء على أساس قبلي ، بالرغم مِنْ أنّهم كانوا يُقاتلون في سبيل الله ، إلاّ أنّ الروح القبلية كانت سائدة ولمْ تضعف ، وفيما يلي أنظمتها :

السبع الأول : كنانة وحلفاؤها مِن الأحابيش وغيرهم ، وجديلة وكانوا أعواناً طيّعين للولاة القرشيين منذ إمارة سعد ، وتولّوا بإخلاص

---

(١) رحلة بنيامين ترجمة عزار حدّاد / ١٤٦.

عمّال بني أُميّة وولاتهم.

السبع الثاني : قضاعة وغسّان وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد.

السبع الثالث : مذحج وحِمْيَر وهمدان وحلفاؤهم ، وقد اتّسموا بالعداء لبني أُميّة ، والمساندة الكاملة للإمام علي وأبنائه (عليهم السّلام).

السبع الرابع : تميم وسائر الرباب وحلفاؤهم.

السبع الخامس : أسد وغطفان ، ومحارب وضبيعة ، وتغلب والنمر.

السبع السادس : إياد وعكّ وعبد القيس ، وأهل هجر والحمراء.

السبع السابع : طي [1].

وتحتوي هذه الأسباع على قطعات قبلية مِن الجيش ، وقد استعمل هذا النظام لأجل التعبئة العامّة للحروب التي جرت في ذلك العصر ، وتوزيع الغنائم عليها بعد العودة مِن الحرب ، وظلّت الكوفة على هذا التقسيم ، حتّى إذا كانت سنة (٥٠ هـ) عمد زياد بن أبيه حاكم العراق فغير ذلك المنهج وجعله رباعياً ، فكان على النحو التالي :

١ ـ أهل المدينة : وجعل عليهم عمرو بن حريث.

٢ ـ تميم وهمدان : وعليهم خالد بن عرفطة.

٣ ـ ربيعة بكر وكندة : وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس.

٤ ـ مذحج وأسد [2] : وعليهم أبو بردة بن أبي موسى.

وإنّما عمد إلى هذا التغيير ؛ لإخضاع الكوفة لنظام حكمه ، كما إنّ الذين انتخبهم لرئاسة الأنظمة قد عُرفوا بالولاء والإخلاص للدولة ، وقد استعان بهم ابن زياد لقمع ثورة مسلم ، كما تولى بعضهم قيادة الفرق التي

---

(١) حياة الشعر في الكوفة / ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) خطط الكوفة / ١٥ ـ ١٦.

زجّها الطاغية لحرب الإمام الحُسين ، فقد كان عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة من قادة ذلك الجيش. أمّا رؤوساء الأنظمة فقد كانت الدولة لا تنتخب إلا مَن ذوي المكانة الاجتماعية المعروفين بالنّجدة والبسالة والتجربة في الحرب [١].

ورؤوساء الأرباع يكونون خاضعين للسلطة الحكومية ، كما إنّ اتصال السلطة بالشعب يكون عن طريقهم ، ونظراً لأهميتهم البالغة في المصر ، فقد كتب إليهم الإمام الحُسين يدعوهم إلى نصرته والذب عنه [٢].

العرافة :

وكانت الدولة تعتمد على العرفاء [٣] ، فكانوا يقومون بأمور القبائل ويوزّعون عليهم العطاء ، كما كانوا يقومون بتنظيم السجّلات العامّة التي فيها أسماء الرجال والنساء والأطفال ، وتسجيل مَن يولد ليفرض له العطاء مِن الدولة وحذف العطاء لمن يموت [٤] ، كما كانوا مسؤولين عن شؤون الأمن والنظام ، وكانوا في أيّام الحرب يندبون الناس للقتال ، ويحثّونهم على

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٢٠٧.

(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٢٤٥.

(٣) العرفاء : جمع عريف ، وهو مَنْ يعرف أصحابه ، ومنه الحديث (فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم). والعريف : هو القائم بأمور القبيلة والجماعة مِن الناس يلي أُمورهم ، ويتعرّف الأمير منه أحوالهم. جاء ذلك في تاج العروس ١ / ١٩٤.

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة / ٥٣.

الحرب ، ويخبرون السلطة بأسماء الذين يتخلّفون عن القتال [١] ، وإذا قصّر العرفاء أو أهملوا واجباتهم فإنّ الحكومة تعاقبهم أقسى العقوبات وأشدّها [٢].

ومِن أهم الأسباب في تفرّق الناس عن مسلم هو قيام العرفاء في تخذيل الناس عن الثورة ، وإشاعة الإرهاب والأراجيف بين الناس [٣] ، كما كانوا السبب الفعّال في زجّ الناس وإخراجهم لحرب الإمام الحُسين (عليه السّلام) [٤].

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة ، وكان الإلمام بها مِنْ ضرورات البحث ؛ وذلك لما لها مِن الأثر في إخفاق الثورة.

الطاغية ابن مرجانة :

ولا بد لنا أنْ نتعرّف على قائد الانقلاب الطاغية ابن مرجانة فنقف على نشأته وصفاته ، ومخطّطاته الرهيبة التي أدّت إلى القضاء على الثورة ، وإلى القرّاء ذلك.

ولادته :

ولد الطاغية سنة (٣٩ هـ) ، وقد ولد لخلق الكوارث وإشاعة الخطوب في الأرض ، وعلى هذا فيكون عمره يوم قتله لريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) (٢١ سنة) ، ولمْ تعيّن المصادر التي بأيدينا المكان الذي ولد فيه.

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٢٢٦.

(٢) الأغاني ٢ / ١٧٩.

(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤.

(٤) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤.

أبواه :

أمّا أبوه فهو زياد بن سُميّة ، وهو مِنْ عناصر الشرّ والفساد في الأرض ، فقد سمل عيون الناس وصلبهم على جذوع النخل ، وقتل على الظنّة والتّهمة وأخذ البريء بذنب السقيم ، وأغرق العراق بالحزن والثكل والحداد.

وأمّا أُمّه مرجانة فكانت مجوسية [١] ، وقد عُرِفَتْ بالبغي ، وقد عرض بها عبيد الله التميمي أمام ابنها عبيد الله فقال : إن عمر بن الخطاب كان يقول : اللّهم إني أعوذ بك مِن الزانيات وأبناء الزانيات ، فالتاع ابن زياد وردّ عليه : إن عمر كان يقول : لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا [٢]. وفارق زياد مرجانة فتزوّج بها شيرويه [٣].

نشأته :

نشأ الطاغية في بيت الجريمة ، وقد قطع دور طفولته في بيت زوج أُمّه شيرويه ولمْ يكن مسلماً ، ولما ترعرع أخذه أبوه زياد وقد ربّاه على سفك الدماء والبطش بالناس وربّاه على الغدر والمكر ، وقد ورث جميع صفات أبيه الشريرة مِن الظلم والتلذّذ بالإساءة إلى الناس ، وقد كان لا يقلّ قسوة عن أبيه ، وقد قال الطاغية في بعض خطبه : أنا ابن زياد أشبهته مِنْ بين مَنْ وطأ الحصا ، ولمْ ينتزعني شبه

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤.

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٢.

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧٢.

خال ولا ابن عم [١]. لقد كان كأبيه في شدّته وصرامته في الباطل وتنكّره للحق.

صفاته :

أمّا صفاته النفسية فكان مِنْ أبرزها القسوة والتلذّذ بسفك الدماء ، وقد أخذ امرأة مِنْ الخوارج فقطع يديها ورجليها وأمر بعرضها في السوق [٢].

ووصفه الحسن البصري بأنّه غلام سفيه سفك الدماء سفكا شديدا [٣].

ويقول فيه مسلم بن عقيل : ويقتل النفس التي حرّم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظنّ ، وهو يلهو ويلعب كأنّه لمْ يصنع شيئاً.

وكان متكبّراً لا يسمع مِنْ أحد نصيحة ، وقد دخل عليه الصحابي عائذ بن عمرو فقال له : أيّ بُني ، إنّي سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : «إن شر الرعاء الحطمة [٤] ، فإيّاك أن تكون منهم».

فلذعه قوله وصاح به : اجلسْ ، إنّما أنت مِنْ نخالة أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله). فأنكر عليه عائذ وقال : وهل كان فيهم نخالة؟! إنّما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم [٥].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) قصص العرب ١ / ٢١٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٥٧.

(٤) الحطمة : القاسي الذي يظلم الناس.

(٥) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٥.

وعُرف في أثناء ولايته على البصرة بالغشّ للرعية والخديعة لها ، وقد نصحه معقل بن يسار أنْ يترك ذلك ، وقال له : إني سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : «ما مِن عبد يسترعيه الله ويموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنّة» (١).

هذه بعض نزعاته وصفاته النفسية ، أمّا صفاته الجسمية فقد كان منها ما يلي :

اللكنة :

ونشأ الطاغية في بيت أُمّه مرجانة ولمْ تكن عربية فأخذ لكنتها ، ولمْ يكن يفهم اللغة العربية ، فقد قال لجماعة : افتحوا سيوفكم ، وهو يريد سلّوا سيوفكم ، وإلى هذا يشير يزيد بن المفرغ في هجائه له :

ويوم فتحت سيفك مِن بعيد أضعت وكل أمرك للضياع

وجرت بينه وبين سويد مشادّة ، فقال له عبيد الله : اجلس على أست الأرض ، فسخر منه سويد وقال : ما كنت أحسب أن للأرض أستا (٢).

وكان لا ينطق بالحاء ، وقد قال لهانئ : أهروري سائر اليوم! يريد أحروري. وكان يقلب العين همزة ، كما كان يقلب القاف كافاً ، فقد قال يوماً : مَنْ كاتلنا كاتلناه ، يريد مَنْ قاتلنا قاتلناه (٣).

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٦٧.

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٣.

(٣) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤.

نهمة في الطعام :

ويقول المؤرّخون : إنّه كان نهماً في الطعام ، فكان كلّ يوم يأكل خمس أكلات آخرها جنبة بغل ، ويوضع بين يديه بعد ما يفرغ عناق [١] أو جدي فيأتي عليه وحده [٢].

وكذلك كان مسرفاً في النساء ، فقد بنى ليلة قدومه إلى الكوفة بأُمّ نافع بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط [٣]. هذه بعض صفاته الجسمية.

ولايته على البصرة :

وأسند إليه معاوية إمارة البصرة وولاّه أمور المسلمين ، وكان في ميعة الشباب وغروره وطيشه ، وقد ساس البصرة كما ساسها أبوه ؛ فكان يقتل على الظنّة والتّهمة ، ويأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر.

وقد وثق به معاوية وارتضى سيرته ، وكتب إليه بولاية الكوفة إلاّ أنّه هلك قبل إنْ يبعث إليه بهذا العهد.

---

(١) العناق : الأُنثى من أولاد المعز.

(٢) نهاية الإرب ٣ / ٣٤٣.

(٣) مرآة الزمان / ٢٨٥.

أحقاد يزيد على ابن مرجانة :

وكان يزيد ناقما على ابن مرجانة كأشد ما يكون الانتقام ؛ لأُمور كان مِن أهمّها :

إنّ أباه زياداً كان مِن المنكرين على معاوية ولايته ليزيد ؛ لاستهتاره وإقباله على اللّهو والمجون ، وقد أراد يزيد أنْ يعزل عبيد الله مِن البصرة ويجرّده مِن جميع الامتيازات ، إلاّ أنّه لما أعلن الإمام الحُسين (عليه السّلام) الثورة وبعث سفيره مسلماً لأخذ البيعة مِنْ أهل الكوفة ، أشار عليه سرجون بأنْ يقرّه على ولاية البصرة ويضمّ إليه الكوفة ، ويندبه للقضاء على الثورة فاستجاب له يزيد.

وقد خلص العراق بأسره لحكم ابن زياد فقبض عليه بيد مِنْ حديد ، واندفع كالمسعور للقضاء على الثورة ؛ ليحرز بذلك ثقة يزيد به وينال إخلاص البيت الأُموي له.

مخطّطات الانقلاب :

وبالرغم مِن حداثة سن ابن زياد فإنّه كان مِن أمهر السياسيين في الانقلابات ، وأكثرهم تغلّباً على الأحداث ، وقد استطاع بغدره ومكره أنْ يسيطر على حامية الكوفة ، ويقضي على جذور الثورة ويخمد نارها.

وقد كانت أهم مخطّطاته ما يلي :

١ ـ التجسّس على مسلم والوقوف على جميع شؤون الثورة.

٢ ـ نشر أوبئة الخوف : وقد أثار جوّ مِن الفزع والإرهاب لمْ تشهد له الكوفة نظيراً ، وانشغل الناس بنفوسهم عن التدخّل في أي شأن مِن الشؤون السياسية.

٣ ـ بذل المال للوجوه والأشراف : وقد صاروا عملاء عنده يوجههم

حيثما شاء ؛ وقد أفسدوا عشائرهم وألحقوا الهزيمة بجيش مسلم.

٤ ـ الاحتيال على هانئ بإلقاء القبض عليه : وهو أمنع شخصية في المصر ، وقد قضى بذلك على أهم العناصر الفعّالة في الثورة.

هذه بعض المخطّطات الرهيبة التي استطاع أنْ يسيطر بها الطاغية على الموقف ، ويقضي على الثورة ويزج حامية الكوفة إلى حرب ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله).

مسلم بن عقيل :

أمّا مسلم بن عقيل فكان مِنْ أعلام التقوى في الإسلام ، وكان متحرّجاً في دينه كأشدّ ما يكون التحرّج ، فلمْ يسلك أيّ منعطف في طريقه ، ولا يقرّ أيّ وسيلة مِنْ وسائل المكر والخداع ، وإنّ توقّف عليها النصر السياسي ، شأنه في ذلك شأن عمّه أمير المؤمنين (عليه السّلام).

بالإضافة إلى ذلك : إنّه لم يُبعث إلى الكوفة كوال مطلق حتى يتصرّ ّ حسبما يراه ؛ وإنّما كانت مهمّته محدودة وهي أخذ البيعة للإمام ، والاستطلاع على حقيقة الكوفيين. فإن رآهم مجتمعين بعث إلى الإمام الحُسين بالقدوم إليهم ، ولمْ يؤمر بغير ذلك ، وقد أطلنا الحديث في هذه الجهة في البحوث السابقة.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن إخفاق ثورة مسلم التي كانت فاتحة لفاجعة كربلاء ومصدراً لآلامها العميقة ، كما ينتهي بنا الحديث عن الحلقة الثانية مِن هذا الكتاب.

محتويات الكتاب

البسملة مع آي من الذكر الحكيم ١
المقدّمة ٧
مع القاسطين والناكثين
الناكثون ، دوافع التمرّد ٢٤
خديعة معاوية للزبير ٢٦
مؤتمر مكة ٢٦
قرارات المؤتمر ٢٧
تجهيز الجيش بالأموال المنهوبة ٢٧
الخطاب السّياسي لعائشة ٢٨
عائشة مع أُمّ سلمة ٢٩
الزحف إلى البصرة ٣١
عسكر ٣١
الحوأب ٣٢
في ربوع البصرة ٣٣
النزاع على الصلاة ٣٨
رُسل الإمام (عليه السّلام) إلى الكوفة ٣٨
التقاء الجيشين ، رُسل السّلام ٤٠
الدعوة إلى القرآن ٤١
الحرب العامة ٤٢
مصرع الزبير ٤٣
مصرع طلحة ٤٦

قيادة عائشة للجيش ٤٦
عقر الجمل ٤٧
العفو العام ٤٨
متارك الحرب ٥٠
القاسطون ٥١
إيفاد جرير ، معاوية مع ابن العاص ٥٣
ردُّ جرير ٥٦
قميص عثمان ٥٦
زحف معاوية لصفّين ، زحف الإمام (عليه السّلام) للحرب ٥٧
احتلال الفرات ٥٨
رسل السلام ٥٩
الحرب ٦٠
منع الحسنين (عليهما السّلام) من الحرب ٦١
مصرع عمّار ٦٢
مكيدة ابن العاص ٦٥
التحكيم ٧٠
وثيقة التحكيم ٧١
رجوع الإمام (عليه السّلام) للكوفة ٧٢
مع المارقين ٧٣
اجتماع الحكمين ٧٥
تمرّد المارقين ٨١
قتال المارقين ٨٣

مخلّفات الحرب : ٨٥

انتصار معاوية ، تفلّل جيش الإمام (عليه السّلام) ، احتلال مصر ، الغارات ، الغارة على العراق (١) عين التّمر (٢) هيت (٣) واقصة ، الغارة على الحجاز واليمن

عبث الخوارج ٩٥

دعاء الإمام (عليه السّلام) على نفسه ٩٦

أُفول دولة الحق

مؤتمر مكة ١٠٣

رأي رخيص ١٠٣

اشتراك الأُمويّين في المؤامرة ١٠٤

اغتيال الإمام (عليه السّلام) ١٠٦

الى رفيق الاعلى ١٠٩

متارك حكومة الإمام (عليه السّلام) ١٠٩

خلافة الحسن (عليه السّلام) ١١١

(١) الاعتداء على الإمام (عليه السّلام) (٢) الحكم عليه بالكفر (٣) الخيانة العظمى (٤) نهب أمتعة الإمام (عليه السّلام)

الصلح ١١٤

موقف الإمام الحسين (عليه السّلام) ١١٥

عدي بن حاتم مع الحسين (عليه السّلام) ١١٦

تحوّ الخلافة ١١٦
حكومة معاوية
سياسته الاقتصادية ١٢٢
الحرمان الاقتصادي ١٢٣
(١) يثرب (٢) العراق (٣) مصر
الرفاه على الشام ، استخدام المال في تدعيم ملكه ١٢٦
المنح الهائلة لأسرته ، منح خراج مصر لعمرو ١٢٧
هبات الأموال للمؤيّدين ، شراء الأديان ١٢٨
عجز الخزينة المركزيّة ١٢٩
مصادرة أموال المواطنين ١٣٠
ضريبة النيروز ، نهب الولاة والعمال ١٣١
جباية الخراج ، اصطفاء الذهب والفضة ١٣٢
شل الحركة الاقتصادية ١٣٣
حجّة معاوية ١٣٤
سياسة التفريق ١٣٤
اضطهاد الموالي ١٣٥
العصبيّة القبلية ١٣٧
سياسة البطش والجبروت ١٣٨
احتقار الفقراء ١٤٠
سياسة الخداع ١٤١
إشاعة الانتهازيّة ١٤٣

الخلاعة والمجون ١٤٤
إشاعة المجون في الحرمين١٤٧
الاستخفاف بالقيم الدينيّة ١٤٨
استلحاق زياد ١٤٩
إنكار الإمام الحُسين (عليه السّلام) ١٥٠
الحقد على النّبي (صلّى الله عليه وآله) ١٥٠
تغيير الواقع الإسلامي ١٥٣
مع أهل البيت (عليهم السّلام) ١٥٤
(١) تسخير الوعّاظ (٢) استخدام معاهد التعليم (٣) افتعال الأخبار
حديث مفتعل على الحُسين (عليه السّلام) ١٥٨
سب الإمام أمير المؤمنين ١٦٠
ستر فضائل أهل البيت ١٦٢
التحرج من ذكر الإمام ١٦٤
مع الشيعة ١٦٦
القتل الجماعي ، إبادة القوى الواعية ١٦٧
(١) حجر بن عدي ، مذكرة الإمام الحسين (٢) رشيد الهجري (٣) عمرو بن الحمق الخزاعي ، مذكّرة الإمام الحُسين (٤) أوفى بن حصن (٥) الحضرمي مع جماعته ، إنكار الإمام الحُسين (٦) جويرية العبدي (٧) صيفي بن فسيل (٨) عبد الرحمن

المروّعون مِن أعلام الشيعة ١٧٦
(١) عبد الله بن هاشم المرقال (٢) عديّ بن حاتم الطائي (٣) صعصعة بن صوحان (٤) عبد الله بن خليفة الطائي
ترويع النّساء ١٧٦
هدم دور الشيعة ، حرمان الشيعة مِن العطاء ١٧٧
عدم قبول شهادة الشيعة ، إبعاد الشيعة إلى الخراسان ١٧٨
البيعة ليزيد ١٧٨
ولادة يزيد ١٧٩
نشأته ، صفاته ١٨٠
ولَعه بالصيد ١٨١
شغفه بالقرود ١٨٢
إدمانه على الخمر ١٨٣
ندماؤه ١٨٤
نصيحة معاوية ليزيد ، دفاع محمّد عزّة دروزة ١٨٥
إقرار معاوية لاستهتار يزيد ١٨٦
حقد يزيد على النبي ١٨٧
بغضه للأنصار ١٨٨
دعوة المغيرة لبيعة يزيد ١٩٠
تبرير معاوية ١٩٢
المبررون له (١) أحمد دحلان (٢) الدكتور عبد المنعم (٣) حسين محمّد يوسف

كلمة الحسن البصري ١٩٥

كلمة ابن رشد ١٩٦

دوافع معاوية ١٩٦

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة ١٩٧

استخدام الشعراء ، بذل الأموال للوجوه ، مراسلة الولاة

وفود الأقطار الإسلاميّة ٢٠٠

مؤتمر الوفود الإسلاميّة ، المؤيّدون للبيعة ٢٠١

خطاب الأحنف بن قيس ٢٠٢

فشل المؤتمر ٢٠٣

سفر معاوية ليثرب ٢٠٣

اجتماع مغلق ، كلمة معاوية ٢٠٤

كلمة عبد الله بن عباس ، كلمة عبد الله بن جعفر ٢٠٥

كلمة عبد الله بن الزبير ٢٠٦

كلمة عبد الله بن عمر ، كلمة معاوية ٢٠٧

فزع المسلمين من البيعة ليزيد ٢٠٨

الجبهة المعارضة ٢٠٩

(١) الإمام الحسين (عليه السّلام) ، الحرمان الاقتصادي للهاشميين (٢) عبد الرحمن بن أبي بكر (٣) عبد الله بن الزبير (٤) المنذر بن الزبير (٥) عبد الرحمن بن سعيد (٦) عابس بن سعيد (٧) عبد الله بن حنظلة

موقف الأُسرة الأُمويّة ٢١٢
(١) سعيد بن عثمان (٢) مروان بن الحكم (٣) زياد بن أبيه
إيقاع الخلاف بين الأُمويِّين ٢١٤
تجميد البيعة ٢١٥
اغتيال الشخصيات الإسلاميّة ٢١٥
(١) سعد بن أبي وقاص (٢) عبد الرحمن بن خالد (٣) عبد الرحمن بن أبي بكر (٤) الإمام الحسن (عليه السّلام)
إعلان البيعة رسميّا ، مع المعارضين في يثرب ٢١٨
خطاب الإمام الحُسين (عليه السّلام) ٢١٩
إرغام المعارضين ٢٢١
موقف الإمام الحُسين (عليه السّلام) ٢٢٢
وفود الأقطار الإسلاميّة ٢٢٢
مذكّرة مروان لمعاوية ، جواب معاوية ٢٢٣
رأي مروان في إبعاد الإمام (عليه السّلام) ٢٢٣
رسالة معاوية للحُسين (عليه السّلام) ٢٢٤
جواب الإمام (عليه السّلام) ٢٢٥
صدى الرسالة ، المؤتمر السياسي العام ٢٢٨
رسالة جعدة للإمام (عليه السّلام) ٢٢٩
جواب الإمام (عليه السّلام) ٢٣٠
نصيحة الخدري للإمام (عليه السّلام) ٢٣١
استيلاء الحُسين (عليه السّلام) على أموال للدولة ٢٣١

حديث موضوع ٢٣٣
الحُسين مع بني أُميّة ٢٣٤
مرض معاوية ، وصاياه ٢٣٦
موت معاوية ٢٣٩
حكومة يزيد
خطاب العرش ٢٤٤
خطابُه في أهل الشام ٢٤٥
مع المعارضة في يثرب ٢٤٥
الأوامر المشدّدة إلى الوليد ٢٤٦
فزع الوليد ٢٤٩
استشارته لمروان ، رأي مروان ٢٥٠
أضواء على موقف مروان ٢٥١
استدعاء الحُسين (عليه السّلام) ٢٥٣
الحسين (عليه السّلام) مع مروان ٢٥٦
اتصال الوليد بدمشق ٢٥٨
الأوامر المشدّدة مِن دمشق ، رفض الوليد ٢٥٨
وداع الحُسين (عليه السّلام) لقبر جدّه (صلّى الله عليه وآله) ، رؤيا الحُسين (عليه السّلام) لجدّه (صلّى الله عليه وآله) ٢٥٩
وداعه لقبر أُمّه وأخيه (عليهما السّلام) ، فزع الهاشميّات ٢٦١
مع أخيه ابن الحنفيّة ٢٦٢
وصيته لابن الحنفيّة ٢٦٤

الثورة الحسينيّة أسبابها ومخططاتها
أسباب الثورة ٢٧٠
١ . المسؤولية الدينيّة ٢٧٠
٢ . المسؤولية الاجتماعيّة ٢٧٤
٣ . إقامة الحجّة عليه ٢٧٥
٤ . حماية الإسلام ٢٧٥
٥ . صيانة الخلافة ٢٧٦
٦ . تحرير إرادة الأُمّة ٢٧٨
٧ . تحرير اقتصاد الأُمّة ٢٧٨
٨ . المظالم الاجتماعية ٢٨٠
٩ . المظالم الهائلة على الشيعة ٢٨١
١٠ . محو ذكر أهل البيت (عليهم السّلام) ٢٨٢
١١ . تدمير القِيَم الإسلاميّة ٢٨٢
١٢ . انهيار المجتمع ٢٨٤
(١) نقض العهود (٢) عدم التحرّج مِن الكذب (٣) عرض الضمائر للبيع (٤) الإقبال على اللّهو
١٣ . الدفاع عن حقوقه وهي ٢٨٦
(١) الخلافة (٢) الخُمس
١٤ . الأمر بالمعروف ٢٨٨
١٥ . إماتة البدع ٢٨٩

١٦ ـ العهد النّبوي ٢٩٠
١٧ ـ العزة والكرامة ٢٩٠
١٨ ـ غدر الأُمويِّين وفتكهم ٢٩١
رأي رخيص ٢٩٢
تخطيط الثورة ٢٩٤
١ ـ التضحية بنفسه ٢٩٥
٢ ـ التضحية بأهل بيته (عليهم السّلام) ٢٩٦
٣ ـ التضحية بأمواله : ٢٩٧
٤ ـ حمل عقائل النّبوة ، آراء العلماء والكتاب ٢٩٧
(١) الإمام كاشف الغطاء (٢) أحمد فهمي (٣) أحمد محمود صبحي
في مكّة
مع عبد الله بن مطيع ٣٠٦
في مكّة ، احتفاء الحِجّاج والمعتمرين به ٣٠٨
فزع ابن الزّبير ٣٠٩
رأي الغزالي ٣١١
رأي رخيص ٣١٢
فزع السلطة المحلّية ٣١٢
قلق يزيد ، رسالة يزيد لابن عباس ٣١٣
جواب ابن عباس ٣١٤
إقصاء حاكم المدينة ٣١٥

الحُسين مع ابن عمر وابن عباس ٣١٧
وصيته لابن عباس ٣٢١
رسائله إلى زعماء البصرة ٣٢١
جواب الأحنف بن قيس ٣٢٣
جريمة المنذر ٣٢٣
استجابة يزيد بن مسعود ٣٢٤
جوابه للإمام (عليه السّلام) ٣٢٧
استجابة يزيد البصري ٣٢٨
نقمة العراق على الأُمويّين ٣٢٨
إعلان التمرّد في العراق ٣٣٠
المؤتمر العام ٣٣١
خطبة سليمان ٣٣١
وفد الكوفة ، الرسائل ٣٣٢
إيفاد مسلم إلى العراق
تزويد مسلم برسالة لأهل الكوفة ٣٤٢
رسالة مسلم للحُسين (عليهما السّلام) ، جواب الحُسين (عليه السّلام) ٣٤٢
أضواء على الموضوع ٣٤٣
في بيت المختار ٣٤٤
ابتهاج الكوفة ، البيعة للحُسين (عليه السّلام) ٣٤٥
كلمة عابس الشاكري ٣٤٦
عدد المبايعين ٣٤٧
رسالة مسلم للحُسين ٣٤٨

موقف النعمان بن بشير ٣٤٩
خطبة النعمان ٣٥٠
سخط الحزب الأُموي ، اتصال الحزب الأُموي بدمشق ٣٥١
فزع يزيد ٣٥٢
استشارته لسرجون ٣٥٣
ولاية ابن زياد على الكوفة ٣٥٤
خطبة ابن زياد في البصرة ٣٥٥
سفر الطاغية إلى الكوفة ٣٥٦
في قصر الإمارة ٣٥٧
خطابه في الكوفة ٣٥٩
نشر الإرهاب ٣٦٠
تحوّل مسلم إلى دار هانئ ٣٦١
امتناع مسلم من اغتيال ابن زياد ٣٦٢
أضواء على الموقف ٣٦٥
المخططات الرهيبة ٣٦٨
(١) التجسس على مسلم ٣٦٨
(٢) رشوة الزعماء والوجوه ٣٧٠
الإحجام عن كبس دار هانئ ٣٧١
رسل الغدر ٣٧١
اعتقال هانئ ٣٧٢
انتفاضة مذحج ٣٧٦
ثورة مسلم ٣٨٠

حرب الأعصاب ٣٨٢

أوبئة الفزع والخوف ٣٨٤

هزيمة الجيش ٣٨٥

في ضيافة طوعة ٣٨٦

تأكّد الطاغية مِن فشل الثورة ، إعلان حالة الطوارئ ٣٨٩

راية الأمان ٣٩٠

اشتباه ٣٩٠

خطبة ابن زياد ٣٩١

الإفشاء بمسلم ٣٩٢

الهجوم على مسلم ٣٩٣

فشل الجيوش ٣٩٤

أمان ابن الأشعث ٣٩٧

أسره ٣٩٨

مع عبيد الله السلمي ٣٩٩

مع الباهلي ٤٠٠

مع ابن زياد ٤٠١

وصيّة مسلم ٤٠٤

الطاغية مع مسلم ٤٠٦

إلى الرفيق الأعلى ٤٠٧

سلبه ٤٠٨

تنفيذ الإعدام في هانئ ٤٠٩

السحل في الشوارع ، صلب الجثّتين ٤١١

الرؤوس إلى دمشق ٤١٢
جواب يزيد ٤١٣
إعلان الأحكام العرفية ، احتلال الحدود العراقية ٤١٥
الاعتقالات الواسعة ٤١٦
إخفاق الثورة
المجتمع الكوفي ٤١٩
الظواهر الاجتماعية ٤٢٠
التناقض في السلوك ٤٢٠
الغدر والتذبذب : ٤٢١
التمرّد على الولاة ٤٢٥
الانهزاميّة ٤٢٦
مساوئ الأخلاق ٤٢٧
الجشع والطمع ٤٢٨
التأثّر بالدعايات ٤٢٩
الحياة الاقتصاديّة ٤٣٠
عناصر السكّان ٤٣٢
العرب ، القبائل اليمنيّة ٤٣٣
القبائل العدنانيّة ، قبائل بني بكر ٤٣٤
الروح القبليّة ٤٣٥
الفرس ٤٣٧
الأنباط ٤٣٨

السريانيّة ٤٣٩
الأديان ، الإسلام ٤٤٠
الخوارج ، الحزب الأُموي ، الشيعة
النصارى ٤٤٣
(١) نصارى تغلب (٢) نصارى نجران
اليهود ٤٤٤
تنظيم الجيش ، نظام الأسباع ٤٤٥
العرافة ٤٤٧
الطاغية ابن مرجانة ، ولادته ٤٤٨
أبواه ، نشأته ٤٤٩
صفاته ٤٥٠
اللكنة ٤٥١
نهمة في الطعام ٤٥٢
ولايته على البصرة ٤٥٢
أحقاد يزيد على ابن مرجانة ٤٥٣
مخطّطات الانقلاب ٤٥٣
مسلم بن عقيل ٤٥٤
محتويات الكتاب ٤٥٥